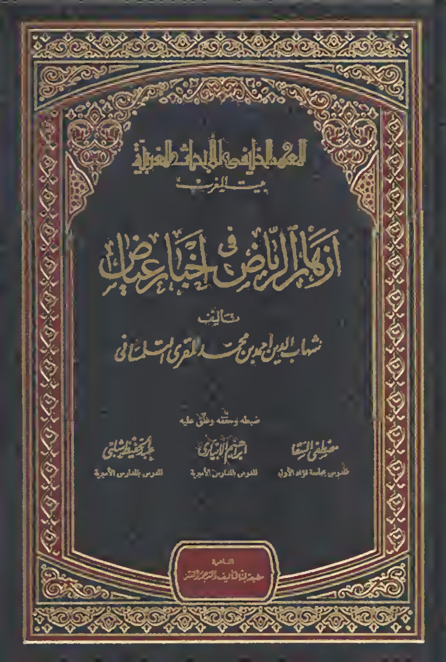
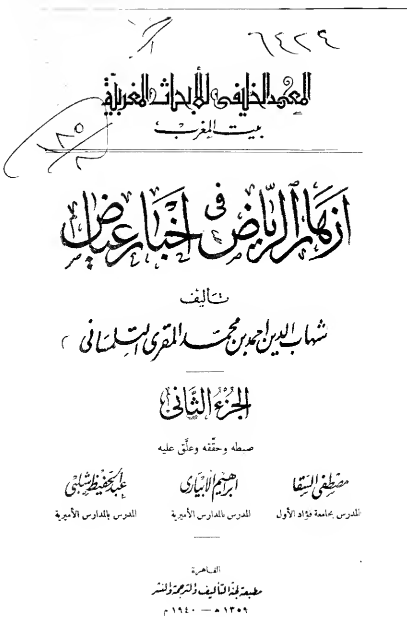


المعهد الخليفي للأبحاث المغربية
بيت المغرب
أزهار الرياض في أخبار عياض
تأليف
شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني
ضبطه وحققه وعلق عليه
مصطفى السقا
المدرس بجامعة فؤاد الأول
إبراهيم الأبياري
المدرس بالمدارس الأميرية
عبد الحفيظ شلبي
المدرس بالمدارس الأميرية
القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر



المعهد الخليفي للأبحاث المغربية
بيت المغرب

أزهار الرياض في أخبار عياض

تأليف
شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني

الجزء الثاني

ضبطه وحققه وعلق عليه

مصطفى السقا
المدرس بجامعة فؤاد الأول

إبراهيم الإبياري
المدرس بالمدارس الأميرية

عبد الحفيظ شلبي
المدرس بالمدارس الأميرية

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٥٩ هـ — ١٩٤٠ م



الأصول المعتمدة لأزهار الرياض

ذكرنا فى مقدمة الجزء الأول من أزهار الرياض بعض الأصول التى اعتمدنا عليها فى تحقيق الكتاب ، ونذكرها فى مفتتح هـذا الجزء تذكيراً للقراء مع ما وقع إلينا من أصول جديدة ؛ وقد استعملنا فى الدلالة على هذه الأصول الحروف الآتية :

(ط)

للدلالة على النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية (برقم ٢٠١٣ تاريخ) . وقد وصفناها فى مقدمة الجزء الأول من هذه الطبعة .

(ت)

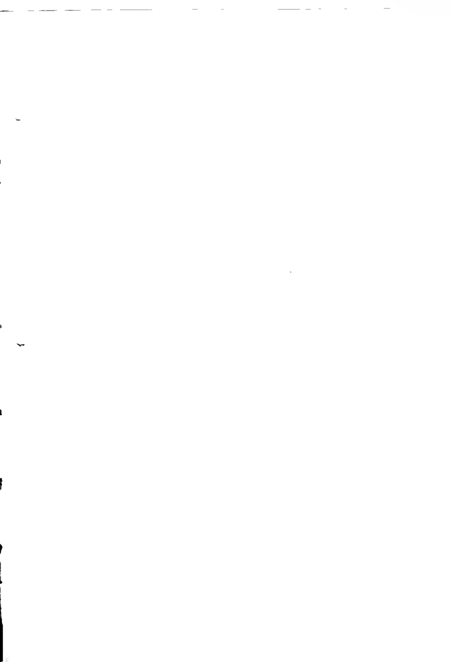
للدلالة على القطعة المطبوعة من هذا الكتاب فى تونس سنة ١٣٢٢ هجرية ، وقد انتهت بانتهاء ترجمة لسان الدين بن الخطيب ، حيث انتهى الجزء الأول من طبعتنا هذه .

(م)

للدلالة على النسخة المخطوطة المحفوظة بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية (برقم ٧٩٤ تاريخ) ، وقد وصفناها فى مقدمة الجزء الأول .

(ص)

للدلالة على نسخة عثرنا عليها بعد الفراغ من طبع الجزء الأول ، وهى بخط مغربى واضح ، فى ٥٩٣ صفحة من القطع الكبير ، وبها عدة سقطات ، ونرجح أنها كتبت قبل سنة ١١٤١ لوجود هذا التاريخ على آخر صفحة منها بخط بعض مالكيها .



بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الثانى

من كتاب

أزهار الرياض، فى أخبار عياض

[القاضى النباهى]

التعريف به

أما القاضى النّباهى فهو علىُّ بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن الحسن[1] الجُذامى المالَقى النّباهى ، أبو الحسن الشهير بابن الحسن ، قاضى الجماعة بغَرناطة ، الإمام العالم العلّامة . كان رحمه الله من أكابر المشهورين بها ، ممن له الفصاحة والبلاغة والجلالة ، إلى الاتصاف بالعلم والمعرفة ، والتفنّن فى العلوم مَعقولها ومنقولها .

ذكره ابن الخطيب فى الإحاطة وأثنى عليه ، وذكر أن ولادته عام ثلاثةَ عَشَرَ وسبع مئة ، على ما ذكره بعضُهم ، وتأخرت وفاتُه عن ابن الخطيب ، بحيث إنه كان حيًّا عام اثنين وتسعين وسبع مئة .

من كلام لابن الخطيب عنه

وقال ابن الخطيب فى ترجمة السلطان ابن الأحمر ما نصه[2] :

ثم قدّم للقضاء الفقيهَ الحسيبَ أبا الحسن ، وهو عين الأعيان بمالَقة ، المخصوصُ [٢٢٣] برسم التجلّة ، والقيام بالعَقد والحل ، فسدّد وقارَب ، وحمل الكَلّ ، وأحسن

---

(١) فى نفح الطيب طبعة الأزهرية والمخطوطتين المحفوظتين بدار الكتب المصرية (برقمى ٣٥٩ و ٣٦٠ تاريخ) : « على بن عبد الله بن محمد بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن الحسن »

(٢) انظر كتاب الإحاطة (ج ٢ صفحة ١٩ ، ٢٠ طبعة الموسوعات سنة ١٣١٩) .

مصاحبة الخُطبة والخُطة[١] ، وأكرم المَشيخة ، مع النزاهة . ولم يقف فى حسن التأتى عند[٢] غاية ؛ فاتَّفق على رجاحته ، ولم يقف فى النصح عند غاية ؛ أعانه الله . انتهى ملخصا .

وكم بين ما قال فيه هنا وبين ما فى « الكتيبة الكامنة » من تلقيبه بجُمْسُوس[٣] ، ووَصْمه بما لا يليق سماعه . وعلى كل حال فقد انتصف كل واحد منهما من صاحبه بلسانه ، وعفو الله وراء الجميع .

من كلام للسراج عنه

وقال فى حقه الشيخ أبو زكرياء يحيى السّراج فى فهْرسته :

الشيخ الفقيه الراوية ، قاضى الجماعة بالأندلس وخطيبها ، أبو الحسن ؛ أخذ عن أبى محمد عبد الله بن أحمد التُّجيبى المُوَطَّأَ والشفاء وأكثرَ الصحيحَيْن ؛ وعن الخطيب أبى جعفر الطَّنجالى ، والقاضى العارف أبى القاسم بن سعيد الحُميدى ، والوزير أبى بكر بن الحكيم ، والقاضى أبى جعفر أحمد بن عبد الحق ، والحاجّ الراوية أبى القاسم بن المهى[٤] ؛ وقرأ على الفقيه الحاج أبى القاسم بن أحمد[٥] بن محمد بن عمران الحَضْرمى بعضَ مختصر ابن الحاجب ، والتسهيلَ البديع فى اختصار التفريع ؛ والحاج أبى عبد الله محمد بن على السَّكونى ، والخطيب أبى عبد الله الساحلى ، والقاضى أبى الحجاج المُنْتَشافرى . قَدِم رسولاً لفاس عام سبعة وستين ، ثم عام ثمانية وثمانين . انتهى .

---

(١) يريد أنه تولى الخطابة وخطة القضاء ، وأحسن العمل فيهما .
(٢) كذا فى الإحاطة . وفى الأصول « على » . وهو تحريف .
(٣) الجمسوس (كعصفور) : اللئيم الخلقة والخلق ؛ ويقال : اللئيم القبيح ؛ ويقال : رجل جمسوس ، إذا كان قصيرا دميا . (عن لسان العرب) .
(٤) ورد هذا الاسم مضطربا فى الأصول وتقع الطبب بين « المهى » و « الهبا » و « البنا » . وقد أورد لسان الدين بن الخطيب فى جملة مشيخته ذكر الحاج أبى القاسم ابن المهى المالق ، فلعله المراد هنا .
(٥) فى (س) : « أبى القاسم بن محمد بن أحمد ... الخ » .

قلت : تقدم من كلام ابن خلدون أنه جاء رسولا فى شأن ابن الخطيب [1] ، وذلك خلاف هذين التاريخين معاً ، فتأمله .

من تآليفه

وله رحمه الله بحث فى مسألة الدعاء بعد الصــلاة ، رام فيه الرد على الشيخ الإمام أبى إسحاق الشاطبى ، حسبما نقله صاحب المِعْيار . ومن تآليفه رحمه الله : « كتاب المرقبة [2] العُليا ، فى مسائل القضا والفُتيا » فى جزأين ، وهو كتاب ممتع إلى الغاية ، وقفت على الجزء الأول منه ، وقد ذكر فى أثنائه أخبارَ سلفه رحمه الله ، ولم أقف من أمره على غير ما ذكرته فى هذا الموضوع . وقد قدَّمنا أنه كان مع السلطان أبى عبد الله بن الأحمر المخلوع حين رجع إلى طلب ملكه من المغرب ؛ ورأيت لبعض المتأخرين وصفَه بالقاضى الأجل ذى الوزارتين . والله أعلم . [٢٣٤]

[ابن زمرك]

نســبه

وأما ابن زَمرك فهو محمــد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الصّريحى ، أبو عبــد الله ، ويعرف بابن زَمرك . هكذا ذكر غير واحد من المحققين ، وسيأتى فى كلام ابن الأحمر حذف « محمد » فيما بين « أحمد » و « يوسف » ، ولعله من باب النسبة إلى الجد ، والله أعلم .

بعض ما كتبه ابن الخطيب عنه فى الإحاطة

قال ابن الخطيب فى الإحاطة [3] : وُلد هذا الفاضل بقَرناطه ، ونشأ بها ،

(١) قدم لسان الدين بن الخطيب على السلطان عبد العزيز سنة ٧٧٣ ، وتوفى السلطان عبد العزيز سنة ٧٧٤ فيكون قدوم القاضى النباهى على السلطان عبد العزيز فى شأن ابن الخطيب فيما بين سنتى ٧٧٣ و ٧٧٤ (انظر أزهار الرياض ج ١ ص ٢١١ والاستقصا للسلاوى ص ١٣٢ ج ٢) .

(٢) كذا فى الأصول . وفى بعض الفهارس : « المرتبة » .

(٣) ترجمة ابن زمرك فى الإحاطة فى الصفحات (٢٢١ — ٢٤٠) من الجزء الثانى . وقد عارضنا ما نقله المقرى هنا على ترجمة الإحاطة ، فوجدناه قد تصرف فى النقل بعض التصرف .

وهو من مفاخرها ، وكان صدراً من صدور طلبة الأندلس ، وأفراد نُجبائها ، مختصًا مقبولا ، هَشًّا خَلوبا ، عذبَ الفكاهة ، حُلو المجالسة ، حسن التوقيع ، خفيف الروح ، عظيمَ الانطباع ، شَرِه المذاكرة ، فطناً بالمعاريض ، حاضرَ الجواب ، شُعْلة من شعل الذكاء ، تكاد تحتدم جوانبه ، كثير الرقة ، فكهاً غَزِلا ، مع حياء وحشمة ، جواداً بما فى يده ، مشاركا لإخوانه ؛ نشأ عَفًّا طاهرا ، كلفاً بالقراءة ، عظيم الدُءوب ، ثاقب الذهن ، أصيل الحفظ ، ظاهر النُبل ، بعيدَ مدى الإدراك ، جيّد الفهم ؛ اشتهر فضله ، وذاع أَرَجه ، وفشا خبره ، واضطلع بكثير من الأغراض ، وشارك فى جملة من الفنون ، فأصبح متلقِّف كُرة البحث ، وصارِخَ الحَلْقة ، وسابقَ الحَلْبة ، ومَظِنة الكمال ؛ ثم ترقّى فى درج المعرفة والاطلاع[١] ، وخاض لُجّة الحفظ ، وركَضَ قلَم[٢] التسويد [٢٣٥] والتقييد والتعليق ، ونصب نفسه للناس متكلّما فوق الكرسيّ [المنصوب][٣] ، وبين الحَفْل المجموع ، مستظهراً بالفنون التى يَعُدُ فيها شأوه ، من عربيّة وبيان ، ومانقذف به لُجّة النقل من أخبار وتفسير ، مُتشوّفا مع ذلك[٤] إلى السلوك ، مصاحباً للصوفية ، آخذاً نفسه بارتياض ومجاهدة ؛ ثم عانَى الأدب ، فكان أملك به . ورحل فى طلب العلم والازدياد ، فترقّى إلى الكتابة عن ولد السلطان أمير المسلمين بالمغرب أبى سالم بن أبى الحسن ، وعُرف فى بابه بالإجادة . ثم رجع مع السلطان ابن الأحمر فى طلب ملكه ، فلطُف محلُّه منه ، وخَصَّه بكتابة سرّه ، [وثابت

(١) كذا فى الإحاطة . وفى الأصلين ونفح الطيب : « الاضطلاع » . وما أثبتناه أولى بالسياق .
(٢) فى الأصلين : « ركض فى التسويد » . وما أثبتناه عن الإحاطة ونفح الطيب .
(٣) هذه الكلمة عن نفح الطيب .
(٤) كذا فى نفح الطيب والإحاطة . وفى الأصلين : « معها » .

الحال ، ودالت الدولة ، وكانت له الطائلة ، فأقرّه على رسمه][1] ، معروف الانقطاع والصاغية ، كثير الدّالة ، مصطلعاً بالخُطَّة : خطّاً ، وإنشاء ، ولَسَناً ، ونقداً ؛ فحسُن مَنَابُه ، واشتهر فضلُه ، وظهرت مشاركته ، وحَسُنت وَساطته ، ووسع الناسَ تخلقه ، وامتد فى ميدان النظم والنثر باعُه ، فصدر عنه من المنظوم قصائد[2] بعيدة الشأو فى مدى الإجادة ، من الأغراض المتعدّدة ، من ميلاد يّات وغيرها ، وهو بحاله الموصوفة إلى الآن ، أعانه الله وسدّده .

وأخذ العربية عن رُحْـلَةِ الوقت[3] فى فنّها ، أبى عبد الله [بن الفَخّار ؛ ثم على إمامها القاضى الشريف ، إمام الفنون اللسانية ، أبى القاسم محمد بن أحمد الحَسَنى ؛ والفقهَ والعربيةَ على الأستاذ المفتى أبى سعيد بن لُبّ ؛ واختص بالفقيه المحدث الصدر أبى عبد الله][4] بن مرزوق ، روى عنه كثيراً ؛ ولقى الحافظ القاضى أبا عبد الله المَقَّرى لمّا قَدِم الأندلس رسولا ، وذاكره ؛ وقرأ الأصول على أبى على منصور الزَّواوى ؛ وروى عن القاضى أبى البركات بن الحاجّ ، والمحدِّث أبى الحسـين بن التِّلِمْسانى ، والخطيب ابن اللَّوْشى ، والمقرئ أبى عبد الله بن بيبش ؛ وقرأ بعضَ الفنون العقلية بفاس على الشريف الرُّحْلة أبى عبد الله العَلَوى [٢٣٦] التلمسانى ، واختص به اختصاصاً لم يخْل فيه من استفادة ، وحُنكة فى الصناعة .

وأما شـعره فمترامٍ إلى نَمَط[5] الإجادة ، خَفاجيّ[6] النَّزْعة ، كلف بالمعانى البديعة ، والألفاظ الصَّقيلة ، غزير المـادة

(١) ما بين القوسين زيادة عن نفح الطيب والإحاطة .
(٢) فى الأصلين : (قصيدة) . وما أثبتناه عن نفح الطيب والإحاطة
(٣) فى الإحاطة ونفح الطيب : « المعرب » .
(٤) ما بين القوسين ساقط فى (ط) .
(٥) فى الإحاطة ونفح الطيب : « هدف »
(٦) نسبة إلى شاعر شرقى الأندلس أبى إسحاق إبراهيم بن خفاجة أشهر وصافى الطبيعة فى الأدب العربى (٤٥٠ — ٥٣٣) هـ .

مولده فى رابع عشر شوال عام ثلاثة وثلاثين وسبع مئَة .

انتهى كلام ابن الخصيب

شعر له أورده ابن الخطيب

وأورد له ابن الخطيب فيما يرجع إلى الفخر قولَه — قال ابن الخطيب : ولقد صدق — :

ولا نُعْتى فى الجُود والجودُ شيمتى[1] جُبِلْت على إيثارها[2] يومَ مَوْلِدى
ذَرِينى فلو أنى أُخَــلَّد بالغِنى لـكنت ضَنيناً بالذى ملـكت يدى

وأورد له أيضاً قولَه :

لقد عَــلِم اللهُ أنّى امرؤ أُجَرِّرُ ثوبَ[3] العَفاف القَشِيبْ
فكم غمَّض الدهرُ أجفــانَه وفازت قِداحى بوصل الحبيب
وقِيل رقيبُك فى غفــلة فقلت أخاف الإلهَ الرَّقيب

وله أيضاً رحمه الله :

مالى بحَمْل الهــوى يَدَانِ من بعد ما أعوزَ التدانى
أصبحتُ أشكو إلى[4] زمانٍ ما بِتُّ منــه على أمانِ
ما بال عَيْنيك تَسْجُمان والدمعُ يرفضّ كالجُمان
ما ذاك والإلْف عنك وانٍ والبعدُ من بعــده كَوانى ؟
يا شِقْوة النفس ، مِنْ هوانٍ لَجَجْتُ[5] فى أَبْحُرُ الهوان

(١) فى نفح الطيب : « ألأئة » ... « شيمة » .
(٢) فى ط والإحاطة : « آثارها » .
(٣) فى الإحاطة ونفح الطيب : « ذيل » .
(٤) فى رواية : « أشكوك من زمان » .
(٥) فى الأصلين : « لحج » ، والتصويب عن « نيل الابتهاج بتطريز الديباج » لأحمد بابا التنبكتى .

لم يَثْنِنِى عن هواكَ ثانٍ يا بُغيةَ القلب قد كَفانى

انتهى .

حظوته عند ابن الأحمر بعد تنكره لابن الخطيب

ثم أظلم الجو بينه و بين ابن الخطيب ، وتولّى مكانَه بعد فِراره كما قدمناه ، وحظى عند ابن الأحمر جدا ، و بقى على ذلك مدة .

من كتاب لبعض بنى الأحمر عنه

قلت : وقد رأيت بتلمسان كتاباً مُلوكيًّا[1] من تأليف بعض سلاطينها بنى الأحمر ، وهو حفيد ابن الأحمر المخلوع ، سلطان الأندلس ، الذى كتب له ابن زمرك المذكور بعد ابن الخطيب ، أورد فيه كلامَ ابن زَمرك ، وسمّاه : « البَقِيَّة والمُدْرَك ، من كلام ابن زَمْرك » ، وهو سِفْر ضخم ، ليس فيه إلا نَظْمه فقط ؛

[٢٢٧] وذكر فيه أن ابن زَمرك مات قتيلا بعد التسعين وسبع مئة ، فكان ذلك الواقع له مساوياً لما وقع لابن الخطيب شيخه ، حسْبما قدمناه .

ونصُّ ما قَيّدت من ذلك الكتاب من أوله :

« أما بعــدَ ما يجب من حمد الله تعالى فى كل حال ، وشكره على ما أوْلَى و يسّر من صلاح الأحوال ؛ والصلاة والسلام على سيدنا محمد صَفْوة الأنبياء ، وسيد الأرسال[2] ، والرضا عمّن له من صَحب وأنصار وآل ؛ فإن من المعلوم أن الأدب له بالنفس عَلاقة تؤديه إلى الاستحسان ، وتؤْثر من اشتهر به بالملاحظة بلحظ الحظ مع تعاقب الأحيان ؛ ولا خفاء أن أيام مولانا الجد المقدّس ، الغَنِيّ بالله ، تولاه الله برضوانه ، كانت غُرَراً فى وجوه الأيام ، ومَواسم تَجمع الطِّمّ والرِّمّ[3]

(١) النسبة إلى الملوك : « ملكى » بفتح الميم واللام ، وشاع على أقلام بعض الفصحاء كالجاحظ « ملوكى » ، ولعله للفرق بين النسبة إلى المَلِك (بكسر اللام) والمُلك (بضمها) .

(٢) سبق فى الجزء الأول فى أكثر من موضع على أن المغاربة يستعملون « الأرسال » جمعا لرسول ، ولم يرد السماع بذلك .

(٣) الطم والرم : كناية عن العدد الكثير .

من الرؤساء الأعلام ؛ الآخـذينَ بأعنّة الـكلام ، السابقين فى حَلْبة النِّثار والنِّظام ؛ وأن الفقيه الرئيس المُدْرك ، الناظم الناثر أبا عبد الله محمد بن يوسف ابن زَمرك ؛ عفا الله عنه — وحسبك بمن ارتضاه مولانا [الجد] [١] رحمه الله لـكتابته ، وصرّفه فى الوجوه المتعددة من رسالته وحجابته ؛ فـكان بذلك خليقاً ، لما جُمِـع فيه من أدوات الـكمال علماً وتحقيقاً ؛ وإدراكا ونُبلا . وفقها[٢] وأصولا ، وفروعاً وأدباً وتحصيلا ، وبياناً وتفسيراً ونظما وترسيلا — لمّا[٣] كان قد أخنت الأيام سَنَى صبحه[٤] ، وخابت وسائل نصحه ، وعادت بُعْدوانها بعـد فوز قِدْحه ؛ وعَثَّر بين أقدام أقوام لا يعرفون أىّ ذُخر فقدوا ، ولا أىّ مُطْلَق من تصرفاته الجميلة قيّدوا : مستبصرين بالجهل فى دياجى غَيِّهم ، مُعْجَبين بمـا ارتـكبوه من جياد بَغْيهم ؛ حميمهم بلحظه مُقَل داميه ، وألفاظ حاميه ؛ يُصابحونه بأوجه خَلَت عن الوجاهة ، سيـمـاها الحسد ، وضميرها السَّخَط بمـا قدَّره الواحد الصَّمد

[[٥] فَخَرَّ على الألاءة لم يُوَسَّد   كأنّ جَبِينَه سيفٌ صَقِيلُ[٦]

فيالله من أشلاء هنالك ضائعة ، وأعلاق غير مَصونة ، ووسائل محقورة ؛ وأذمَّة قُطِعت أرحامُها ، ولم يُرْعَ ذِمامها ؛ وعاثت الأيدى الفاتـكة حينئذ على بَنيه ، وارتـكبوها شنْعاء فى أهله وذويه] [٥]

---

(١) هذه الـكلمة عن نفح الطيب .

(٢) كذا فى (س ، م) ، ونفح الطيب . والذى فى (ط) : « وفهما » .

(٣) خبر لقوله : « وأن الفقيه الرئيس المدرك ... الخ » .

(٤) كذا فى ص ونفح الطيب . وفى ت : « من » .

(٥) مابين القوسين زيادة عن نفح الطيب و (ص) .

(٦) البيت لابن عنمة الضبي ، من مقطوعة له فى رثاء بسطام بن قيس . قال التبريزى فى شرح الحماسة : « خر : سقط . والألاءة : شجرة . لم يوسد ، يستعملونه كثيراً فى القتيل ، وليس بجيد ، لأن القتلى بعضهم يوسد . وشبه جبينه ، لصفائه وانحسار الشعر عنه ، بسيف مصقول ، أى لم يكن أغم ؛ والغمم عندهم مذموم » .

هل كان إلا حَيًا تَحيا العبادُ به ... هل كان إلا قَذًى فى عين ذى عَوَرِ
إن قال قولا تَرَ الأبصارَ خاشعةً ... لِمَا يُخبِّرُ من وَحْيٍ ومن أثَرَ
يا لَهْفَ نفسِىَ لو قد كنتُ حاضرَه ... غداةَ جُرِّعه أدهى مِنَ الصَّبِر
لَمَا تَرَكتُ لَهُ شِلْوا بمَضْيعةٍ ... ولا تولّى صريعَ النابِ والظُّفُرِ
« وكان ما كان مما لست أذكره ... فظُنَّ خيراً ولا تسأل عن الخَبَر »[1]

وإن سأل سائل عن الخبر الذى ألممنا بذكره ، وضَمَّنَّا هذا البيت دَرْوًا[2] من فظيع أمره ؛ فذلك عند ما نَسَب صاحب الأمر إليه ما راب ، وقتَلَه وابنيه [[3]] للجبين مُعَفَّرين بالتراب : وصَدمه فى جُنح الليل والمصحف بين يديه يتوسّل بآياته ، ويتشفع بعظيم بركاته : فأخذته السيوف ، وتعاورته الحُتوف ؛ وأذهبه سَليباً قتيلا ، مُصَيِّراً مصراع منزله كثيباً مَهيلا ، وكنا على بُعْد من هذه الآزفة التى أورثت القلوب شَجَناً طويلا ؛ وذكرنا بعناية مولانا [الجدّ][4] الغنىّ بالله بجانبه أعظم ذكرى ، فأَعْرَبنا برثائه خلايا وفكرا : وارتجلنا عند ذكره الآن هذه الأبيات إشارة مُقْمِعه ، وكناية فى السُّلوان مُطمِعه ؛ وأرضينا بالشفقة أودّاءه ، وأرغمنا بتأبينه أعداءه . ولما تبلّج الصبحُ لذى عينين ، وتلقّينا راية الفرَج باليراحتين ؛ عَطَفَتنا على أبنائه عواطف الشفقه ، وأطلقنا لهم ما عاثت الأيدى عليه[5] صلةً لرحم طالما أضاعها من جهل الأذمّه ، وأنجزعهود تَخَدمه[6] لمن سلف من الأئمه ؛ وصرفنا للبحث والتفتيش وجوه آمالنا ، وجعلنا ضمّ مانثرته الحوادث

---

(١) هذا البيت من مقطوعة لعبد الله بن المعتز .
(٢) ذروا : طرفا من القول . وفى الأصلين ونفح الطيب : « دوا » . وظاهر أنه محرف عما أثبتناه .
(٣) هذه الكلمة عن (ص) ونفح الطيب .
(٤) هذه الكلمة عن نفح الطيب .
(٥) المسموع : عاثت به .
(٦) يريد بتخدمه : خدمته . والمسموع من هذا : تخدمت خادماً : إذ اتخذته .

من منظوماته من أكيد أعمالنا ؛ وكان تَعلَّق محفوظنا جملة وافرة من كلامه ، مشتملة على ما راق وحسن من نثاره ونظامه ؛ فأضفنا ذلك إلى ما وقع عليه اجتهادنا من رقاعه ، الحائلة المنتهَبة بأيدى النوائب ، الدائرة المستلبة بتعدّى النواهب ؛ نخلص من الحملة قلائد عقيان ، وعقود دُرّ ومَرْجان ؛ ترتاح النفوس [٢٣٩] النفيسة لإنشادها ، وتحسُد الأبصارُ الأسماعَ عند إيرادها : إلى ما يتخلّلها من تخليد ما آثرسلفنا ، والإشاده بعظيم مُلْكنا ؛ فشرعنا فى تقييد أوابدها الشارده ، وإحياء رسومها البائده ؛ كَلَفًا بالأدب : لوضوح فضله ، وتأدية لما يجب من رعاية أهله .

ولنبدأ بالتعريف بحال هذا الرئيس المنبَّه عليه ، ونُظهر ما كنّا نُضمره من الميل إليه ، فى كل ما له أو عليه ، فنقول :

هو الفقيه الكاتب ، الفذ الأوحد ، أبو عبد الله ، محمد بن يوسف بن محمد ابن أحمد بن يوسف الصُّريحيّ ، ويعرف بابن زمرك : أصله من شرق الأندلس ، وسكن سلفه بالبَيّازين من غرناطة ، وبها ولد ؛ فنشأ ضئيلا كالشّهاب يتوقد ، مختصر الجِرْم والأعين بإطالة فواضله تشهد ، ومُكتِّبُ(1) الفئة القرآنيــة يؤثّره بالجَناب الممهّد ، فاشتغل أول نشأته بطلب العلم ، والدُّءوب على القراءة ، وأخذ نفسه بملازمة حَلقات التدريس ، ولم يبلغ حد وجوب المفترضات إلا وهو متحمل الرواية ، وملتمس لفوائد الدرايه ؛ مُصابِحٌ كل يوم أعلامَ العلوم ، ومستهدٍ بمصابيح الحدود العلمية والرُّسوم . فافتتح أبواب الكتب النحوية بالإمام أبى عبد الله ابن الفَخّار ، الآية الكبرى فى فن العربية ، وتردّد الأعوامَ العديدة إلى قاضى الجماعة أبى القاسم الشريف ؛ فأحسن الإصغاء ، وبَذَّ النُّحاة البُلغاء ؛ بما أوجب رثاءه عند الوقوف على ضريحه بالقصيدة الفريدة ، التى أولها :

(1) المكتب الذى يعلم الصبيان الكتابة . قال الحسن البصرى : وكان الحجاج مكتبا بالطائف ، أى معلما . (عن تاج العروس) .

« أغرى سَراة الحى بالإطراق »

[٢٤٠] حسبما تأتى مستوفاة إن شاء الله تعالى . واهتدى فى طريق الخُطبة ومناهج الصوفية ، بالخطيب المعظّم أبى عبد الله بن مرزوق ، الوافد على مولانا الجد أبى الحجاج رضى الله تعالى عنه فى عام ثلاثة وخمسين وسبع مئة ، وإليه جَنح ، وإياه قصد ، عند تغرُّبه إلى المغرب ، فى دولة السلطان أبى سالم ، فتوّجَهُ بالعمامة التى ارتجل بين يديه فيها :

توّجْتنى بعمامـــهْ توّجْتَ تاجَ الكرامهْ
وروْض حمدك يُزْهَى منّى بسجع الحمامه

وأخذ علمَ الأصلين عن الحافظ الناقد أبى علىّ منصور الزّواوى ، وبرع فى الأدب ، أثناء الانقطاع وأولَ الطلب لأبى عبد الله بن الخطيب ، ولكن لم يُحْمَد بينهما المآل . واقتدى فى العلوم العقلية بالشريف أبى عبد الله التِّلمْسانى ، قُدوة الزمان : وحصلت له الإجازة والتحديث بقاضى الجماعة ، وشيخ الجملة ، أبى البركات بن الحاجّ ، وبالخطيب البليغ أبى عبد الله اللّوشى ، وبالخطيب الورع أبى عبد الله بن بيبش العَبْدَرى ، رضى الله عن جميعهم . وبواجب محافظتنا على عهدهم ، إذ نحن واردون بالإجازة التامة عذبَ وِرْدهم ، وَصَل سبَبَنا بهم الكثيرُ من شيوخنا ، مثلُ الإمام المعظّم أبى محمد عبد الله بن جُزَىّ ، ومعلّمنا الثقة المجتهد أبى عبد الله الشريشى ، والقاضى الإمام أبى عبد الله محمد بن على بن عَلّاق ، وغيرهم رحمة الله عليهم . لذلك صار صدراً فى وادى طلبة الأندلس ، وأفراد نجبائها ؛ فما شاءه المحاضر يجده فى خَضْله[1] ، ويتلقاه من باهر فضله ؛ فكاهة ومجالسة أنيقة ممتعه ، ومحادثة أريصة مزهره ، وجوابا مُطبِّقًا للمَفْصِل[2] ، وذهنا

(١) الخضل : الدر واللؤلؤ ، يشبه بهما كلامه .
(٢) فى نفح الطيب : « شافياً للمعضل » .

سابقا لإيضاح المشكل ؛ مع انقياد الطبع ، وإرسال الدّمعة ، فى سبيل الخشوع [٢٤١] والرقة ، ورشح الجبين عند تلقى الموعظة ، وصون الوجه بجلباب الحياء ، ومقابلة الناظر إليه بالاحتشام ، والمبادرة للاستدعاء ، على طهارة ، وبذل وُسْع ، وكرم نفس ، لم يُعْهد أجمل مشاركة منه لإخوانه ، ولا أمتع منه بجاهه ، إلى مبالغة فى الهَشّة والمَبَرَّة والإيثار بما مُنح ، وجُنوح إلى حبّ الصالحين ، ذلك للانضواء إلى شيخ الفِرق الصوفية ، الولىّ أبى جعفر بن الزيّات ، وأخيه الفضل الناسك شيخنا أبى مهدىّ ، قدّس الله مَعناه ، وسواهما من أهل الأندلس والعُدْوة ، وحَمْله أشد الحمل على كل مُتَلَبِّس[1] كأبى زكرياء البَرْغَواطى وسواه .

ومن تنديداته — زعموا — على أبى الحسن المحروق لمَيْله عنه :

وَلَدُ الفقر[2] والرِّباط ولكنْ نفسُه للسلوك ذاتُ نِفارِ
وخَطَب الأدب يافعاً وكَهلا ، وحاز علمَه إدراكا ونُبلا .

ولما كانت الحادثة على مولانا الجد رحمه الله ، واجتاز إلى المغرب ، كما تقرر فى غير هذا ، كَلِف به ، وأنِس إليه ، لحلاوة منطق ، ورَفْع استيحاش ، ومُراوضة خُلُق ؛ ثم كَرّ فى صحبة رِكابه ، فعلت مَنزلته ، وَلَطُف محلّه .

وقفنا على رقعة من رقاعه وهو يبدئ فيها ويعيد ، ويقول : « خدمته سبعاً وثلاثين سنة ، ثلاثة بالمغرب ، وباقيها بالأندلس ، أنشدته فيهاستاوستين قصيدة ، فى ستة وستين عيداً ، وكل ما فى منازله السعيدة ، من القصور والرياض والدِّشار[3] والسبيكة ، من نظم رائق ، ومدح فائق ، فى القِباب والطاقات والطُّرُز[4] وغير

(١) المتلبس : الذى يظهر النسك والعبادة ، ويبطن الغش والفساد (عن نفح الطيب ج ٣ ص ٣٨٧ — أزهرية) .
(٢) فى المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية (برقم ٣٦٠) : « ولد الثغر » .
(٣) الدشار : يريد به الدسكرة ، وهى فى معنى الضيعة .
(٤) الطرز : جمع طراز ، وهى الثياب تنسج للسلطان ، أو هى الدور تصنع فيها الثياب .

[٢٤٢] ذلك [فهولى] [1] ، وكنت أوْا كله وأوْا كل ابنه مولاى أبا الحجّاج وهما كبيرا ملوك أهل الأرض ، وهنأته بكذا وكذا قصيدة ، وفوّض لى فى عقد الصلح بين الملوك بالمُدوتين، وصلحُ النصارى عقدتُه تسع مرات ، أنجسّة [2] فوض إلىّ ذلك » ؟

قلنا : صدق فى جميع ما ذكره ، والعقود بذلك شاهدة له .

وخصه عام ثلاثة وسبعين بكتابة سره ، واستعمله بعد أعوام فى السّفارة بينه و بين ملوك عصره ؛ فحُمِد منابُه ، ونَمَت أحواله ، ورَغد جنابه . وكان هنالك بعض تقوّلات تَشين وجه اجتهاده ، وتُومئ بما احتقبه من سوء مقاصده ، وماصرّفه من قبيح أغراضه ، وهاجت الفتنة ، فكانت سِفَارته أعظم أسبابها . وعنـد الأشُدّ من عُمُره عرضت لأفكاره تقلبات ، وأقعدته عن قِداح السياسة آفات مختلفات ، وأشْعَرته حدّةُ ذهنه أنه متخبط فى أشراك وَقَعات [3] : فقعد بجامع مالَقة ، ثم بمسجد الحمراء ، ملقيًا على الكرسىّ فنونا جمله ، وعلوما لم يزل يتلقاها عن أولياء التعظيم والتجلّه : فانحاز إلى مادّة أمٍ بمالَقة طَما منهم البحر ، وتراءى لأبصارهم و بصائرهم المخر ؛ وكان التفسير أغلب عليه لفَرْط ذكائه ، وما [كان] قيّدَه وحصله أيام قراءته [و إقرائه] ؛ فما شئتَ من بيان ، و إعجاز قرآن ؛ وآيات توحيد و إخلاص ، ومناهج صوفية تؤذن بالخلاص ، يومَ الأخذ بالنواص . ومراراً عدة سمع ما يلقيه ولىُّ الأمر ، ويالشدّة البلوَى التى أذاقه مُرّها ، وأمطاه إلى طيّة الهلاك ظهرها ؛ ويا قُرب ما كان الفَوت ، والحُسام الصّلت ، من تباعد هذه القُرب التى ألقيت [4] .

(١) هذه التكملة عن نفح الطيب .
(٢) فى الأصلين : « الخمسة » والتصويب عن نفح الطيب .
(٣) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « توقعات » ، ومؤدى العبارتين مختلف .
(٤) فى ص، و نفح الطيب : « من متباعد هذه القرب التى ألقيت » . وفى العبارة غموض.

قلنا : لقد جمح جواد القلم ، فأطلقنا[١] ونحن نشير إلى هـذا الرئيس وتبدُّل طباعه ، بعد انقضاء أعوام شاهدة باضطلاعه ؛ وإحراز شيمٍ أدَّت إلى علوِّ مقداره ، واستقامة مداره ؛ فآل عُمْر مولانا جدّنا إلى النفاد ، ورمت رئيسَ كتابه هذا أسهمُ [٢٤٣] الحسّاد ؛ فظهر الخفيّ ، وسقط به الليل على سِرْحان[٢] قد طالما جرب الوفيّ والصفيّ.

وكان من شأنه الاستخفافُ بأولياء الأمر من حُجّاب الدوله ، والاسترسال فى الرد عليهم بالطبع والجبلَّة[٣] مع الاستغراق فى غمار الفتن أندلساً وغرباً ، ومراعاة حظوظ نفسه استيلاء وغصْباً : أما الجراءة فانتضى سيوفها ، وأما إكفاء السماء على الأرض فتواصم نوّع صنوفها[٤] ، وأما المجاهدة فوقفَ بميدان الاعتراض صفوفَها ، وأما المجاملة فنكّر معروفها . أدّاه هذا النبأ العظيم إلى سكنى المعتقل بقصَبة المَرِيّة ، وعلى الأثَر كان الفرج قريباً ، وسطور المؤاخذة قد أوسعها العفوُ تضريباً . ونالته هذه المحنة عند وفاة مولانا الجد الغنيّ بالله — وكانت وفاته غُرة شهر صفر عام ثلاثة وتسعين وسبع مئة[٥] — لأسباب يطول شرحها ، أظهرُها شراسةٌ[٦] فى لسانه ، واعتزاز[٧] بمكانه ، وتضريب بين خدّام السلطان وأعوانه ، فكبا[٨]

---

(١) كذا فى الأصول ونفح الطيب المطبوع والمخطوط ، ولعله يريد : « فأطلنا » ، أو : « فأطلقنا له العنان » .

(٢) هذا مثل ، قال الميدانى : « سقط به العشاء على سرحان » قال أبو عبيد : وأصله أن رجلا خرج يلتمس العشاء ، فوقع على ذئب فأكله — يضرب فى طلب الحاجة يؤدى صاحبها إلى التلف .

(٣) كذا فى ص ونفح الطيب . والذى فى ط : « الجلة » . وهو تحريف .

(٤) كذا فى ط ، ونفح الطيب . وفى ص : « فرع حتوفها »

(٥) إلى هنا ينتهى ما أوردته نسخة (ص) من الروضة الأولى ، وسقطت منها بقيتها .

(٦) فى ط : « شواهة » . وما أثبتناه عن النسخة المخطوطة من نفح الطيب المحفوظة بدار الكتب المصرية (برقم ٣٦٠ تاريخ) .

(٧) فى نفح الطيب : « واغترار » .

(٨) فى ط : « فكما » . وما أثبتناه عن نفح الطيب .

لليدين وللفم ، إلى أن منّ الله بسَراحه ، وأعاده إلى الحضرة فى أول شهر رمضان المعظم عامَ أربعة وتسعين وسبع مئة ،فكان ما كان من وفاة مولانا الوالد رحمه الله ، وقيام[(١)] أخينا [محمد] مقامه بالأمر. فاستمر الحال أياماً قلائل، وقَدَّم للـكتابة الفقيه ابن عاصم لمدة من عام ، ثم أعاد المذكور إلى خُطَّته ، وقد دَمِثَت[(٢)] بعض أخلاقه ، وحَمِدت شراسته[(٣)] . وحلا بعضُ مذاقه ، فما كان إلا كَلَاوَلَيْتَ[(٤)] ، وإذا به قد ساء مشهداً وغيباً ، وأوسع الضمائر شكاً وريباً ؛ وغلبت الإحَن عليه . وغَلَت مراجلها لديه[(٥)] ؛ وصار يتقلّب على[(٦)] جمر الغضَى ، ويتبرّم بالقضا ؛ ويظهر النصح وفى طيه التشفى[(٧)] ، ويَسِم نفسه بالصلاح ، ويعلن بالخشوع ، ويُشير بأنه الناصح الأمين ، ويتلو قول الله سبحانه : « ولـكن لا تُحبُّون الناصحين » . ورتّب على [٢٤٤] المُشتغلين كبيرهم وصغيرهم ذنوباً لم يقترفوها ، ونسب إليهم نَسَباً من التضييع لم يعرفوها : وأنهم احتجَنوا الأموال ، وأساءوا الأعمال[(٨)] والأقوال ؛ فلم يَظفر من ذلك بكبير طائل ، ولا حصل — على تفاوت أعداده— على حاصل ؛ هذا على قلة معرفته بتلك الطريقة الاستغالية ، وعدم اضطلاعه[(٩)] بالأمور [الجبائية][(١٠)] ؛ فمن نفس يُرَوِّع سِرْبها ، ويكدِّر[(١١)] بالامتحان والامتهان شِرْبها ؛ ومن صارعة

(١) كذا فى نفح الطيب . وفى ط : « مقام » .
(٢) فى ط : « صميت » . وما أثبتناه عن نفح الطيب .
(٣) كذا فى نفح الطيب . وفى ط : « شراهته » .
(٤) كذا فى الأصل . ويقال : ماكان إلا كلا ولا : كناية عن الزمن القليل . (انظر لسان العرب)
(٥) فى ط : « وغلبت من أجلها عليه » . والتصويب عن نفح الطيب .
(٦) فى ط : « إلى » . وما أثبتناه عن نفح الطيب .
(٧) فى ط : « فى طية الشفتين » والتصويب عن نفح الطيب .
(٨) فى ط : « الأعمال » والتصويب عن نفح الطيب .
(٩) فى ط : « اطلاعه » . وما أثبتناه عن نفح الطيب .
(١٠) التكملة عن نفح الطيب .
(١١) فى ط : « ولا يكدر » . والتصويب عن نفح الطيب .

خاشعة لله سُلِبَتْ ، وطُولبت بغير ما اكتسبتْ ، وتعدّت الأيدى إلى أقوام جلّة سَعِدوا بشقائه ، وامتُحِنوا وهم المُبرَّءون من تزويره واعتدائه ، وسَيَسْأَلُون ، يوم لا يُغنى مال ولا بنون ؛ وصار يصرف أغراضَه ، ويُظهر أحقاده ، بين إفصاح بما كان الإحجام خيراً من إلقائه ، وأن عُمُر المسكين المستضعف لا حاجة فى طول بقائه ؛ إلى مجاهرةٍ عُهِد منه أيامَ شَبيبته نَقيضُها ، وانعكس فى شاخته[1] تصريحها المُنَغِّص وتعريضها ؛ لا يريح نفسَه من جهد ، ولا يقف من اللّجاجة عند حد . وقد كان ثَقُل سمعه ، فساءت إجابتُه[2] ، وطغت أخلاقه ، فسئم الناسُ وَسَاطته ، وربما استُحْلِف ؛ فلم يكن بين اللازمة واللازمة[3] إلا الحِنْث عن قصد وغير قصد ، ودعا على نفسه وأبنائه بإنجاز وعد ، وأن يُقَيِّض[4] الله لهولهم قاتل عَمْد . فسُبحان القاهر فوق عباده ، الرحيم بهذا الشخص وبالأموات من شيعته وأولاده .

فاستمر على ذلك إلى إحدى الليالى ، فهلك [فى جُنْح الليل][5] فى جوف داره ، على يدى مخدومه ؛ تلقاه — زعموا — عند الدخول عليه ، وهو بالمصحف رافع به يديه ؛ فَجَدَّلَتْه[6] السيوف ، وتناولته الحُتُوف ؛ فقُضِى عليه ، وعلى من وُجِد من خدّامه وابنيه : كل ذلك بمَرأى عين من أهله وبناته ، ولم يتقوا الله فيه حقّ تُقاته ؛ فكانت أنكى الفجائع ، وأفظع الوقائع ؛ وساءت القالة ، وعَظُم المصاب ، وكل شىء إلى أجل نافذ وكتاب[7] . [٢٤٥]

(١) كذا بالأصل ونفح الطيب ، ولا معنى لها . ولعله يريد شيخوخته .

(٢) أخذه من المثل العربى : « أساء سمعا فأساء جابة » . والجابة : اسم بمعنى الإجابة .

(٣) اللازمة : المراد بها هنا اليمين التى يمتنع انفكاكها عما عقدت عليه . وفى ط : « الملازمة » . وما أثبتناه عن نفح الطيب .

(٤) فى ط : « يكيف » ، والتصويب عن نفح الطيب .

(٥) التكملة عن نفح الطيب .

(٦) فى ط : « فجدلته » . والتصويب عن نفح الطيب وكتب اللغة .

(٧) قال المؤلف فى النفح : « وقد وهم من مضمون ما سبق أن قتل ابن زمرك بعد عام خمسة وتسعين وسبع مئة » .

ولما تلخصت هذه المقدمة بين يدى نظامه ، وتم جميع ما أبرزه البحث والاجتهاد من حير كلامه ؛ اخترنا له اسماً يوافقه ، ويوضح مشارقه ، وهو « البَقِيّة والمُدْرَك ، من شعر ابن زَمْرَك[١] » . أما البقية فلما بقى بعد هلاكه ، وتخطته الحوادث وشحّ الدهر بإمساكه ؛ والمُدرَك : لأجل ما ترَك فى مُبيّضاته ، ولم يخرجه فى حياته . وها نَحْنُ نَنْظِمُ[٢] درره الرائقة ، ونطلع فى مراتب التأليف كل شارقة .

فمن ذلك قوله فى ذكر الحضْرة[٣] العليه ، وتهنئة مولاه الجد رحمة الله عليه ببعض المواسم العيديه ؛ ووصف كرائمَ من جياده ، وآثار ملكه وجهاده :

يا من يَحِنُّ إلى نجد وناديها ... غَرناطةٌ قد ثوتْ نَجْدٌ بواديها
قفْ بالسَّبيكة وانظرْ ما بساحتها ... عَقيلةٌ والكَثِيبُ الفَرْد جاليها
تقلَّدتْ بوِشاح النَّهر وابتسمت ... أزهارُها وهى حَلْى فى تَراقيها
وأعين النرجس المطلول يانعة ... تَرَقْرقَ الطَّل دمعاً فى مآقيها
وافترَّ ثغرُ أقاحٍ من أزاهرها ... مُقبِّلاً خدَّ وردٍ من نواحيها
[كأنما الزهر فى حافاتها سَحَرًا ... دراهمٌ والنسيم اللَّدْن يَجبيها][٤]
وانظر إلى الدَّوْح والأنهارُ تكنُفُها ... [مثل النَّدامَى سواقيها][٥] سواقيها
كم حولها من بُدور تَجْتَنِى زَهَرا[٦] ... فتحسب الزَّهر قد قبَّلن أيديها
حَصباؤها لؤلؤ قد شَفَّ جوهرُهُ ... والنَّهر قد سال دَوْبًا من لآليها

(١) فى بعض مواضع من ط : « البقية والمدرك الظاهر من شعر ابن زمرك » . ولعل كلمة : « الظاهر » زيادة من الناسخ .
(٢) كذا فى م ، وفى ط : « سأتحف بنظم »
(٣) يريد غرناطة .
(٤) هذا البيت عن نفح الطيب .
(٥) التكملة عن نفح الطيب .
(٦) فى ط : « وحولها من زهور تجتنى نهراً » والتصويب عن نفح الطيب .

[نهر المنجّم] [١] والزَّهرُ المُطيف به   زُهْر النُّجوم إذا ماشئْت تَشْبيها
يَزيد حُسْناً على نهر [٢] المَجَرَّة قد   أغناه دُرُّ حَبَاب عن دَراريهـا
يُدْعى المُنَجِّمَ رائيـه وناظرُه [٣]   مُسـمَّياتٌ أبانَتْها أساميها
إن الحجاز مَعَانيه [٤] بأندلسٍ   ألفاظُها طابقت منها معانيها
فتلكَ نَجْد سقاها كلُّ مُنسجمٍ   [من الغَمام يُحَيِّيها فيُحيِيها] [١]
[وبارقٌ وعُذيب كل مُبتسمٍ [١]]   من الثغـور يحلّيها محلّيها
وإن أردت تَرَى وادى العقيق فرِدْ   دُموع عُشّاقها حُمراً جواريهـا
وللسّبيكة تاجٌ فوق مَفْرِقها   تَودّ دُرُّ الدَّرارى لو تُحَلّيها
كأنَّ حمراءها والله يَكلؤُها   ياقوتةٌ فوق ذاك التاج يُعْليها
إنَّ البُـدورَ لتيجان مُكلّلة   جواهرُ الشُّهْب فى أبهى مَجاليها [٥] [٢٤٦]
لكنها حَسَدت تاج السبيكة إذ   رأت أزاهره زَهْراً يجليها
بُروجها لبُروج الأُفْق مُخْجلة   فشُهْبُها فى جمال لاتضاهيها
تلك القُصور [التى] راقتْ مظاهرُها   تَهْوِى النجومُ قُصوراً عن مَعاليها
لله لله عيناً من رأى سَحَرًا   تلك المَنارةَ قد رقَّت حواشيها
والصبحُ فى الشرق قد لاحت بَشائره   والشُّهْب تسْتَنُّ [٦] سَبْقاً فى مَجاريها
تَهْوِى إلى الغرب لما هالَها [٧] سَحَرٌ   وغمَّض الفَجْرُ من أجْفان واشيها

(١) التكملة عن نفح الطيب .
(٢) فى ط : « رهر » . والتصويب عن نفح الطيب
(٣) فى ط : « فطر » . وما أثبتناه عن نفح الطيب .
(٤) فى ط : « معالبه » . والتصويب عن نفح الطيب .
(٥) فى ط : « جواهر الشهب تحلى من محاليها » . والتصويب عن نفح الطيب .
(٦) فى ط : « يستر » والتصويب عن نفح الطيب . و« تستن » : تعدو .
(٧) فى نفح الطيب : « عالها » .

وساجعُ العُودِ فى كف النَّديم إذا ‏ ‏ ماستوقفت[1] ساجعاتُ الطير يُغريها
يُبْدِى أفانينَ[2] سِحر فى ترنُّمه ‏ ‏ يُصْبِى العقول بها حسنا ويَسْبِيها
يَحُسُّه ناعمُ الأطراف تحسبها ‏ ‏ لآلئا وهى نُور فى تلاليها[3]
مُقاتِلٌ بلِحاظٍ قوسُ حاجبها ‏ ‏ ترمى القلوبَ بها عمداً فتُصميها
فما كَرَّ الروضَ والأغصانُ مائلة ‏ ‏ يَثْنِى النفوسَ لها شوقا تثنِّيها
لم يَرْقُصِ الدَّوْحُ بالأكمام من طرب ‏ ‏ حتى شدا من قِيان الطير شاديها
وأسمعتْها فُنونَ السحرِ مُبدعة ‏ ‏ وُرْقُ الحمام وغنَّاها مغنِّيها
غَرناطة آنسَ الرحمنُ ساكنها ‏ ‏ باحت بسرّ معانيها أغانيها
أعدَى نسيمُهُمُ لُطفا نفوسَهمُ ‏ ‏ فرِقّةُ الطبع طبع منه يُعديها
خلَّد الله أيامَ السرور بها ‏ ‏ صُفراً عشيّاتُها بيضاً لياليها
وروَّض المحلَ منها كلُّ منبجسٍ ‏ ‏ إذا اشتكت بغليل الجدب[4] يُرويها
يَحْكى[5] الخليفةَ كَفًّا كلما وَكَفت ‏ ‏ بالجود فوق مَواتِ الأرض يُحييها
تُغْنِى العُفاةَ وقد أمَّت مكارمَه ‏ ‏ عن السؤال وبالإحسان تُغنيها
لها ثمانٌ فما غيث يساجلُها ‏ ‏ جُوداً ولا سُحْبه يوما تدانيها
وإن تَصُبْ سُحْبُه بالماء حين همَتْ ‏ ‏ بعسْجَد ولُجين صاب هاميها
يأيها الغَيْث أنت الغوثُ فى زمن ‏ ‏ ملوكه تَلِفتْ لولا تلافيها
إن الرعايا جَزاكَ الله صالحة ‏ ‏ مَلَكْتَ شرقا وغربا مَنْ يُراعيها

---

(١) فى نفح الطيب : « ما استوقف الطير يدنيها ويغريها »
(٢) فى ط : « بين الأفانين » . وما أثبتناه عن نفح الطيب .
(٣) فى ط : « يحسبها » ... « فى تحليها » وما أثبتناه عن نفح الطيب .
(٤) فى ط : « بتغليل الجرى » . والتصويب عن نفح الطيب .
(٥) فى ط : « على » . والتصويب عن نفح الطيب .

إن الخلائق فى الأقطار أجمعها ... سوائمٌ أنت فى التحقيق راعيها(١)

فكل مَصْلَحة للخلق تحكمها ... وكل صالحة فى الدين تنويها

إذا تيممت أرضاً وهى مُجْدِبة ... فرحمة الله بالسُّقيا تُحَيِّيها

يارحمة بَثَّت الرُّحْمَى بأندلس ... لولاك زُلْزِلَت الدنيا بمن فيها [٢٤٧]

فى فضل جودك قد عاشت مَشيخَتُها ... فى ظل أمنك قد نامت ذَراريها

فى طول عمرك يرجو اللهَ آملُها ... بنصر ملكك يدعو اللهَ داعيها

عوائد الله قد عُوِّدْتَ أفضلَها ... لتُبلِغَ الخلقَ ماشاءت أمانيها

سُلَّ السعود وخَلِّ البيض مُغمدة ... واضرب بها فِرْقَة(٢) التثليث تَفْرِيها

لله أيامك الغُرّ التى اطردت ... فيها السُّعودُ بما تَرْضَى ويُرْضيها

لله دولتك الغراء إن لها ... لكافلاً من إله العرش يكفيها

هيهاتَ أن تبلغَ الأعداء مأربَةً ... فى حِزْبها وجنودُ الله تحميها

هذى سيوفُك فى الأجفان نائمةٌ(٣) ... والمشركون سيوفُ الله تُفْنيها

سريرة لك فى الإخلاص قد عَرَفَتْ ... حُسْنَى عواقبها حتى أعاديها

لم تحتجب شُهُبُ الآفاق عن بَصَر(٤) ... إلا وهَدْيك للأبصار يَهْديها

يابْن الملوك وأبناء الملوك إذا ... تدعو الملوكُ إلى طَوْع تُلَبِّيها

أبناء نَصْرٍ ملوكٌ عزٌّ نَصْرُهُمُ ... وأوسعوا الخلق تَنْويها(٥) وتَرفيها

---

(١) فى ط : « غائم ... واعيها » والتصويب عن نفح الطيب المطبوع والمخطوط .

(٢) فى ط : « فرقة » . وما أثبتناه عن نفح الطيب .

(٣) فى ط : « قائمة » . وما أثبتناه عن نفح الطيب .

(٤) فى نفح الطيب : « لم يحجب الصبح شهب الأفق عن بصر »

(٥) كذا فى نفح الطيب . وفى ط : « تنزيهاً » .

هُمُ المصابيح نور الله مُوقدُها ... تضىء للدين والدنيا مَشَاكيها
هُمُ النجومُ وأُفُق الهُدى مَطلِعُها ... فوراً لِمُهْـــديِّها عزًّا لهاديها
هُمُ البـــدور كمالٌ ما يفارقها ... هُمُ الشموس ظلامٌ لا يواريهـا
قَضَتْ قواضبُها أنْ لا انقضاء لها ... وأمضتِ الحُكْمَ فى الأَعدا مَوَاضيها
وخلّدت فى صِفاح الهند ســـيرَتَها ... وأسندت عن عواليها مَعَاليهـا
وأورثتْك جهاداً أنت ناصره ... والأجر منك يُرضّيها ويُحْظيها
كَمْ موقفٍ تَرْهَبُ الأعداء موقفَهُ[1] ... والخيل تَرْدِى ووَقْع السُّمْرِ[2] يُرْديها
ثارتْ عَجاجتُـــه واليومُ مُحتجب ... والنَّقْع يؤثر غَيْماً من دياجيها
وللأســـنَّة شُهْب كلّما غَرَبَت ... فى الدّارعين تَجَلّت من عواليها
وللسيوف بُروق كلّما لَمعت ... تُزْجِى الدماء وريح النصر يُزْجيها
أطلعت وجهاً تريك الشمسَ غُرّتُه ... تبارك الله ما شمسٌ تساميها
من أين للشمس نُطْق كله حِكَمٌ ... يُعيدها كلّ حين منك مُبْديهـا
لك الجياد إذا تجرى سوابقها ... فللرياح جياد ما تجاريهـا
إذا انبرتْ يومَ سَبْق فى أعنّتها ... ترى البروق طِلاحاً لا تُباريها
[٢٤٨] من أشْهَبٍ قد بدا صُبْحا تُراعُ لَهُ ... شُهْب السماء فإنّ الصبح يخفيها
إلاّ التى فى لِجَامٍ منــه قَيَّدَها ... فإنه سامَها عِزًّا وتَنْويها
أو أشْقرٍ مُرْعِبٍ شُقْرُ[3] البُروق وقد ... أبقى لها شَفَقا فى الجو تنبيها
أو أحمرٍ جَمْرُه فى الحرب متقدٌ ... يعلو لهـا شَرر من بأس مُذْكيها

(١) فى نفح الطيب : « موقفه » .
(٢) فى نفح الطيب : « السيف » .
(٣) كذا فى النسخة المطبوعة من نفح الطيب . وفى المخطوطة المحفوظة بدار الكتب (برقم ٣٠٩ تاريخ) : « أواشقر صر عن شفر البروق وقد » . والذى فى (ط) : « أو أشقر ضامر سبق البروق وقد » .

لونُ العقيق وقد سال العقيق دما ... بعطفه من كُماة كَرَّ يُدميها[١]

أو أدهمٍ مِثْلِ[٢] صدر الليل تَنْعَلُه ... أهلّة فوق وجه الأرض يُبديها

إن حارت الشُّهْب ليلا فى مُقَلّده ... فصُبْح غُرّته بالنور يَهديها

أو أصفرٍ بالعَشِيات ارتدى مَرَحًا ... وعُرْفه بتمادى الليل يُنْبيها

مُمَوَّهٍ بنُضار تاهَ من عَجَب ... فليس يَعْدَم تَمويها ولا تِيها

وربَّ نهرِ حُسامٍ رَاق[٣] رائقُه ... متى تَرِدْه نفوس الكفر يُرْديها

تجرى الرءوس حَباباً فوق صفحته ... وماجرى غير أن البأس يُجْريها

وذابلٍ من دم الكفار مَشْربُه ... يُجْنِى الفتوحَ وكفُّ النصر تَجنيها

وكم هلالِ اقوس كلّما نَصَبت ... ترى النجوم رُجوما فى مَراميها

أئمة الكفر ما يَمَّمْتَ ساحتها ... إلا وقد زُلْزِلَتْ قَسْرا صَياصيها

يادولةَ النَّصْر هل من مُبْلغٍ دُوَلاً ... مَضَيْن أنك تُحييها وتُنْسيها

[أومُبلغٍ سالف الأنصار مَأْلُكَةً ... والله بالخُلْد فى الفِرْدوس يَجزيها][٤]

أنّ الخلافة — أعلى اللهُ مظهرها — ... أبقتْ لنا شرفاً والله يُبقيها

يابن الذين لهم فى كل مَكرُمة ... مَفاخِرٌ ولسانُ الدّهر يُمليها

أنصار[٥] خيرِ الورى مختار هِجرته ... جيران روضته أكرِمْ بأهليها

أسمتهمُ المِلةُ السَّمْحاء[٦] تكرِمةً ... أنصارَها وبهمْ عَزَّت أواليها[٧]

---

(١) فى ط : « كى يربيها » وما أثبتناه عن نفح الطيب المخطوط (رقم ٢٠٩ تاريخ) . وفى المطبوع : « كاد يدمبها » .

(٢) فى نفح الطيب : « مل‍ء » .

(٣) فى نفح الطيب : « رق » .

(٤) هذا البيت عن نفح الطيب .

(٥) فى ط : « أصحاب » وما أثبتناه عن نفح الطيب .

(٦) المسموع : « السمحة » .

(٧) أواليها : أوائلها ، جمع أول . قدم اللام على العين ، ثم سهل الهمزة .

ففي حُنين وفي بدْر وفي أُحُد ... تُلْفِي مفاخرَهم مشهورةً فيها
ولْتسألِ السِّيَرَ المرفوعَ مُسْنَدُها ... فمن مواقفهم تُرْوَى مَغازيها
مآثرٌ خلَّد الرحمن أثْرَتَها ... [يَنُصُّها[1]] من كتاب الله قاريها
ماذا يُجيد بليغ أو يُنَمِّقه ... من الكلام ووَحْيُ الله تاليها
له الجهاد به تَسري الرياحُ إلى ... ممالكِ الأرض من شتّى أقاصيها
تُحْدَى الركابُ إلى البيت العتيق به ... فكَّةٌ عَمَرَت منه نواديها
بشائر تُسْمِع الدنيا وساكنَها ... إذا دعا باسمك الأعلى مُناديها
كفى خلافَتَك الغرّاءَ مَنْقبةً ... أنّ الإلهَ يُوالي من يُواليها
وقد أفاد بَنيه الدهرُ تجربةً ... أنّ السُّعود تعادي من يعاديها

[٢٤٩]

إذا رَمَيْتَ سِهامَ العزم[2] صائبةً ... فما رميتَ بل التوفيقُ راميها
شكراً لمن عَظُمت منّا مواهبُه ... وإن تُعَدَّ فليس العدُّ يُحْصيها
عمّا قريب ترى الأعداء مُقْبِلةً ... من الفتوح ووَفْدُ النَّصر حاديها
وتبلغ الغايةَ القُصوى بشائرُها ... فقد أظلَّتْ بما ترْضَى مَبادِيها
فاهْنأْ بما شئتَ من صُنْعٍ تُسَرُّ به ... وأنْوِ الأمانيَّ فالأقدار تُدْنيها
مولاي خُذْها كما شاءت بلاغتُها ... ولو تُباع لكان الحسنُ يَشْريها
أرسلتُها حيثُما الأرواحُ مُرْسَلَةٌ[3] ... نوادراً تَنْشُرُ البُشْرَى أماليها
جاءت تُهنّيك عيدَ المعطِر[4] مُفْحِمَةً ... بحسنها ولسانُ الصدق يُطْرِيها[5]
البِشْر في وجهها واليُمْن في يدها ... والسِّحْر في لفظها والدرّ[6] في فيها

(١) هذه الكلمة عن نفح الطيب وعن م .
(٢) كذا في نفح الطيب . وفي الأصلين ط ، م : « العز » .
(٣) الأرواح : الرياح ؛ يريد أنه أطلقها مع الرياح تسير بها في كل ناحية .
(٤) في نفح الطيب : « النحر » .
(٥) كذا في نفح الطيب . وفي الأصل : « يقريها » .
(٦) كذا في نفح الطيب . وفي الأصل : « الشهد » .

لو رَصَّع البدرُ منها تاجَ مَفْرِقه لم يَرضَ دُرَّ الدَّرارى أنْ تحلِّيها
فإن تكن بنْتَ فكرى وهو أوجدَها نُعماك فى حِجْره كانت تُرَبِّيها
فى روض جُودك قد طوَّقتنى مِنَناً طوقَ الحمام فما سَجْعى مُوفِّيها
ولو أُعِرْتُ لسان الدهر يشكُرها لكان يقصُر عن شكرٍ يُوفِّيها
بَقِيتَ للدين والدنيا إمامَ هُدًى مُبلِّغَ النفسِ ما ترجُو أمانيها
والسعد يجرى لغاياتٍ[1] تؤمِّلها مادامت الشمس[2] تجرى فى مجاريها

ومن ذلك أيضاً قوله هَناء لمولانا الجَدِّ رحمه الله بالفتح المغربى للسلطان[3] أبى العباس بن السلطان أبى سالم المَرِينىّ :

هِىَ نَفْحةٌ هَبَّتْ من الأنصار أهدَتْك فتحَ ممالكِ الأمْصار
فى بِشْرها وبِشارة الدُّنيا بهـا مُسْتَمْتَعُ الأسماعِ والأبصار
هَبَّتْ على قُطْرِ الجهاد[4] فرَوَّحَتْ[5] أرجاءَهُ بالنَّفْحة المعطار
وسَرَتْ وأمرُ الله طَىَّ بُرودها يُهْدِى البريةَ صُنعَ لُطف البارى
مَرَّتْ بأدْواحِ المنابرِ فانبرتْ خُطَباؤها [مُمْتَنَّة][6] الأطيار

(١) كذا فى نفح الطيب . وفى (ط) : « لآيات » .
(٢) فى نفح الطيب : « ما دامت الشهب ... الخ » .
(٣) يريد أن فتح المغرب كان على يد السلطان أبى العباس أحمد بن أبى سالم المرينى ، وكان السلطان ابن الأحمر يشد أزره فى ذلك .
(٤) فى ط : « الجهات » . وفى نفح الطيب : « الجاد » . والمعنى غير واضح على الروايتين ، وفى م : « الجهاد » . ويريد « قطر الجهاد » الأندلس ، لما كان عليه أهله من استمرار الجهاد مع أعدائهم .
(٥) روحت أرجاءه ، أى جعلتها معطرة بالرائحة الطيبة . وفى الأصول : « روضت » . وظاهر أنها محرفة عما أثبتناه .
(٦) هذه الكلمة عن نفح الطيب .

حَنَّتْ مَعارجُها[1] إلى أعشارها[2] لمَّا سمعن بها حنين عِشَار[3]

لو أنصفتك لكلَّلَت أدواحَها تلك البشائرُ يانعَ الأزهار

[٢٠٠] فتحُ الفُتوح أتاك فى حُلَلِ الرِّضا بمجاذب الأزمان والأعصار

فتح الفتوح جَنَيْتَ من أفنانه ما شئت من نصر ومن أنصار

كم آيةٍ لك فى السُّعود جليّـةٍ خَلَّدت منها عبرة استبصار

كم حكمةٍ لك فى النفوس جَليّةٍ خفيتْ مداركها عن الأفكار

كم من أسيرٍ أمَّ بابك فانثنى يُدْعَى الخليفةَ دَعْوة الإكبار

أعطيتَ أحمدَ رايةً[4] منصورة بركاتُها تَسْرى[5] من الأنصار

أركبته فى المُنْشَـآت كأنما جَهَّزته فى وجهــــة لِمَزار

من كل خافقة الشِّراع مُصَفِّقٍ منها الجَناحُ تَطير كل مَطار

ألقَتْ بأيدى الريح فضلَ عِنانها فتكاد تسبق لَمْحَةَ الأبصار

مثلَ الجياد تدافعتْ وتسابقتْ من طافح الأمواج فى مِضمار

لله منها فى المَجاز سَـــوابح وقفتْ عليك الفخرَ وهى جوارى

لما قصدتَ بها مراسىَ سبْتة عَطفَتْ على الأسوار عَطْف سِوار

لما رأتْ من صُبْح عزمك غُرَّةً محفوفة بأشــــعة الأنوار

ورأت جَبيناً دُونه شمس[6] الضُّحى لَبَّتك بالإجلال والإكبار

---

(١) كذا فى نفح الطيب . والمعارج : جمع معرج ، وهو الدرج والمصعد ؛ يريد أن الأغصان فى تفرعها وركوب بعضها بعضاً كالدرج . وفى الأصول : « معاشرها » .

(٢) الأعشار : جمع عشر ، ولعله يريد به هنا أجزاء الألحان التى ترددها الأطيار .

(٣) العشار : جمع عشراء ، وهى الناقة الحديثة العهد بالنتاج .

(٤) المراد بأحمد : السلطان أحمد بن أبى سالم المرينى الذى فتح المغرب بنصرة ابن الأحمر له ، وأزال منه دولة أبى زيان بن عبد العزيز بن أبى الحسن المرينى .

(٥) فى نفح الطيب : « تروى عن » مكان : « تسرى من » .

(٦) فى الأصول : « صبح » . وما أثبتناه عن نفح الطيب .

فأفَضْتَ فيها من نداك مواهباً [١] حَسُنَتْ مواقعها على التكرار
وأرَيْتَ أهل الغرب [٢] عزم مُغَرِّب قد ساعدته غرائب الأقدار
وخَطَبْتَ من فاسَ الجديدِ عقيلةً لَبَّتكَ طَوْعَ تَسَرُّعٍ وبِدار
مَا صدَّقُوا مَتْنَ الحديث بفتحها حتى رأوه فى مُتونِ شِفار
وتسمَّعوا الأخبارَ باستفتاحها والخُبْرُ قد يُغنى عَنِ الأخبار
قُولُوا لِقِرْدٍ [٣] فى الوزارة غَرَّه حِلْمٌ مَنَنْت به على مقدار
أسكنتَه من فاسَ جنةَ مُلكها مُتنعِّماً منها بدار قَرار
حتى إذا كَفَرَ الصنيعةَ وازدرى بحقوقها ألحقته بالنار
جَرَّعت نجْلَ الكاس [٤] كأساً مُرَّةً دَسَّت إليه الحَتفَ فى الإسكار
كَفَرَ الذى أوليته من نعمة لا تأنَسُ النعماء بالكفّار
فطرحتَه طَرْحَ النواة فلم يَفُزْ من رِعْيِ مُغْرِيه بغير فرار
لم يتفق لخليفة مثلُ الذى أعطى الإلهُ خليفةَ الأنصار

---

(١) فى الأصول : « مواسما » . وما أثبتناه عن نفح الطيب .
(٢) كذا فى نفح الطيب . والذى فى الأصلين ط ، م : « الشرق » .
(٣) يريد به الوزير لسان الدين بن الخطيب ، وكان ابن الأحمر « الغنى بالله » قد سمح له بسكنى فاس بقية حياته ، إلا أنه لما بلغه عنه أنه يغرى سلطان بنى مرين بتملك غرناطة أرسل فى طلبه ، إلى أن كان ما كان من محنة ابن الخطيب التى مرت فى الجزء الأول من هذا الكتاب ، فى حديث مفصل . (انظر صفحة ٢٢٥ وما بعدها ، من الجزء الأول) .
(٤) نجل الكاس : هو أبو بكر بن غازى بن الكاس ، وزير السلطان عبد العزيز ابن أبى الحسن المرينى والقائم بدولة ابنه أبى زيان من بعده ، وقد كان ابن الأحمر الغنى بالله طلب من السلطان ووزيره أن يسلما إليه لسان الدين بن الخطيب ، لما بلغه أنه يحرض السلطان عبد العزيز على تملك غرناطة ، فامتنع السلطان ، وامتنع وزيره من تسليم ابن الخطيب ، فكان ذلك سبباً فى مساعدة ابن الأحمر أبا العباس أحمد بن أبى سالم بن أبى الحسن المرينى على إقامة دولة بالمغرب الأقصى ، وانتزاع الملك من ابن عمه أبى زيان بن عبد العزيز الذى تولى بعد أبيه وكان طفلا ، نكاية فى وزيره أبى بكر ابن الكاس . (اقرأ تفصيل الموضوع فى تاريخ ابن خلدون وفى الاستقصا للسلاوى) .

لم أدرِ والأيامُ ذاتُ عجائبٍ ... تَردادها يحلو على التَّذكار

ألواءُ صُبْحٍ فى ثَنِيَّةِ مَشْرِقٍ ... أم راية فى جَحْفَلٍ جَرّار

وشهابُ أُفْقٍ أمْ سِنانٌ لامعٌ ... ينقضُّ نجماً[1] فى سماء غُبار [٢٠١]

ومناقبُ المولى الإمام محمـدٍ ... قد أشرقت أم هُنَّ زُهْرُ دَرَارى

فاق المـلوكَ بهمّةٍ عُلْوِيّةٍ ... مِنْ دونها نجْمُ السماء السارى

لو صافح الكفَّ الخضيبَ[2] بكفه ... فَجَرت بنهرٍ للمجرّة جارى

والشُّهْبُ تطمع فى مطالع أُفْقها ... لو أحرزتْ منـه مَنيعَ جِوار

سَلْ بالمشارق صُبْحها عن وجهه ... يفترُّ منه عن جبين نَهار

سَلْ بالغمائم صَوْبَها عن كفّه ... [تُنْبيكَ عن بَحْرٍ بها زخَّار][3]

[سَلْ بالبُروق صفاحها عن عزمه[3]] ... تُخبرْكَ عن أمْضَى شَبًا وغِرار

قد أحرز الشِّيَمَ الخطيرةَ عند ما ... أمْطَى العزائمَ صَهْوَةَ الأخطار[4]

إن يَلْق ذو الإجرام صَفحةَ صَفْحِه ... فَسَح القَبولُ له خُطا الأعذار

يا من إذا هبّت نواسمُ حَمْدِه ... أزرت بعَرْف الروضة المعطار

[يامَنْ إذا افْتَرَّت مَباسمُ بِشْرِه ... وهَبَ النفوسَ وعاش فى الإقتار][5]

يامن إذا طلعت شموس سُعوده ... تُعْشِى أشعّتُها قوى الأبصار

قَسماً بوجهك فى الضياء وإنه ... شمسٌ تُمِدّ الشمس بالأنوار

---

(١) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصول : « نارا » .

(٢) الكف الخضيب : المخضوبة ، ويطلق الكف الخضيب على نجم فى السماء ، تشبيها له بالكف .

(٣) هذا الشطر عن نفح الطيب .

(٤) يريد بالشطر الثانى من هذا البيت أنه جعل ظهر الأخطار مطية لعزائمه . وروايته فى الأصول ونفح الطيب : « أمضى ... » الخ . وما أثبتنا أشبه بالمعنى .

(٥) هذا البيت عن نفح الطيب وم . وروايته : « عاث فى الإقتار » وفيها غموض ، وفى م: « عاش فى الإقتار » . يريد أنه إذا سئل يجود بأعز ما يملك ويعيش مضيقا على نفسه .

قَسَما بعزمك في المَضاء وإنّه[١] سـيفٌ تُجرِّده يَدُ الأقدار
لَسَماحُ كفِّك كلما استوهبتُه يُزْرِى بغيث الدِّيمة المِدرار
لله حَضْرتك العليـــةُ لم تَزَلْ يُلقِى الغريبُ بها عصا التَّسيار
كم من طريد نازحٍ قذفت به أيدى النوى فى القفر رَهْن سِفار
بَلَّغته ما شاء مِن آماله فَسَلا عن الأوطان بالأوطار
صيّرت بالإحسان دارَك داره مُتِّعْتَ بالحُسْنَى وعُقْبى الدَّار
والخَلْق تعلم أنّك الغَوث الذى يُضْفِى عليهـــا وافِيَ الأستار
كم دعوة لك فى المُحول مُجابةٍ أغرت جُفونَ المُزن باستعبار
جارت مجارى الدمع من قَطْر الندى فَرَعى الربيعُ لها [حُقوقَ الجار][٢]
فأعاد وَجْهَ الأرض طَلْقاً مُشْرِقاً مُتضاحكا بمَباسِم النُّوار
يا مَن مآثره وفضل جهاده تحدَى القِطَارُ بها إلى الأقطار
حُطْتَ البلاد ومَن حَوَتْه ثغورها وكفى بسَعْدك حامياً لِذمار[٣]
فلرُبَّ بِكْرٍ للفتوح خطبتَها بالمشرفيـــة والقَنا الخَطّار
وعَقيلةٍ للكفر لمّا رُعْتها أخرستَ من ناقوسهـا المِهْذار [٢٠٢]
أذهبتَ من صَفْح الوجود كِيانها ومَحَوْتها إلّا مِنَ التَّذكار
عَمَروا بها جنّاتِ عَدْن زُخرِفت ثم انْثَنَوا عنهـــا دِيارَ بَوار
صَبَّحت منها روضةً مَطلولةً فأعدتَهـــا لِلْحَيْن مَوقِدَ نار
وأَسودُّ وجه الـكُفْر من خِزْى متى ما أحمرَّ وجهُ الأبيض[٤] البتّار

(١) فى الأصول: «قسما بوجهك فى اللقاء وإنه». والتصويب عن نفح الطيب.
(٢) التكملة عن نفح الطيب.
(٣) جاء هذا البيت فى الأصول متقدما على موضعه هنا بعد قوله: «صيرت بالإحسان». وقد راعينا الترتيب الذى ورد فى نفح الطيب.
(٤) فى الأصول: «المرهف». وما أثبتناه عن نفح الطيب.

وَلَرُبَّ رَوْضٍ للقنا[1] متأوِّدٍ ... نابَ الصَّهيلُ به عن الأطيارِ

مهما حَكَت زُهْرُ الأسنّة زَهرَه ... حَكَتِ السيوفُ مَعاطِفَ الأنهار

متوقِّد لَهَبُ الحديد بِجَوِّه[2] ... تَصْلَى به الأعداء لَفْحَ أُوار

فبكلّ مُلتفَتٍ صُقالٌ مُشْهَرٌ ... قَدَّاحِ زَنْدِ للحفيظة وَارِى

فى كفِّ أروعَ فوق نَهْدٍ سابحٍ ... مُتموِّجِ الأعطاف فى الإحْضار

من كلّ مُنحفز بلمحة بارقٍ ... يحمل السلاحُ به على طَيَّار

من أشهب كالصبح يَطْلُع غُرّةً ... فى مستهَلّ العَسْكر الجَرَّار

أو أدهمٍ كالليل إلا أنه ... لم يرضَ بالجَوْزاء حَلْىَ عِذار

أو أحمرٍ كالجمر يُذْكِى شُعلةً ... وقد ارتمى من بأسه بشَرار

أو أشقرٍ حَلّى الجمالُ أديمَه ... وكساهُ من زَهْوٍ جَلالَ نُضار

أو أشعلٍ[3] راق العيونَ كأنه ... غَلَسٌ يخالط سُدْفةً بنَهار

شُهْبٌ وشُقْرٌ فى الطِّراد كأنها ... رَوْضٌ تفتّح عن شَقيق بَهار

عوَّدْتَها أن ليس تَقْرُبُ مَنْهلاً ... حتى يُخالِطَ [بالدم المَوَّار][4]

يا ابنَ الملوك الذى أيامُه ... غُرَرٌ تَلوح بأوجه الأعصار

يَهْنِى لواءَك أن جَدَّكَ زاحفٌ ... بلواء خير الخلق للكُفّار[5]

لا غَرْوَ أنْ فُقْتَ الملوكَ سِيادةً ... إذ كان جَدّكَ سيّدَ الأنصار

السابقون الأولون إلى الهُدى ... والمُصْطفَوْن لنُصْرة المُختار

(١) القنا ، أى القناء (بالمد) قصره للشعر .

(٢) كذا فى نفح الطيب . والذى فى الأصل « بجده » . وما أثبتناه أولى بالسياق .

(٣) الأشعل : من الشعلة (بالضم) ، وهى البياض فى ذيل الفرس والناصية والقذال .

(٤) التكملة عن نفح الطيب .

(٥) يريد سعد بن عبادة الأنصارى سيد الخزرج ، وبنو الأحمر من سلالته . ويشير إلى حمل سعد لراية الرسول يوم فتح مكة .

مُتهلِّلون إذا النَّزيلُ عراهُمُ سَفَروا له عن أوجه الأقمار
من كل وَضَّاح الجبين إذا احْتَبَى تلقاهُ معصوباً بتــاج فَخَار(١)
قد لاث صُبْحاً فوق بَدْرٍ بعد ما لَبِس المكارمَ وارتدى بوَقَار
فاسأل ببَدْرٍ عن مواقفِ بأسِهمْ فَهُمُ تلافَوْا أمرَه ببِـــدار [٢٠٢]
لهمُ العوالى عن مَعالى فَخْرِها نَقَل الرواة عَوالىَ الأخبار
وإذا كتاب الله يتلو حَمْدَهُمْ [أوْدَى القُصُورُ عُنَّة الأشعار
يا بْنَ الذين إذا تُذُوكِر فخرُهم فَخَروا بطيب أرُومةٍ ونِجار
حقًّا لقد أوضحتَ من آثارهم(٢)] لمّــا أخذتَ لدينهم بالثَّار
أصبحتَ وارثَ مَجْدِهم وفَخارِهم ومُشرِّف الأعصار والأمصار
يا صادراً فى الفتح عن وِرد المُنَى رِدْ ناجحَ الإيراد والإصـدار
واهناً بفَتحٍ جاء يشتمِل الرِّضا جَذلانَ يَرْفُل فى حِلَى استبشار
وإليكَها مِلْءَ العيون وَسامةً حيَّتْك بالأبكار من أفكارى
تُجْرِى حُداةُ العيسِ طيبَ حديثها يَتعلَّلون به على الأكْوار
إن مَسَّهم لَفْحُ الهجير أبلَّهم منـــه نَسيمُ ثنائك المِعْطار
وتُميل مَن أصغى لها فكأنى عاطيتُه منها كئوس عُقَار
قَذَفَتْ بحورُ الفكر منها جوهراً لمّـا وصَفْتُ أناملاً ببِحَار
لا زلتَ للإســلام سِتْراً كُلَّما أمَّ الحَجيجُ البيتَ ذا الأستار
وبَقيتَ يابدْرَ الهُدَى تَجْرِى بما شاءتْ عُلاكَ ســوابقُ الأقدار

شعر اختاره للمؤلف أيضاً من كتاب ابن الأحمر

انتهى ما تعلق به الغرض من هذا التأليف المُلوكى، وقد أتيت به بحروفه

(١) يريد إذا جلس فى ندى قومه محتبيا على عادة العرب ، كان على رأسه تاج الفخار والرياسة والشرف .
(٢) التكملة عن نفح الطيب .

من أوله إلى هذا الموضع ، وتتبّعه يطول ، ولكنى أنتقى منه نُبذة زائدة على ما سبق ، من مواضع شتى ، فنقول :

في مدح الغنى بالله وتجديد الدولة الأحمدية

قال المؤلف رحمه الله : ومن ذلك[١] أثناء وجّهه مولانا الجد رحمه الله لتجديد الدولة الأحمدية[٢] ، صدر عام تسعة وثمانين وسبع مئة :

هَبَّ النسيمُ على الرياض مع السَّحَرْ	فاستيقظتْ فى الدَّوْح أجفانُ الزَّهَرْ
ورمَى القَضيبُ دَراهماً مِن نَوْرِه	فاعتاض من طَلِّ الغمام بها دُرَر
نَثَر الأزاهرَ بعد ما نظم النَّدى	يا حُسْنَ ما نَظَم النسيمُ وما نَثَر
قُم هاتِها والجوُّ أزهرُ باسمٌ	شَمْساً تَحُلُّ من الزجاجة فى قَمَر
إنْ شَجَّها بالماء كفُّ مُديرها	تَرميه من شُهُب الحَباب بها شَرَر
نارِيّة نُورِيّة من صَـــــونِها	يَقِدُ[٣] السِّراجُ لنا إذا الليلُ اعتكر
لم يُبْقِ منها الدهرُ إلا صِبْغَةً	قدأرعشَتْ فى الكأس من ضَعْف الكِبَر
من عهد كِسْرى لم يُفَضَّ خِتامها	إذ كان يَذخَرُ كَنزَها فيما ذَخر
كانت مُذاب التِّبْر فيما قد مضى	فأحالها ذَوبَ اللُّجَين لِمَنْ نظر
جَدِّدْ بها عُرْس الصَّبُوح[٤] فإنها	بِكْر تُحَيِّيها الكِرامُ مع البُكَر
وابلُل بها رِيقَ[٥] الأَصيل عَشيّة	والشمس من وَعْد الغروب على خَطَر

[٢٠٤]

(١) يريد : من شعر ابن زمرك فى سلطانه الغنى بالله .
(٢) تولى أبو العباس أحمد بن أبى سالم المرينى سلطنة المغرب الأقصى مرتين ، بمساعدة الغنى بالله بن الأحمر ملك غرناطة ، الأولى من سنة ٧٧٦ إلى سنة ٧٨٦ ؛ والثانية من سنة ٧٨٩ إلى سنة ٧٩٦ وهذه هى المشار إليها هنا . (انظر الاستقصا للسلاوى) .
(٣) فى نفح الطيب : « قدح » .
(٤) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصل : « العروس » .
(٥) فى نفح الطيب : « رتق » . وهو تحريف .

مُحْمرّةٌ مُصـفرّةٌ قـــد أظهرتْ خَجَل المُريب يشوبه وَجَلُ الحَذِرْ

من كفّ شَـــفّافٍ تَجسّد نورُه من جَوْهرٍ لألاءُ بَهْجته[1] بَهَر

تَهوَى الصُّـدورُ كمالَه وتودّ أن لَوْ أُوتيتْ منه المحاسنَ والغُرر

قد خَطّ نُونَ عِـذاره فى خَدّه فلَمانِ من آسٍ هنـاك ومن شَعَر

وَالَى عليك بها الـكئوسَ وربّما يَسـقيك من كأس الفُتور إذا فَتَر

سُـكْرُ النّـدامَى من يدَيْه ولحظه مُتَعاقِبٌ مهما سَـقَى وإذا نظر

حيث الهَدِيلُ مع الهدير تناغَيا فالطيرُ تشـدو فى الغصون بلا وَتَر

والقُضْبُ مالت للعنـاق كأنها وَفْد الأحبّـة قادمين من السّفر

مُتلاعباتٍ فى الحُلِيّ ينوب فى وَحناتهن الوَرْدُ حُسْـناً عن خَفَر

والنّرجس المَطلولُ يَرْنو نحوه بلَواحظٍ دمْعُ النّـدَى منها انهمر

والنهر مَصقولُ الحُسام متى يَرِد درعَ الغَدير مُصفّقًا فيه [صَدَر][2]

يجرى على الحَصْـباء وهى جواهرٌ مُتكسِّرًا منْ فوقهـا مهما عَثَر

هل هذه أم روضـة البُشرى التى فيها لأرباب البصائر مُعتَـبَر

لم أدرِ مِنْ شَغَفٍ بها وبهـــذه مَنْ منهما فَتَن القـلوب ومن سَحَر

جاءت بها الأجفانُ[3] مِلْءُ ضلوعها مِلْءُ الخواطر والمَسامع والبَصَر

ومُسافرٍ فى البَحر مِلْءُ عِنانه وافَى مع الفَتح المُبين على قَدَر

قادته نحوك بالخطام كأنه جَمَل يُساق إلى القِياد وقد نفر

وأراه دينُ الله عِزّةَ أهـــله بك يا أعفّ القادرين إذا قَدَر

(١) فى نفح الطيب : « مهجته » .

(٢) التكملة عن نفح الطيب .

(٣) يريد بالأجفان : المراكب ؛ الواحد : جفن . وهى كلمة أندلسية ، ذكرها دوزى بهذا المعنى فى تكملة المعاجم العربية .

[٢٠٠]

يا فخرَ أندلسٍ وعصمة أهلها ... لله سِرٌّ في اختصاصك قد ظهرْ
كم مُعْضِلٍ من دائهـــا عالجتَه ... فشفيتَ منــــه بالبدار وبالبِدَر
ماذا عسى يصـف البليغُ خليفةً ... والله مَا أيامُـــــه إلا غُرَر
وَرِثْتَ هذا الفخرَ يا ملكَ الهُدى ... عن كل مَنْ آوى النبيَّ ومَنْ نصر
من شاء يعرفُ فخرهم وكمالهم ... فليتلُ وحيَ الله فيهم والسِّيَر
أبناؤهم أبناء نَصْرٍ بَعْـــــدَهُمْ ... بسيوفهم دينُ الإله قد انتصر
مولايَ سعدُك والصباحُ تشابها ... وكلاهما في الخافقَين قد اشتهر
هذا وزير الغرْب عَبْــــدٌ آبق ... لم يُلْفِ غيرَك في الشدائد مِنْ وَزَر[1]
كَفَر الذي أوليتَه من نعمــةٍ ... والله قد حَتَمَ العــذاب لمن كفر
إن لم يَمت بالسيف مات بغيظه ... وصَـلِي سعيراً للتأسف والفِكَر[2]
ركب الفرار مَطيَّة ينجو بهـا ... فجَرَت به حتى استقر على سَقَر
وكذا أبو حَمْوٍ وكان حِمامــــه ... قد حُمَّ وهو من الحياة على غَرَر[3]
بَلَّغتَه — واللهُ أكبرُ شاهدٍ — ... ما شاء من وطن يَعِزّ ومن وَطَر
حتى إذا جحدَ الذي أوليتَه ... لم تُبْقِ منـــه الحادثاتُ ولم تَذَر
في حاله والله أعظمُ عِـــــبْرةٍ ... لله عَبْـــــد في القضاء قد اعتبر
فاصْــــبر تَنَلْ أمثالها في مثله ... إنّ العواقب في الأمور لمن صــبَر
رِدْ حيث شئت مُسَوَّغا وِردَ المُنَى ... فالله حسبُك في الوُرود وفي الصَّدَر

---

(١) يريد: الوزير لسان الدين بن الخطيب.

(٢) يشير إلى ما جرى على الوزير ابن الخطيب من الخنق ثم الحرق.

(٣) هو: أبو حمو موسى بن يوسف الزياني سلطان المغرب الأوسط، من بني عبد الواد، وكان بينه وبين ملوك المغرب الأقصى من المرينيين محاذبات وحروب كثيرة فصلها ابن خلدون في تاريخه، والسلاوي في الاستقصا.

لا زلتَ محروساً بعـين كلاءة ... مادام عينُ الشمس تُعْشِى مَن نَظَرْ

ومنها، وقد أضاف إلى ذلك من التغزّل طوْعَ بداره، وحُجَّةَ اقتداره، فقال :

والعُودُ فى كفّ النديم بِسِرّ ما ... تُلْقِى لنا منـه الأناملُ قد جَهَرْ
غنَّى عليه الطيرُ وهو بِدَوْحه ... والآنَ غنَّى فوقه ظَبْىٌ أغر
عُود ثَوَى حِجْر القضيب رَعَى له ... أيام كانا فى الرياض مع الشَّجَر
لاسيما لما رأى من ثغره ... زهراً وأين الزَّهر من تلك الدُّرر !
ويظُن أنّ عِذارَه من آسِـه ... ويظنّ تُفَّاحَ الخُدود من الثَّمَر
يَسْبِى القلوبَ بلفظه وبلَحْظه ... [وَافتنَتى][1] بين التكلّم والنظر
قد قَيَّدته لأنسـنا أوتارُه ... كالظبى قَيِّد فى الـكناس إذا نَفَر
[٢٠٦]
لم يُبْلِ قلبى قبلَ سَمْع غنائه ... عُذْر سَلَب العقولَ وما اعتذر
حَسَّ القلوب بجَسِّـه أوتارَه ... حتى كأنّ قلوبنا بين الوَتَر
نَمَّتْ لنا أَلحـانُه بجميع ما ... قد أُودعتْ فيه القلوبُ من الفِكَر[2]
يا صامتاً والعُـود تحت بَنَانه ... يُغْنيك نُطْقُ الخُبْرِ فيه عن الخَبَر
أغنَى غناؤك عن مُدامك يا ترَى ... هل من لحاظك أم بنانك ذا السَّكَر
باحتْ أناملُكَ اللّدانُ بكلّ ما ... كان المُتيَّمُ فى هواه قد سَـتَر
ومُقاتِل ما سَلّ غير لحاظه ... والرمحَ هزّ من القَوام إذا خَطَر
دانت له منّا القلوب بطاعة ... والسيف يَملكُ ربَّه فيمن قَهَر[3]

فى شكر السلطان لنعمة وصلته فى عاشوراء

ثم قال بعد إيراد جملة من كلامه :

وقال شاكراً لنعمة وصلتْه من مولانا رحمة الله عليه فى عاشوراء :

(١) تكملة عن نفح الطيب .
(٢) ورد هذا البيت فى الأصل محرفا ومحذوف بعض الكلمات . وقد أثبتناه عن نفح الطيب .
(٣) فى نفح الطيب : « مهما قهر » .

مولاىَ يا بْنَ السابقين إلى العُلا والرافعين لواءها المَنْشُــورَا
إن لوحِقُوا(١) فى المَعْلُوات(٢) فإنهم طَلَعُوا بآفاق العَـلاء بُدورا
أو فُوخِروا فى المَـكْرُمات فإنهم نَظَمُوا بأسلاك الفَخار شُذورا
أبناء أنصـــار النبىّ وصحبه فى الذكر أصبح فخرُهم مذكورا
والمؤثرين ورُبَّنا أثنى بهـــا فى الحشر خَلَّد وَصْفَهُمْ مَسْطورا(٣)
فاضت علينا مِن نَداك غمائمٌ وتَفجرتْ مِن راحتَيْك بُحورا
مِن كفّ شَفّاف الضياء تخالُهُ لصفاء جوهره تَجَسَّـد نُورا
نِعَمٌ مُنوّعـة تعـدَّد وَفْرُها أعجزتَ عنها شُكْرِىَ الموفورا
فى مَوْسِم للدِّين قد جـدَّدته وأقَمْتَ فينا عيـــدَه المشهورا
أضعافَ ما أهديتنا(٤) من مِنَّةٍ تُهْدِى إليك ثوابَها عاشورا
وعلى الطريق بَشائرٌ محمودة ألقاكَ جَذْلانًا بهـا مسرورا

في وصف قرنفل بجبل الفتح

ثم قال : ومن لفظه فى وصف القَرنفل الصعْب الاجتناء بجبل الفتح ، وقد وقَّع له مولانا الغنى بالله بذلك ، فارتجل قطعاً ، منها :

أتونى بنُوّار يَروق نَضَارَةً كخد الذى أهوى وطيب تنفُّسِهْ
وجاءوا به من شاهقٍ مُتَمنِّعٍ تَمَنُّعَ ذاك الظَّبْى فى ظِل مَكْنِسه
رعى الله مِنّى عاشـقاً متقنِّعاً بزَهر حكَى فى الحُسن خَدَّ مُؤَنِّسه

[٢٠٧]

(١) كذا فى (ط) وفى نفح الطيب « : لوحظوا » .
(٢) المعلوات : جمع معلوة (كمكرمة) . يريد بها المعالى ، ولم نجد المعلوة (بوزن مكرمة) فى المعاجم التى بين أيدينا .
(٣) يشير إلى قوله تعالى فى سورة الحشر فى مدح أنصار النبى : (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) .
(٤) فى النسخة المخطوطة من نفح الطيب المحفوظة بدار الكتب (برقم ٣٦٠) : «حلتنا»

وإن هبَّ خَفَّاق النسيم بنفحة حَـكت عَرفَه طيباً قَضَى بتأنُّسهْ

ومنها :

رعَى الله زهراً ينتمى لقرنفُلٍ حَكى عَرفَ مَنْ أهْوَى و إشراقَ خدّه
وَمنبتُهُ فى شاهق مُتمنّعٍ كما امتنع المَحبوبُ فى تيه صَدّه
أميلُ إذا الأغصانُ مالتْ برَوْضة أعانق منهـا القُضْبَ شوقاً لقدّه
وأهفو لخَفّاق النسيم إذا سَرَى وأهوَى أريجَ الطيبِ من عَرف ندّه

ومنها :

يَعِزُّ بعَينى أن أرَى الزهر يانعاً وقد نازعَ المحبوبَ فى الحُسن وصفَهُ
وما أبصرتْ عينى كزَهرِ قرنفُلٍ حَكى خَدَّ من يَسْبِى الفؤادَ وعَرْفه
تَمنَّع فى أعْلَى الهضاب لمُجْتنٍ تمنُّعَـه منّى إذا رُمْت إلْفَه
وفى جَبل الفَتح اجتنَوْه تَفاؤُلا بفَتحِ لباب الوَصْل يَمنح عَطفَه
وما ضرَّ ذاك الغُصْنَ وهو مُرنَّح إذا ما ثنَى نحو المُتيَّم عِطفَه[(1)]

فى تهنئة مولاه بوصـول القائد خالد من تلمسان

ثم قال : ومن قصائده التى يودّ الصَّباح سناها ، والنسيم اللَّدْن رقّة معناها ، يهنئ مولانا الجد رضى الله عنه ، عند وصول خالصة مقامه ، وكبير خُدّامه ، القائد خالد ، رحمه الله تعالى ، من تِلمْسان بالهديه ، وتجديد المقاصد الوديه ، ووافق استنشاق راحة من الذات العليّه ، ومن بعض فروع دَوحتها الزكيّه :

أدِرْها ثلاثاً من لحاظك واحبس فقد غالَ منها الشُّكرُ أبناء مَجلس
إذا مانهانى الشَّيبُ عن أكؤس الطِّلا تُديرُ علىّ الخمرَ منها بأكؤس
عَذيرىَ من لحظٍ ضعيف وقد غدا يُحكّم منّا فى جُسوم وأنفس

(١) هذا البيت عن نفح الطيب .

وروضِ شبابٍ ماسَ غُصْنُ قَوامه وفتّح فيه اللحظُ أزهارَ نَرجس
وما زال وَرْدُ الخدّ وهو مُضعَّف يُغيرُ أقاحَ الثغر طِيبَ تنفّس
وكم جالَ طَرْفُ الطَّرْف في روض حُسْنه يُقيّدُهُ فيه العذارُ بسُنْدس
أما وليالي الوَصْلِ في رَوضة الصِّبا ومألفِ أحبابي وعَهدِ تأنّسي
لئن نَسِيتْ تلك العهودَ أحبّتي فقلبي عهودَ العامريّة ما نسي

[٢٠٨]

وحاشا لنفسي بعد ما افترّ فَوْدُها من الشَّيب عن صُبْحٍ به مُتنفَّس
وألبَسَها ثوبَ الوَقار خليفةٌ [به لَبِس الإسلامُ أشرفَ مَلْبَس][(1)]
وجدّد للفتح المُبينِ مَواسمًا أقام بها الإيمانُ أفراحَ مُعْرِس
وأوْرَثَه العَلْياء كلُّ خليفةٍ نَماهُ إلى الأنصار كلُّ مُقَدَّس
فيا زاجرَ الأظعان وهي ضَوامرٌ بغير الفَلا والوحش لم تتأنَّس
إذا جئتَ من دار الغَنيّ برَبّه مُناخَ العُلا والعزّ فانزل[(2)] وعَرّس
فإن شئتَ من بحرِ السَّماحة فاغترف وإن شئتَ من نُور الهداية فاقبس
أمولايَ والى السعدُ ملكَ ولايةٍ[(3)] أنارتْ بها الأكوانَ جَذْوةُ مُقْبس
إذا شئتَ أن تَرمِي القَصِيَّ من المُنَى تدورُ لك الأفلاكُ مرفوعةَ القِسى
فترمي بسهم من سُعودك صائبٍ سديدٍ لأغراض الأماني مُقَرْطِس[(4)]
أهنّيك بالإبلال ممّن شفاؤه شفاؤك فاسكر مَن تُلاقي وقدِّس
ودَعْني أرِد يُمناكَ فهي غَمامة تُبَخّل صوتَ العارض المُتبجّس[(5)]

---

(١) التكملة عن نفح الطيب .

(٢) في نفح الطيب : « فاعقل » .

(٣) رواية هذا الشطر في نفح الطيب : « أمولاي إن السعد ملك لآية » .

(٤) يقال : رمى فقرطس ، إذا أصاب الغرض .

(٥) العارض : السحاب المعترض في الأفق . والمتبجس : السحاب المنهمر .

أُقبِّلُ منها راحةً إِثْرَ راحــةٍ أتتك بها الرُّكبان من بَيْتِ مَقْدس
ومَن نَسَبَ الفتحَ المُبينَ ولادةً إليـــه بغير الفخر لم يتأسّس[1]
فيأيهـــــا المولى الذى بكماله خلائفُ هذا العصر فى الفخر تأتسى
[لأمسَتْ[2]]موسى[3] منعوادىسَمِيّه ولولاك لم يبرح بخيفة مُوجِس
بعثتَ بميمون النَّقيبة، فى اسمــه خُـــلودٌ لعزٍّ ثابتٍ متأسس
فحاءك بالمـال العريض هَـديّةً بها الدينُ أثوابَ المسرّة يكتسى
وشفّعها بالصافنات كأنهـــا وقد راق مَرْآها جآذر مَـكْنس
تَنُصُّ من الإشراف جيدَ غزالة وتَرْنو من الإيجاس عن لحظ أشوس
لك الخيرُ، موسى مثلُ موسى كلاهما بغير شِـــعار الوُدّ لم يتلبّس
فلا زِلْتَ فى ظِل النّعيم وكلُّ من يعاديك لا ينفكّ يَشْقَى بأبؤس
عليكَ ســلامٌ مثل حمدك عاطرٌ تنفَّس وجه الصبح عنه بمعْطِس

ى مولد عام خمسة وستين

ثم قال بعد ذكر كثير من نظمه وبعض ميلادياته :

وأنشد فى مولد عام خمسة وستين :

أعلِّلُ النّسْما إن صافحت رَوْض نَعان تُؤَدِّى أمانَ القلب عن ظَبية البانِ
وماذا على الأرواح وهى طَليقة لو احتملتْ أنفاسُها حاجَةَ العانى
وما حالُ من يستودعُ الريحَ سِرَّه ويطلُبها وهْىَ النَّموم بكِتْمان
وكالطيفِ أستقرِيه فى سِنَةِ الكَرى وهل تنفَعُ الأحلامُ غُلّةَ ظمآن

[٢٠٩]

(١) أى لم يقم دعواه على أساس .

(٢) التكملة عن نفح الطيب .

(٣) موسى : هو موسى بن أبى عنان بن أبى الحسن المرينى ، قامت له دولة بالمغرب الأقصى بمساعدة ابن الأحمر من سنة ٧٨٦ إلى سنة ٧٨٨ هـ . أما سميه فلعله يقصد به أبا حمو موسى بن يوسف الزيانى من بنى عبد الواد ، سلطان المغرب الأوسط ، وكان كثير الشغب على ملوك المغرب الأقصى .

أسائلُ عن نجد وسرى صَبابتى ... مَلاعب غِزلانِ الصَّريم بنَعمانِ
وأُبدى إذا ريح الشمال تنفَّست ... شمائلَ مُرتاحِ المَعاطفِ نَشوان
عُرِفتُ بهذا الحبِّ لم أدر سَلوة ... وأنَّى لمسلوب الفؤاد بسُلوان
فيا صاحبىْ نَجوايَ والحبُّ غاية ... فمِنْ سابقٍ جَلَّى مَداه ومن وانى
وراءكما ما اللوم يَثْنى مَقادتى ... فإنِّىَ عن شان المَلامة فى شان
وإنى وإن كنت الأبىَّ قيادُه ... ليأْسِرنى حُبُّ الحِسان وَيَنهانى
ولا زِلتُ أرعى العهدَ فيمن يُضيعه ... وأذكر إِلْفى ما حييت وينسانى
فلا تنكرا ماسامَنى مَضَض الهوى ... فمِنْ قبلُ قد أودى بقيس وغَيلان[1]
لِيَ اللهُ إمَّا أومض البرقُ فى الدُّجى ... أُقلِّب تحت الليل مُقلة وَسنان
وإن سُلَّ من غِمد الغمام حُسامُه ... بَرَى كبدى الشوقُ المُلِمّ وأضنانى
تراءى بأعلام الثنيَّـــــة باسماً ... فأذكرنى العهدَ القديمَ وأبكانى
أُسامِرُ نجمَ الأُفق حتى كأنَّنا ... وقد سَدلَ الليلُ الرِّواقَ حليفان
ومِمَّا أُناجى الأُفقَ عنه بالجَوى ... فأرعَى له سَرْح النجوم ويَرْعانى
ويُرسل صَوبَ القَطر من فَيض أدمُعى ... ويَقْدح زَنْدالبَرْق من نار أشجانى
وضاعف وجدى رَسْمُ دارٍ عهدتُها ... مَطالعَ شُهبٍ أو مَراتِعَ غِزلان
على حين شِربُ الوصل عيرُ مصرَّد ... وصَفْو الليالى لم يُكدَّر بهجران
لئن كدّرت عينى الطُّلولُ فإنها ... تَمُتُّ إلى قلبى بذكرٍ وعِرفان
ولم أرَ مثلَ الدمع فى عَرَصاتها ... سَقَى تُرْبَها حينَ استهلَّ وأظمانى
ومماشجانى أن سَرَى الركبُ مَوْهِنًا ... تُقاد به هُوج الرِّياح بأرسان
غَوارب فى بحر السَّراب تخالُها ... وقد سَبَحت فيه مَواخِرَ غِربان

(١) قيس : المراد به قيس بن الملوح مجنون بنى عامر . وغيلان : ذو الرمة الشاعر .

على كل نضو مثله فكأنما ... رمى منهما صدرَ المفازة سهمان
ومن زاجرٍ كوماءَ مُخْطَفة الحشى ... توسَّد منها فوقَ عوجاءَ مرنان
نشاوى غرامٍ يستميل رءوسهم ... من النوم والشوق المبرّح سُكْران
أجابوا نداء البين طوعَ غرامهم ... وقد تُبلِغُ الأوطارَ فُرقةُ أوطان
يؤمّون من قبر الشفيع مثابةً ... تَطَلَّعُ منها جنةٌ ذاتُ أفنان
إذا نزلوا من طيبة بجواره ... فأكرمُ مولًى ضمَّ أكرمَ ضيفان [٢٦٠]
[بحيثُ علا الإيمانُ وامتد ظلّه ... وزان حلَى التوحيد تعطيلُ أوثان](١)
مَطالعُ آياتٍ مثابةُ رحمةٍ ... معاهدُ أملاكٍ مَظاهر إيمان
هنالك تصفو للقبول موارد ... يُسقَّون منها فَضلَ عفوٍ وغُفران
هناكَ تُؤدَّى للسلام أمانة ... يُحييهمُ عنها بِرَوْحٍ وريحان
يُناجون عن قُرْبٍ شفيعَهم الذى ... يؤمله القاصى من الخلق والدانى
لئن بلغُوا دُونى وخُلِّفْتُ إنه ... قضاءٌ جرى من مالك الأمر ديَّان
وكم عَزْمةٍ مَنَّيْتُ نفسىَ صَرْفها ... وقد عرَفَتْ منى مَواعدَ ليّان(٢)
إلى الله نشكوها نفوساً أبيّة(٣) ... تَحيد عن الباقى وتغترُّ بالفانى
ألا ليتَ شعرى هل تُساعدنى المُنَى ... فأتركَ أهلى فى رضاه وجيرانى
وأقضى لُبانات الفؤاد بأن أرى ... أُعفِّر خدِّى فى ثَراه وأجفانى
إليكَ رسولَ الله دَعوةَ نازحٍ ... خَفُوق الحَشَى رهن المطامع هَيْمان
غريبٍ بأقصى الغرب قَيَّد خَطْوَه ... شَبابٌ تَقضَّى فى مَراحٍ وخُسران

---

(١) هذا البيت عن نفح الطيب (ج ٣ ص ٢٥ طبعة الأزهرية).
(٢) الليان (بكسر اللام وفتحها): المطل.
(٣) كذا فى نفح الطيب. يصف النفوس بالجموح والامتناع. والذى فى الأصل: «أبة». ولا معنى لها.

يُجِدُّ اشتياقاً للعقيق وبانه ويَصبو إليها ما استجدّ الجديدان
وإن أومض البرقُ الحجازى مَوْهِناً[١] يُرَدِّدُ فى الظلماء أَنَّةَ لهفان
فيامُولِىَ الرُّحمى ويا مُذهب العمى ويامُنجِد الغَرْقَى ويامُنقذ العانى
بسطتُ يدَ المحتاج ياخيرَ راحم وذنبى ألجانى[٢] إلى موقف الجانى
وَسيلتىَ العُظمى شفاعَتُك التى يلوذ بها عيسى وموسى بن عِمران
فأنت حبيبُ الله خاتَم رُسْله وأكرمُ مخصوص بزُلْفى ورضوان
وحسْبُك أن سمّاك أسماءه العُلا وذاك كمال لا يُشاب بنُقْصان
وأنت لهذا الكون علّة كَوْنه ولولاك ما امتاز الوجود بأكوان
ولولاك للأفلاك لم تَجْلُ نَيِّراً ولا قُلِّدَتْ [لَبَّاتُهنّ بشُهْبان][٣]
خُلاصةُ صَفْو المَجْد[٤] من آل هاشم ونُكْتة سرّ الفخر من آل عدنان
وسيّد هذا الخلق من نسل آدم وأكرم مبعوث إلى الإنس والجان
وكم آيةٍ أطلعتَ فى أُفق الهُدى يَبين صباح الرشد فيها ليَقظان
وما الشمسُ يَجلوها النهارُ لمُبصر بأجلَى ظهوراً أو بأوضح برهان
وأكرِمْ بآياتٍ تحدّيتَنا بها ولا مثل آيات لمحكم فُرقان
وماذا عسى يُثنى البليغُ وقد أتى ثناؤك فى وَحىٍ قديم[٥] وقرآن
[٢٦١] فصلّى عليك الله ما انسكب[٦] الحيا وما سَجَعَتْ وَرْقاء فى غُصُن البان

(١) الموهن : نحو من نصف الليل ، أو بعد ساعة منه .
(٢) ألجانى : يريد : « ألجأنى » بالهمز ، فسهل للشعر .
(٣) التكملة عن نفح الطيب .
(٤) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصل : « الخلق » ، ويستقيم المعنى بهذا أيضا ، غير أن ما أثبتناه يلائم الشطر الثانى من البيت .
(٥) فى نفح الطيب : « كريم » .
(٦) كذا فى نفح الطيب . والذى فى الأصل : « انسبك » ، ولعله تبديل من الناسخ .

وأيّد مولانا ابنَ نَصْر فإنه لأشرفُ مَنْ يُسْمَى لمُلْك وسلطان
أقام — كأبْرُضيك — مولدَكَ الذى به سَفَر الإسلام عن وجه جَذْلان
سَمِيُّ رسول الله ناصر دينـه معظِّمه فى حال سرّ وإعلان
ووارثُ سرّ المجد من آل خَزْرج وأكرمُ من تَنْمِى قبائلُ قحطان
ومُرْسِلُها ملْء القضاء كتائباً تَدِين له غُلْبُ الملوك بإذعان
حدائقُ خُضْرٌ والدُّروع[1] غدائر وما أنبتت إلا ذوابلَ مُرّان
تَجاوَبُ فيها الصاهلات وترْتمى جوانبها بالأسْد منْ فوق عِقْبان
فمن كل خَوّار العِنان قد ارتمَى به كلُّ مطْعام العشيّات مطْعان
ومُورِدها ظَمْآى الكُعوب ذوابلا ومُصْدرها من كل أملدَ ريّان
ولله منها والرّبوع مَواحل غمام نَدًى كَفّتْ به المَحْلَ كَفّان
إذا أخلف الناسَ الغمامُ وأَمْحَلُوا فإن نداه والغمامَ لسِيّان
إمامٌ أعادَ المُلْك بعـــد ذهابه إعادة لا نابى الحُسام ولا وانى
فغادر أطلالَ الضّلال دَوارسًا وجدّد للإسلام أرفعَ بُنْيان
وشَيّدها والحمدُ يشْهد دولةً مَحافلُها تُزْهَى بيُمْن وإيمان
وراق منَ الثّغر الغريب ابتسامُهُ وهَزَّ له الإسلامُ أعطاف مُزْدان
لك الخيرُ ما أسْنَى شمائلَكَ التى يُقصِّر عن إدراكها كلُّ إنسان
ذَكاء إياس فى سَماحة حاتم وإقدام عمرو فى بَلاغة سَحْبان
أمولاىَ ما أسْنَى مَناقِبَكَ التى هِىَ الشُّهْبُ لا تُحْصَى بعدّ وحُسْبان
فلا زلتَ ياغوثَ البلاد وأهلها مُبلِّغ أوطار مُمهِّـــد أوطان

في مولد سنة سبع وستين وسبع مئة

ثم قال بعدَ سرْد ميلاديّة ، وأنشد ذلك فى مولد سنة سبع وستين وسبع مئة
وألم فى أخْرياتها بوصف المَشْوَر الأسْنَى ، الرفيع المَبْنى :

(١) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصل : « والدموع » . وهو تحريف .

زار الخيال [بأيْمَنِ الزَّوراء](١) فجلا سَناه غياهبَ الظلْماء
وسَرى مع النَّسمات يَسحب ذيلَه فأتت تَنِمّ بعَنْبرٍ وكِباء(٢)
هـذا وما شىء ألذّ من اللُّقى إلا زيارتُه مع الإغفاء
بتْنا خَيالين التحفنا بالضُّحَى والنَّجْم ما نخشى من الرُّقباء
حتى أفاق الصبح من غَمراته وتجاذبت أيدى النسيم ردائى

[٢٦٢]

يا سائلى عن سِرّ من أحْببته السرُّ عنـدى مَيِّت الأحياء
تالله ما أشكو المحبة والهوى لسوَى الأحبة أو أموتَ بدائى
يا زَين(٣) قلْبى لستُ أبرَح عانياً أرضَى بسُقْمى فى الهوى وعَنائى
أبكى وما غيرُ النَّجيع مدامعِى أذْكى ولا ضَرَمٌ سِوى أحشائى
أهْفو إذا تهفو البروق وأنثنى لِسُرَى النواسِم من رُبا تَيْماء
بالله يا نَفَس الحِمَى(٤) رِفقـا بمن أغريتـه بتنفُّس الصُّعَداء
عجبًا لَهُ يَنْدَى على كَبِدى وقد أذكى بقلبى جمْـرةَ البُرَحاء
يا ساكِنى البطحاء أىُّ لُبانة لى عنـدكم يا ساكِنى البَطحاء
أتُرَى النَّوى يوما تَخيبُ قِداحها ويفوزَ قِدْحِى منكمُ بلقاء
فى حَيِّكم قمرٌ فؤادى أفْقهُ تَفْديه نفسِى مِنْ قريب نائى
لم تُنْسنِى الأيامُ يومَ وَداعِـه والرَّكبُ قد أوْفَى على الزَّوراء
أبكِى ويَبْسِم والمحاسنُ تُجْتَلَى فعلِقْتُ بين تبسُّم وبُكاء
يا نظرة جادت بها أيدى النوى حتى استهلَّت أدمُعى بدماء

(١) التكملة عن نفح الطيب .
(٢) الكباء (بالكسر) : عود البخور ، أو ضرب منه .
(٣) فى النسختين المخطوطتين من نفح الطيب : « يادين » .
(٤) كذا فى نفح الطيب . طبعة الأزهرية ، أى ياريح الحمى . وفى ط : « يا ناسما نسم الحمى » .

مَن لى بثانيةٍ تُنادى بالأسَى : «قَدْكَ اتَّئِد أسْرَفْتَ فى الغُلَواءِ»(١)
ولَرُبَّ ليلٍ بالوِصال قطعتُه أجلو دُجاه بأوْجهِ النُّدماءِ
أنْسَيْتُ فيه القلبَ عادةَ حلمه وحَثَثْتُ فيه أكْؤُسَ السَّرّاءِ
وجَرَيْتُ فى طَلَق التصابى جامحا لا أنثنى لمَقادةِ النُّصَحاءِ
أطوى شَبابى للمشيب مَراحلاً برَواحلِ الإصباحِ والإمساءِ
يا ليتَ شعرى هل أرَى أطْوى إلى قَبْرِ الرسول صحائفَ البيداءِ
فتعليبَ فى تلك الربُوعِ مَدائحى ويطولَ فى ذاك المَقامِ ثَوائى
حيث النبوّة نورُها متألِّق كالشمس تُزْهَى فى سَنًى وسَناءِ
حيثُ الرسالة فى ثَنيَّة قُدْسِها رَفعتْ لهَدْىِ الخَلق خيْرَ لواءِ
حيثُ الضريحُ ضريحُ أكرم مُرْسَلٍ فَخْرِ الوجود وشافعِ الشفعاءِ
المُصْطَفَى والمرتَضَى والمجْتَبَى والمُنْتَقَى من عُنصر العَلياءِ
خيرِ البرية مجتباها ذُخرِها ظِلِّ الإلٰه الوارفِ الأفياءِ [٢٦٣]
تاجِ الرِّسالة خَتْمِها وقِوامِها وعمادِها السّامى على النُّظَراءِ
لولاه الافلاك ما لاحتْ بها شُهُبٌ تُنيرُ دَياجِىَ الظَّلْماءِ
ذو المعجزات الغُرِّ والآىِ التى أكْبِرْنَ عن عَدٍّ وعن إحصاءِ
وكَفاكَ رَدُّ الشمس بعد غروبها وكفاكَ ما قد جاء فى الإسراءِ
والبدرِ شُقَّ له وكَمْ من آيةٍ كأناملٍ جادت(٢) بنَبْعِ الماءِ
وبليلة الميلاد كم من رحمةٍ نَشَر الإلهُ بها ومن نَعماءِ
قد بَشَّر الرسْلُ الكرامُ ببعثه وتقدّم الكُهّانُ بالأنباءِ

(١) هذا صدر بيت لأبى تمام ، وتمامه : « كم تعذلون وأنتم سجرائى » . وفى الديوان « اتئب أربيت » مكان : « اتئد أسرفت » . وهو بمعناه .
(٢) فى نفح الطيب : « جاءت » .

أَ كرِمْ بها بُشرَى على قَدَرٍ سَرَتْ ... فى الـكون كالأرواح فى الأعضاء

أمسَى بها الإسـلام يُشرِق نُورِه ... والـكفر أصبحَ فاحمَ الأرجاء

هو آيةُ الله التى أنوارُها ... تجلو ظلام الشكّ أىَّ جـلاء

والشمسُ لا تَخفَى مَزيةُ فضلها ... إلا على ذى المُقْـلةِ العمياء

يا مصطفَى والـكونُ لم تَعْلَق به ... من بعـدُ أيدى الخلْقِ والإنشاء

يا مَظهرَ الحق الجلىّ ومَطلَع الـ ... ـنُّـور السنىّ السّافر[1] الأضواء

يا مَلجأ الخَلْق المشَفَّعَ فيهـمُ ... يا رحمـةَ الأموات والأحياء

يا آسِىَ المَرْضَى ومُنْتَجَع الرِّضا ... ومؤاسِىَ الأيتـام والضُّعفاء

أشـكو إليك وأنت خير مُؤَمَّل ... داء الذنوب وفى يديك دوائى

إنّى مددتُ يدِى إليك تَضَرُّعا ... حاشَى وكَلّا أن يخيب رجائى

إن كنتُ لم أَخلُصْ إليك فإنّما ... خَلَصَت إليك محبتى وندائى

وبسعْد مولاى الإمامِ محمـدٍ ... [تَعِدُ] الأمانِى أن يُتاحَ لِقـائى

ظِلِّ الإله على البـلاد وأهلها ... فخرِ المُلوك السّادة الخلفاء

غَوثِ[2] العباد ولَيْثِ مُشتجر القنا ... يومَ الطِّعانِ وفارِجِ الغَمّاء

كالدهر فى سَطَوَاته وسَماحـه ... تجرى صَـبَاه بزَعْزَعٍ ورُخاء

رَقَّت سَجاياه وراقتْ مُجْتَلًى ... كالنهر وَسْط الرّوضـة الفيحاء[3]

كالزَّهر فى إبراقه والبـدر فى ... إشراقه والزُّهرِ فى الّلألاء

[٢٦٤] يا بْن الألَى إجمالهم[4] وجَمالهم ... فَلَقُ الصـباح وواكف الأنواء

(١) فى نفح الطيب : « الساطع » .
(٢) فى نفح الطيب : « عبث » .
(٣) فى م ونفح الطيب : « الغناء » .
(٤) إجمالهم ، أى توسعهم فى المعروف والإنعام. وفى البيت لف ونشر غير مرتبين.

أنصار دين الله حزب رسوله ... والسابقين بحلبة العلياء
يا بن الخلائف من بنى نصر ومن ... حاطوا ذمار الملة السمحاء
من كل من تقف الملوك ببابه ... يستمطرون سحائب النعماء
قوم إذا قادوا الجيوش إلى الوغى ... فالرعب رائدهم إلى الأعداء
والعز مجلوب بكل كتيبة ... والنصر معقود بكل لواء
يا وارثا عنها مناقبها التى ... تسمو مراقيها على الجوزاء
يا فخر أندلس وعصمة أهلها ... يجزيك عنها الله خير جزاء
كم خضت طوع صلاحها من مهمه ... لا تهتدى فيه القطا للماء
تهدى بها حادى السرى بعزائم ... تهدى نجوم الأفق فضل ضياء
فارفع لواء الفخر غير مدافع ... واسحب ذيول العزة القعساء
واهنأ بمبناك السعيد فإنه ... كهف لبوم مشورة وعطاء
لله منه هالة قد أصبحت ... حرم العفاة ومصرع الأعداء
تتناهبها طير الرجاء فتجتنى ... ثمر المنى من دوحة الآلاء
لله منه قبة مرفوعة ... دون السماء تفوت لحظ الرائى
راقت بدائع وشيها فكأنها ... وشى الربيع بمسقط الأنداء[1]
عظمت ميلاد النبى محمد ... وشفعته بالليلة الغراء
أحييت ليلك ساهرا فأفدتنا ... قوت القلوب بذلك الإحياء[2]
يأيها الملك الهمام المجتبى ... فاتت علاك مدارك العقلاء
من لى بأن أحصى مناقبك التى[3] ... ضاقت بهن مذاهب الفصحاء[4]

---

(١) فى م : « الأنواء » .
(٢) فى هذا البيت تورية بكتابى : « قوت القلوب لأبى طالب المكى » و « الإحياء للغزالى » ، وكلاهما فى التصوف .
(٣) كذا فى م ونفح الطيب . وفى ط : « ... أحصى مدائحك التى » .
(٤) كذا فى نفح الطيب . وفى ط : « طرفت بهن مدائح الفضلاء »

وإليكَ منى رَوْضةً مَطْلُولَةً | أَرِجت أزاهرُها بطيب ثَناء
فافْسحْ لها أكنافَ صَفْحِك إنها | بِكْرٌ أتتْ تَمْشِى على استحياء

ماأنشده فى مولد عام ثمانية وستين

قال : وأنشد من ذلك فى مولد عام ثمانية وستين ، وقد كان مولانا رضى الله عنه أَبَى أن يُرْسَل العِنان فى مدح مَقامِه ، مبالغة فى توقير جانب المصطفى صلى الله عليه وسلم وإعظامه ؛ فلهذا القصد الأدبىّ الكريم أتى من المدح[1] السلطانىّ [٢٦٠] فى آخرها الملتمح القريب ، واكتفى من القلادة بما أحاط بالتَّريب[2] ؛ ومدَّ القولَ فى ذكر الرسول وعجائب مجده ، حسبما اقتضاه الاختيار من مولانا كافأ الله جميلَ قصده ، آمين :

هذا الصَّباحُ صَباحُ الشَّيب قد وضَحا | سَرْعانَ ما كان ليلاً فاستنار ضُحَى
للدهر لَوْنان مِنْ نُور ومِنْ غَسَقٍ | هذا يُعاقِب هـذا كُلَّما بَرِحا
وتلك صِبْغته أعْدَى[3] بَنِيه بها | إذا تراخَى مَجال العُمر وانفسحا
ما يُنكِرُ المرء من نُورٍ جَلَا غَسَقاً[4] | ما لم يكن لِأَمانى النفس مُطَّرِحا
إذا رأيت بروقَ الشيب قد بسمت[5] | بمَفرِقٍ فمُحيَّا العيش قد كَلَحا
يَلقَى المشيبَ بإجلال وتَكرِمةٍ | مَنْ قد أعدَّ من الأعمال ما صَلَحا
أمَّا ومِثْـلِىَ لم يَبرَحْ يُعلِّله | مِنَ النسيم عليـلٌ كلما نَفَحا
والبرقُ ما لاح فى الظَّلماء مُبْتَسِما | من جانب السَّفْح إلا دَمْعُه سَفَحا
فما له برقيب الشيب من قِبَـلٍ | من بعد ما لامَ فى شأن الهوى ولَحَا

(١) كذا فى م . وفى ط : « بالمدح » .
(٢) التريب واحد الترائب . وهى مايلى الترقوتين من عظام الصدر ؛ يشير إلى المثل المعروف : « يكفى من القلادة ما أحاط بالعنق » . والذى فى الأصلين : « بالترتيب » وهو تحريف .
(٣) كذا فى م . وفى ط : « أهدى » .
(٤) الغسق : ظلمة أول الليل .
(٥) كذا فى م . وفى ط : « لمعت » .

يأبى وفائى أن أصغى للاعق ... وأن أطيع عذولى غش أو نصحا
يأهل نجد سقى الوسمى ربعكم ... غيثا ينبل غليل الترب ما اقترحا[١]
ما للفؤاد إذا هبت يمانية ... تهديه أنفاسها الأشجان والبرحا
يا حبذا نسمة من أرضكم نفحت ... وحبذا زبزب من جوكم سنحا
يا جيرة تعرف الأحياء جودهم ... ما ضر من ضن بالإحسان لو سمحا
ما شمت بارقة من جو كاظمة[٢] ... إلا وبت لزند الشوق مقتدحا
فى ذمة الله قلبى ما أعلله ... بالقرب إلا وعاد القرب منتزحا
كم ليلة والدجى راعت جوانبها ... قلب الجبان فما ينفك مطرحا
سريتها ونجوم الأفق فيه طفت ... جواهرا وعباب الليل قد طفحا
بسابح أهتدى ليلا بغرته ... والبدر فى لجة الظلماء قد سبحا
والسحب تنثر در الدمع من فرق ... والجو يخلع من برق الدجى وشحا
ما طالبت همتى دهرى بمألوة[٣] ... إلا بلغت من الأيام مقترحا
ولا أدرت كئوس العزم مغتبقا ... إلا أدرت كئوس العز مصطبحا
هذا وكل الذى قد نلت من أمل ... مثل الخيال تراءى ثمت انتزحا[٤] [٢٦٦]
كم يكدح المرء لا يدرى منيته ... أليس كل امرئ يجزى بما كدحا
وارحمتا لشبابى ضاع أطيبه ... فما فرحت به قد عاد لى ترحا
أليس أيامنا اللائى سلفن لنا ... منازلا أعملت فيها الخطا مرحا

---

(١) كذا فى م . وفى ط : « عيشا يبل غليل الثوب ما اقترحا » وهو تحريف .
(٢) كاظمة : موضع على سيف البحر فى طريق البحرين من البصرة ، بينها وبين البصرة مرحلتان ، وفيها ركايا كثيرة وماؤها شروب . وقد أكثر الشعراء من ذكرها .
(٣) انظر الحاشية (رقم ٢ ص ٣٩) من هذا الجزء .
(٤) كذا فى م . وفى ط :
هذا وكل الذى أملت من أمل ... مثل الخيال تراه ثمت انتزحا

إنَّا إلى اللهِ ، ما أولَى المتابَ بنا[1] ... لو أنَّ قلبا إلى التوفيق قد جَنَحا
الحقُّ أبلجُ والمَنجاةُ عن كَثَبٍ ... والأمرُ للهِ والعُقْبى لمن صَلَحا
يا وَيحَ نفسٍ توَانت عَنْ مَراشدها ... وطرْفُها فى عِنان الغَىِّ قد جَمَحا
ترجو الخلاصَ ولم تَنهجْ مسالكَها ... من باع رُشداً بغىٍّ قلّما رَبِحا
يارَبِّ صفحَكَ يَرْجو كلُّ مُقترِفٍ ... فأنت أكرمُ مَنْ يعفو ومن صفَحا
يارَبِّ لا سبَبٌ أرجو الخلاصَ به ... إلا الرسولَ ولطفاً منك إنْ نَفَحا
فما لجأْتُ له فى دَفْعِ مُعضِلةٍ ... إلا وجدتُ جَنابَ اللُّطْفِ منْفسِحا
ولا تضايقَ أمرٌ فاستجرتُ به ... إلا تَفرَّجَ باب الضِّيق وانفتحا
ياهَلْ تُبَلِّغُنى مَثواه ناجيةٌ ... تَطْوِى بِىَ القَفْرَ مهما امتدَّ وانفَسَحَا
حيثُ الرُّبوعُ بنور الوحْىِ آهلةٌ ... مَنْ حلَّها احتسبَ الآمالَ مُقْتَرِحا
حيثُ الرسالةُ تجلو من عَجائبها ... مِنَ الجَمال بنُورِ الله مُتَّضحا[2]
حيثُ النبوةُ تتلو مِنْ غرائبها ... ذِكراً يغادرُ صَدْرَ الدين مُنْشرِحا
حيثُ الضريحُ بما قد ضمَّ من كرَمٍ ... قد بذَّ[3] فى الفَخْرِ مَنْ سادَ ومَنْ نجَحَا
يا حبَّذَا بَلدَةٌ كان النبىُّ بها ... يَلْقَى الملائك فيها أيَّةً سَرَحا
يا دارَ هِجْرَته يا أُفْقَ مَطْلعه ... لى فيك بدرٌ بغير الفكْرِ ما لمَحا
مِنْ هاشمٍ فى سماء العزِّ مَطْلعُه ... أَكْرِمْ به نسباً بالعزِّ مُتَّشِحا
مِنْ آلِ عَدْنانَ فى الأَشْرافِ من مُضَر ... مِنْ مَحْتِدٍ تطمَحُ العَلْياء إنْ طَمَحا
من عهدِ آدمَ مازالت أواصِرُهُ[4] ... تُسَام بالمجد[5] من آبائه الصرَحا

(١) فى ط : « بها » وفى م : « لنا » . والظاهر أن كلاهما محرف عما أثبتناه .
(٢) كذا فى م . وفى ط : « تزين إجمال نور الله منضحا » . ولعل « تزين » محرفة عن : « تريك » أو كلمة بهذا المعنى .
(٣) كذا فى م . وفى ط : « مر » وهو تحريف .
(٤) كذا فى الأصلين . ولعلها محرفة عن : « أواصره » أو كلمة بهذا المعنى .
(٥) تسام بالمجد : تعرف وتشتهر . من السومة وهى العلامة .

عنايةٌ سبقتْ قبلَ الوجود له   والله لو وُوزنت بالكون ما رَجَحا

يا مصطفى وَكِمام الكون ما فُتِقتْ   يا مُجتَبَى وَزنادُ النُّورِ ما قُدِحا

لولاكَ ما أشرقتْ شمسٌ ولا قمرٌ   لولاكَ ما راقتِ الأفلاكُ مُلتمَحا

صَدَعْتَ بالنُّور تجلو كلَّ داجيةٍ   حتّى تَبيَّنَ نَهْجُ الحقّ واتَّضحا

يا فاتحَ الرُّسْلِ أوْ يا خَتْمَها شَرَفًا   بُورِكْتَ مُختتَمًا قُدِّسْتَ مُفتتَحا

دنوتَ للخلق(١) بالألطاف تَمنَحُها   والقلبُ فى العالَمِ العُلْوىِّ ما بَرِحا [٢٦٧]

كالشَّمس فى الأُفُقِ الأعْلى مجرَّتُها   والنُّورُ منها إلى الأبصار قدْ وَضَحا

كَمْ آيةٍ لِرَسول الله مُعْجِزَةٍ   تَكِلُّ عن مُنْتَهاها ألسنُ الفُصَحا

إنْ رُدَّتِ الشمسُ مِنْ بعد الغُروب له   قدْ ظَلَّلَتْهُ غمامُ الجوِّ حيثُ نَحا

يا نعمةً عَظُمَتْ فى الخَلق مِنَّتُها   ورَحمةً تَشْمَلُ الغادينَ والرَّوَحا(٢)

اللهُ أعطاكَ ما لَمْ يُؤْتِه أحدًا   واللهُ أكرمُ مَنْ أعطى ومَنْ مَنَحا

حبيبُه مُصطفاه مجتَباه وَفِى   هذا بلاغٌ لِمَنْ خالَكَ مُمتدِحا

أثْنى عليكَ كتابُ الله مُمتدِحًا   فأيْنَ يبلغ فى عَلْيائكَ مَنْ مدَحا

قد أبْعدَتْنى ذُنوبى عَنْكَ يا أملى   فجُهْدىَ اليومَ أنْ أُهْدى لكَ المِدَحا

لَعلَّ رُحْماكَ والأقدارُ سابقةٌ   تُدْنى مُحِبًّا بأقصى الغرب مُنْتَزِحا

نَفْسٌ شَعاعٌ وقَلْبٌ خانَ أضْلُعَه   مما يُعانى من الأشواق قدْ بَرِحا

إذا البُروق أضاءتْ والغَمام هَمتْ   فزَفْرَتى أُذْكِيتْ أوْ مدْمَعى سَفَحا

لِمْ لَا أحِنُّ وهذا الجِذْعُ حَنَّ لهُ   لما تباعَدَ عنْ لُقْياه وانتزَحا

كَمْ ذا التَّعَلُّل والأيام تَمْطُلنى   كأنَّها لم تجِد عن ذاك مُنْتَدَحا

ما أقدرَ اللهُ أن يُدْنِى على شَحَطٍ   وأنْ يُقرِّب بعدَ البَيْن مَنْ نزَحا

(١) فى م : « للحق » .

(٢) الروح (بتحريك الواو) : الرائحون . الواحد : رائح .

يا سيِّدَ الرُّسْلِ يا نِعْمَ الشفيعُ إذا ... طال الوقوفُ وحرُّ الشمس قد لَفَحَا
أنت المُشفَّع والأبصارُ شاخصَة ... أنت الغياث وهوْلُ الخطْب قد فدَحا
حاشَى العُلا—وجميلُ الظنِّ يشفعُ لى— ... أَنْ يُخْفِقَ السَّعْىُ منِّى بعد ما نَجَحا
عَساكَ يا خيرَ مَنْ تُرْجَى وسائلُه ... تُنْجِى غريقًا ببحر الذنب قد سَبَحا
ما زال معترفًا بالذنب مُعْتَذِرا ... لعلَّ حُبَّكَ يَمحُو كل ما اجْترحا
عسى البشيرُ غَداةَ الرَّوْعِ يُسْمِعُنِى ... بُشرَى تَعودُ لِىَ البُؤْسَى بها فَرَحا
لا تَيأَسَنَّ فإنَّ اللهَ ذو كَرَمٍ ... وحُبُّكَ العاقبَ الماحى[1] الذنوبَ مَحا
صلَّى الإلهُ على المختـــارِ صفوتِهِ ... ما العارضُ انْهلَّ أو ما البارقُ التَمَحا
وأيَّدَ اللهُ مولانا بعصمتـــــه ... بأىِّ باب إلى العَليـاء قد فَتَحا
وهَنَّأَ الدِّينَ والدنيـا على مَلِكٍ ... لسَعدِه الطائرُ الميمونُ قد سَنَحا
أنا الضَّمِينُ لمكحولٍ بغُرَّته ... ألَّا تَرَى عينُـه بؤسًا ولا تَرَحا
مَوْلاىَ خُذْها كما شاءتْ بلاغتُها ... غرَّاء لم تَعْدَم الأَحْجال والقَرَحا
كأنَّ سِرْبَ قوافيها إذا سَنَحتْ ... طيرٌ على فَنَنِ الإحسان قد صَدَحا

[٢٦٨]

ومن إعذارياته سنة أربع وستين وسبع مئة

قال : ومن إعذارياته المُحكمة نسْقًا وَرصْفًا ، المتناهيــة فى كل فَنِّ حُسْنَ تَحْليةٍ غريبةٍ ووَصْفًا — حسْبما اقتضته ملاحظة النِّسبة الرفيعة لصنائع مولانا رحمة الله عليه ، واحتفاله المناسب لعزِّ ملكه ، من تعميم الحلق بالجَفَلَى فى دَعواهم ، واستدعاء أشراف الأمم من أهل المغرب وسِواهم ؛ تفنُّنًا فى مكارمَ مُتَعَدِّده ، آيامُها عن أصالة المجد مُعْرِبه ، وإغراءً لهمَم الملْك بما يُتمِّمُ الأمنَ من أوضاع مُغْرِبه ؛ ومباهاةً بعَرْض الجيوش والكتائب للعدو الكافر ، ومكاثرًا من مماليك دولته

(١) العاقب والماحى : من أسماء النبى صلى الله عليه وسلم ، وسمى عاقبا لمجيئه آخر الرسل ؛ وماحيا لأن الله يمحو به الكفر .

بالعدد الوافر ؛ مما ألجم اللَّسِنَ الذكيَّ عِيًّا ، وغادر الإعذار الذَّنُّونِيَّ [1] مَنْسِيًّا ؛ كافأ اللهُ أُبوَّته المولوية عنا وعن آبائنا ، وتلقَّى بالقبول الـكفيل بتجديد الرِّضوان ما نصِل إليه من خالص دعائنا ؛ إنه مُنْعِم جَواد — قولُه فى الصَّنيع المختصّ من ذلك بمولانا الوالد قدس الله روحه ، وذلك سنة أربع وستين وسبع مئة :

مَعاذَ الهَوى أن أُصْحِبَ القَلْبَ ساليًا ... وأن يَشْغَلَ اللُّوَّامُ بالعَذْلِ باليَا

دعانِيَ أُعْطِ الحُبَّ فضلَ مَقادَتى ... ويَقضِى عَلَيَّ الوجدُ ما كان قاضيا

ودُونَ الذى رام العواذلُ صَبْوةٌ ... رَمَتْ بِيَ فى شِعْبِ الغرام المَراميا

وقلبٌ إذا ما البَرْقُ أومضَ مَوْهِنًا ... قَدَحْتُ به زَنْدًا من الشَّوق وَاريا

خليـــلَىَّ إنِّى يومَ طَارقةِ النَّوَى ... شَقِيتُ بِمَنْ لو شاء أَنعَمَ باليا

وبالخَيْفِ يومَ النَّفْرِ يا أُمَّ مالك ... تَخَلَّفْتُ قَلْبِى فى حِبالِكِ عانيا

وذى أُشُرٍ عَذْبِ الثَّنايا مُخَصَّرٍ ... يُسَقَّى به ماءَ النعيم الأقاحيـا

أَحومُ عليـه مادَجَا الليلُ ساهرا ... وأُصْبِحُ دُونَ الوِردِ ظمآنَ صاديا

يُضِىءُ ظلامُ الليل ما بين أضلعِى ... إذا البارقُ النَّجدىُّ وَهْنًا بدا ليا

أَجِيرَتَنا بالرَّمل والرملُ مَنزلٌ ... مَضَى العيشُ فيـه بالشبيبةِ حاليا

ولم أرَ رَبْعًا منـــه أقْضَى لُبانَةً ... وأشجَى حَماماتٍ وأحْلَى مَجانيا

سَقَتْ ظِلَّهُ الغُرُّ الغوادِى ونَظَّمَتْ ... من القَطْرِ فى جِيدِ الغُصونِ لآليا [٢٦٩]

أَبُشْـكُمُ أنِّى على النَّأْى حافظ ... ذِمامَ الهَوَى لو تَحْفَظُون ذِماميا

أُناشِـدُكُمْ والحُرُّ أَوْفَى بعهده ... ولن يَعدَمَ الإحسانُ والخيرُ جازيا

(١) الذنونى : نسبة إلى ابن ذنون (ابن دنون) وهو المأمون أحد ملوك الطوائف فى طليطلة من بنى ذى النون، وقد بلغوا فى البذخ والترف الغاية ، ولهم الإعذار المشهور الذى يقال له الإعذار الذنونى ، وبه يضرب المثل عند أهل المغرب ، وهو عندهم بمثابة عرس بوران عند أهل المشرق .

هَلِ الوُدُّ إلا ما تَحاماهُ كاشِحٌ وأخفقَ فى مَسعاهُ مَن جاء واشيَا
تأوَّبنى والليلُ يُذْكِى عُيونَه ويسحَبُ منْ ذيل الدُّجُنَّة ضافيا
وقد مَثَّلَتْ زُهْرُ النجوم بأُفْقه حَبابا على نَهْرِ المجَرَّة طافيا
خيالٌ على بُعْد المَزار أَلَمَّ بى فأذْكرنى مَنْ لم أكُنْ عنه ساليا
عجِبتُ له كيفَ اهتدى نحوَ مَضْجَعِي ولم يُبْقِ منى السُّقمُ والشوقُ باقيا
رَفعتُ له نارَ الصَّبابة فاهتدى وخاضَ لها عرْضَ الدُّجُنَّة ساريا
وممَّا أجَدَّ الوجْدَ سِرْبٌ على النَّقَى سوانحُ يصْقُلْن الطُّلَى والتراقيا
نَزَعْن عَنِ الألحاظ كلَّ مُسَدَّدٍ فغادرْن أفلاذ القلوب دَواميا
ولما تراءى السِّرْب قلتُ لصاحبى وأيقنتُ أنَّ الحُبَّ ما عشْتُ دائيا
حَذارِكَ من سُقْمِ الجُفُون فإنَّه سَيُعْدِى بما يُعْيِى الطبيبَ المُداويا
وإن أميرَ المسلمين محمَّدا لَيُعْدِى نَداه السَّارياتِ الهَواميا
تضيء النجومَ الزَّاهراتِ خلالُه وينْفُثُ فى رُوْعِ الزَّمانِ المَعاليا
مَعالٍ إذا ما النجم صَوَّب طالبًا مراقيَها فى العز خُلِّفَ[1] وانيا
يسابق عُلْوِيَّ الرِّياح إلى النَّدَى وتَفْضح جَدْوَى راحتيه الغَواديا
ويُغْضِى عَنِ العَوراء إغضاءَ قادرٍ ويَرْجُحُ فى الحِلم الجبالَ الرواسيا
هُمامٌ يَرُوع الأُسْدَ فى حَوْمة الوَغَى كما راعتِ الأسْدُ الظِّباءَ الجَوازيا[2]
مناقبُ تسمو للفَخار كأنَّما تُجارى إلى المجد النجومَ الجَواريا
إذا استَبَقَ الأملاكُ يومًا لغاية أبيتَ وذاكَ المجد إلا التَّناهيا
بهرْتَ فأخفيتَ الملوكَ وذِكْرَها ولا عجَبٌ فالشمس تُخْفِى الدَّراريا
جَلَوْتَ ظلامَ الظُّلْم من كل مُعْتَدٍ ولا غَرْوَ أن تَجْلو البدورُ الدياجيا

(١) فى نفح الطيب : « حلق » .
(٢) الجوازى أصله : الجوازئ (بالهمز) ، وسهل للشعر ؛ والجوازئ من الظباء التى تجزأ بالرطب عن الماء .

هَدَيتَ سبيلَ اللهِ مَنْ ضَلَّ رُشْدَه ... فلا زلتَ مَهْدِيًّا إليها وهاديا
أَفَدْتَ وحَتّى المُلْكُ مما أفدتَهُ ... وطَوّقتَ أشرافَ المُلوك الأياديا
وقد عرفَتْ منها مَرِينٌ[1] سوابقا ... تُقِرُّ لها بالفضل أُخْرى اللياليا
وكان أبوزَيّانَ جيدا مُعَطَّلا ... فزينتَه حتى اغتدى بك حاليا
لكَ الخيرُ لم تَقْصِد بما قد أفدتَهُ ... جزاءً ولكن همةٌ هِيَ ماهيا [٢٧٠]
فما تُكْبِرُ الأملاكُ غيرَكَ آمراً ... ولا ترهَبُ الأشرافُ غيرَكَ ناهيا
ولا تشتكى الأيامُ مِنْ داءِ فتنةٍ ... فقد عرفَتْ منك الطبيبَ المُداويا
وأندلُساً أوليتَ ما أنتَ أهلُه ... وأوْردتَها وِرْداً من الأمن صافيا
تلافَيْتَ هذا الثَّغْرَ وهو على شَفًى ... وأصبحْتَ من داء الحوادث شافيا
ومِنْ بعد ماساءتْ ظُنونٌ بأهلها ... وحامُوا على وِرْد الأمانى صواديا
فما يأملون العيش إلا تَعَلُّلا ... ولا يعرفون الأمْن إلا أمانيا
عَطَفْتَ على الأيام عطفةَ راحمٍ ... وألبستَها ثوبَ امتنانك ضافيا
فآنَسَ من تِلقائك المُلْكُ رُشْدَه ... ونالَ بك الإسلامُ ما كان راجيا
وقمتَ على الإسلام نفساً كريمة ... تَصُدُّ عَدُوّا عَنْ حِماهُ وعاديا
فرأيٌ كما انشقّ الصباحُ وعَزْمَةٌ ... كما صقلَ القَيْنُ الحُسامَ اليمانيا
وكانتْ رماحُ الخطّ خُمْصًا ذَوَابلا ... فأنهلتَ منها فى الدماء صَواديا
وأوْرَدْتَ صَفْحَ السيفِ أبيضَ ناصعاً ... فأصْدرتَه فى الرَّوْع أحمرَ قانيا
لك العزمُ تُسْتَجْلَى الخطوبُ بهَدْيه ... ويُلْفَى إذا تنبو الصوارمُ ماضيا
إذا أنتَ لم تفخَر بما أنتَ أهلُه ... فما الصُّبحُ وضاحَ المشارق عاليا
ويَهْنيك دونَ العيد عيدٌ شَرَعْتَه ... تَبُثُّ به فى الخافِقَيْن التهانيا

(١) مرين : قبيلة معروفة ، وهى فرع زناتة من قبائل البربر .

أقمتَ به من فِطْرة الدين[1] سُنَّةً ... وجدَّدْتَ من رسْم الهداية عافيا

صَنيعٌ تَوَلَّى اللهُ تشييدَ فخرِه ... وكان لِما أَوْلَيتَ فيه مُجازيا

تَوَدُّ النجومُ الزُّهْر لو مَثَلَتْ به ... وقَصَّت من الزُّلْفَى إليك الأمانيا

وما زالَ وجه اليوم بالشمس مُشرقا ... سُروراً به والليلُ بالشُّهْبِ حاليا

على مثله فلْيَعْقِد الفخرُ تاجَهُ ... ويسمو به فوقَ النجوم مَرَاقيا

به يَغْمُرُ الأنْداءَ[2] كلُّ مُفَوَّهٍ ... ويحدو به من بات بالقَفْر ساريا

ويوسُفُ[3] فيه بالجَمال مُقَنَّعٌ ... كأن له مِنْ كلِّ قلْبٍ مُناجيا

وأقبلَ قَدْ شابَ الحياءَ مَهابةٌ ... يُقلِّبُ وجهَ البَدْر أزْهرَ باهيا

وأقدمَ لا هَيَّابَةَ الحَفْلِ واجما ... ولا قاصراً فيه الخُطَا متَوَانيا

شمائلُ فيه من أبيه وجَدِّه ... تَرَى العِزَّ فيها مُسْتَكِنًّا وباديا

فيا عَلَقًا[4] أشْجَى القلوبَ لو أننا ... فَدَيناكَ بالأعْلاق ما كُنتَ غاليا

جَرَيْتَ فأجريتَ الدُّموعَ تَعَلُّقاً ... وأطلَعْتَ فيها للسرور فَوَاشيا

وكم مِنْ وَلِيّ دُونَ بابكَ مُخْلص ... يُفَدِّيه بالنفس النَّفيسة واقيا

وصِيدٍ من الحيَّين أبناء قَيْلةٍ ... تكُفُّ العوادى[5] أو تُبيدُ الأعاديا

[٢٧١]

بهاليلُ غُرٌّ إنْ أعَدُّوا نعارة ... أعادُوا صَباح الحيِّ أظْلَمَ داجيا

فوالله لولا أنْ تَوَخَّيْتَ سُنَّةً ... رضيتَ بها أَنْ كان ربك راضيا

لكانت بها للأعْوَجِيَّات[6] جَوْلَةٌ ... تُشيبُ مِنَ الغُلْبِ الشَّبابِ النواصيا

---

(١) فى م : « حطوة الدين » .

(٢) الأنداء (هنا) : الأندية . والذى فى نفح الطيب : « تغمر الأنواء » . وفيها تحريف ظاهر .

(٣) يوسف : هو ابن الغنى بالله ملك غرناطة الممدوح بهذه القصيدة .

(٤) العلق (بالتحريك) : الذى تتعلق به القلوب .

(٥) فى الأصلين وكل نسخ نفح الطيب : « تكف الأعادى » ولعله محرف عما أثبتناه .

(٦) الأعوجيات : نسبة إلى أعوج ، فرس كان لبنى هلال .

وتتركُ أوصالَ الوشيجِ مُقَصَّدًا وبيضَ الظُّبى حُمْرَ المُتون دواميا
ولما قضى من سنّةِ الله ما قضى وقد حَمِدَتْ منه النجومُ المَساعيا
أفضْنا نُهَنِّى منكَ أكرمَ مُنْعِم أَبَى لعميم الجُودِ إلا تواليا
فَيَهْنِى صفاحَ الهِنْدِ والبأسَ والنّدَى وسُمْرَ العوالى والعتاقَ المَذاكيا
ويَهْنِى البُنودَ الخافقاتِ فإنّها [سَيَعْقِدها فى ذِمّة النّصرِ غازيا
كأنّى به يَشْفِى الصّوارمَ والظُّبَى ويَحْطِمُ فى لأْمِ الضّلال العواليا
كأنّى به قد تُوِّجَ المُلْكَ يافعاً][1] وجَمَّعَ أشتاتَ المكارمِ ناشيا
وقضّى حُقوقَ الفخْرِ فى مَيْعة الصِّبا وأحسنَ من دَيْنِ الكمال التّقاضيا
وما هوَ إلّا السّعدُ ، إن رُمْتَ مَطْلَعا وسَدّدْتَ سهماً كان رَبُّكَ راميا
فلا زلتَ يا فخر[2] الخلافة كافلا ولا زلتَ يا خيرَ الأئمة كافيا
ودُمْتَ قَرِيرَ العَيْنِ منه بِغِبْطَة وكان لهُ رَبُّ البريّة واقيا
نظمتُ لَهُ حُرَّ الكلام تمائما جعلتُ مكانَ الدُّرِّ فيها القوافيا
لآلٍ بها باهَى المُلوكَ نَفاسَةً وجَلّت اَمْرى أن تكونَ لآليا
أرَى المالَ يَرْميهِ الجديدانِ بالبِلَى وما إنْ أرى إلا المَحامدَ باقيا

من شعره فى الصنيع المختص بالأميرين سعد ونصر

ثم قال : ومن ذلك ما أنْشَدَ فى الصّنيع الثانى المختصّ بممَّيْنا السّيّدين الأميرين سَعْدٍ ونَصْر ، رحمة الله عليهما ، وأجاد فى وصف الجُنْد والجُرْد والطَّلْبة[3] وغرائبِ الأوضاع .

أَلِلَمْحَةِ[4] من بارق مُتَبَسِّمِ أرسلتَه دَمْعًا تَضَرَّجَ بالدَّمِ[5]

---

(١) ما بين المعوسين عن م .
(٢) كذا فى م ونفح الطيب وفى ط : « يا كهف » .
(٣) الطلبة : يعنى بها بعض آلات الحرب . (راجع معجم دوزى) .
(٤) فى نفح الطيب : « وللمحة » .
(٥) فى ط : « أمن الوميض البارق المتبسم * أرسلت دمعاً قد تضرج بالدم » وما أثبتناه عن نفح الطيب .

ولنفْحَةٍ تهفو بســاناتِ اللِّوَى ... يهفو فؤادُك عنْ جَوانِحِ مُغْرَمِ
هى عادةٌ عُذْرِيةٌ من يَوْمِ أنْ ... خُلِق الهَوى تعتاد كلَّ متيَّمِ [1]
قد كنتُ أعذِل ذا الهوى من قبل أنْ ... أدرى الهوَى واليومَ أعذِل لُوَّمى
كَمْ زَفْرةٍ بَيْن الجوانحِ ما ارْتَقَتْ ... حَذَرَ الرَّقيبِ ومدْمعٍ لم يَسْجُمِ
إنْ كان واشِى الدَّمعِ قد كَتَمَ الهَوى ... هيهاتَ واشى السُّقمِ لمَّا يَكْتُمِ [2]
ولقــد أَجَدَّ هَوايَ رَسْمٌ دارسٌ ... قد كادَ يَخْفَى عن خَفِيِّ تَوَهُّمِ
وذكرتُ عَهدًا فى حِماه قد انقضى ... فأطلْتُ فيــه تردُّدِى وتَلَوُّمى
ولَرُبَّما أشْجَى فؤادِى عنــده ... وَرْقاءُ تَنْفُثُ شَجْوَها بترنُّمِ
لا أَخْرَبَ اللهُ الطُّلولَ فطالمــا ... أشْجَى الفَصِيحَ بها بُكاءُ الأَبْكَمِ
يا زاجرَ الأَظعان يَحْفِزُها السُّرَى ... قِفْ بى عليها وقفةَ المُتَلَوِّمِ
لِتَرَى دُموعَ العاشقين برَسْمِها ... حُمْرًا كحاشِيَةِ الرِّداءِ المُعْلَمِ
دِمَنٌ عَهِدتُ بهــا الشَّبيبةَ والهوى ... سَقْيًا لهــا ولعهدها المُتقدِّمِ
وكتيبةٍ للشوْقِ قد جَهَّزْتُها ... أغزُو بها السُّلوانَ غَزْوَ مُصَمِّمِ
ورفَعْتُ فيهــا القلْبَ بَنْدًا خافقًا ... وأريتُ للعُشَّــاقِ فَضْلَ تَهَمُّمِ
فأنا الَّذى شابَ الحماسةَ بالهوى ... لكنَّ مَنْ أهْوَى مُضايِقُ مقْدَمِى
فطُعِنْتُ مِنْ قَدِّ القَوامِ بأَسْمَرٍ ... ورُمِيتُ من غَنَجِ اللِّحاظ بأَسْهُمِ
يا قاتَلَ اللهُ الجُفونَ فإنهــا ... مَهْما رَمَتْ لم تُخْطِ شاكِلَةَ [3] الرَّمِى
ظَلَمَتْ قَتيلَ الحُبِّ ثم تَبَيَّنَتْ ... للسُّقْمِ فيهــا فَتْرَةَ المُتَظَلِّمِ
يا ظَبيةً سَنَحَتْ بأكنافِ الحِمَى ... سُقِىَ الحِمَى صَوْبَ الغَمامِ المُسْجَمِ [4]

[٢٧٢]

(١) فى ط : « فى قلب » مكان قوله : « تعتاد » ، وما أثبتناه عن نفح الطيب .
(٢) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى م : « هيهات وانى السقم لا يتكتم » .
(٣) الشاكلة : الناحية .
(٤) المسجم : المصبوب .

ما ضرَّ إذْ أرسلْتِ نظرةَ فاتكٍ أنْ لَوْ عَطفتِ بنظرة المُتَرحِّمِ
فرأيتِ جِسْماً قدْ أُصيبَ فُؤادُه مِنْ مقْلتيكِ وأنتِ لَمْ تتأثَّمِى(١)
ولقد خشيتُ بأن يُقادَ بجُرْحِه فوَهَبْتُ لحظَكِ ما أحلَّكِ مِنْ دَمِى(٢)
كَمْ خُضْتُ دونَكِ مِنْ غِمارِ مَفازةٍ لا تهتدِى فيها الأُبوتُ لمَجْثِمِ
والنجمُ يَسرِى من دُجاه بأدْهَمٍ(٣) رَحْبِ المُقَلَّدِ بالثريا مُلْجَمِ
والبدرُ فى صَفْحِ السَّماءِ كأنَّه مِرْآةُ هِنْدٍ وسْطَ لُجٍّ تَرْتَمِى(٤)
والزُّهْرُ زَهْرٌ والسماءُ حديقةٌ فُتِقَتْ كَمائمُ جُنْحِها عَنْ أنجمِ
والليلُ مُزْبَدُّ الجَوانحِ قد بَدا فيه الصباحُ كغُرَّةٍ فى أدْهَمِ
فكأنَّما فَلَقُ الصَّباحِ وقد بدا مَرْأى ابنِ نصرٍ لاحَ للمُتَوَسِّمِ
مَلِكٌ أفاضَ على البَسيطةِ عَدْلَهُ فالشاةُ لا تخشَى اعتداءَ الضَّيْغَمِ
هو مُنتهَى آمالِ كلِّ مُوفَّقٍ هو مَوْرِدُ الصادِى وكَنزُ المُعْدِمِ
لاحتْ مَناقبُه كواكِبَ أسْعُدٍ فرأتْ مَلامحَ نوره عينُ العَمِى
ولقد تراءى بأسُه وسَماحُه فأتى الجلالُ من الجمال بتوْءَمِ
مِثْلَ الغَمامِ وقد تضاحكَ برقُه فأفاد بينَ تجهُّمٍ وتبسُّمِ
أنسَى سَماحةَ حاتمٍ وكَفاكَ فى يومِ اللقاءِ ربيعةَ بنَ مُكَدَّمِ(٥)
سِيَرٌ تَسيرُ النيِّراتُ بهَدْيِها وتُعيرُ عَرْفَ الرَّوضِ طيبَ تَنسُّمِ
فالبدرُ دُونَكَ فى عُلاً وإنارةٍ والبحرُ دُونَكَ فى ندًى وتكرُّمِ
ولكَ القِبابُ الحُمرُ تُرْفَعُ للنَّدى فترَى العمائمَ تحتها كالأنجُمِ

---

(١) فى بعض نسخ نفح الطيب: « لم تتألمى » .
(٢) يقاد: من القود ، وهو القصاص . وأحلك: جعلك فى حل .
(٣) الأدهم: الأسود ، وهو من أوصاف الخيل ، كأن النجم ركب أدهم الليل .
(٤) شبه البدر بمرآة هند فى الصفاء . والعرب تضرب المثل فى الصفاء بمرآة الغريبة .
(٥) ربيعة بن مكدم: فارس جاهلى معروف .

يُذْكَى الكِباءُ بها كأنّ دُخانه ... قِطَعُ السحاب بجوّها المُتَغيِّمِ[1]

وللكَ العوالى السُّمْرُ تُشْرَع[2] للعِدا ... فتخِرُّ صرْعَى لليَدَيْن وللفم

وللكَ الأيادى البيضُ قد طوَّقتها ... صِيدَ الملوك ذوى التِّلاد الأقدم

شِيَمٌ يُقِرُّ الحاسِدُون بفضْلِها ... والصُّبْح ليس ضِياؤُه بمُكَتَّم

ورِثَ السَّماحةَ عن أبيه وجَدِّه ... فالأكرمُ ابن الأكرم ابن الأكرم

نَقلوا المعالِيَ كابِراً عن كابِرٍ ... كالرُّمح مُطَّرِد الكُعوب مُقَوَّم

وتَسَنَّمُوا رُتَبَ العَلاء بجَدّها ... بأبٍ وجَدٍّ فى الخلافة وابْنِمِ[3]

ياآل نصر أنتمُ سُرُجُ الهُدَى ... فى كل خَطْب قد تَجَهَّم مُظْلِمِ

الفاتحون لكل صَعْب مُقْفَلٍ ... والفارجون لكل خَطْبٍ مُبْهَم

والباسِمون إذا الكُماة عوابسٌ ... والمُقْدِمُون على السَّواد الأعظم

أبناء أنصارِ النبيِّ وحِزْبِهِ ... وذَوِى السوابق والجِوار الأعصَم[4]

سَلْ عنهمُ أُحُدا وبَدْرا تُلْفِهِمْ ... أهلَ الغَناء بها وأهلَ المَغْنَم

وبفتح مكةَ كَمْ لهُمْ فى يومه ... بِلِواءِ خيرِ الخَلق من مُتَقدّم

أقسمتُ بالحَرَم الأمين ومكةٍ ... والرُّكْنِ والبيْت العتيق وزَمْزَم

لولا مآثِرُهم وفضلُ عُلاهمُ ... ما كان يُعْزَى الفَضْلُ للمُتَقَدِّم

ماذا عسَى أُثْنِي وقد أثنتْ عَلَى ... عَلْيائهم آىُ الكِتاب المُحْكَمَ

ياوارثًا عنها مآثِرَها الَّتِي ... قَدْ شَيَّدتْ للفخرِ أشرَفَ مَعْلَمَ

يا فَخرَ أندلُسٍ لقدْ مَدَّتْ إلى ... عَلْيك كَفَّ اللائذِ المُسْتَعْصِم

---

(١) الكباء (ككساء) : عود البخور أو ضرب منه .

(٢) كذا فى م ونفح الطيب . وفى ط : « ترفع » .

(٣) فى نفح الطيب : « ما بين جد فى الخلافة وابنم » .

(٤) الجوار الأعصم ، أى المعتصم على من يريده بأذى .

أما سُعُودُك فى الوَغَى فتكفَّلَتْ ... بسلامة الإسلام[1] فاخْلُدْ واسْلَم
وافيتَ هـذا الثغرَ وهو على شَفًى ... فشَفَيْتَ مُعْضِلَ دائه المُستحكِم
ورَعَيْتَهُ بسياسةٍ دارتْ على ... مُخْتَطِّه دَوْرَ السِّوار بمِعْصَم
كم ليلةٍ قد بتَّ فيها ساهراً ... تُهْدِى الأمانَ إلى العيونِ النُّوَّم
يا مَظْهَرَ الألطافِ وهْىَ خَفِيَّةٌ ... ومَهَبَّ ريحِ النَّصرِ المُتَنَسَّم
تِهْ دَوْلَتُكَ الَّتِى آثارُها ... سِيَرُ الرُّكابِ لمُنجِدٍ أو مُتْهِم
ما بعْدَ يومِكَ فى المواسمِ بعد ما ... أتبعتَ عيدَ الفطرِ أكرمَ مَوْسِم
وافتكَ أشرافُ البلادِ بيومه ... من كلِّ نَدْبٍ للعُلا مُتَسَنِّم
صَرَفُوا إليكَ رِكابَهُمْ وتيمَّموا ... من بابك المُنْتابِ خيرَ مُيَمَّم
وتبوَّءوا منـــه بدارِ كرامة ... فالكُلُّ بين مُقَرَّبٍ ومُنَعَّم
ودَّتْ نُجومُ الأُفْقِ لو مَثَلَتْ به ... لتفوزَ فيـــه برُتبة المُستخدَم
والروضُ مُختالٌ بحُلَّةِ سُنْدسٍ ... من كلِّ مَوْشِىِّ الرُّقوم مُنَمْنَم
ورياحُه نَسَمَتْ بنَشْرِ لَطيمةٍ[2] ... وأقاحُه بَسَمَتْ بثغرٍ مُثْلَم[3]
وأَرَيْتَنَا فيـــه عجائبَ جَمَّةً ... لم تَجْرِ فى خَـــلَدٍ ولم تُتَوَهَّم
أَرْسَلْتَ سَرْعانَ الجيادِ كأنَّها ... أسرابُ طيرٍ فى التَّنُوفة حُوَّم[4]
مِنْ كلِّ مُنْحَفِزٍ بخَطْفَةِ بارقٍ ... قـد كادَ يَسبِق لَمْحَةَ المُتَوَهِّم[5]

---

(١) فى م : « بسلامة الأملاك » .

(٢) اللطيمة : الطيب ، أو وعاء المسك ؛ وتطلق اللطيمة أيضاً على سوق المسك والإبل التى تحمله .

(٣) فى الأصلين وبعض نسخ نفح الطيب «مسلم» . وفى النسخة الخطية (رقم ٣٦٠) من نفح الطيب : « ملثم » . والظاهر أن كلا اللفظين محرف عما أثبتناه . والمثلم : المفلج الأسنان .

(٤) سرعان الجياد : أوائلها . والتنوفة : المفازة ، وهى الأرض البعيدة الواسعة الأطراف .

(٥) فى ط : «منحرف» . ولا معنى له هنا وما أثبتناه عن النسخة المطبوعة من نفح الطيب .

طِرْفٍ يَشُكُّ الطَّرْفُ فى اسْتِثْباته ... فكأنَّهُ ظَنٌّ بصَدْرِ مُرَجِّمِ
ومُسافِرٍ فى الجو تَحسِب أنَّه ... يَرْقَى إلى أَوْجِ السَّماء بسُلَّمِ
رامَ اسْتِراقَ السَّمع وهو مُمَنَّع ... فأُصيب من قُضُب العِصِىِّ بأَسْهُم
رَجَمته من شُهُبِ النِّصال حواصب[1] ... لولا تعرُّضه لها لم يُرْجَمِ
ومُدارة الأفلاك أعجزَ كُنْهُها ... إبداعَ كلِّ مهندسٍ ومُهَنْدِمِ
يَمْشِى الرجالُ بجوْفها وجميعُهم ... عن مُسْتَوَى قَدَمَيْه لم يتقدَّمِ
ومُنَوَّع الحركات قد رَكِب الهوا ... يمشى على خَطٍّ به مُتَوَهَّمِ
فإذا هَوَى مِنْ جَوِّه ثم اسْتَوَى ... أبصرتَ طيْرا حَلَّ[2] صُورةَ آدمى
يَمْشِى على فَنَن الرِّشاء كأنَّهُ ... فيه مُساوِرُ ذابِلٍ أو أرقمِ
وإليك مِن صَوب العُقول عقيلةً ... وقفَتْ ببابك وقفة المُسْتَرْحِمِ
تَرجو قبولَك وهو أعظم مِنْحةٍ ... فاسمحْ به خُلِّدت مِنْ مُتَكَرِّمِ
طاردتُ فيها وصفَ كلِّ غريبة ... فنظمتُ شاردهُ الذى لم يُنْظَمِ
ودَعَوْتُ أربابَ البيان أُريهم ... «كَمْ غادر الشعراء مِنْ مُتَرَدَّمِ»[3]
ما ذاكَ إلا بعضُ أنعُمِك التى ... قد علَّمَتنا كيفَ شُكْرُ المُنعِمِ

ومنه في صنيع الأمير أبى عبد الله

ثم قال : وأَنْشَدَ مِن ذلك فى الصَّنيع المخصوص بعمِّنا الأمير أبى عبد الله رحمة الله تعالى عليه ، وأَطْنَبَ فى وصف دار المُلْك وغير ذلك من ضخامة آثار مولانا الجدّ رضى الله عنه :

سَلِ الأُفْقَ بالزُّهْرِ الكواكبِ حاليَا ... فإنّىَ قد أودعتُه شَرح حاليَا

---

(١) كذا فى النسخة الخطية (رقم ٣٥٩) من نفح الطيب . وفى الأصلين وسائر نسخ نفح الطيب : « قواضب » . وما أثبتناه أولى بالسياق .

(٢) فى نفح الطيب : « حول » .

(٣) هذا صدر مطولة عنترة المشهورة .

وحَمَّلتُ مُعْتَلَّ النَّسيمِ أمانةً ... قَطَعتُ بها عُمْرَ الزمانِ أمانيا
فيا من رَأَى الأرواحَ وهْيَ ضعيفة ... أحمّلها ما يَسْتخِفُّ الرواسيا
وسَاوِسُ كمْ جَدَّتْ وجَدَّ بىَ الهَوَى ... فَعُدَّ بها القلبُ المقلّبُ هازيا
ومَنْ يُطِع الألْحاظَ فى شِرْعَةِ الهَوى ... فلا بُدَّ أنْ يَعْصِى نَصيحاً ولاحيا
عَـدَلْتُ بقَلْبِى عن ولاية حُـكْمِه ... غَداةَ ارْتَضَى من جائر اللَّحْظ واليا
وما الحُبُّ إلّا نظرةٌ تبعثُ الهوى ... وتُعْقِب ما يُعْيِى الطبيبَ المُداويا
فيا عجبًا للعَــيْنِ تمشِى طَليقةً ... ويُصْبِح مِنْ جَرّائها القلبُ عانيا
ألَا فى سبيل اللهِ نفسٌ نَفيسة ... يُرَخِّصُ منها الحُبّ ما كانَ غاليا
ويا رُبَّ عَهْــدٍ للشَّباب قَضَيْتُهُ ... وأحْسنتُ من دَيْن الوصال التّقاضيا
خَلَوْتُ بمَنْ أهْواه من غَيْرِ رِقْبة ... ولـكن عَفافِى لم أكُنْ عَنهُ خاليا
ويوم بمُسْتَنّ الظِّباء شَهِدْته ... أجَدَّ وصالاً باليًا فيه باليا[1]
ولم أصْحُ من خَمْر اللّحاظ وقد غَدا ... بهِ الجوُّ وضَّاحَ الأسِرَّة ضاحيا
وجَرَّد من غِمْــدِ الغَمامة صارما ... من البَرْق مَصْقولَ الصَّفيح يَمانيا[2]
تبسّم فاسْتَبْكَى جُفونِىَ عَبْرَةً[3] ... مَـلأتُ بدُرِّ الدَّمع منها ردائيا
وأذْكَرَنِى ثَغْرًا ظَمِئْتُ لوِرْدِه ... ولا والهوَى العُذْرِىِّ ما كنتُ ناسيا
وراح [خَفُوق[4]] القَلْبِ مِثْلِى كأنَّما ... بِبَرْق الحِمَى من لَوْعة الحُب ما بيا
وليلةَ باتَ البـدرُ فيها مُضاجعى ... وباتت عُيون الشُّهْبِ نَحوِى رَوَانيا
كرَعْتُ بها بين العُذَيْب وبارق ... بمَوْرِد ثَغْــرٍ باتَ بالدُّر حاليا

---

(١) مستن الظباء: مكان عدوها. وأجد: أحدث وجدد.
(٢) فى نفح الطيب: «مصقول الصفيحة صافيا». وفى م: «مصقول الصفاح».
(٣) كذا فى الأصلين. وفى نفح الطيب: «ثمرة».
(٤) هذه الكلمة عن نفح الطيب.

رَشَفْتُ بها شَهْدَ الرُّضاب سُلافةً ... وقَبَّلْتُ فى ماء النَّعيم الأقاحيا
فيا بَرْدَ ذاكَ الثَّغْرِ رَوَّيتَ غُلَّتى ... ويا حَرَّ أنفاسى أَذَبْتَ فؤاديا
وروضةِ حُسْنٍ للشَّباب نَضيرة ... هَصَرْتُ بغُصْن البانِ فيها الَمجانيا
وقد بتُّ أسقى وَرْدَةَ الخَدِّ أدمُعى ... فأَصْبَح فيها نَرْجِسُ اللَّحظ ذاويا
ومالتْ بقلبى مائلاتٌ قُدودها ... فما للقُدود السائلات وماليا
جزَى اللهُ ذاكَ العهدَ عَوْدًا فطالما ... أعادَ على رَبْعِ الظِّباء الجوازيا[1]
وقُلْ لِلَيالٍ فى الشباب نَعِمْتُها ... وقَضَّيتها أُنسا سُقِيتِ لَيالِيا
ويا وَادِياً رَفَّت علىَّ ظِلالُه ... ونحنُ نُديرُ الوَصْلَ فُدِّيتَ واديا
رَمَتْنِى عُيونُ السِّرب فيه وإنما ... رَمَيْن بقلْبى فى الغرام المَراميا[2]
فلولا اعتصامى بالأمـــير محمدٍ[3] ... لما كنتُ مِنْ فَتْكِ اللواحظ ناجيا
فقلْ للَّذى يَثْنِى عَلَى الحُسْن شِعْره ... عليه مع الإحسان لا زِلْتَ بانيا
فكَمْ من شَكاةٍ فى الهوَى قد رَفَأْتُها ... ورقَّعتها بالمدح إذ جاء تاليا
وكَمْ ليلةٍ فى مدحه قد سَهِرْتُها ... أُباهِى بِدُرِّ النظم فيه الدَّرَاريا
ولاحَ عمودُ الصُّبْحِ مثلَ انتسابه ... رَفَعْتُ عليه للمــديح المبانيا
إمامٌ أعادَ المَكْرُماتِ زَمانَهُ ... وشاد له فوق النجوم المعاليا
وجاوز قَدْرَ البَدْرِ نُورًا ورِفْعةً ... ولم يَرْضَ إلا بالكمال مُواليا
هو الشمس بَثَّتْ فى البَسيطة نَفْعها ... وأنوارُها أَبْدَتْ[4] قريبا وقاصيا
هو البحرُ بالإحسانِ يَزْخَرُ مَوْجُه ... ولكنَّه عـــذْبٌ لِمَنْ جاء عافيا

---

(١) الجوازى: جمع جازية، وهى الجزاء، يريد بها النعمة والسقيا ونحوها.
(٢) فى م: «المراسيا».
(٣) فى م: «الإمام محمد».
(٤) كذا فى م. وفى ط: «أمدت». وفى نفح الطيب: «أهدت». وكلاها تحريف.

هو الغيث مهما[1] يُمْسِكِ الغيثُ سُحْبَه يُرَوِّى بسُحْب الجود من كان صاديَا
شمائلُ لو أنَّ الرياض بحسنها لَمَا صارَ فيها زَهرُها الغضُّ ذاويا
فيا بن الملوك الصِّيد من آل خَزْرَجٍ وذا نسَبٍ كالصُّبح عَزَّ مُسَاميا
أَلَسْتَ الذى تَرْجُو العُفاةُ نَوَالَه فتُخْجِلَ جـدواهُ السَّحابَ الغواديا
أَلَسْتَ الذى تخشَى العُداةُ صياله فتُـــنْزِلَ علياهُ الصعابَ العواديا[2]
وهَدْيُك مَهْمَا ضَلَّتِ الشُّهْبُ قصدَها تولَّتْه فى جُنح الدُّجُنَّـــة هاديا
[وعزمُك أمضَى من حُسامِك فى الوغَى وإن كان مصقولَ الغرارين ماضيا][3]
فكَمْ قادحٍ فى الدِّين يَكْفُرُ ربَّه قَدَحْتَ لَهُ زَند الحفيظة واريا
وما راعـــــه إلا حُسامٌ وعَزْمَة يُضيئان فى ليل الخطوب الدَّواجيا
فلولاك يا شمس الخلافــــة لم يَبِنْ سبيلُ جِهادٍ كان من قبلُ خافيا
ولولاكَ لم تُرْفَع سَمَاءُ عَجاجــــةٍ تَلُوح بهـــا بيضُ النُّصُول دَراريا
ولولاكَ لم تُنْهَلْ غُصُونٌ من القَنا وكانت إلى وِرْد الدِّماء صـــواديا
فأثمرَ فيها النَّصْلُ نَصْرًا مُؤَزَّرًا[4] فأُجْــنِيَ قِطافَ الفتح غضًّا ودانيا
ومَهْمَا غدَا سَـــفَّاحُ سَيْفِك عاريا يُغادرُ وجْـهَ الأرض بالدَّم كاسيا
قَضَى اللهُ مِنْ فوق السَّمَوات أنه على من أَبَى الإسلامَ فى الأرض قاضيا
فكَمْ مَعْقِلٍ للكفر[5] صَبَّحتَ أهله بجيشٍ أعاد الصُّبحَ أظلمَ داجيا
رَقِيتَ إليـه والسُّيُوفُ مُشيحةٌ وَقَدْ بَلَغَتْ فيه النفوسُ التَّراقيا

---

(١) فى ط ونفح الطيب : « يهمى » وهو تحريف من الناسخ .
(٢) فى نفح الطيب : « فتوجل علياه الصعاب » .
(٣) هذا البيت عن نفح الطيب .
(٤) فى م : « موردا » .
(٥) كذا فى نفح الطيب . وفى ط : « فكم معقل فى الأرض » .

فَفَتَّحَتْ مَرْقَاةَ المنَّع عَنْــــوَةً	وبات به التَّوحيـــدُ يعْلو مُناديَا
[٢٧٧] وَناقوسُه بالقشر(١) أمسَى مُعَطَّلا	ومِنْبَرُه بالذِّكر أصْـــبحَ حاليا
عجائب لم تخطُرْ ببال وإنما	ظَفِرْنا بها عن هِمَّةٍ هى ماهيَا
فمنكَ استفادَ الدهرُ كلَّ عَجيبة	يباهِى بها الأملاكَ أُخْرى لَياليا
وعنك يُرَوِّى النَّاسُ كُلَّ غَريبَةٍ	تَخُطُّ على صَفْحِ الزمانِ أماليا
ولله مَبناكَ الجميـــلُ فإنَّهُ	يَفوقُ عَلَى حُكْمِ السُّعُود المَبانيا
فَكَمْ فيه للأبصارِ مِنَ مُتَنَزَّهٍ	تُجِدُّ به نَفْسُ الحليم الأمانيــا
وتَهْوَى النجومُ الزُّهْرُ لَوْ ثَبتَتْ به	ولم تَكُ فى أُفُقِ السَّماء جَواريا
ولو مَثَلَتْ فى ساحتيه(٢) لَسابَقَتْ	إلى خدْمة تُرْضيك منها الجواريا
به البَهْوُ قد حاز البَهاء وقد غدَا	به القَصْرُ آفاقَ السَّماء مُباهيا
وكَمْ حُلَّةٍ جَلَّلتَـــهُ بحُلِيِّهَا	من الوَشْى تُنسى السَّابِرِيَّ(٣) اليَمانيا
وكم من قِسِيٍّ فى ذَراه ترَفَّعتْ	على عَمَدٍ بالنُّور باتت حَوَاليا
فتحسبها الأفلاكَ دارتْ قِسيُّهَا	تُظِلُّ عمودَ الصُّبح إذ لاح(٤) باديا
سَوارِىَ قد جاءت بكل غريبة	فطارت بها الأمثالُ تجرى سواريا
به المرمرُ المَجلُوُّ قد شَفَّ نُورُه	فيجلو من الظَّلماء ما كانَ داجيا
إذا ما أضاءتْ بالشُّعاع تخالُهــا	على عِظَمِ الأجرامِ منها لآليا
به البحرُ دَفَّاع العُباب تخالُهُ	إذا ما انبرى وَفْدُ النَّسيم مُباريا

(١) فى م ، ط : « بالقس » وهو تحريف من الناسخ . وما أثبتناه عن نفح الطيب المخطوط (رقم ٣٠٩) .

(٢) فى نفح الطيب : « فى سابقيه » .

(٣) السابرى : ثوب رقيق جيد .

(٤) فى نفح الطيب : « بات » .

إذا ماجَلَتْ أيدى الصَّبا صفح مَتْنه ... أرتْنا دُرُوعًا أ كَسَبَتْنَا الأباديا(١)

ورَاقصة فى البحْرِ طَوْعَ عِنانها ... تراجِعُ ألحانَ القِيان العوانيا(٢)

إذا ماعلَتْ فى الجوّ ثم تحدّرت ... تُحَلّى بمُرْفَضِّ الجُمانِ النّواحيا

يَذوبُ لُجَيْنٌ سَالَ بين جواهرٍ ... غَدَا مثلَها فى الحُسْن أبيضَ صافيا

تَشابه جارٍ للعُيونِ بجامدٍ ... فلمْ أدرِ أيًّا منهما كانَ جاريا

فإنْ شئْتَ تَشْبيهاً له عَنْ حَقيقةٍ ... تُصيبُ بها المَرْمَى وبُورِكْتَ راميا

فقُلْ أرْقصَتْ منها البُحَيْرَةُ بِنْتَها(٣) ... كما يُرْقِصُ المولودَ مَنْ كانَ لاهيا

أرتْنا طِباعَ الجُودِ وهى وليدة ... ولَمْ ترضَ فى الإحسان إلاّ تَغاليا

سقَت ثغرَ زَهْرِ الرّوْض عَذْبَ بَرُودِها ... وقامتْ لكى تُهْدى إلى الزَّهْرِ(٤) ساقيا

كأنْ قَدْ رأتْ نهرَ المَجَرّة ناضِباً ... فرامتْ بأن تُجْرى إليه السَّواقيا

وَقامت بناتُ الدَّوْح فيه مَوائلا ... فُرَادَى ويتلو بعضُهن مثانيا [٢٧٨]

رَوَاضعَ فى حِجْرِ الغمام تَرَعْرَعَتْ ... وشَبّت فشبَّتْ(٥) حُبَّها فى فؤاديا

بها كلُّ ملْتَفِّ الغدائرِ مُسْبَل ... تُجيلُ به أيدى النّسيم مَدَاريا(٦)

وأشْرفَ جيدُ الغُصْن فيها مُعطَّلاً ... فَقَلّدَت النُّوّارَ منه التراقيا

إذا ما تَحَلّتْ دُرَّ زَهْرِ غُروسه(٧) ... يَبيت لها النّمام بالطّيب واشيا

(١) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصل : « أرتنا الدرارى وأكتسبنا ... » الخ .

(٢) فى نفح الطيب المطبوع : « الأغانيا » . وفى المخطوطتين منه : « المغانيا » .

(٣) فى نفح الطيب المطبوع والمخطوطتين : « منها » .

(٤) فى نفح الطيب المطبوع : « الدهر » . وهو تحريف .

(٥) شبت : أشعلت وأوقدت .

(٦) المدارى : جمع مدرى ، وهو المشط .

(٧) كذا فى نفح الطيب . وفى ط : « إذا ما أقلت در ثمر بروده »

مُصارَفَةُ النَّقْدَيْنِ فيها بمثلها ... أجازَ بها قاضى الجمال التَّقاضيا[(١)]

فإن مَلأت كفَّ النسيمِ مع الضُّحى[(٢)] ... دراهمَ نَوْرٍ ظلّ عنها مكافيا

فيملأ حجرَ الرَّوض حولَ غصونها ... دنانيرَ شمسٍ تتركُ الرَّوضَ حاليا

تُغَرِّدُ[(٣)] فى أفنانها الطَّيْرُ كلّما ... تَجُسُّ به أيدى القيان الملاهيا

تُراجعها سَجْعاً فتحْسب أنّها ... بأصواتها تُملى عليها الأغانيا

فلم نَدْرِ[(٤)] رَوْضاً منه أنعمَ نَضْرةً ... وأعطرَ أرجاءً وأحْلَى مَجانيا

ولم نَرَ قصْراً منه أعلى مظاهرا ... وأرفعَ آفاقاً[(٥)] وأفسحَ ناديا

معانِيَ من نفسِ الكمالِ انتقيتها ... وزيّنْتَ منها بالجمالِ المغانيا

وفاتحتَ مَبْناهُ بعيدٍ شَرَعْتَهُ ... تَبُثُّ به فى الخافِقَيْنِ التهانيا[(٦)]

ولما دعوتَ الناسَ نحوَ صَنيعه ... أجابوا لهُ مِنْ جانبِ الغَوْرِ[(٧)] داعيا

وأمُّوهُ منْ أقصى البلادِ تقرُّبا ... وما زالَ منكَ السَّعْدُ يُدْنِى الأقاصيا

وأذْكرتَ يومَ العَرْضِ جُوداً ومَنْعَةً ... بموقفِ عَرْضٍ كنتَ فيه المُجازيا

جَزَيْتَ به كُلاًّ على حالِ سَعْيِهِ ... فما غَرَسَتْ يُمناهُ أصبحَ جانيا

وأطْلعتَ مِنْ جَزْلِ الوُقُودِ هَوادِجًا ... تذكّرُ يومَ النَّفْرِ مَنْ كانَ ساهيا

وحينَ غدَا يُذْكى ببابك[(٨)] للقِرَى ... فلا غرو أنْ أجْريتَ فيه المَذَا كيا[(٩)]

---

(١) فى نفح الطيب : « أجاز بها النقدين منها كما هيا » .

(٢) فى نفح الطيب : « بمثالها » مكان قوله : « مع الضحى » .

(٣) فى نفح الطيب : « تعود » .

(٤) فى ط : « ولم نر » وما أثبتناه عن نفح الطيب .

(٥) فى ط : « وأوضح إبانا » مكان قوله : « وأرفع آفاقا » ولا معنى له ، والتصويب عن نفح الطيب .

(٦) فى الأصلين : « التناهيا » . وما أثبتناه عن نفح الطيب .

(٧) كذا فى نفح الطيب . وفى ط : « الفوز » .

(٨) كذا فى م . وفى ط : « يذكى المنائر » . وفى نفح الطيب : « يذكى سائر » .

(٩) المذاكى من الخيل : التى أتى عليها بعد اكتمال قوتها سنة أو سنتان .

وطامحةٍ فى الجوِّ غيرِ مُطالةٍ … يَرُدُّ مَدَاها الطَّرْفَ أحْسَرَ عانيَا

تَمُدُّ لها الجَوْزَاءُ كفَّ مُصَافِحٍ (١) … ويَدْنو لهـا بدرُ السماءِ مُناجيا

ولا عَجَبٌ أَنْ فاتتِ الشُّهْبَ بالعُلَا … وأَنْ جَاوَزَتْ منها المَدَى المُتَناهيا

فَبَيْنَ يَدَىْ مَثْوَاكَ قامت لخدمةٍ … ومَنْ خَدَمَ الأَعْلى استفادَ المَعاليا

وشاهدُ ذَا أَنِّى ببابِكَ وَاقفٌ … وقد حَسَدَتْ زُهْرُ النُّجوم مكانيا

وقد أُرْضِعَتْ ثَدْىَ الغَمَامِ (٢) قبلَها … بحِجْرِ رياضٍ كُنَّ فيـه نَواشيا

فلما أُبِينَتْ عَنْ قَرارةِ أَصْلِها … أَرَادَتْ إلى مَرْقَى الغَمَامِ تَعاليا

وَعَدَّتْ لقاءَ السُّحْبِ عيداً ومَوْسِمًا … لِذَاكَ اعْتَدَتْ بالزَّمْرِ تُلْهِى الغوَاديا [٢٧٩]

فأَضْحَكَتِ البَرْقَ الطَّرُوبَ خِلَالَهَا … وباتَ لَأْكَواسُ (٣) الدَّرَارِى مُعَاطِيا

رأتْ نفسَها طالت فظنَّت بأنَّها … تَفوتُ عَلَى رَغْمِ اللَّحَاقِ المَرَاميا

نَفَقَتْ إليها الذَّابلاتُ (٤) كأنَّها … طُيورٌ إلى وَكْرٍ أَطَلْنَ تَهاويا

حَكَتْ شَبَهًا للنَّخْلِ والنَّخْلُ حَوْلَهُ … عِصِىٌّ إلى مَثْوَاهُ تَهْوِى عَوَاليا

فمِنْ مُثْبَتٍ منها الرَّمِيَّةَ مُدْرِكٍ … ومِنْ طائشٍ فى الجَوِّ حلَّقَ وَانيا

وحِصْنٍ مَنيعٍ فى ذَرَاه قد ارْتَقَى … فأَبْعَدَ فى الجوِّ الفضاءِ المَرَاقيا

كأَنَّ بُرُوجَ الأُفْقِ غارَتْ وقد رأتْ … بُروجَ قُصورٍ شِدْتَهُنَّ سَواميا

فأَنْشَأْتَ بُرْجًا صاعداً مُتَـنَزِّلًا … يكونُ رسولًا بينهنَّ مُدَارِيا

تَطَوَّرَ حالاتٍ أَتَى فى ضُروبِها … بأنواعِ حَلْىٍ تَسْتَفِزُّ الغَوانيا

---

(١) فى نفح الطيب : « مسارع » .

(٢) كذا فى نفح الطيب . وفى ط : « المفاخر » . وما أثبتناه أولى بالسياق .

(٣) كذا فى نفح الطيب المطبوع والمخطوط . والذى فى ط : « باتت » . ولم يسمع : « أكواس » جمعا لـكأس . وإنما المسموع : « أكؤس وكئوس وكئاس » .

(٤) يريد بالذابلات « النيازك » وهى الرماح . والذى فى نفح الطيب : « الزائلات » .

فَحجْلٌ برِجْليها ، وشاحٌ بخَصْرها ... وتاجٌ إذا(١) ما حلَّ منها الأعاليا

وما هُوَ إلا طَيرُ سَعْدٍ بِدَوْلةٍ ... غدَا زاجرًا من أَشْهَبِ الصُّبْح بازيا

أمولاىَ يا فخرَ الملوكِ ومَنْ به ... سَيَبلُغُ دينُ اللهِ ما كان راجيا

بَنُوكَ على حكمِ السَّعادة خمسةٌ ... وذا عَدَدٌ للعَيْنِ ما زال واقيا

تَبيتُ لهمْ كَفُّ الثرَيَّا مُعيذَةً ... ويصبحُ مُعْتَلُّ النَّسيمِ رَوَاقيا(٢)

أسامٍ عليها للسعادة مِيسَمٌ ... تَرَى العِزَّ فيها مُسْتَكِنًّا وباديا

حملْتَ أبا الحجَّاجِ فاتحَ طِرْسِهمْ ... وقد عرَفتْ منك الفُتُوحُ التَّواليا

وحَسْبُك سَعْدٌ ثم نَصرٌ يَليهمُ ... مُحمّدُ الأَرْضَى فما زلتَ رَاضيا

أَقمتَ بهِ مِنْ فِطْرَةِ الدِّين سُنَّةً ... وجَدَّدْتَ مِنْ رسْمِ الهداية عافيا

وجاءوا به ملْءَ العُيونِ وَسامةً ... يُقَلِّبُ وَجْهَ البَدْرِ أَزْهَرَ باهيا

فيا عاذلا ما كانَ أَجْرَأَ مِثْلَهُ ... فتلك لا يُدْمى الأسودَ الضَّواريا(٣)

وجاءتْكَ مِن مصْرَ التَّحايا كرائمًا ... كما فَتَقَتْ أيدى التِّجار الغَواليا

ووافَتْكَ من أرض الحجاز تَميمةٌ ... تُتَمِّمُ صُنْعَ اللهِ لا زالَ باديا

ونَادَاكَ بالتَّهْويل سُلْطانُ طَيْبَةٍ ... فيا طيبَ ما أهدَى إليكَ مُناديا

وقامَ وقد وافَى ضريحَ مُحَمَّدٍ ... لِسلطانك الأعلى هُنالك داعيا

سَريرَتُكَ الرُّحْمَى جَزاكَ بِسعْيِها ... إلهٌ يُوَفِّى فى الجزاء المَساعيا

فواللهِ لولا سُنَّةٌ نَبَوِيَّةٌ ... عَهِدْناهُ مَهْدِيًّا إليها وهاديا

وعُذْرٌ مِنَ الإعذار قَرَّرَ حُكْمَهُ ... من الشَّرْعِ أخبارٌ رُفِعْن عواليا

---

(١) كذا فى م . وفى ط ونفح الطيب : « إلى » .

(٢) فى م : « ويصبح معتل النواسم واقيا » .

(٣) فى ط : « فيا غادراً . . . * فتلك لايرى . . . الخ . وما أثبتناه عن نفح الطيب .

لراعتْ بهاالْحَرْب(١) أهوالُ مَوْقِفٍ تُشِيبُ بمُبيضِّ النُّصولِ العَواليا [٢٨٠]
لكَ الحمدُ فيه من صَنيع تُعِدُّه فتأْلُه فى الفخر عزّزَ ثانيا
تَشُدُّ له الجَوْزاء عقدَ نطاقِها لتَخْدُم فيه كَىْ تنالَ المَعاليا
وهُنِّيتَ بالأمْداح فيه وقد غدا وُجُودُكَ(٢) فيه بالإجادَة وافيا
ودُونَكَ مِنْ بَحْرِ البَيان جواهراً كَرُمْنَ فما يُشْرَيْنَ إلاّ غواليا
وطارَدْتُ فيها وَصْفَ كلِّ غريبةٍ فأعْجَزْتُ مَنْ يأتى ومَن كانَ ماضيا
فيا وَارثَ الأنصارِ لا عَنْ كَلالَةٍ تُراثَ جَلال يستخفُّ الرّواسيا
بأمداحهِ جاء الكتابُ مفصَّلا يُرَتِّله فى الذِّكر مَنْ كان تَاليا
لَقدْ عَرَفَ الإسلامُ مِمَّا أفَدْتَه(٣) مكارمَ أنصاريَّةً وأياديا
عليكَ سلامُ الله فاسلمْ مُخلَّداً تجدِّد أعياداً وتُبْلِى أعاديا

في صنيع للغنى بالله لإعذار بعض حفدته

ثم قال : ومِنْ ذَلِكَ أيضاً فيما اعتُمِدْنا به نَحْن وأخونا المتولّى بالأمر بعد مولانا الوالد رحمة الله تعالى على الجميع من تلك الصنائع ، وهى جامعة لجمّ الأوصاف والبدائع :

نُجُومٌ أمَدَّتْها بُدورٌ كَوامِلُ لهَا النُّورُ من شمْسِ الخلافَةِ شامِلُ
وفى الشُّهْب مِنْ بدر السماء مَشابهٌ وفى البَدْرِ مِنْ شمْسِ النَّهار مَخايِل
وتُعْرَفُ فيها مِنْ أبيها شمائلٌ كما فى أبيها مِنْ أبيهِ شمائل
مَرَاتِبُ فى عَدِّ الحِساب ثلاثةٌ وهُنَّ لأقمار العَلاء منازل
طَلَعْنَ عَلَى حُكْمِ السُّعود أهلَّةً وسَرْعانَ ما تَبْدُو وهُنَّ كَوامِل

---

(١) فى نفح الطيب : « للجزر » .
(٢) فى الأصل : « وفودك » . وما أثبتناه عن نفح الطيب .
(٣) كذا فى نفح الطيب المطبوع والمخطوطتين وفى الأصلين : « أجدته » .

تَجلَّتْ إلى الأبصار منْ أُفْقِ الهُدى ... وبُثَّتْ إلى الأنصار منها وَسَائلُ

فيأيُّها المولَى الذى شَادَ آخرًا ... منَ الفَخْرِ ما لَمْ تَستطعْهُ الأوائل

بَنُوكَ كأمثالِ الأنامل عِـــدَّةً ... فزانتْ يَدَ الإسلام تِلْكَ الأنامل

غُصونٌ بروْضِ الجودِ منْكَ ترعرَعَتْ ... وقَدْ جادَها من صَوْب نُعْماك وابل

فوالله ما أدرى إذا ما تُذُوكِرَتْ ... أأخلاقُها(1) تُجْلَى لنا أمْ خمائل

غُيُوثُ سَماحٍ والعُـفاة مَسَايِلٌ ... لُيُوث كِفاح والكُماةُ تُنازل

سُيوفٌ مُحلاَّةٌ عَلَى عاتِقِ الهُدَى ... إذا تُنْتضَى تَمضِى وتَنْبو المَناصل(2)

تَخاف عُداةُ الدِّين منْهُمْ وَتتَّقِى ... كما تتقى الأُسْدَ الظباءُ الجوافل(3)

وإنَّ أبا الحَجّاج وهْوَ كبيرُهم ... مَحلٌّ كثير دونَهُ مُتَضائِل

[٢٨١] مَليكٌ إذا استقْبلْتَ غُرَّةَ وجْهِه ... تخيَّلْتَ أنَّ الشمسَ فيها تُقابل

إذا استُمْطِرتْ فى المَحْلِ سُحْبُ بَنانه ... فهُنَّ لمستجدٍ هَوامٍ هَوامل

وإنْ سالَ ماء البشْر فوق جَبينِه ... فلَيسَ بِمَدْفوعٍ عن الوِرْد سائل

تَقلَّد منـه عاتِقُ المُلْكِ صارِما ... لهُ العزْمُ نَصْلٌ والسُّعودُ حَمائل

وأبناؤه دُرٌّ تَناسَقَ عِقْدُه ... يُحلَّى بهم من لَبَّةِ الفخر عاطِل

أزاهِرُ فى روض المحاسن أيْنَعَتْ ... فلا رَوْضُها ذاوٍ ولا الزَّهْر ذابل

زَواهِر فى أُفْقِ العَلاء تَطلَّعَتْ ... يُشابِهُ بعضٌ بعضَها ويُشاكِل

فما منهُمُ إلاّ أغَرُّ مُحجَّلٌ ... بوِرْدِ المعالى فى الشَّبيبةِ ناهل

أقمْتَ لها الإعذارَ مَوْسِمَ رَحْمَةٍ ... تَسنَّتْ به للمتقين المآمل

وما هُوَ إلا مَوْرِدٌ لسَعادةٍ ... تَفيضُ لها منهُ المُنَى والفَواضل

(1) فى الأصلين : « لأخلاقها » ولعلها محرفة عما أثبتناه ليستقيم الكلام .

(2) كذا فى م . وفى ط : « المفاصل » .

(3) كذا فى م . وفى ط : « الجوازل » جمع جورل ، وهو الفتى من الظباء .

وأَجْرَيْتَ سَرْعانَ الجِياد بملْعَبٍ ... تذكَّرَ فيه موْقِفَ الجِدِّ هازِلُ

نجومٌ وآفاقُ الطِّراد مَشارِقٌ ... عليها بُدُورٌ من وُجوهٍ كوامل

مَفاتيح أبوابِ الفُتوحِ فطالما ... أُبيحتْ بها للكافِرين المَعاقل

فأشْهَبُ كالإصباحِ راقَ أديمُه ... وغالتْه شُهْبَ السماء الغَوائل

ألمْ ترَ أنَّ الشُّهْبَ فى الأُفقِ كلما ... تجَلَّى له الإِصْبَاح وهْىَ أَوائِل

وأحْمَرُ زَانَ الوَرْدُ منهُ خَمِيلةً ... يَحُفُّ بهِ نَهْرٌ من السَّيْف سائل

جَرَتْ لَوْنَهُ مِنْ فَوْقِهِ مُهَجُ الْعِدَا ... فَآلَهِ منه الْجَامِدُ الْمُتَسَايِلُ[1]

تلاقَى بهِ أَمثالهُ فكأنّها ... جمارٌ وقدْ أذْكى بها البأسَ باسل

إذا قُبِسَتْ بالرَّكْض[2] فى حَوْمة الوغَى ... تُنير بها لَيْلَ القَتامِ مَشاعِل

وأشقَرُ مهْمَا حَاوَلَ[3] البَرْقَ فى مَدًى ... يموتُ جَوَادَ البَرْقِ منه المُحاوِل

تَحَلَّى بمَحْلول[4] النُّضَارِ أديمُه ... فكانُ مُحَلًّى دُونَهُ فهْوَ عاطِل

وَأَدْهَمُ فى مِسْحِ الدُّجَى مُتلفِّعٌ ... وَقَدْخاضَ مِنْهُ فى الصَّباحِ الأَسافِل

يُكلَّلُ بالجوْزاء حَلْىُ لجامه ... فَدُرُّ الدَّرارِى مِنْ حِلاه عَواطل

ولم يُرْضِهِ سَرْجُ الهلالِ مُفَضَّضاً ... فأعرضَ عَنْها للأَهِلَّةِ ناعِل

وأصْفَرُ فى ثَوْبِ الأَصيل قدارْتدَى ... ورُبَّما وَدَّت حِلاه الأَصائِل

وقد قُدَّ مِنْ بُرْدِ العَشِيِّ جِلالُه ... وفى ذَيْلِهِ صِبْغٌ مِنَ اللَّيْلِ حائل

---

(١) هذا البيت ساقط فى ط .

(٢) كذا فى م . وفى ط : « إذا اقتبست بالركن » .

(٣) كذا فى م . وفى ط : « جاوز » .

(٤) كذا فى م . وفى ط : « بجوال » .

وصاعدةٌ فى الجو مِلْءَ عِنانِها ... تُسامِتُ أَعْنانَ السَّما وتُطَاوِلُ

طَلَعْتَ تُحَيِّى الْبَدْرَ مِنها بِصَعْدَةٍ ... عَلَيْهَا لِوَاءُ الصُّبْحِ فى الأفْقِ مَاثِل

[٢٨٢] وقدأعْرَبَتْ بالرَّفْعِ[1] عن طِيبِ نَحْرِها[2] ... متى نَصَبَتْها فى الفَضاءِ العَوامِل

يَمُدُّ لها الكفُّ الخَضِيبُ بِساعِدٍ ... ويشكى السِّماكَ الأعْزَلَ الرُّمْحِ عامِل

تَنَقَّاهُا هِيفُ العِصِىِّ كأنَّها ... سِهامٌ وَعَاها للرَّمِيَّـةِ نَابِل

تُرَاوِغُها طَوْراً وطَوْراً تُضِيفُها ... فسَامٍ[3] لِأَعْلَى مُرْتَقَاها وَنَازِل

وبالأمْسِ كانت بَعْضَ أَغْصَانِ دَوحِها ... فَنَقَّلَهَا عنها عَلَى الرَّغْمِ نَاقِل

تَحِنَّت إلى أَوْطانها وَتَسابَقَتْ ... تُعَاوِدُ مَسْرَاهَا بِهَا وَتُوَاصِل

وَبُرْجٌ مُنِيفٌ فى ذُرَاها قد ارتقى ... لِتُرْفَعَ منهُ لِلْبُرُوجِ الرَّسائِل

تَطَوَّر حالاتٍ أَتَى فى جَميعِها ... بأوضاعٍ[4] حَلْيٍ وَصْفُه مُتَغَافِل

فَتَاجٌ بِأَعْلاها ، وِشَاحٌ بِخَصْرِهَا ... وفى الساقِ منْه قَدْ أُدِيرتْ خَلاخِل

وما هو إلا قائمٌ مَدَّ مُلْكَهُ ... إلى الله فى البُقيا لِما صَدَّ سائل

ولله عَيْناَ مَنْ رَأى القَصرَ حَوْلَهُ ... منازلُ فيها للسُّعودِ منازِل

تروقُكَ فيـــهِ للبُدُورِ مطالعٌ ... إذا مَثَلَتْ فى ساحَتَيْه الأَماثِل

مَظاهِرُ أقْمارٍ مَرَاتِبُ أَنْجُمٍ ... منازِلُ بالنَّصرِ العَزيزِ أَواهِل

وقد كانَ هَوْلُ الحَفْلِ رَوَّعَ أَهْلَهُ ... وأُشْعِرَتِ الإِشفاقَ تِلكَ المَحافِل

---

(١) كذا فى م . وفى ط : « بالفخر » .

(٢) فى م : « نحرها » .

(٣) فى الأصلين : « حسام » ولا معنى لها هنا .

(٤) فى م : « بأنواع » .

فأبدتْ به أبنَاءه نَجْلاكَ أوْجُهًا ... تَبِينُ إلى السَّارِين منها المَجَاهِلُ
فلا الحَفْلُ مَرْهُوبٌ ولا الخطْوُ قاصِرٌ ... ولا السِّربُ مُرْتاعٌ ولا الرَّوْعُ هائِلِ
وَلا القَلْبُ مَنْخُوبٌ وَلا الحِلْمُ طائِشٌ ... ولا العقل مَعْقول ولا الفِكر ذَاهل
أُولئكَ أبناءُ الخلافةِ بُوكِرُوا ... وتَجْرى عَلَى أعدائهِن الصَّواهِل
هَنيئاً بها مِنْ سُـنَّةٍ نبَوِيَّةٍ ... زَهَا الفخرَ مَحْصُولٌ لَدَيْهَا وَحَاصِل
ورُحْمَى له مِنْ عاذِرٍ بانَ عُذْرُهُ ... وأَوْهَمَ نَقْصًا فَضْلُهُ مُتَطَاوِل
فنَقْصُ هِلالِ الأُفْقِ ما زَالَ مُؤْذِنًا ... لمَرْآهُ أنْ يَبْدو لنا وَهْوَ كامل
ومِنْ نَقْصِ ظِلِّ الشَّمسِ تَزْدَادُ رِفْعَةً ... إلى أن تُرَى والظِّلُّ فى الشَّرْق مَائل
وإن تابعَ النَّقْصُ الشُّهورَ فإنَّها ... عَلَى إثْرِهِ تأْتى وَهُنَّ كَوَامِل
ونَقْصُ صلاةِ الظُّهرِ يَوْمَ عَرُوبَةٍ ... لِمَعنَى كَمالٍ أوضحَتْهُ الدَّلائِل
وإن نَقَصَ البازِى رِياشَ جَناحِهِ ... يَزِيدُ استْباقا وهْو للصَّيد خاتِل
وتَسْتَفْرِغُ الأَنْعَامُ ما فى ضروعِها ... عَشِيًّا لِتَغدُو والضروعُ حَوافل
ونَقْصُ زَكَاةِ المَالِ فيهِ وُفورُهُ ... ومَتْق ذُبابِ السَّيف يَخْشَاهُ صاقِل
لك الخيرُ مِن صُنْعٍ جلوتَ مَحَاسِنًا ... يُحَدِّى بها حادِى السُّرَى ويُناقِل
ألا هَكَذَا فليفقِدِ الفَخْرُ تاجَهُ ... ويَسْمو إلى أَوْجِ العُلا ويُطَاوِل
بأَبلَجَ غارَ الصُّبْح منهُ بطَلْعَةٍ ... لَهَا البَدْرُ تاجٌ والنُّجومُ قَبَائل
إذا خَطَبَ العَلياَ تَخَطَّتْ بِرَكْبِهِ ... عَلَى خَطَرِ المَسْعَى القَنَا والقَنابل
ولوْ رامَ إدراكَ النُّجومِ بحِيلةٍ ... لأَحرزَ مِنْ إدراكِها ما يُحاوِل
وإن طلبَتْ زُهْرُ النُّجومِ لَحَاقَهُ ... فمِنْ دُونِ مَا تبغِى المَدى المُتطاوِل
وتَخْفُقُ بالنَّصرِ العَزيزِ بنُودُهُ ... إذا خَفَقَتْ فيها الصَّبا والشَّمائل
وليلِ جِهَادٍ باتَ يرعَى نُجومَهُ ... فلاَ الليلُ مُنْجابٌ ولا النَّجْمُ آفِل

[٢٨٣]

يُراعِى حُمَاةَ الدِّينِ فِيهِ بمُقْلَة ... يُرَاعِى بها الإسلامَ كافٍ وكافلُ

إذا اشتاقَ هَزَّ الرِّيحُ خافقَ بَنْدِهِ ... وإن حَنَّ غَنَّتْهُ الجيَادُ الصَّوَاهِلُ

وَفى اللهِ عَنْ وَصْلِ الأحِبَّة مَرْغَبٌ ... وفى الغَزْوِ عن ذِكرِ المنازل[1] شاغل

مِن الخَزْرَجِيِّينَ الَّذِينَ نَمَتْهُمُ ... عشائرُ مِنْ قَحْطَانِهَا وفَصائل

تَسَامَى إلى ماءِ السَّماء[2] بِجُودِهُ ... بماء سماء فى البَسِيطة حَائِل[3]

أقولُ لمُسْتام الرَّبِيعِ وقد غَدا ... يَرودُ مُصَابَ[4] الغَيْثِ والعامُ ماحِل

أمامَكَ دَارٌ للغَــنِيِّ بِرَبّهِ ... بأرْجائها للمُعْتَفِينَ مَنَاهِل

تفَجَّرَ مِنْ كَفَّيهِ عَشْرَةُ أبْحُرٍ ... يَغَصُّ بِهِنَّ البَحْرُ[5] وَهْىَ أنَامل

فتجرِى بها سُفْنُ الرَّجاءِ إلى مَدًى ... وَلَيْسَ إلى الجودِ مِنَ الجودِ سَاحِل[6]

فَرَاجِيه تَسْتَجْدِى العُفاةُ نَوالَه ... وسائلُه تُزْجَى إليــه الوَسائل

أحاديثُ عنهُ فى السَّماح غَرِيبةٌ ... يُرَوِّى عواليها عَطَاءٌ وَوَاصِلُ

لكَ اللهُ مِنْ تَولِ غَمَامُ بَنَانِهِ ... أقامتْ فروضَ البِرِّ منها النوافل

طلَعْتَ بأفْقِ الغَربِ نَيِّرَ رَحْمَةٍ ... وَقَدْ شرُفَتْ منكَ العُلا والفضَائل

فحمْدُكَ أحْرَى مَا أفادتْ حَقَائِبُ ... وَذِكرُكَ أَسْنَى ما أَقَلَّتْ رَواحِل

---

(١) فى م : « المعاهد » .

(٢) ماء السماء : لقب عامر بن حارثة الأزدى ، وهو أبو عمرو مزيقيا ، ويقال لولده : بنو ماء السماء ، وهم ملوك الغساسنة الذين منهم الأنصار ، قبيلة الممدوح . قال بعض الأنصار :

أنا ابن مزيقيا عمرو وجدى ... أبوه عامر ماء السماء

(٣) فى م : « جائل » بالجيم المعجمة .

(٤) كذا فى م . ويرود مصاب الغيث ، أى يتطلب مساقط المطر . والذى فى ط : « يروم خصاب » .

(٥) فى ط : « النهر » .

(٦) فى م : « سوى » مكان قوله : « إلى » .

تَرُومُ جَوارِى الشُّهْبِ شأْوَكَ فى العُلا ... ومنْ دُونِه للنَّيِّراتِ مَرَاحِلُ
وفى الصُّبحِ مِن داكَ الجبينِ أَشِعَّةٌ ... وفى الشمس من ذاك المُحَيَّا دَلائل
وفى الرَّوْضِ مِنْ رياك عَرْفٌ ونَفْحةٌ(١) ... وَفى الغيْثِ من يُمْناكَ جُودٌ وَنَائِل
إذا أَنْتَ لم تُزْجِ الجنودَ إلى العُلا ... فإنّ جُنودَ اللهِ عنْكَ تُقَاتِل
وَإن لمْ تُقَوِّمْها سِهاماً مَرِيشَةً ... فإن سِهامَ اللهِ عنكَ تُناضِل
تَرِيشُ لكَ الأقدارُ أَسْهُمَ أَسْعُد ... تُصَابُ بهـا للدَّارِعينَ مقَاتِل
لكَ العِزُّ تَسْتَجلِى الخُطوبَ بنُورِهِ ... فَلَيْسَ لَهُ إلا الصَّـباحَ مماثِل
اذا الْعَزْمُ لم يَصْقُلْ حُسامَ كَمِيِّهِ ... فمـا نافعٌ ما قَدْ جَلَتْهُ الصَّيَاقِل [٢٨٤]
فَقَبْلَ مضاءِ السَّيفِ تَمْضى عَزائِمٌ ... وبَعْدَ بناءِ الرَّأْىِ تُبْنَى المَعاقِل
وما يستَوِى ـ والعلمُ للهِ وحدَهُ ـ ... عَليمٌ بأعقابِ الأُمور وجـاهِل
تُظَلِّلُ سُحْبُ الطَّيْرِ جيشَكَ حيْثُما ... تَميلُ به الرَّاياتُ وَهْىَ حَوامِل
فلَاقَى بها عِقْبانَ طيرٍ ورايةٍ ... تُبيدُ الأَعادى والرِّماحُ حَبائل
فقُل لعَميدِ الرُّومِ دُونَكَ فارتقِبْ ... طَلَائعَ فيهـا المنايا رَسائل
وَشِمْ بارقَ السَّيفِ اللَّمُوعِ جُفُونُهُ ... سَحابٌ(٢) فتَامٍ تَحْتَه الدَّمُ سَائِل
ولا تَزْجُرِ الغِرْبانَ فى البَحرِ إنَّها ... سَـفائِنُ والبحرُ المذَلَّلُ حامِل
ولـكنَّها واللهُ يُنْجِزُ وَعْـــدَهُ ... جَوارٍ بِآسَادِ الرِّجالِ حوامل
ومُخْضَرَّةُ الأرجاءِ فى جَنَباتِها ... مَسارِحُ تَحْمِيها الرِّماحُ الذَّوابِل
تَرَى الدَّوْحَ مِنْها بالأَسنَّةِ مُزْهِرًا ... إذا ما سَقَتْهُ للسُّيوف الجَداوِل
تَبُلُّ غَليلَ الرُّمْحِ مِنْ مُهَجِ العِدَا ... إذا ما كَسَتْ منها الرِّماحَ غَلائل

---

(١) فى ط : « نغمة » ولا يستقيم بها الـكلام هنا ، وما أثبتناه عن م .
(٢) فى ط : « حسام » . وفى م : « سجام » ولعلهما محرفتان عمـا أثبتناه .

فياعجبًا للرُّمْحِ رَوَّيْتَهُ دَمًا — وقد راقَ منه العينَ رَيَّانُ ذَابِلُ
لَقَدْ كَمَلَتْ فيكَ المحاسنُ كلُّها — وما كلُّ مَنْ يُعْطَى الخلافة كامِل
فعندَ جميعِ الخلقِ شُكْرُكَ عاجِلٌ — وعِنْدَ الإلهِ الحقِّ أجرُكَ آجِل
وَدُونَكَ مِنْ نَظْمِى جَوَاهِرَ حِكْمَةٍ — يُفَاخِرُ منها السِّحْرَ بالشِّعر بَابِل[1]
وما هُو إلَّا ذِكْرُ أوصافِكَ العُلا — فَتَفْعَلُ[2] يا مَوْلاىَ والعَبْدُ قائل
فَتُتْلَى عَلَى الأَسْمَاعِ مِنها بدائعٌ — وتُجْلَى عَلَى الأَبصارِ مِنها عَقائل
وَلَوْ أنَّنِى أَدْرَكْتُ أَعْصَارَ مَنْ مَضَى — لَمَا قالَ فيها الشاعِرُ المتَخايل
«وإنى وإن كنتُ الأخيرَ زمانُهُ — لآتٍ بما لمْ تَسْتَطِعْهُ الأَوائل»[3]
ولا افتخرتْ قِدْمًا إيادٌ بقُسِّها — ولا استَصْحَبَتْ سَحْبانَ في المخرِ وائل
فلا زلتَ يامَوْلَاىَ مَوْرِدَ رَحْمَةٍ — عِطَاشُ الأَمانى فى رِضاكَ[4] نَوَاهِل
تُقِيمُ رُسُومَ المَعْلُواتِ[5] بِمَغْرِبٍ — وذِكْرُكَ فى أقصَى البَسِيطة جائل
وَأَدْرَكْتَ فى الأعداءِ ما أنتَ طالبٌ — وبُلِّغْتَ فى الأبناءِ ما أنتَ آمِل

في صنيع لبعض أمراء بني الأحمر

ثم قال : ومن ذلك فى الصَّنيع المختصّ بالأمراء الجلة ، أخينا المعزّ لدولتنا أبى الحسن ، وأخينا أبى العباس ، وابن عمنا أبى عبد الله ، وصل الله سعودهم ، [٢٨٥] ولقد أبدع فى تشييده وتأسيسه . و بسط يد الحسن من براعة تخميسه ، وذلك عام عودة مولانا رحمة الله تعالى عليه من سبتة لما عادت إلى ملكه ، قال :

(١) كذا فى م . وفى ط « نائل » والمعنى لا يستقيم على هذه الرواية .
(٢) كذا فى م . وفى ط : « فتنقل » .
(٣) البيت من قصيدة فى الفخر لأبى العلاء المعرى .
(٤) فى م : « الأمانى فى نوال نواهل » .
(٥) المعلوات : جمع معلوة (كمكرمة) من العلو ، يريد معالى الأمور ، ومكاسب الشرف . وقد عثرنا عليها فى اللسان نقلا عن ابن برى ، فليُصحح ما جاء بالحاشية الثانية صفحة ٣٩ من هذا الجزء .

أَرقتُ لِبَرْقٍ مِثْلِ جَفْنِىَ ساهِرَا يُنَظِّمُ من قَطْرٍ[١] الغَمامِ جَوَاهِرَا
فأضْحَكَ زَهْرُ الرَّوْضِ منْه أزاهِرَا وصبحٍ حكى وجْهَ الخليفة باهِرَا
تجسَّم مِنْ نُورِ الهُدَى وتَجَسَّدَا

شِفَائِىَ مُعْتَلُّ النسيم إذا انْبَرَى وَأَسْنَدَ عَنْ دَمْعِى الحديثَ الذى جَرَى
وَقَدْ فَتَقَ الأرْجاءَ[٢] مِسْكاً وعَنْبَرَا كأنَّ الغَنِىَّ باللهِ فِى الرَّوْضِ قَدْ سَرَى
فَهَبَّتْ بِهِ الأرْوَاحُ عَاطِرَةَ الرِّدَا

عَذِيرِىَ مِنْ قَلْبٍ إلَى الْحُسْنِ قَدْ صَبَا تُهَيِّجُهُ الذِّكْرَى وَيَصْبُو إلَى الصَّبَا
وَيُجْرِى جِيَادَ اللَّهْوِ فى مَلْعَبِ الصِّبَا وَلَوْلَا ابْنُ نصرٍ مَا أَفَاقَ وَأَعْتَبَا[٣]
رَأَى وَجْهَهُ صُبْحَ الهِدَايَةِ فاهْتَدَى

إِلَيْكَ أميرَ المُسْلِمِينَ شِكَايَةً جَنَى الحُسْنُ فِيهَا لِلْقُلُوبِ جِنَايَةً
وَأَعْظَمَ فيهـا بِالعُيونِ نِكَايَةً وأَطْلَعَ فى لَيْـلٍ من الشَّعْرِ آيَةً
مُحَيًّا جَمِيلا بالصَّبَاحِ قد ارْتَدَى

بِهَدْيكَ تَهْدِى النَّيِّرَاتُ وَتَهْتَدِى وأَنْوَاءُهَا جَدْوَى يَمِينِكَ تَجْتَدِى
وَعَدْلُكَ للأَمْلَاكِ[٤] أَوْضَحُ مُرْشِدٍ بِآثارِهِ فى مُشْكِلِ الأَمْرِ تَقْتَدِى
فَمَا بَالُ سُلْطَانِ الجَمَالِ قَدِ اعْتَدَى

تَحكَّمَ مِنًّا فى نُفُوسٍ ضَعِيفَةٍ وَسَلَّ سُيُوفًا مِنْ جُفُونٍ نَحِيفَـةٍ
أَلَمْ يَدْرِ أَنَّا فِى ظِلَالِ خَلِيفَةٍ وَدَوْلَةِ أَمْنٍ لا تُرَاعُ مُنِيفَـةٍ
بِهَا قَدْ رَسَا دِينُ الهُـدَى وتَمَهَّدَا

(١) فى ط : « نظم » . وماأثبتناه عن م والمخطوطتين من نفح الطيب: وهو أولى بالسياق .
(٢) فتق الأرجاء : طيبها وخلطها بمسك وعنبر .
(٣) كذا فى نفح الطيب . وأعتب (ها) : رضى . وفى (ط) : « ما أفاق ولا اجتبى » . وفى م : « وما احتبى »
(٤) كذا فى ط . والأملاك : جمع ملك (بكسر اللام) . وفى م : « للأفلاك » .

خُذُوا بِدَمِ الْمُشْتَاقِ لَحْظاً أَرَاقَهُ وَرَوْقاً بِأَعْلَامِ الثَّنِيَّةِ شَاقَهُ
وإن كلفوه فَوْقَ ما قَدْ أَطَاقَهُ يَبُثُّ حَدِيثاً ماأَلَذَّ مَسَاقَهُ[1]
خَليفتنَا المَوْلَى الإمامَ مُحَمَّدَا

تَقَلَّدَ حكمَ الْعَدْلِ دِيناً وَمَذْهَبَا وجَوْرَ اللّيَالِى قَدْ أَزاحَ وَأَذْهَبَا
فَيَا عَجَبًا لِلشَّوْقِ أَذْكَى وَأَلْهَبَا وَسلَّ صَبَاحًا صَارِمَ الْبَرْقِ مُذْهَبَا
وقَدْ بَاتَ فى جَفْنِ الغَمَامَةِ مُغْمَدَا

[٢٨٦]

يُذَكِّرُنِى ثَغْراً لِأَسماء أَشْنَبَا إِذَا ابْتَسَمَتْ تَجْلُو من اللّيْلِ غَيْهَبَا
كَعَزْمِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ إذا احتَبَى وأَجْرَى به طِرْفاً من الصُّبْحِ أَشْهَبَا
وَأَصْدَرَ فى ذاتِ الإلٰهِ وَأَوْرَدَا

فَسُبْحَانَ مَنْ أَجْرَى الرِّيَاحَ بِنَصرِهِ وَعَطَّرَ أَنْفَاسَ الرِّيَاضِ بِشُكْرِهِ
فَبُرْدُ الصَّبَا يُطْوَى عَلَى طِيبِ نَشْرِهِ وَمِنْهَا تَجَلَّى وجْهُهُ وَسْطَ قَصْرِهِ
تَرَى هَالَةً بَدْرُ السَّمَاءِ بِهَا بَدَا

إمامٌ أَفَادَ الْمَعْلُوَاتِ[2] زَمَانَهُ فَمَا لَحِقَتْ زُهْرُ النُّجُومِ مَكَانَهُ
وَمَدَّ عَلَى شَرْقٍ وَغَرْبٍ أَمَانَهُ وَلَا عَيْبَ فِيهِ غَيْرَ أَنَّ بَنَانَهُ
تُغَرِّقُ مُسْتَجْدِيهِ فى أَبْحُرِ النَّدَى

هُوَ البَحْرُ مَدَّ الْعَارِضَ الْمُتَهَلِّلَا هُوَ البَدْرُ لكِنْ لَا يَزَالُ مُكَمَّلَا
هُوَالدَّهْرُلَايَخْشَى الْخُطُوبَوَلَا وَلَا[3] هُوَ الْعَلَمُ الخَفَّاقُ فِى هَضْبَةِ الْعُلَا
هُوَ الصَّارِمُ الْمَشْهُورُ فى نُصرَةِ الْهُدَى

---

(١) فى م : « مذاقة » .
(٢) انظر الحاشية رقم ٥ ص ٨١ من هذا الجزء .
(٣) كذا فى نفح الطيب . وفى ط : « ولا الولا » .

أَمَا وَالَّذِى أَعْطَى الوُجُودَ وُجُودَهُ وَأَوْسَعَ مِنْ فَوْقِ البَسِيطَةِ جُودَهُ
لَقَدْ أَصْحَبَ النَّصرَ العَزِيزَ بُنُودَهُ وَمَدَّ بِأَمْلَاكِ السَّمَاءِ جُنُودَهُ
وَأَنْجَزَ لِلْإِسْلَامِ بِالنَّصرِ مَوْعِدَا

أَمَوْلَايَ قَدْ أَنْجَحْتَ رَأْياً وَرَايَةً وَلَمْ تُبْقِ فى سَبْقِ المَكَارِمِ غَايَةً
فَتَهْدِى سَجَايَاكَ ابْنَ رُشْدٍ[١] نِهَايَةً وَإِنْ كَانَ هَذَا السَّعْدُ مِنْكَ بِدَايَةً
سَيَبْقَى عَلَى مَرِّ الزَّمانِ مُخَلَّدَا

سُعُودُكَ تُغْنِى عَنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ وَجُودُكَ يُزْرِى بِالغَمَامِ السَّوَاكِبِ
وَإِنْ زَاحَمَتْهَا شُهْبُهَا بِالمَنَاكِبِ وَوَجْهُكَ بَدْرُ المُنْتَدَى وَالمَوَاكِبِ
وَقَدْ فَسَحَتْ[٢] فى الفَخْرِ أَبْنَاؤُكَ المَدَى

بَنُوكَ كَأَمْثَالِ الأَنَامِلِ عِدَّةً أَعَدَّتْ لِمَا يُخْشَى مِنَ الدَّهْرِ عُدَّةً
وَزِيدَ بِهِمْ بُرْدُ الخِلَافَةِ جِدَّةً أَطَالَ لَهُمْ فِى ظِلِّ مُلْكِكَ مُدَّةً
إِلَهٌ يُطِيلُ العُمْرَ مِنْكَ مُؤَبَّدَا[٣]

بُدُورٌ بِأَوْصَافِ الكَمَالِ اسْتَقَلَّتِ غَمَامٌ بِمَيَّاضِ النَّوَالِ اسْتَهَلَّتِ
سُيُوفٌ عَلَى الأَعْدَاءِ بِالنَّصرِ سُلَّتِ نُجُومٌ بِآفَاقِ العَلَاءِ تَجَلَّتِ [٢٨٧]
وَلَاحَتْ كَمَا شَاءَتْ سُعُودُكَ أَسْعُدَا

وَإِنَّ أَبَا الحَجَّاجِ سَيْفُكَ مُنْتَضَى وَبَدْرٌ بِآفَاقِ الجَمَالِ تَعَرَّضَا
بِنُورِكَ بِاشَمْسَ الخِلَافَةِ قَدْ أَضَا وَرَاقَتْ عَلَى أَعْطَافِهِ حُلَلُ الرِّضَا
فَحَلَّ مَحَلًّا مِنْ رِضَاكَ[٤] مُمَهَّدَا

(١) يريد : إذا كان ابن رشد قد جاء بـ « بداية المجتهد » ، فقد جاءت همك وسجاياك بالنهاية التى لا مطلب وراءها لمجتهد .
(٢) فى الأصلين : « سبحت » ، ولا يستقيم بها المعنى ، وما أثبتناه عن نفح الطيب .
(٣) فى ط : « مؤيدا » . بالمثناة التحتية .
(٤) فى نفح الطيب : « علاك » .

مَليكٌ لَهُ تَعنُو المُلوكُ جَلالَةً يُجَرِّرُ أَذْيالَ الفَخارِ مُطَالَةً
وتَفْرَقُ أُسْدُ الغَابِ مِنْهُ بَسَالَةً وتَرْضَاهُ أَنصَارُ الرسُولِ سُلالَةً
فأَبْناؤه طَابُوا فُرُوعاً وَمَحْتِدَا

أَزَاهِرُ في رَوْضِ الخِلافَةِ أَيْنَعَتْ زَوَاهِرُ في أُفْقِ العَلاءِ تَطَلَّعَتْ
جَواهِرُ أُغْلِيَتْ في الجَمَالِ وَأَبْدَعَتْ وعَنْ قِيمَةِ الأَعْلاقِ قَدْراً تَرَفَّعَتْ
يُسَرُّ بِهَا الإِسْلامُ غَيْباً وَمَشْهَدَا

بِعَهْدِ[1] وَلِيِّ العَهْدِ — كُرِّمَ عَهْدُهُ وَأُنْجِزَ في تَخْليدِ مُلْكِكَ وَعْدُهُ —
تَنَظَّمَ مِنْهُمْ تَحْتَ سَمْلِكَ[2] عِقْدُهُ وَأَوْرَثَهُمْ فَخْرًا أَبُوهُ وَجَدُّهُ
فأَعْلِي عَلِيًّا حِينَ أَحْمَــدَ أَحْمَدَا

تَحُوطُ بِهِمْ مُلْكاً عَزِيزاً وَمِلَّةً وَتَلْحَظُ عَيْنُ السَّعْدِ مِنْهُمْ أَهِلَّةً
سَتَبْدُو عَلَى أُفْقِ العُلا مُسْتَقِلَّةً وَسُحْبًا بِفَيَّاضِ النَّدَى مُسْتَهِـلَّةً
تُفَجِّرُ بَحْرًا لِلسَّمَاحَةِ مُزْبِدَا

ونَجْلُكَ نَصْرٌ يَقْتَفِي نَجْلَ[3] رَسْمِهِ أَمِيرٌ يَزِينُ العَقْلَ رَاجِـحُ حِلْمِهِ
أَتَاكَ بِنَجْلٍ يُسْتَضَاءُ بِنَجْمِهِ احُبٌّ رَسُولِ اللهِ سَمَّاهُ بِاسْمِهِ
وبِاسْمِكَ في هَذِي المُوَافَقَةِ اقْتَدَى

أَقَمْتَ بِإِعْذارِ الإِمارَةِ سُـــــنَّةً وَطَوَّقْتَهَا مِنْ حَلْيِ فَخْرِكَ مِنَّةً
وَأَسْكَنْتَهَا فِي ظِلِّ بِرِّكَ جَنَّةً وَأَلْحَفْتَهَا بُرْدَ اعْتِنَائِكَ جُنَّـةً
وَعَمَّرْتَ مِنْهَا بِالتِّلاوَةِ مَسْجِدَا

---

(١) كذا في نفح الطيب . والذي في الأصلين : « أبوه » . وهو أبو الحجاج يوسف ابن الغني بالله .
(٢) في م : « ظلك » .
(٣) كذا في ط . وفي م : « يقتفي نحل » .

فَلِلّهِ عَيْنَا مَنْ رَآهُمْ تَطَلَّعُوا عُصُوناً بِرَوْضِ الجُودِ منْكَ تَرَعْرَعُوا
وَفى دَوْحَةِ الْعَلْيَاءِ مِنْكَ تفرَّعُوا مُلوكٌ بِجِلْبَابِ الْحَيَاءِ تَقَنَّعُوا
أَضَاءَ بِهِمْ مِنْ أُفْقِ قَصْرِكَ مُنْتَدَى

وَقَدْ أَشْعَرُوا الصَّبْرَ الْجَمِيلَ نُفُوسَهُمْ وَقدْ أَفْرَعُوا[1] فَوْقَ الْحُلِىِّ لَبُوسَهُمْ
وَقدْ زَيَّنُوا بالْبِشْرِ فِيهِ شُمُوسَهُمْ وعَاطَوْا كُئُوسَ الأُنْسِ[2] فِيهِ جَلِيسَهُمْ [٢٨٨]
وَأَبْدَوْا عَلَى هَوْلِ المَقَامِ تَجَلُّدَا

شَمَائِلُ فِيهِمْ مِنْ أَبِيهِمْ وَجَدِّهِمْ تُفَصِّلُ آىُ الْفَخْرِ فِيهَا بِحَمْدِهِمْ
وَتَنْشُرُهَا الأَنْصَارُ قِدْمًا لِسَعْدِهِمْ تُضِىءُ بِهَا نُورًا مَصَابِيحُ سَعْدِهِمْ
وَلِمْ لاَ وَمِنْ صَحْبِ الرَّسُولِ تَوَقَّدَا

فَوَ اللهِ لَوْلاَ سُنَّةٌ قَدْ أَقَمْتَهَا وَسِيرَةُ هَدْىِ لِلنَّبِىِّ عَلِمْتَهَا
وَأَحْكَامُ عَدْلٍ لِلْجُنُودِ رَسَمْتَهَا اجَالَتْ بِهَا الأَبْطَالُ تَقْصِدُ سَمْتَهَا
وَتَتْرُكُ أَوْصالَ الْوَشِيجِ مُقَصَّدَا[3]

وَيَاعَاذِرًا أَبْدَى لَنَا الشَّرْعُ عُذْرَهُ طَرَقْتَ حِمًى قَدْ عَظَّمَ اللهُ قدرَهُ
وَأَجْرَيْتَ طِيباً يَحْسُدُ الطِّيبُ نَشْرَهُ لَقَدْ جِئْتَ مَا تَسْتَعْظِمُ الصِّيدُ أَمْرَهُ
وَتَمْدِيهِ إِنْ يَقْبَلْ خَلِيفَتُهَا فِدَا

رَعَى اللهُ مِنْهَا دَعْوَةً مُسْتَجَابَةً أَفَادَتْ نُفُوسَ الْمُخْلِصِينَ إِنَابَةً
وَلَمْ تُلْفِ مِنْ دُونِ القَبُولِ حِجَابَةً وَعَاذِرُهَا لَمْ يُبْدِ عُذْرًا مَهَابَةً
فَأَوْجَبَ عَنْ نَقْصٍ كَمَالاً تَزَيُّدَا

---

(١) فى نفح الطيب : « وأصعدوا » مكان قوله : « وقد أفرعوا »
(٢) فى م : « الأمن » .
(٣) الوشيج : شجر الرماح ، ويريد به هنا الرماح نفسها . والمقصد : المكسر .

فَنَقْصُ زَكاةِ[1] الْمَالِ وَفْرٌ نِصاَبِهِ وَمَا السَّيْفُ إلاَّ بَعدَ مَشْقِ ذُبَابِهِ
وَمَا الزَّهْرُ إلاَّ بَعْدَ شَقِّ إهَابِهِ بِقَطعِ يَرَاعِ الخطِّ حُسْنُ كِتَابِهِ
وبِالْقَصِّ يَزْدَادُ الذُّبَالُ تَوَقُّدَا

وَلَمَّا قَضَوْا مِنْ سُنَّةِ الشَّرْعِ وَاجِبَا وَلَمْ نَلْقَ مِنْ دُونِ الخِلاَفَةِ حَاجِبَا
أَفَضْنَا نُهَنِّى مِنْكَ جَذْلاَنَ وَاهِبَا أَفَاضَ عَلَيْنَا أَنْعُمًا وَمَوَاهِبَا
تَعَوَّدَ بَذْلَ الجُودِ فِيماَ تَعَوَّدَا

هَنِيئًا بِهذَا[2] قَدْ بَلَغْتَ مُؤَمَّلاَ وَأَطْلَعْتَ نُورًا يَبْهَرُ الْمُتَأَمِّلاَ
وَأَحْرَزْتَ أَجْرَ الْمُنْعِمِينَ مُكَمَّلاَ تَبَارَكَ مَنْ أَعْطَى جَزِيلاً وَأَجْمَلاَ
وَبَلَّغَ فِيكَ الدِّينَ وَالْمُلْكَ مَقْصِدَا

أَلاَ فِي سَبِيلِ العِزِّ وَالْفَخْرِ مَوْسِمُ يَظَلُّ بِهِ ثَغْرُ الْمَسَرَّةِ يَبْسِمُ
وَعَرْفُ الرِّضاَ مِنْ جَوِّهِ يَتَنَسَّمُ وَأَرْزَاقُ أَرْبَابِ السَّعَادَةِ تُقْسَمُ
فَفِي وَصْفِهِ ذِهْنُ الذَّكِيِّ تَبَلَّدَا

وَجلَّيْتَ فِي هَذَا الصَّنِيعِ مَصاَنِعا تَمَى بُدُورُ التِّمِّ مِنْهاَ مَطَالِعا
وَأَبْدَيْتَ فِيهاَ لِلْجَمالِ بَدَائِعا وَأَجْرَيْتَ[3] لِلإِحْسَانِ فِيهاَ مشَارِعا [٢٨٩]
يَوَدُّ بها نَهْرُ المَجَرَّةِ مَوْرِدَا

وَأَجْرَيْتَ فِيهاَ الخَيْلَ وَهْيَ سَوَابِقُ وإِنْ طَلَبَتْ فِي الرَّوْعِ فَهْيَ لَوَاحِقُ
نُجومٌ وَآفَاقُ الطِّرَادِ مشَارِقُ يَفُوتُ الْتِمَاحَ الطَّرْفِ مِنْهاَ بَوَارِقُ
إِذَا مَا تُجَارِي الشُّهْبَ تَسْتَبِقُ المَدَى

---

(١) في نفح الطيب : « كال » .
(٢) في نفح الطيب : « هنيئا » مكان قوله : « بهذا » .
(٣) في م : « وأعذبت » .

وَتَطْلُعُ فى لَيْلِ القَتَامِ كَوَاكِبَا ... وَقَدْ وَرَدَتْ نَهْرَ النَّهَارِ مَشَارِبَا
تَعُودُ إِلَى الأَعداءِ مِنْها كَتَائِبَا ... فَتَرْسُمُ مِنْ فَوْقِ التُّرَابِ مَحَارِبَا
تَخِرُّ رُءوسُ الرُّومِ فِيهِنَّ سُجَّدَا

سَوَابِحُ بِالنَّصرِ العَزِيزِ سَوَانِحُ ... وَهُنَّ لِأَبْوَابِ الفُتُوحِ فَوَاتِحُ
تَعُودُ إِلَيْكَ النَّصرَ وَاللهُ مَانِحُ ... فَمَا زِلْتَ بَابَ الخَيْرِ وَاللهُ فَاتِحُ
وَمَا ثَمَّ شَيْءٌ قَدْ عَدَا بَعْدَ مَا بَدَا

رِيَاحٌ لَهَا مَثْنَى البُرُوقِ أَعِنَّةٌ ... ظِبَاءٌ فَإِنْ جِنَّ الظَّلَامُ فَجِنَّةٌ
تَقِيهَا مِنَ البَدْرِ المُتَمِّمِ جُنَّةٌ ... وَتُشْرِعُ مِنْ زُهْرِ النُّجُومِ أَسِنَّةٌ
فَتَقْذِفُ شُهْبَ الرَّجْمِ فى ثُغَرِ العِدَا

فَأَشْهَبُ مِنْ نَسلِ الوَجِيهِ إِذا انْتَمَى ... جَرَى فَشَأَى شُهْبَ الكَوَاكِبِ فى السَّمَا
وَخَلَّفَ مِنْهَا فى المُقَلَّدِ أَنْجُمَا ... تَرَدَّى حَمَالًا بِالصَّبَاحِ وَرُبَّمَا
يَقُولُ لهُ الإِصْبَاحُ نَفْسِى لَكَ الفِدَا

وأَحْمَرُ قَدْ أَذْكَى بِهِ البَأْسُ جَمْرَةً ... وَقَدْ سَلَبَ اليَاقُوتَ وَالوَرْدَ حُمْرَةً
أَدارَ بِهِ سَاقِ مِنَ الحَرْبِ خَمْرَةً ... وَأَبْدَى حَبَابًا فَوْقَهَا الحُسْنُ غُرَّةً
يَزِينُ بِهَا خَدًّا أَسِيلًا مُوَرَّدَا

وَأَشْقَرُ مَهْمَا شَعْشَعَ الرَّكْضُ بَرْقَهُ ... أَعارَ جَوَادَ البَرْقِ فِي الأُفْقِ سَبْقَهُ
بَدَا شَفَقًا قَدْ جَلَّلَ الحُسْنُ أُفْقَهُ ... أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَبْدَعَ خَلْقَهُ
فَسالَ عَلَى أَعْطافِهِ الحُسْنُ عَسْجَدَا

وَأَصْفَرُ قَدْ وَدَّ الأَصِيلُ جَمالَهُ ... وَقَدْ قَدَّ مِنْ بُرْدِ العَشِيِّ جِلالَهُ

إذَا أسْرجوا جُنْحَ الظَّلام ذُبالَهُ فغُرَّتُهُ نَجْمٌ تضيء مَجالَهُ
وَفِي ذَيْلِه ذَيْلَ الظَّلام قد ارتَدَى

وَأدْهَمُ فِي مِسْح [(١)] الدُّجَى مُتَجَرِّدُ يَجِيشُ بِهِ بَحْرٌ مِنَ اللَّيْلِ مُزْبِدُ
[٢٩٠] وَغُرَّتُهُ نَجْمٌ بِهِ مُتَوَقِّدُ لَهُ الْبَدْرُ سَرْجٌ والنُّجُومُ مُقَلَّدُ
وَفِي فَلَقِ الصُّبْحِ الْمُبِينِ تَقَيَّدَا

وَأبْيضُ كَالْقِرْطاسِ لاحَ صَباحُهُ عَلَى الحُسْنِ مَغْدَاهُ وَفيهِ مَرَاحُهُ
[وَللظَّبَياتِ الآنساتِ] [(٢)] مِرَاحُهُ تَرَاهُ كَنَشْوَانٍ أمَالَتْهُ رَاحُهُ
وَتَحْسبُهُ وَسْطَ الْجمالِ مُعَرْبِدا

وذاهِبَةٍ فِي الْجَوِّ مِلْءَ عِنانِهَا وَقَدْ لَقَّمَتْهَا السُّحْبُ بُرْدَ عِنانِهَا
يَفُوتُ ارْتِدَادَ الطَّرْفِ لَمْحُ عِيَانِهَا وَخَتَّمَتِ الْجَوْزاءُ سِمْطَ بَنانِهَا
وصاغَتْ لهَا حَلْيَ النُّجومِ مُقَيَّدَا

أراها عَمُودُ الصُّبْحِ عُلْوَ الْمَصاعِدِ وَأوْهَمَهَا قُرْبَ المَدَى المُتَباعِدِ
فَفَاتَتْهُ سَبْقاً فِي مَجالِ الرَّوَاعِدِ وَأتْحَفَتِ الْكَفَّ الْخَضِيبَ بِساعِدِ
فَطَوَّقَتِ الزُّهْرُ النُّجومُ بِها يَدَا

وَقدْ قَذَفَتها للعصيِّ حواصِبُ قد انْتَشَرَتْ فِي الْجَوِّ مِنْهَا ذَوائِبُ
تَزَاوَرَ مِنْها فِي الْفَضاءِ حَبَائِبُ فَبَيْنَهُمَا مِنْ قَبْلِ ذَاكَ مَناسِبُ
لِأنَّهُمَا فِي الرَّوْضِ قَبْلُ تَوَلَّدَا

بَنَاتُ لِأُمٍّ قد حَبِينَ بِرَوْحِها [(٣)] دَعاها الْهَوَى مِنْ بَعْدِ كَتْمٍ لِبَوْحِها

(١) فى م : « جنح » .
(٢) ما بين القوسين ساقط فى ط .
(٣) كذا فى م ، والذى فى ط : « حلين بدوحها » .

فَأَقْلامُهَا تَهْوِى لِخَطِّ بِلَوْحِهَا فَبِالْأَمْسِ كانَتْ بَعْضَ أَغْصانِ دَوْحِهَا
فَعادَتْ إِلَيْهَا اليَوْمَ مِنْ بَعْدُ عُوَّدَا

وَيَا رُبَّ حِصْنٍ فِى ذُرَاهَا قَدِ اعْتَلَى أَنارَتْ بُرُوجَ الأُفْقِ فِى مَظْهَرِ العُلَا
بُرُوجُ قُصُورٍ شِدْتَهَا مُتَطَوِّلَا فَأَنْشَأْتَ بُرْجًا صاعِدًا مُتَنَزِّلَا
يَكُونُ رَسُولًا بَيْنَهَا مُتَرَدِّدَا(١)

وهَلْ هِىَ إِلَّا هَالَةٌ حَوْلَ بَدْرِهَا يَصُوغُ لَهَا حَلْيًا يَلِيقُ بِنَحْرِهَا
تَطَوَّرَ أَنْوَاعًا تَشِيدُ بِفَخْرِهَا فَحِجْلٌ بِرِجْلَيْهَا وشاحٌ بِخَصْرِهَا
وَتَاجٌ بِأَعْلَى رَأْسِهَا قَدْ تَنَضَّدَا

أَرَادَ اسْتِرَاقَ السَّمْعِ وَهْوَ مُمَنَّعُ فَقَامَ بِأَذْيَالِ الدُّجى يَتَلَفَّعُ
وأَصْغَى لِأَخْبَارِ السَّمَا يَتَسَمَّعُ فَأَتْبَعَهُ مِنْهَا ذَوَابِلُ شُرَّعُ
لِتَقْذِفَهُ بِالرَّجْمِ مَثْنَى وَمَوْحَدَا

ومَا هُوَ إِلاَّ قَائِمٌ مَدَّ كَفَّهُ لِيَسْأَلَ مِنْ رَبِّ السَّمٰوَاتِ لُطْفَهُ
لِمَوْلًى تَوَلَّاهُ وأَحْكَمَ رَصْفَهُ وكَلَّفَ أَرْبابَ البَلَاغَةِ وَصْفَهُ [٢٩١]
وأَعْجَزَ مِنْهُ القَانِتَ المُتَهَجِّدَا

مُلَاقِىَ رَكْبٍ مِنْ وُفُودِ النَّوَاسِمِ مُقَبِّلَ ثَغْرٍ لِلْبُرُوقِ البَوَاسِمِ
مُخَتَّمَ كَفٍّ بِالنُّجُومِ العَوَاتِمِ مُبَلَّغَ قَصْدٍ مِنْ حُضُورِ المَوَاسِمِ
تُجَدِّدُهُ مَهْمَا صَنِيعٌ تَجَدَّدَا

وَمُضْطَرِبٌ فِى الجَوِّ أَثْبَتَ قَامَةً تَقَدَّمَ يَمْشِى فِى الهَوَاءِ كَرَامَةً
تَطَلَّعَ فِى غُصْنِ الرِّشَاءِ كِمَامَةً وَتَحْسَبُهُ تَحْتَ الغَمَامِ عَمَامَةً
يَسِيلُ عَلَى أَعْطَافِهِ عَرَقُ النَّدَى

(١) فى م : « متوددا » .

هَوى وَاسْتَوَى فِي حَالِه وَتَقَلَّبَا كَخَاطِفِ بَرْقٍ قَدْ تَأَلَّقَ خُلَّبَا
وَتَحْسَبُهُ قَدْدَارَفِي الأُفْقِ كَوْكَبا وَمَهْمَا مَشى وَاسْتَوْقَفَ العَقْلَ مُعْجِبا
نُقَلِّبُ فِيهِ الْعَيْنُ لَحْظًا مُرَدَّدَا

لَقَدْ رَامَ يَرْقَى لِلسَّمَاءِ بِسُلَّمٍ فَيَمْشِي عَلَى خَطٍّ بِهِ مُتَوَهَّمِ
أَجِلْ فِي الَّذِي يُبْدِيهِ فِكْرَ تَوَسُّمِ تَرَى طَائِرًا قَدْ حَلَّ صُورَةَ آدَمِي
وَجِنًّا بِمَهْوَاةِ الْفَضَاءِ تَمَرَّدَا

وَمُنْتَسِبٍ لِلْخَالِ[1] سَمَّوْهُ مُلْجَمَا لَهُ حَكَمَاتٌ حُكْمُهَا فَاهُ أَلْجَمَا
تَخَالَفَ جِنْسًا وَالِدَاهُ إِذَا انْتَمَى كَما جِنْسُهُ أَيْضًا تَخَالَفَ عَنْهُمَا
عَجِبْتُ لَهُ إِذْ لَمْ يَلِدْ وَتَوَلَّدَا

ثَلاثَتُهَا فِي الذِّكْرِ جَاءَتْ مُبِينَةً مِنَ اللَّهِ سَمَّاهَا لَنَا اللَّهُ زِينَةً
وَأَنْزَلَ فِيهَا آيَةً مُسْتَبِينَةً وَأَوْدَعَ فِيهَا لِلْجُهُولِ سَكِينَةً
وَآلَاءُهُ فِيهَا عَلَى الْخَلْقِ عَدَّدَا

كَسَوْهُ مِنَ الْوَشْيِ الْيَمَانِيِّ هَوْدَجَا يَمُدُّ عَلَى مَا فَوْقَهُ الظِّلَّ سَجْسَجَا
[وَكَمْ صُورَةٍ تُجْلَى بِهِ تَبْهَرُ الحِجَا وَجَزْلٍ وَقُودٍ نَارُهُ تَصْدَعُ الدُّجَى
وَقَلْبِ حَسُودٍ غَاظَ مُذْ كِيهِ[2] مُوقَدَا]

وَمَا هِيَ إِلَّا مَظْهَرُ اجْهَادِهِ أَرَتْنَا[3] بِهَا الأَفْرَاحُ فَضْلَ اجْتِهَادِهِ
مَلَاعِبُهَا هَزَّتْ قُدُودَ صِعَادِهِ وَأَذْكَرَتِ الأَبْطَالَ يَوْمَ طِرَادِهِ
فَمَا ارْتَدَّتْ فِيهِ الْيَوْمَ صَدَّقْتَهُ غَدَا

(١) يريد به البغل .
(٢) في م « تذكيه » .
(٣) في الأصلين : « هدى » وما أثبتناه عن مع الطيب .

أَلَا جَدَّدَ الرَّحْمٰنُ صُنْعًا حَضْرَتَهُ وَدَوْحُ الأَمَانِي فى ذَرَاهُ هَصَرْتُهُ
بِقَصْرٍ طَوِيلِ الوَصْفِ فيهِ اخْتَصَرْتُهُ يُقَيِّدُ طَرْفَ الطَّرْفِ[1] مهما نَظَرْتُهُ
« وَمَنْ وَجَدَ الإِحْسَانَ قَيْدًا تَقَيَّدَا »[2]

دَعَوْتَ لهُ الأَشْرَافَ مِنْ كُلِّ بَلْدَةٍ فَجَاءُوا بِآمَالٍ له مُسْتَجِدَّةٍ
وَخُصُّوا بِأَلْطَافٍ لَدَيْهِ مُعَدَّةٍ أَيَادٍ بِفَيَّاضِ النَّدَى مُسْتَمَدَّةٍ
فَكُلُّهُمُ مِنْ فَضْلِهِ قَدْ تَزَوَّدَا

وَجَاءَتْكَ مِنْ آلِ النَّبِيِّ عِصَابَةٌ لَهَا فِي مَرَامِي الْمَكْرُمَاتِ إِصَابَةٌ
أَحَبَّتْكَ حُبًّا لَيْسَ فِيهِ اسْتِرَابَةٌ وَلَبَّتْ دَوَاعِيَ الخَيْرِ[3] مِنْهَا إِجَابَةٌ [۲۹۲]
وَنَادَاهُمُ التَّخْصِيصُ فَابْتَدَرُوا النَّدَى

أَجَازُوا إِلَيْكَ الْبَحْرَ وَالْبَحْرُ يَزْخَرُ بِبَحْرٍ سَمَاحٍ مَدُّهُ لَيْسَ يَجْزُرُ
فَرَوَّاهُمُ مِنْ عَذْبِ جُودِكَ كَوْثَرُ وَوَالَيْتَ مِنْ نُعْمَاكَ مَا لَيْسَ يُحْصَرُ
وَعَظَّمْتَهُمْ تَرْجُو النَّبِيَّ مُحَمَّدَا

عَلَيْهِ صَلَاةُ اللهِ ثُمَّ سَلَامُهُ بِهِ طَابَ مِنْ هَذَا النِّظَامِ اخْتِتَامُهُ
وَجَاءَ بِحَمْدِ اللهِ حُلْوًا كَلَامُهُ يَعِزُّ عَلَى أَهْلِ الْبَيَانِ مَرَامُهُ
وَتُمْسِي لَهُ زُهْرُ الْكَوَاكِبِ حُسَّدَا

أَنَمْتُ بِهِ حَادِي الرِّكَابِ مُشَرِّقَا حَدِيثَ جِهَادٍ لِلنُّفُوسِ مُشَوِّقَا
رَمَيْتُ بِهِ مَنْ بِالْعِرَاقِ مُفَوِّقَا وَأَرْسَلْتُ مِنْهُ بِالْبَدِيعِ مُطَوَّقَا
حَمَامًا عَلَى دَوْحِ الثَّنَاءِ مُغَرِّدَا

(١) طرف الطرف : تحريك البصر .
(٢) هذا عجز بيت المتنبي ، وصدره : « وقيدت نفسي في دراك محبة » .
(٣) في نفح الطيب : « العور »

رَكَضْتُ بِهِ خَيْلَ الْبَيَانِ إِلَى مَدَى ... فَأَحْرَزْتُ فَضْلَ السَّبْقِ فى حَلْبَةِ الْهُدَى(١)
وَنَظَمْتُ مِنْ دُرِّ الدَّرَارِى مُخَلَّدَا(٢) ... وَطَوَّقْتُ جِيدَ الْفَخْرِ عِقْدًا مُنَضَّدَا

وَقُمْتُ بِهِ بَيْنَ السَّمَاطَيْنِ مُنْشِدَا

نَسَقْتُ مِنَ الإِحْسَانِ فِيهِ فَرَائِدَا ... وَأَرْسَلْتُ فى رَوْضِ المحاسنِ رَائِدَا
وَقَلَّدْتُ عِطْفَ الْمُلْكِ مِنهُ قَلَائِدَا ... تَعَوَّدْتُ فِيهِ لِلْقَبُولِ عَوَائِدَا

فَلَازِلْتَ لِلْفَضْلِ الْجَزِيلِ(٣) مُعَوِّدَا

وَلَازِلْتَ لِلصُّنْعِ الْجَمِيلِ مُجَدِّدَا ... وَلَا زِلْتَ لِلْفَخْرِ الْعَظِيمِ مُخَلِّدَا
وَعُمِّرْتَ عُمْرًا لَا يَزَالُ مُجَدَّدَا ... وَمُتِّعْتَ بِالأَبْنَاءِ أَوْحَدَ أَوْحَدَا

وَقَرَّتْ بِهِمْ عَيْنَاكَ مَا سَائِقٌ حَدَا

ومن العيديّات :

من عيدياته

هَذِى الْمَعَالِمُ لَفْظٌ أَنْتَ مَعْنَاهُ ... كُلٌّ يَقُولُ — إذا اسْتَنْطَقْتَهُ — اللهُ
بَحْرُ الْوُجُودِ وَفُلْكُ الْكَوْنِ جَارِيَةٌ ... وَبِاسْمِكَ اللهُ مُجْرَاهُ وَمُرْسَاهُ
مِنْ نُورِ وَجْهِكَ ضَاءَ الْكَوْنُ أَجْمَعُهُ ... حَتَّى تَشَيَّدَ بِالأَفْلَاكِ مَبْنَاهُ
[٢٩٣] عَرْشٌ وَفَرْشٌ وَأَمْلَاكٌ مُسَخَّرَةٌ ... وَكُلُّهَا سَاجِدٌ لِلهِ مَوْلَاهُ
سُبْحَانَ مَنْ أَوْجَدَ الأَشْيَاءَ مِنْ عَدَمٍ ... وَأَوْسَعَ الْكَوْنَ قَبْلَ الْكَوْنِ نُعْمَاهُ
مَنْ يَنْسُبِ(٤) النُّورَ لِلأَفْلَاكِ قُلْتُ لَهُ ... مِنْ أَيْنَ أَطْلَعَتِ الأَفْلَاكُ لَوْلَاهُ
مَوْلَاىَ مَوْلَاىَ بَحْرُ الْجُودِ أَغْرَقَنِى ... وَالْخَلْقُ أَجْمَعُ فى ذَا الْبَحْرِ قَدْ تَاهُوا
فَالْفُلْكُ تَجْرِى كَمَا الأَفْلَاكُ جَارِيَةٌ ... بَحْرُ السَّمَاءِ وَبَحْرُ الأَرْضِ أَشْبَاهُ

---

(١) فى نفح الطيب : « خصل » وهما بمعنى :
(٢) فى ط : « مقلدا » .
(٣) فى م : « للفعل الجليل » ونفح الطيب .
(٤) فى م : « ينبت » .

وكلُّها نِعَمٌ لِلْخَلْقِ شـــامِلَةٌ ... تَبارَكَ اللهُ لاَ تُحْصَى عَطاياه
يافاتِقَ الرَّتْقِ مِنْ هَذَا الْوُجُودِ كَما ... فِي سابِقِ العِلْمِ قَدْ خُطَّتْ قضاياهُ
كُنْ لِي كَما كُنْتَ لِي إِذْ كُنْتُ لاَ عَمَلاً ... أَرْجُو ولاَ ذَنْبَ قَدْ أَذْنَبْتُ أَخْشاه
وأَنْتَ فِي حَضَرَاتِ الْقُدْسِ تَنْقُلُنِي ... حَتَّى اسْتَقَرَّ بِهَذَا الْكَوْنِ مَثْوَاه
مَا أَقْبَحَ الْعَبْدَ أَنْ يَنْسَى وتَذْكُرُهُ ... وأَنْتَ بِاللُّطْفِ والْإِحْسانِ تَرْعاه
غُفْرانَكَ اللهُ مِنْ جَهْلٍ بُلِيتُ بِهِ ... فِيمَنْ أَفادَ وُجُودِي كَيْفَ أَنساه
مِنِّي عَلَيَّ حِجابٌ لَسْتُ أَرْفَعُهُ ... إِلاَّ بِتَوْفِيقِ هَذِي مِنْكَ تَرْضاه
فَمُنَّ عَلَيَّ بِما عَوَّدْتَ مِنْ كَرَمٍ ... فَأَنْتَ أَكْرَمُ مَنْ أَمَّلْتُ رُحْماه
ثُمَّ الصَّلاةُ صَلاةُ اللهِ دَائِمَةً ... عَلَى الَّذِي بِاسْمِهِ فِي الذِّكْرِ سَمَّاه
الْمُجْتَبَى وزِنَادُ النُّورِ مَا قُدِحَتْ ... ولاَزَكَا مِنْ نَسِيمِ الرَّوْضِ مَسْرَاه
والْمُصْطَفَى وكِمامُ الْكَوْنِ مَا فُتِقَتْ ... عَنْ زَهْرِ زَهْرٍ يَرُوقُ الْعَيْنَ مَرْآه
ولاَ تَفَجَّرَ نَهْرٌ لِلنَّهـــارِ عَلَى ... دُرِّ الدَّرَارِي فَغَطَّاهُ وأَخْفَـــاه
يا فاتِحَ الرُّسْلِ أَوْ يا خَتْمَها شَرَفاً ... واللهُ قَدَّسَ فِي الْحالَيْنِ مَعْنَاه
لَمْ أَدَّخِرْ غَيْرَ حُبٍّ فيكَ أَرْفَعُهُ ... وسِـــيلَةً لِـكَرِيمٍ يَوْمَ أَلْقاه
صَلَّى عَلَيْكَ إِلٰهٌ أَنتَ صَفْوَتُهُ ... مَا طُيِّبَتْ بِلَذِيذِ الذِّكْرِ أَفْوَاه
وعَمَّ بِالرَّوْحِ والرَّيْحانِ صُحْبَتَهُ ... وجَادَهُمْ مِنْ نَمِيرِ الْعَفْوِ أَصْفاه
وَخَصَّ أَنْصارَهُ الْأَعْلَيْنَ صَفْوَتَهُ ... وأُسْكِنُوا مِنْ جِوارِ اللهِ أَعْلاه
أَنْصـــارَ مِلَّتِهِ أَعْلامَ بَيْعَتِهِ ... مَنَاقِبُ شَرُفَتْ أَثْنَى بِها الله
وأَيَّدَ اللهُ مَـــنْ أَحْيَا جِهَادَهُمُ ... وأَوْصَلَ الْفَخْرَ أُوْلاهُ بِأُخْرَاه [٢٩٤]
الْمُنْتَقَى مِنْ صَمِيمِ الْفَخْرِ جَوْهَرُهُ ... مَا بَيْنَ نَصْرٍ وأَنْصارٍ تَهَادَاه
العِلْمُ والحِلْمُ والْإِقْبالُ شِيمَتُهُ ... والبَأْسُ والْجُودُ بَعْضٌ مِنْ سَجاياه

وهى طويلة ، سَرَدها هذا المؤلف كلَّها . ومنها :

يَهْنِى زَمَانَكَ أَعْيَادٌ مُجَدَّدَةٌ ... مِنَ الْفُتُوحِ مَدَى الْأَيَّامِ تَغْشَاهُ
عَصَبْتَ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا بِحَقِّهِمَا ... يَا حَبَّذَا غَضَبٌ فِي اللهِ أَرْضَاهُ
فَوَّقْتَ لِلْغَرْبِ سَهْمًا رَاشَهُ قَدَرٌ ... وَسَدَّدَ اللهُ لِلْأَعْدَاءِ مَرْمَاهُ
سَهْمٌ أَصابَ وَرَامِيهِ بِذِى سَلَمٍ ... لَقَدْ رَمَى الغَرَضَ الْأَقْصَى فَأَصْمَاهُ
مَنْ كَانَ جُنْدُكَ يَا مَوْلَايَ يَقْدُمُهُ ... فَلَيْسَ يُخْلِفُهُ فَتْحٌ تَرَجَّاهُ(١)
مَنْ كَانَ جُنْدُكَ جُنْدُ اللهِ يَنصُرهُ ... أَنَالَهُ اللهُ مَا يَرْجُو وَأَسْنَاهُ
مَلَّكْتَهُ غَرْبَهُ خُلِّدْتَ مِنْ مَلِكٍ ... لِلْغَرْبِ وَالشَّرْقِ مِنْهُ مَا تَمَنَّاهُ
وسامَ أَعْدَاءَكَ الْأَشْقَيْنَ مَا كَسَبُوا ... وَمَنْ تَرَدَّى رِدَاءَ الْغَدْرِ أَرْدَاهُ
قُلْ لِلَّذِى رَمِدَتْ جَهْلاً بَصِيرَتُهُ ... فَلَمْ تَرَ الشَّمْسَ شَمْسَ الْهُدَى عَيْنَاهُ
غَطَّى الْهَوَى عَقْلَهُ حَتَّى إِذَا ظَهَرَتْ ... لَهُ الْمَرَاشِدُ أَغْشَاهُ وَأَعْمَاهُ
هَلْ عِنْدَهُ وَذُنُوبُ الغَدْرِ تُوبِقُهُ ... أَنَّ الَّذِى قَدْ كَسَاهُ العِزَّ أَعْرَاهُ
لَوْ كَانَ يَشْكُرُ مَا أُولِيتَ مِنْ نِعَمٍ ... مَا زِلْتَ مَلْجَأَهُ الْأَحْمَى وَمَنْجَاهُ
سُلَّ السُّيُوفَ وَخَلِّ البِيضَ مُغْمَدَةً ... فَالسَّيْفُ مَهْمَا مَضَى فَالسَّعْدُ أَمْضَاهُ
واشْرَعْ مِنَ البَرْقِ نَصْلاً رَاعَ مُصْلَتُهُ(٢) ... وَارْفَعْ مِنَ الصُّبْحِ بَنْدًا رَاقَ مَجْلَاهُ
فَالْعُدْوَتَانِ وَمَا قَدْ ضَمَّ مُلْكُهُمَا ... أَنْصَارُ مُلْكِكَ صَانَ اللهُ عَلْيَاهُ(٣)
لَا أَوْحَشَ اللهُ قُطْرًا أَنْتَ مَالِكُهُ ... وَآنَسَ اللهُ بِالْأَلْطَافِ مَغْنَاهُ
لَا أَظْلَمَ اللهُ أُفْقًا أَنْتَ نَيِّرُهُ ... لَا أَهْمَلَ اللهُ سَرْحًا أَنْتَ رَاعَاهُ

---

(١) كذا فى م . وفى ط : « مصر شرحناه » .
(٢) فى م : « مقتله » .
(٣) فى م : « معلاه » .

واهْنَأْ بِشَهْرِ صِيَامٍ جَاءَ رَائِدُهُ[1] (مُسْتَنْزِلاً) مِنْ إِلٰهِ العَرْشِ رُحْمَاهُ
أَهَلَّ بِالسَّعْدِ فَاْسْتَهَلَّتْ بِهِ مِنَنٌ وَأَوْسَعَ الصُّـنْعَ إِجْمَالاً ووفَّاه
أَمَا تَرَى بَرَكَاتِ الأَرْضِ شَامِلَةً وَأَنْعُمَ اللهِ قَدْ عَمَّتْ بَرَايَاه
وَعَادَكَ العِيدُ تَسْتَحْلِي مَوَارِدَهُ وَيُجْزِلُ الأَجرَ والرُّحْمَى مُصَلَّاه
جَهَّزْتَ جَيْشَ دُعَاءٍ فِيهِ تَرْفَعُهُ لِذِي المَعَارِجِ وَالإِخْلَاصُ رَقَّاه
أَفَضْتَ فِيهِ مِنَ النَّعْمَاءِ أَجْزَلَهَا وَأَحْسَنُ البِرِّ مَا الإِحْسَانُ زَكَّاه [٢٩٥]
والَيْتَ لِلْخَلْقِ مَا أَوْلَيْتَ مِنْ نِعَمٍ والَى لَكَ اللهُ مَا أَوْلَى ووالَاه

عيدية أخرى

ثم قال بعد سرد عدّة قصائد : ومن بدائعه المُنيفة عيديّة ميلادية ، وافقتها وجهته من غزوات مولانا الجد أيضا :

لَوْ كُنْتُ أُعْطَى مِنْ لِقَائِكَ سُؤْلَا لَمْ أَتَّخِذْ بَرْقَ الغَمَامِ رَسُـولَا
أَوْ كُنْتُ أَبْلُغُ مِنْ قَبُولِكَ مَأْمَلِي لَمْ أُودِعِ الشَّكْوَى صَبًا وَقَبُولا
لَـكِنَّ مُعْتَلَّ النَّسِيمِ إِذَا سَرَى مَازَالَ يُوسِعُ ذَا الهَوَى تَعْلِيلا
وَبِمُلْتَقَى الأَزْوَاحِ دَوْحَةُ أَيْكَةٍ جَاذَبْتُهَا عِنْـدَ الهُبُوبِ مِيلا[2]
عَهْدِي بِهَا سَـدَلَتْ عَلَيَّ ظِلَالَهَا فَسَـدَلْتُ ظِلًّا لِلشَّبَابِ ظَلِيلا
رَنَمَتْ بِهِ حَوْلِي الظِّبَاءُ أَوَانِسًا فَنَعِمْتُ فِيـهِ مُعَرَّساً وَمَقِيلا
وَصَقَلْتُ لِلْحَسْنَاءِ صَفْحَ مَوَدَّتِي لَمَّا اخْتَلَيْتُ العَارِضَ المَصْقُولا
ثُمَّ انْتَشَيْتُ[3] وقَدْ تَعَاطَيْتُ الهَوَى رِيقًا أَغَرَّ وَجُؤْذَرًا مُكْحُولا
كَمْ فِيهِ مِنْ مُلَحٍ لِمُرْتَادِ الهَوَى تَرَكَتْ فُؤَادَ مُحِبِّـهِ مَتْبُولا

(١) كذا فى م . وفى ط : « زائره » .
(٢) فى م : « ميلا » .
(٣) فى م : « انثنيت » .

لمْ تَرْوِ لِي عَيْنَاهُ حِكْمَةَ بابلٍ ... إلَّا أَخَــذْتُ حَدِيثَهَا مَقْبُولَا
ولَقَدْ أَجِــدُّ جَوَايَ لَمَّا زُرْتُهُ ... رَسْمًا كَحَاشِيَةِ الرِّدَاءِ مُحِيلا
قَدْ أَنْــكَرَتْهُ العَيْنُ إلا لَمْحَةً ... عَرَفَتْ بِهِ آثَارَهُ تَخْيِيــــلا
وإذَا الطُّلُولُ تَعَرَّضَتْ لِمُتَيَّمٍ ... غَادَرْنَ دَمْعَ جُفُونِهِ مَطْلُولا
مَنْ يُنْجِدِ الصَّبْرُ الْجَمِيلُ فإنَّهُ ... بَعْدَ الأحِبَّــةِ قَدْ أَجَدَّ رَحِيلا
كَيْفَ التَّجَمُّلُ[1] بَعْدَهُمْ وأَنَا الَّذِي ... أَنْسَبْتُ قَيْسًا فِي الْهَوَى [وَ] جَمِيلا
مَنْ عَاذِرِي والْقَلْبُ أَوَّلُ عَاذِلٍ ... فِيمَنْ أُفَنِّدُ[2] لَائِمًا وعَــذُولا
أَنْبَعْتُ فِي دِينِ الصَّبَابَةِ أُمَّــةً ... مَا بَدَّلُوا فِي حُبِّهِمْ تَبْــــدِيلا
يا مَوْرِدًا حَامَتْ عَلَيْــهِ قُلُوبُنَا ... لَوْ نِيلَ لَمْ تَجْرِ[3] الْمَدَامِــعُ نِيلا
مَا ضَرَّ مَنْ رَقَّتْ[4] عَلَانِلُهُ ضُحًى ... لَوْ بَاتَ يَنْفَعُ لِلْمُحِبِّ غَلِيلا
كَمْ ذَا أُعَلِّلُ بالحَــدِيثِ وبالْمُنَى ... قَلْبًا كَمَا شَاءَ الغَرَامُ عَلِيــلا
أَغْدَيْتُ واصِلَةَ الهَدِيلِ بِسُحْرَةٍ ... شَجْوًا وجَانِحَةَ الأصِيلِ نُحُولا
وسَرَيْتُ فِي طَيِّ النَّسِيمِ لَعَلَّنِي ... أَخْتَــــالُ حَيًّا بالعَقِيقِ حُلولا

[٢٩٦] هَذَا وَوَجْدِي مِثْلُ وجْدِيَ عِنْدَ مَا اسْــتَشْعَرْتُ مِنْ رَكْبِ الْحِجَازِ رَحِيلا

قَدْ سَــدَّدُوا الأَنْضَاءَ ثُمَّ تَتَابَعُوا ... يَتْلُو رَعِيلٌ فِي الفَلَاةِ رَعِيــــلا
مِثْلُ القِسِيِّ ضَوَامِرٌ قَدْ أُرْسِلَتْ ... يَذْرَعْنَ عَرْضَ البِيدِ مِيلًا مِيلا
مُتَرَنِّحِينَ عَلَى الرِّحَالِ كَأَنَّمَــا ... عَاطَيْنَ مِنْ فَرْطِ الْكَلَالِ شَمُولا
إنْ يَلْتَبِسْ عَامُ الطَّرِيقِ عَلَيْهِمُ ... جَعَلُوا التَّشَوُّقَ لِلرَّسُولِ دَلِيــــلا

---

(١) كذا فى م . والذى فى ط : « التحمل » بالحاء المهملة .
(٢) كذا فى م . والذى فى سائر الأصول : « أفيد » .
(٣) فى ط : « وموارد » و « لم ألف » . مكان قوله « باموردا » و « لم تجر » .
(٤) كذا فى م . وفى ط : « راقت » .

يارَاحِلِينَ ومَا تَحَمَّلَ رَكْبُهُمْ ... إلَّا قُلُوبَ العَاشِقِينَ حُمُولا

نَاشَدْتُكُمْ عَهْدَ الْمَوَدَّةِ بَيْنَنَا ... والعَهْدُ فِينا لم يَزَلْ مَسْئُولاَ

مَهْمَا وصَلْتُمْ خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الثَّرَى ... أنْ تُوسِعوا ذَاكَ الثَّرَى تَقبِيلا

يالَيْتَ شِعْرِى هَلْ أُعَرِّسُ لَيْلَةً ... فأُشَمَّ حَوْلِى إذْخِرًا وجَلِيلا[1]

أوْ تُرْوِنِي[2] يَوْمًا مِياهُ مَجَنَّةٍ ... وَيَشِيمُ طَرْفِى شَامَةً وطَفِيلا[3]

وأَحُطُّ فى مَثْوَى الرَّسُولِ رَكائِبِى ... وأَبِيتُ لِلْحَرَمِ الشَّرِيفِ نَزِيلا

بِمَنازِلِ الْوَحْىِ التى قَدْ شُرِّفَتْ ... قَدْ شَافَهَتْ أعْلامُها التَّنْزِيلا

بمَعاهِدِ الإيمَانِ والدِّينِ الّتى ... قَدْ صَافَحتْ عَرَصَاتُها جِبْرِيلا

وَمُهاجَرِ الدِّينِ الْحَنِيفِ وَأَهْلِهِ ... حَيْثُ اسْتَقَرَّ بِهِ الأمَانُ دَخِيلا

دَارِ الرَّسُولِ وَمَطْلَعِ القمرِ[4] الَّذِى ... إبْدَاؤُهُ مَا فَارَقَ التَّكْمِيلا

يَاحَبَّذَا تِلْكَ الْمَعَالِمُ وَالرُّبَا ... يَاحَبَّذَا تِلْكَ الطُّلُولُ طُلُولا

حَيْثُ النُّبُوَّةُ قدْ جَلَتْ آفَاقُها ... وَجْهًا مِنَ الحَقِّ الْمُبِينِ[5] جَمِيلا

حَيْثُ الرِّسالَةُ فُصِّلَتْ أَحْكَامُها ... لِتُبَيِّنَ التَّحْرِيمَ والتَّحْلِيلا

حَيْثُ الشَّرِيعَةُ قَدْ رَسَتْ[6] أَرْكَانُها ... فَالنَّصُّ مِنْها يَعْضُدُ التَّأوِيلا

---

(١) الإذخر (بكسر الهمزة والخاء) : حشيش طيب الريح وإذا جف ابيض والجليل : الثمام.

(٢) كذا فى الأصلين .

(٣) مجنة (بفتح الميم وكسرها) : موضع قرب مكة . وشامة وطفيل : جبلان بمكة . وقد أخذ معنى هذا البيت والذى قبله من قول بلال رضى الله عنه :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ... بفج وحولى إذخر وجليل
وهل أردن يوماً مياه مجنة ... وهل يبدون لى شامة وطفيل

(٤) فى ط : « الفجر » .

(٥) فى ط : « الصبح الجليل » .

(٦) فى م : « فدست » .

حَيْثُ الْهُدَى والدِّينُ والحَقُّ الّذِى مَحَقَ الضَّلالَ وأذْهَبَ التَّضْليلا
حَيْثُ الضَّرِيحُ يَضُمُّ أكْرَمَ مُرْسَلٍ وأجَلَّ خَلْقِ اللهِ جِيلاً جِيلا
إنَّ الإلٰهَ اخْتارَها(١) لِمُقامِهِ واخْتارَهُ لِلعالَمِينَ رَسُولا
رَحِمَ الإلٰهُ العالَمِينَ بِبَعْثِهِ فِيهِمْ وفَضَّلَ جِنْسَهُ تَفْضِيلا
بِدُعائِهِ انْقَشَعَ الغَمامُ(٢) وقَبْلَها والتَّ بِدَعْوَتِهِ الغَمامُ هُمولا
والشَّمْسُ قَدْ رُدَّتْ لَهُ ولَطالَما قَدْ ظَلَّلَتْهُ سَحابُهُ تَظْلِيلا
إذْ لاَ يُطاوِعُهُ الْوُجُودُ وَقَدْ غَدَا مِنْ نُورِهِ فى خَلْقِهِ مَعْلُولا
يا نُكْتَةَ الأكْوانِ يا عَلَمَ الْهُدَى آياتُ فَضْلِكَ رُتِّلَتْ تَرْتِيلا [٢٩٧]
لَوْلاكَ لَمْ يَكُ لِلْكِيانِ حَقِيقَةٌ ولَكانَ بابُ وُجودِها مَقْفولا(٣)
لَوْلاكَ لِلزُّهْرِ الْكَواكِبِ لَمْ تَلُحْ مِثْلَ الأزاهِرِ ما عَرَفْنَ ذُبُولا
لَوْلاكَ لَمْ تَجْلُ السَّماءُ شُمُوسَها ولَكانَ سَجْفُ ظَلامِها مَسْبُولا
لَوْلاكَ ما عُبِدَ الإلٰهُ وَما غَدَا رَبْعُ الجِنانِ بِأهْلِهِ مَأْهُولا
يا رَحْمَةَ اللهِ الّتى أَلْطافُها سَحَبَتْ عَلَيْنا لِلقَبُولِ ذُيُولا
يا حُجَّةَ اللهِ الّتى بُرْهانُها ما كانَ يَوْمًا صِدْقُهُ مَجْهُولا
كَمْ آيَةٍ لَكَ قَدْ صَدَعْتَ بِنُورِها لَيْلَ الضَّلالِ وإفْكَهُ المَنْحُولا
أوْضَحْتَها كالشَّمْسِ عِنْدَ طُلُوعِها وَعَقَلْتَ عَنْ إدْراكِهِنَّ عُقُولا
وَأتَيْتَ بِالذِّكْرِ الْحَكِيمِ مُبَيِّنًا قَدْ فُصِّلَتْ آياتُهُ تَفْصِيلا
أثْنَى عَلَيْكَ بِكُتْبِهِ مَنْ أنْزَلَ الْـقُرْآنَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإنْجِيلا

---

(١) كذا فى م . وفى ط : « اختاره » .
(٢) فى ط : « الظلام » .
(٣) ورد « قفل الباب » ثلاثيا فى أساس البلاغة .

فإذا البَليغُ يَرُومُ مَدْحَكَ جاهدًا … أَضْحَى حُسامُ لِسانِهِ مَفْلُولا
يا شافِعَ الرُّسْلِ الكِرامِ ومَنْ بِهِ … يرْجُونَ في يَوْمِ الحِسابِ قَبُولا
رِفْقًا بِمَنْ مَلَكَ القَضاءُ زِمامَهُ … فَغَدَا بِقَيْدِ ذنوبه(١) مَعقولا
واحَسْرَتا ضَيَّعْتُ عُمْرِيَ في الهَوَى … والتَّوْبُ أَضْحَى دَيْنُهُ مَمْطولا
وجَرَيْتُ في طَلَقِ البَطالَةِ جامِحًا … حَتَّى انْثَنَى طَرْفُ الشَّبابِ كَليلا
وعَثَرْتُ في طَلَبِ المَفازِ جَهالَةً … لَكِنْ وجَدْتُكَ لِلْعِثارِ مُقيلا
يا صَفْوَةَ اللهِ الأَمينَ لِوَحْيِهِ … مَنْ أَمَّ جاهَكَ أَحْرَزَ التَّأْميلا
واللهِ ما لِي لِلْخَلاصِ وسيلَةٌ … إِلاَّ رِضاكَ وعَفْوَكَ المَأْمُولا
إِنْ كُنْتُ ما أَعْدَدْتُ زادًا نافِعًا … أَعْدَدْتُ حُبَّكَ شافِعًا مَقْبُولا
صَلَّى عَلَيْكَ اللهُ ما رَكْبٌ سرَى … فَأَجَدَّ وخْدًا(٢) في المَفازَةِ مِيلا
وأَعَزَّ مَنْ ولاَّهُ أَمْرَ عِبادِهِ … فَحَباهُمُ إِحْسانَهُ الموصولا(٣)
وأَقامَ مَفْرُوضَ الجِهادِ بِعَزْمَةٍ … تَرَكَتْ بِأَفْئِدَةِ العُداةِ(٤) فُلُولا
واللهِ ما أَدْرِي وقَدْ حَضَرَ الوَغَى … أَحُسامُهُ أَمْ عَزْمُهُ مَصْقُولا
مَلِكٌ إِذا أَمَّ الوُجُودُ يَمينَهُ … فالبَحْرُ عَذْبًا والرِّياضُ بَليلا
أَوْ يُخْلِفُ النَّاسَ الغَمامُ وأَمْحَلُوا … فَنَداهُ لا يَخْشَى العُفاةُ مُحُولا
مِنْ دَوْحَةٍ نَصْرِيَّةٍ يَمَنِيَّةٍ … وشَجَتْ فُرُوعًا في العُلا وأُصُولا [٢٩٨]
فإذا سَأَلْتَ الكُتْبَ نَقْلَ فَضيلَةٍ … لَمْ تُلْفِ إِلاَّ فَخْرَها مَنْقُولا

(١) في ط: «زمامه».
(٢) في ط: «وجدا».
(٣) في ط: «المأمولا».
(٤) في ط: «العباد».

يَأَيُّهـــــا المَلِكُ الَّذِى أَيَّامُهُ وضَحَتْ بأَوْجه دحرز(١) مُحُولا
والله ما آثار هَدْيِك عنــــدنا إلاّ نجــــومًا ما عَرَفْنَ أُفُولا
لم يَعْرِف التَّرْكيبَ سَيْفُكَ فى الوَغَى فاعْجَبْ لهُ قَدْ أَحْكَمَ التَّحْليلا
كَمْ صُورَةٍ لَكَ فى الفُتُوحِ وسُورَةٍ تُجْلَى وتُتْلَى بُكْرَةً وأَصيلا
لم تَسْرِ سَارِيَةُ الرِّيَاحِ بِطَيِّبَةٍ إِلّا لتحْمِلَ ذِكْرَكَ المَعْسُولا
وكأَنَّ صَفْحَ البَرْقِ سَيْفُكَ ظَلَّ من غِمْدِ الغَمَامِ مُرَهَّفًا مَسْلولا(٢)
كَمْ بَلْدَةٍ لِلكُفْرِ قَدْ عَوَّضْتَ مِنْ نَاقُوسِها التَّكْبِيرَ والتَّهْلِيـــلاَ
صَدَفَتْ مُقَدَّمَةُ الجُيوشِ فَصَيَّرَتْ مِنْ حينِها مَوْضُوعَهَا مَحْمُولا
كَسَرُوا تَمَاثِيلَ الصَّليبِ ومَثَّلُوا بِمَنِ انتَمَى لِوَلاَئِهِ تَمْثِيلا
لما أَحَطْتَ بها وحَانَ دَمَارُها(٣) أَخْرَجْتَ مُتْرَفَها الأَعَزَّ ذَليلا
تَجْرِى الدُّمُوعُ وما تَبُلُّ غَليلَهُ فَمُصَفَّدٌ يَبْكِى هُناكَ قَتيلاَ
سَنَّتْ يمينُ المُلْكِ منك على العدَا عَضْبــاً مَهِيبَ الشَّفْرَتين صَقيلا
لم يَرْضَ سيفُكَ أن يُحَلَّى جوهراً حتى يُحلى عَسْجداً مَحْلُولا
لم ترضَ هِمَّتُكَ القليلَ من التقى حتى أتتْ بالصالحات قَبيــلا [(٤)
فَأَقَمْتَ ميلادَ الرَّسُولِ بِلَيْلَةٍ أَوْضَحْتَ فيها لِلجهَادِ سَبيلا
حَيْثُ القِبابُ البِيضُ جَلَّتِ الرُّبا أَزْهَارَ رَوْضٍ مَا اكْتَسَيْنَ ذُبُولا
ومَوَاقِدُ النيرانِ تُذْكَى حَوْلَها فَيُنيرُ مَشْعَلُها رُبًا وسُهُولا
والأُفْقُ فَوْقَكَ قُبَّةٌ مَحْبُوكَةٌ مَدَّتْ عَلَيْك طِرَافَها المسدولا(٥)

---

(١) كذا فى الأصلين وفيه تحريف ظاهر .
(٢) فى م : « معلولا » .
(٣) فى م : « وهان ذمارها » .
(٤) الأبيات الثلاثة زيادة عن م .
(٥) فى ط : « المسبولا » . وما أثبتناه عن م .

ورَمَى(١) إليكَ ببدْرِه ونُجُومِهِ … يُهْدِيكَ منهُ التّاجَ والإكْليلا

حَيْثُ الكَتائبُ قَدْ تلاطَمَ مَوْجُها … وتدفّقتْ فيها الخُيولُ سُيُولا

زَخَرَت بأمْواجِ الحَديدِ وربّما … ضَاقَ الفَضاءُ فما وجَدْنَ مَسِيلا

يَتَجاوبُ التّكْبيرُ فى جنَباتِها … فتُعيدُهُ غُرُّ الجِيادِ صَهيلا

حمَلَتْ منَ الأبْطالِ كُلَّ مُشَمِّرٍ … لا يتّقى(٢) سُمْرَ القَنا ونُصُولا

آسادُ مَلْحَمَةٍ إذا اشْتَجَرَ الوَغَى … دَخلوا منَ الأسَلِ(٣) المُثقفِ غيلا

إن شمّرُوا يومَ الحُرُوبِ ذُيُولَهُمْ … سَحَبُوا منَ الزّرْدِ المُفاضِ ذُيُولا

أو قصّرُوا يومَ الطّعانِ رِماحَهُمْ … وصَلوا بها الخَطْوَ الوَسَاعَ طويلا

يالَيْلَةً ظَفِرَتْ يَدَايَ بأجْرِها … وسَهِرْتُ فيها بالرِّضا مَشْمُولا

واللهِ لوْ عُوِّضْتُ عنكِ شَبِيبَتِى … ماكُنْتُ أرْضَى بالشّبابِ بَدِيلا ٢٩٩

يَا ناصِرَ الإسْلامِ يَامَلِكَ العُلا … اللهُ يُؤْتِيكَ الجَزاءَ جَزيلا

جَهِّزْ جُيُوشَكَ للجِهادِ مُوَفَّقًا … وكَفَى بربِّكَ كافيًا وكَفيلا

ولْتُبْعِدِ(٤) الغَاراتِ فى أرْضِ العِدَا … واللهُ حَسْبُكَ ناصِرًا ووكِيلا

وإليْكَ مِنْ سُمْرِ الجِهادِ غَرِيبَةً … جاءَتْكَ تُقْرِضُكَ(٥) الثّناءَ جَميلا

وأطلْتُ لكنّى أطبْتُ وعادَتِى … ألْفَى مُطيبًا فى المَديحِ مُطِيلا

لا زَالَ نَصْرُكَ كُلّما اسْتَنْجَدْتَهُ … لِمُهِمِّ دِينِكَ عائدًا مَوْصُولا

---

(١) فى م : « أوى » .

(٢) فى الأصول : « الأسد المتقى » ، وهو تحريف .

(٣) كذا فى م . وفى ط : « لا يتقى » .

(٤) فى م : « واستعمل » .

(٥) كذا فى م . وفى ط : « جاءت تقرظك » .

ثُم قال بعد ذكر جملة من قصائد :

ومن ذلك وقد عاد من وِجهة للصيد أعملها ، وأعنّة للجياد فى ميادين ذلك الطِّراد أرسلها ، ما أنشده :

حَيّاكِ يا دارَ الهوَى مِنْ دارِ ... نَوْءُ[1] السِّماكِ بدِيمةٍ مِدْرارِ

وأعادَ وجْهَ رُبَاكِ طلْقًا مُشْرِقًا ... مُتَضَاحِكًا بمَبَاسِمِ النُّوّار

أَمُذَكِّرِى دارَ الصَّبابةِ وَالهوَى ... حَيْثُ الشَّبابُ يَرُوقُ حُسْنَ[2] نُضار

عاطَيْتَنِى عَنْها الحَدِيثَ كأنَّما ... عاطَيْتَنى منها كُئُوسَ عُقار

إِيهٍ وَإِنْ أَذْكَيْتَ نارَ صَبابَتِى ... وَقَدَحْتَ زَنْدَ الشَّوْقِ بالتَّذْكار

يا زاجِرَ الأظْعانِ وَهْىَ مَشُوقةٌ ... أَشْبَهتَها فى زَفْرَةٍ وأُوار

حَنَّتْ إلى نَجْدٍ وَليْستْ دارَها ... وصَبَتْ إلى هِنْدِيَّةٍ والقار

لكِنَّها شامَتْ بهِ بَرْقَ الحِمَى ... واعْتادَها طَيْفُ الكَرَى بمَزار[3]

هلْ تُبْلِغُ الحاجاتِ إنْ حُمِّلْتَها ... إنَّ الوَفاءَ سَجِيَّةُ الأحرار

عَرِّضْ بذِكْرِى فى الخِيامِ وقُلْ إذا ... جِئْتَ العَقِيقَ مُبَلِّغَ الأوْطار

[عارٌ] بقَومِكِ يابْنَةَ الحَيَّيْنِ أنْ ... تُلْوِى الدُّيُونَ وأَنْتِ ذاتُ يَسار

أَمَنَعْتِ مَيْسُورَ الكَلامِ أخا الهوَى ... وبَخِلْتِ حتَّى بالخيال السَّارى ؟

وأبانَ جارِى الدَّمْعِ عُذْرَ هُيامِهِ ... لكِنْ أَضَعْتِ حُقُوقَ[4] ذاكَ الجار

هذا وقَوْمُكِ — ما عَلِمْتِ خِلالَهُمْ — ... أوْفَى الكِرامِ بذِمَّةٍ وجِوار

---

(١) فى م : « موق » .

(٢) فى م ونفح الطيب : « يرف غصن » .

(٣) فى نفح الطيب والإحاطة :

شاقت به برق الحمى واعتادها ... طيف الكرى بمزارها الزوار

(٤) فى نفح الطيب : « لكن أضعت له حقوق الجار » .

اللهَ فى نفسِ شَـــاعٍ كُلّمَا ... هَبَّ النَّسيمُ تَطيرُ كلَّ مَطار

باللهِ يا لَمياء ما مَنَعَ الصَّـــبا ... ألاَّ تَهُبَّ بعَرْفِكِ المِعْطـــار

يا بِنْتَ مَنْ تَشْدُو الحُداةُ بِذِكْرِه ... مُتَعَالِّينَ به على الأكْوار

ما ضَرَّ نَسْمَةَ حاجرٍ لَوْ أنهـــا ... أهْدتْ لنا خَبَرًا من الأخبار [٢٠٠]

هل بانُهُ مِنْ بَعْدِنا مُتَأَوِّدٌ ... مُتَجـــاوِبٌ مُتَرَنِّمُ الأطيار

وهَلِ الظِّباءُ الآنساتُ كَعَهْدِها[١] ... يَصْرَعْنَ أُسْدَ الغابِ وهْىَ ضَوارى

يَفْتِكْنَ مِنْ قاماتِها ولِحاظِهـــا ... بالمَشْرَفِيَّـــةِ والقَنا الخَطّار

أشْعَرْتُ قلبى حُبَّهُنَّ صَـــبابَةً ... فَرَمَيْنَنِى مِنْ لَوْعَتِى بجِمار

وعَلَى الكَثيبِ سَوانِحٌ حُمْرُ الحُلَى ... بِيضُ الوُجُوهِ يَصِدْنَ بالأفكار

أدْنَى الحَجيجُ مَزارَهُنَّ ثَلاثةً ... بِمِنًى لَوَ انَّ مِنًى دِيارُ[٢] قَرار

لكِنَّ يومَ النَّفْرِ جُدْنَ لنا بما ... عَوَّدْنَنا مِنْ جَفْوَةٍ ونِفار

يابنَ الأُلى قد أحْرَزُوا فَضْلَ[٣] العُلا ... وسَمَوْا بطِيبِ أُرُومَةٍ ونِجـــار[٤]

وتَنوبُ عن صَوْبِ الغَمامِ أكُفُّهُمْ ... وتَنوبُ أوْجُهُهُمْ عن الأقمار

مِنْ آلِ سَعْدٍ[٥] رافِعِى عَلَمِ الهُدَى ... المُصْطَفَيْنَ لِنُصْرَةِ المُخْتار

أصبحْتَ وارِثَ مَجْدِهِمْ وفَخارِهِمْ ... ومُشَرِّفَ الأعْصارِ والأمْصار

وجْهٌ كما حَسَرَ الصَّـــباحُ نِقابَهُ ... ويَدٌ تَمُدُّ أناملاً بِبِحـــار

جَرَّدْتَ دون الدِّينِ عَزْمَةَ أرْوَعٍ ... جَدَّدْتَ منها سُنَّةَ الأنصار

(١) فى م ونفح الطيب : « كعهدنا » .

(٢) كذا فى م ونفح الطيب . وفى ط : « بدار » .

(٣) فى نفح الطيب : « خصل » .

(٤) كذا فى نفح الطيب . وفى ط : « ونخار » .

(٥) يريد سعد بن عبادة سيد الخزرج ، من كبار أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم .

حُطتَ البلادَ ومَنْ حَوَتْهُ ثُغُورها ... وكَفَى بسَعْـدِكَ حَامِياً لِذمار
لله رحلتُكَ(١) التى نِلْنا بهـا ... أجْرَ الجهادِ ونُزْهَةَ الأبْصار
أوْرَدْتَنا فيها لِجُودِكَ مَوْرِدًا ... مُسْتَعْذَبَ الإيرَادِ وَالإصدار
وَأفضْتَ فِيناَ مِنْ نَدَاكَ مَوَاهِبًا ... حَسُنَتْ مَوَاقِعُهَا عَلَى التَّكْرَار
أضْحَكْتَ ثَغْرَ الثَّغْرِ لَمَّا جِئْتَهُ ... وخَصَصْتَهُ بخَصَائِص الإيثَار
حَتَّى الفَلاةُ تُقِيمُ يَوْمَ وَرَدْتَهَا ... سُنَنَ القِرَى بِتَلأْلُؤ(٢) الأنْوار
وسَرَتْ عُقَابُ الجوِّ تُهْدِيكَ الذى ... تَصطَادُ مِنْ وَحْشٍ وَمِنْ أطْيار
والأرضُ تَعلَمُ أنَّكَ الغَوْثُ الذى ... تُضْفِى عَلَيْهَا وَافى(٣) الأسْتار
ولرُبَّ مُمْتَدِّ الأباطِحِ مُوحِشٍ ... عالِى الرُّبَا مُتَبَاعِدِ الأقْطار
هَمِلِ المَسَارِحِ لا يُرَاعُ قَنِيصُهُ ... إلّا لِنَبْأةِ فارِسٍ مِغْـوَار
سَرَحَتْ عِنَانُ الرِّيحِ فِيهِ ورُبَّمَا ... ألقَتْ بِسَاحَتِهِ عَصَا التَّسْيَار
باكَرْتَهُ والأفُقُ قدْ خَلَعَ الدُّجَى ... مِسْحًا لِيَلْبَسَ خِلْعَةَ(٤) الإسْفَار

[٢٠١] وجَرَى بِهِ نَهْرُ النَّهَارِ كمِثْلِ مَا ... سكَبَ النديمُ سُلافَةً مِنْ قار(٥)
عَرَضَتْ بِهِ المُسْتَنْفَرَاتُ كأنَّهَا ... خَيْلُ عِرَابٌ جُلْنَ(٦) فى مِضْمَار
أتْبَعْتَهَا غُرَرَ الجِيَادِ كَوَاكِبًا ... تَنْقَضُّ رُجْمًا فى سَمَاءِ غُبَار
والهَادِيَاتُ يَؤُمُّهَا عَبْلُ الشَّوَى ... مُتَدَفِّقٌ كَتَدَفُّقِ التَّيَّار
أزْجَيْتَهَا شَقْرَاءَ رَائِقَةَ الحِلَى ... فَرَمَيْتَهُ مِنْهَا بِشُعْلَةِ نار

(١) كذا فى نفح الطيب . والذى فى الأصل : « رحتك » .
(٢) كذا فى الإحاطة : والذى فى الأصلين : « بتلالة » .
(٣) فى نفح الطيب المطبوع : « واق » .
(٤) فى م ونفح الطيب : « حلة » .
(٥) كذا فى م ونفح الطيب ، وفى ط : « نار » .
(٦) فى م : « خلن » .

أثبتَّ فيه الرُّمحَ ثم تركتَهُ ... خَضِبَ الجوانحِ بالدّمِ المَوّار

حامتْ عليه الذابلاتُ كأنّها ... طيرٌ أوتْ منهُ إلى أوكار

طَفِقَتْ أرانِبُه غداةَ أثرتَها[1] ... تبغى الفِرارَ ولاتَ حِينَ فِرار

هل ينفعُ الباعُ الطويلُ وقد غدَتْ ... يومَ الطِّرادِ قصيرةَ الأعمار

من كلِّ مُنْحَفِزٍ بلمحةِ بارقٍ ... فاتتْ خُطاهُ مَدارِكَ الأبصار

[وجوارحٍ سَبَقَتْ إليه طِلابَها ... فكأنّما طالَبْنَهُ بالثّـار

سُودٌ وبيضٌ فى الطِّرادِ تتابعتْ ... كالليلِ طارَدَهُ بياضُ نهار][2]

ترمى بها وهى الحَنايا ضُمَّرًا ... مثلَ السِّهامِ نَزَعْنَ عن أوتار

ظَنَّتْ بأنْ تنجُو بها[3] كلّا ولَوْ ... أُغرِيتَـهُ بأرانبِ الأقمار

وبكلِّ فَتْخاءِ الجَناحِ إذا ارْتَمَتْ ... فكأنّها نجمُ السّماءِ السّاري

زَجِلُ الجَناحِ مُصَفِّقٌ كمَنَ الرَّدى ... فى مِخلَبٍ منهُ وفى منقار

أَجْلَى الطَّرِيدَ[4] من الوُحوشِ وإنْ رَمَى ... طيرًا أتاكَ به على مقدار

وأرَيْتَنا الكَسْبَ الذى أعْدادُهُ ... مَلأتْ جَمالًا أعيُنَ النُّظّار

بيضٌ وصُفْرٌ خِلتَ مَطْرَحَ سَرْحِها ... رَوضًا تَفَتَّحَ عن شقيقِ بَهار

من كلِّ مَوْشِيِّ الأديمِ مُفَوَّفٍ ... رَقَمَتْ بدائعَهُ يَدُ الأقدار

خُلِطَ البياضُ بصُفْرةٍ فى لونِهِ ... فترى اللُّجَيْنَ يَشُوبُ ذَوْبَ نُضار

أو أشْعَلٍ راقَ العيونَ كأنّهُ ... غَلَسٌ يخالطُ سُدْفَةً بنهار

---

(١) كذا فى نفح الطيب . والذى فى الأصل : « تركتها »

(٢) البيتان عن نفح الطيب .

(٣) كذا فى الأصلين . وفى نفح الطيب : « بنجو لها » والضمائر فى البيت خفية الدلالة .

(٤) فى الأصل : « الطريق » . وما أثبتناه عن نفح الطيب .

سَرَحَتْ بمُخضَرِّ الجَوَانِبِ يانِعٍ ... تَنْسَابُ فِيهِ أَرَاقِمُ الأَنْهار
قَدْ أَرْضَعَتْهُ السَارِيَاتُ لِبَانَها ... وحَلَلْنَ فِيهِ أَزِرَّةَ النُّوَّار
أَخَذَتْ سَمُودُكَ حِذْرَهَا فَلِحِكْمَةٍ ... أَغْرَتْ جُفُونَ المُزْنِ باسْتِعْبار
لَمَّا أَرَتْكَ[1] الشَّمْسُ صُفْرَةَ حَاسِدٍ ... لِجَبِينِكَ المُتَأَلِّقِ الأَنْوَار
نَفَثَتْ عَلَيْكَ السُّحْبُ نَفْثَ مُعَوِّذٍ[2] ... مِنْ عَيْنِها المُتَوَقَّعِ الأَضْرَار
فَارْفَعْ لِوَاءَ الفَخْرِ غيْرَ مُدَافَعٍ ... واسْحَبْ ذُيُولَ العَسْكَرِ الجَرَّار
وَأَهْنَأْ بِمَقْدَمِكَ السَّعِيدِ مُخَوَّلًا ... ما شِئْتَ مِنْ عِزٍّ وَمِنْ أَنصار [٢٠٢]
قد جِئْتَ دَارَكَ مُحْسِناً ومُؤَمَّلًا ... مُتِّعْتَ بالحُسْنَى وعُقْبَى الدّار
وإِلَيْكَهَا مِنْ رَوْضِ فِكْرِيَ نَفْحَةً ... شَفَّ الثَّنَاءُ بِهَا عَلَى الأَزْهَار

ثم قال: ومن ذلك ما أنشده، رضى الله تعالى عنه، فى رحلة ركاب المجاهد إلى المرية بالقصر الصُّمادحى فى حدود عشر سنين وسبع مئة:

حمُول تحنُّ للأَطْلال ... ويَشُوقُها ذِكْرُ الزَّمَانِ الخالِي
يَثْنِي أَزِمَّةَ هِيمِهَا شَوْقٌ إِلَى ... ظِلِّ الأَرَاكِ وأَزْرَقٍ سَلْسَال
ذَكَرَتْ بِهَا الحَيَّ الجميعَ كَعَهْدِهَا ... والرَّبْعُ مِنْهَا أَخْضَرُ السِرْبال
والدارُ حَالِيَةُ المَعَاطِفِ والرُّبَا ... ومَرَادُهَا بالرَّوْضَةِ المِخْضَال
أَيَّانَ ما لَعِبَتْ بها أيدِي النَّوَى ... وتَرَاهَنَتْ فى الحَلِّ والتَّرْحَال[3]

---

(١) فى الأصل: «رأتك». والتصويب عن نفح الطيب.
(٢) فى نفح الطيب: «نفثة معوذ».
(٣) كذا فى م. وفى ط:
«أيان ما لعبت به أيدى الهوى ... ذهب الغرام بحيلة المحتال».

وَجَرَتْ بسدَّتِها(١) الحُدَاةُ كأنَّها قِطَعُ السَّفائِنِ خُضْنَ بَحْرَ لَيالِ
دَعْنِي أُطارِحْها الحَنِينَ فإنَّنِي لا أَنْثَنِي(٢) لِمَقالَةِ العُـذّالِ
وهِيَ المَنازِلُ أشْبَهَتْ سُكَّانَها أَعْمارُهَا تَفْضِي إلى الآجالِ
بَلِيَتْ مَحاسِنُها وخَفَّ أَنِيسُهَا والشَّوْقُ والتِّذْكارُ لَيْسَ بِبالِي
ولَقَدْ أَقُولُ وما يُعَنِّفُ ذُو الهَوَى ذَهَبَ الغَرامُ بِحِيلَةِ المُحْتالِ
أَحَشًى تَذُوبُ صَبابَةً ومَدامِعٌ تُغْرِي جُفُونَ المُزْنِ باسْتِهْلالِ
وَوَرَاءَ مُطَّلَعِ الخُدُورِ جَآذِرٌ تُجْلَى شُمُوساً فى غَمامِ حِجالِ
يا ساكِنِى نَجْدٍ وما نَجْدٌ سِوَى نادِى(٣) الهَوَى ومُخَيَّمِ الآمالِ
ما للظِّباءِ الآنِساتِ بِرَبْعِكُمْ عُطُلاً وهُنَّ مِنَ الجَمالِ خَوالِى
أَوْ لِلرِّياحِ تَهُبُّ وهِيَ بَلِيلَةٌ فَتَهِيجُ مِنْ وَجْدِى ومِنْ بَلْبالِى
هِيَ شِيمَةٌ عُذْرِيَّةٌ عَوَّدتُها قَلْبًا شَعاعاً(٤) ما يُرَى بالسّالِى
يا بِنْتَ مَنْ غَمَرَ العُفاةَ نَوالُهُ هَلاَّ سَمَحْتِ(٥) ولوْ بِطَيْفِ خَيالِى
فَلَكَمْ بَعَثْتُ مَعَ النَّسِيمِ تَحِيَّتِى عَوَّدْتُ سارِى البَرْقِ مِنْ أَرْسالِى
بِاللهِ يا رِيحَ النُّعامَى جَرِّرِى فَوْقَ الخُزامَى عاطِرَ الأَذْيالِ
وَإِذا مَرَرْتِ عَلَى الكَثِيبِ بِرامَةٍ(٦) صافِحْ مُحَيًّا الرَّوْضَةِ المِخْصالِ
فِيها المَعاهِدُ قَدْ طَلَعْنَ بأُفْقِها زَمَنًا ولَمْ أَجْنَحْ لِوَقْتِ زَوالِ

(١) كذا فى م . وفى ط : « بشدة » .
(٢) فى ط : « لك أنثنى » .
(٣) فى م : « دار » .
(٤) كذا فى م . وفى ط : « شغافا » .
(٥) فى ط : « سمحت » .
(٦) كذا فى م . ورمة : موضع بالعقيق ، أو وراء القريتين فى طريق البصرة إلى مكة . (انظر معجم ما استعجم للبكرى) . وفى ط : « زابة » .

أُمُذَكِّرِى عَهْدَ الشَّبِيبَةِ جادَهُ ... صَوْبُ العِهادِ بِوَاكِفٍ هَطَّال

[٣٠٣] عاطيْتَنِى عَنْهُ الحَدِيثَ كَأَنَّما ... عاطيْتَنِى مِنْهُ ابْنَةَ(١) الجِرْيال

هذا عَلَى أَنِّى نَزَعْتُ عَنِ الصِّبا ... وصَرَمْتُ مِنْ حُبِّ الحِسانِ حِبالِى(٢)

حَسْبِى وَقارًا فِى النَّدِىِّ إِذَا احْتَبَى ... وتَجاوَلُوا فِى الفَخْرِ كُلَّ مَجال

أَنِّى أَلُوذُ بِدَوْلَةٍ نَصْرِيَّةٍ ... حَلِيَتْ مَحاسِنُها بِكُلِّ كَمال

حيثُ الوُجُوهُ صَبِيحةٌ والمَكْرُما ... تُ صَرِيحَةٌ والعِزُّ غَيْرُ مُزال(٣)

حيْثُ المَكارِمُ سَنَّها أَعْلامُها ... مِنْ كلِّ فَيَّاضِ النَّدَى مِفْضال

بِيضُ الأَيادِى والوُجوهِ أَعِزَّةٌ ... قَدْ شَيَّدُوا العَلْيا بِسُمْرٍ عَوَالى

هُمْ آلُ نصْرٍ ناصَرُوا دِينَ الهُدَى ... والمُصْطَفَوْنَ لِخِيرَةِ الأَرْسال

ما شِئْتَ مِنْ مَجْدٍ قدِيمٍ شادَهُ ... أَبْناءُ قَيْلَةَ أَشْرَفِ الأَقْيال

ما مِنْهُمُ إِلاَّ أَغَرُّ مُحَجَّلٌ ... يَلْقَى العَظائِمَ وهْوَ غَيْرُ مُبالى

مُتَبَسِّمٌ واليومُ أَكْلَحُ عابِسٌ ... والحَرْبُ تَدْعُو بالكُماةِ نَزَال

قد عوَّدُوا النَّصْرَ العَزِيزَ وخُوِّلُوا الـ ... ـفَتْحَ المُبِينَ بِمُلْتَقَى الأَبْطال

بذلوا الدى(٤) الهَيْجا كَرَائِمَ أَنْفُسٍ ... قد أَرْخَصتْ فى اللهِ وهِىَ غَوَالى

يَأَيُّها المَلِكُ الهُمَامُ المُجْتَبَى ... ومُنِيلَ دِينِ اللهِ خَيْرَ مَنال

أَصْبَحْتَ وارِثَ مَجْدِهِمْ وفَخَارِهِمْ ... ومُشَرِّفَ الأَمْصارِ والأَبْطال

وطَلَعْتَ فِى أُفُقِ الخِلافَةِ نَيِّرًا ... تَجْلُو ظَلامَ الظُّلْمِ والإِضْلال

---

(١) فى ط : « ابتدا » .

(٢) كذا فى . م وفى ط : « وصرعت من حب الحسان حيالى » وفيه تحريف ظاهر .

(٣) فى ط : « والعذر غير نوال » .

(٤) فى ط : « الدما » . والتصويب عن م .

فُقْتَ المُلوكَ جَلالةً وبَسالةً وشَأَوْتَهم(١) فى الحِلْمِ والإجْمالِ
أَعْدَتْ محاسِنُكَ المَحاسِنَ كُلَّها فَجَمَالُها يُزْرِى بِكُلِّ جمالِ
فالشمسُ تأخُذُ عَنْ جَبِينِكَ نورَها والرَّوْضُ يَنْفَحُ عنْ كريمِ خِلالِ
والرِّيحُ تحمِلُ عنْ ثنائكَ طيبَها فى مُلتقاها من صَبًا وشَمالِ
والغَيْثُ إلاَّ منْ نَدَاكَ مُبَخَّلٌ فالغَيْثُ يُقلِعُ والنَدَى مُتَوالى
تُعْطِى الذى لا فَوْقَهُ لِمؤمِّلٍ وتَجُودُ بالإحْسَانِ قبلَ سُؤالِ
طاوَلْتَ عُلْوِىَّ النُّجُومِ بِهِمَّةٍ لا فاقِدًا عِزًّا ولا مِكْسَالِ(٢)
وبلغْتَ منْ رُتَبِ السَعادةِ مَبْلَغًا أَبْعَدْتَ فِيـهِ مُرْتَقاكَ المَعالى(٣)
وقِياسُ سَعْدِكَ فى مَرَامِكَ كلِّهِ يَقْفِى مُقَـدَّمُهُ بِصِدْقِ التَّالى
لمنِ الجِيَادُ الصَافِناتُ كأنَّهـا فى الوِرْدِ أَسْرَابُ القَطَا الأرْسالِ
مِنْ كلِّ مَلْمُومِ القُوَى عَبْلِ الشَوَى مُرْخَى العِنَانِ مُحَفَّزٍ(٤) جَوَّالِ
لِمَنِ القِبابُ الحُمْرُ تُشْرَعُ لِلنَّدَى فتَفِيضُ للعافِينَ فَيْضَ سِجالِ
لمنِ الخِيامُ البِيضُ تَحْسِبُ أنَّها زُهْرُ الكواكِبِ أُطْلِعَتْ بِجِـلالِ(٥) [٣٠٤]
مُنْداحَةُ الأرْجاءِ عَالِيَـةُ الذُّرَى فكأنَّها فى الوَهْـدِ شُمُّ جِبالِ
هُوَ مَظْهَرُ المُلْكِ العَلِىِّ وَمَطْلَعُ النُّـورِ الجَـلِىِّ بِمَرْقَبٍ مُتَعالى
آثارُ مَوْلانَا الإمامِ مُحَمَّدٍ بَدْرِ الهُدَى لا زالَ حِلْفَ كَمالِ

(١) كذا فى م . وفى ط : « ورأستهم » .
(٢) المكسال (كما فى كتب اللغة) : من صفات الإناث . والوجه فى مكسال المصب . ولكنه عدل عنه للقافية . وقد وقع منه هذا فى غير موضع من القصيدة .
(٣) كذا فى م . وفى ط : « مرتقى المعالى » .
(٤) فى ط : « محفى » .
(٥) فى ط : « بجلال » .

لله وجْهَتُكَ الَّتى نِلْنَا بِهاَ أَجْرَ الجهادِ وَبُغْيةَ الآمالِ
ما شِئْتَ مِنْ حُسْنٍ يَفُوقُ كمالُهُ وَبَرُوقُ مَنْظَرُهُ الجميلُ الحالى
كَمْ مِنْ عَجَائِبَ جَمَّةٍ أَظْهَرْتَها مَا كانَ يَخْطُرُ وَصْفُهُنَّ بِبالِ
أَمَّتْ وُفُودُ النَّاسِ مِنْكَ مُمَلَّكاً قَدْ خُصَّ بالتَّعْظِيمِ وَالإِجْلالِ
جاءوا مَوَاقِيتَ اللِّقاءِ كأَنَّهُمْ وَفْدُ الحجيجِ بِرَامَةٍ وَأَلَالِ[١]
لله عَيْناً مَنْ رَأَى مَلِكَ المَلا حَفَّ الوَقَارُ جَمالَهُ بِجَلَالِ
فى مَوْكِبٍ لَبِسُوا الخُلُوصَ شِعارَهُ وَتَمَيَّزُوا مِنْهُ بِزِىِّ جَمَالِ
بَلغُوا بهِ العَدَدَ الكثيرَ وَكُلُّهُمْ أَرْضَاهُمُ إِحْسَانُكَ المُتَوَالى
يَهْنِى المَرِيَّةَ نِعْمَةٌ سَوَّغْتَها جادَتْ بها الأَيَّامُ بَعْدَ مِطَالِ
قَدَّسْتَ وَادِيها وَزُرْتَ خِلَالَهَا فَلَها الفَخَارُ بها عَلَى الآصالِ[٢]
وَكَسَوْتَها بُرْدَ الشَّبَابِ مُفَوَّفاً وَشَفَيْتَ ما تَشْكُو مِنَ الأَوْجالِ
مَوْلَاىَ لا أُحْصِى ثَنَاءَكَ إِنَّهُ أَرْبَى عَلَى التَّفْصيلِ وَالإِجْمَالِ
أَعْلَيْتَ فى أُفُقِ العِنَايَةِ مَظْهَرِى وَخَصَصْتَهُ بِعَوَارِفِ الإِفْضالِ
ظَفِرَتْ يَدَاىَ بِكُلِّ مَا أَمَّلْتُهُ فى النَّفْسِ أَوْ فى الجاهِ أَوْ فى المالِ
لمْ تُبْقِ لى أَمَلاً وَما بَلَّغْتَهُ بُلِّغْتَ ما تَرْجُو مِنَ الآمالِ

ثم قال بعد ذكر بعض المبديات : ومن ذلك :

بُشْرَى كما وَضَحَ الصَّبَاحُ وَأَجْمَلُ يُغْشِى سَنَاهَا كلُّ مَنْ يَتَأَمَّلُ[٣]

(١) رامة : تطلق على أكثر من مكان . (انظر الحاشية رقم ٦ ص ١٠٨ من هذا الجزء) . وألال : جبل بعرفات .

(٢) كذا فى م . وفى ط : « الأمثال » .

(٣) فى نفح الطيب : « يتهلل » .

أَبْدَى لها[١] وَجْهُ النَّهارِ طَلاقَةً وَأَفْتَرَّ من ثَغْرِ الأَقاحِ مُقَبَّل

وَمَنابرُ الإِسْلامِ يامَلِكَ الْوَرى[٢] بِحُلاكَ أَبْ بِحُلِيِّها تَتَكَمَّل

تَجْلُو لنا الأَكْوانُ مِنْكَ مَحاسِنًا تُرْوَى عَلَى مَرِّ الزَّمانِ وَتُنْقَل

فالشَّمْسُ تأْخُذُ مِنْ جَبِينِكَ نُورَها وَالْبِشْرُ مِنْكَ بِوَجْهِها يَتَهَلَّلُ

والرَّوْضُ يَنْفَحُ عَنْ ثَنائِكَ طِيبهُ والوُرْقُ فيهِ بِالمَادِحِ تَهْدِل [٢٠٥]

والبَرْقُ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِكَ مُنْتَضًى والسُّحْبُ تَهْمِى مِنْ يَدَيْكَ وَتَهْمُل

يا أَيُّهـا المَلِكُ الذى أَوْصافُهُ دُرٌّ عَلَى جِيدِ الزَّمانِ مُفَصَّـل

اللهُ أَعْطاكَ الَّتى لا فَوْقَها وَحَباكَ بِالْفَضْلِ الذى لا يُجْهَـل

وَجْهٌ كما حَسَرَ[٣] الصَّباحِ نِقابُهُ لِضِيائِهِ تَعْشُو البُدُورُ الكُمَّل

تَلْقاهُ فى يَوْمِ السَّماحَةِ وَالْوَغَى وَالْبِشْرُ فى وَجَناتِهِ[٤] يَتَهلَّل

كَفٌّ أَبَتْ أَلَّا تَكُفَّ عَنِ النَّدَى أَبَدًا فإنْ ضَنَّ الحَيا تَسْتَرْسِل

وَشَمائِلٌ كالرَّوْضِ باكَرَهُ الحَيا وَسَرَتْ بِرَيَّاهُ الصَّبا والشَّمْأَل

خُلُقٌ ابن نصرٍ فى الجمالِ كَخَلْقِهِ ما بَعْدَها من غايةٍ تُسْتَكْمَل

نُورٌ عَلَى نُورٍ بأَبْهى مَنظَرٍ فى حُسْنِهِ لِمُؤَمِّلٍ ما يأْمُل

فاقَ المُلوكَ بسيفِهِ وبِسَيْبِه فَبِعَدْلِهِ وبِفَضْلِهِ يُتَمَثَّل

وإذا تطاوَلَ لِلْفَخارِ[٥] عَمِيدُهُمْ فَلَهُ عليهِ تَطاوُلٌ وَتَطَوُّل

(١) كذا فى م . وفى ط : « لنا » .
(٢) فى نفح الطيب طبعة الأزهرية : « العلا » .
(٣) كذا فى م . وفى ط : « حسن » . وقد مر هذا التشبيه فى قصيدته الرائية حيث يقول :
وجه كما حسر الصباح نقابه ويد تمد أناملا ببحار
(٤) فى نفح الطيب : « جنباته » .
(٥) كذا فى م ونفح الطيب . وفى ط : « للعميد » .

يا آيَةَ اللهِ الَّتِي أَنْوَارُهَا يُهْدَى بِها قَصْدَ الرَّشَادِ الضُّلَّلُ
قُلْ لِلَّذِي الْتَبَسَتْ مَعَالِمُ رُشْدِهِ هَيْهَاتَ قَدْ وَضَحَ الطَّرِيقُ الأَمْثَل
قَدْ نَاصَحَ الإِسْلامَ خَيْرُ خَلِيفَةٍ وَحَمَى عَرِينَ الْمُلْكِ أَغْلَبُ مُشْبِل[1]
فَلَقَدْ ظَهَرْتَ مِنَ الْكَمَالِ بِمُسْتَوًى ما بَعْدَهُ لِذَوِي الخِلافَةِ مَأْمَل
وَعِنَايَةُ اللهِ اشْتَمَلْتَ رِدَاءَهَا وَعَلِقْتَ مِنْهَا عُرْوَةً لا تُفْصَل
فَالجُودُ إِلَّا مِنْ يَدَيْكَ مُقَتَّرٌ وَالغَيْثُ إِلَّا مِنْ نَدَاكَ مُبَخَّل
وَالعُمْرُ إِلَّا تَحْتَ ظِلِّكَ ضَائِعٌ والعَيْشُ إِلَّا فِي جَنَابِكَ مُمْحِل
حيثُ الجِهَادُ قَدِ اعْتَلَتْ رَايَاتُهُ حيثُ المَكَارِمُ لِلْعُفَاةِ تُنَفَّل
حيثُ القِبَابُ الحُمْرُ تُرْفَعُ لِلْقِرَى قَدْ قَامَ[2] فِي أَرْجَائِهِنَّ المَنْدَل[3]
يَا حُجَّةَ اللهِ الَّتِي بُرْهَانُهَا عَزَّ الحَقُّ بِهِ وَذَلَّ المُبْطِل
قُلْ لِلَّذِي نَآوَاكَ يَرْقُبُ يَوْمَهُ[4] فَوَرَاءَهُ مَلِكٌ يَقُولُ وَيَفْعَل
وَاللهُ جَلَّ جَلالُهُ إِنْ أَمْهَلَتْ أَحْكَامُهُ مُسْتَدْرَجاً لا تُهْمِل
يا نَاصِرَ الإِسْلامِ وَهْوَ فَرِيسَةٌ أُسْدُ العِدَا[5] مِنْ حَوْلِهَا تَتَسَلَّل
يا فَخْرَ أَنْدَلُسٍ وَعِصْمَةَ أَهْلِها لَكَ فِيهِمُ النُّعْمَى التي لا تُجْهَل
لا يُهْمِلُ اللهُ الذينَ رَعَيْتَهُمْ فَلأَنْتَ أَكْفَى وَالعِنَايَةُ أَكْفَل
لا يَبْعُدُ النَّصْرُ العَزِيزُ فَإِنَّهُ آوَى إِلَيْكَ وَأَنْتَ نِعْمَ المَوْئِل
لَوْلاَ نَدَاكَ لَهَا لَمَا نَفَعَ النَّدَى وَلَجَفَّ مِنْ وِرْدِ الصَّنَائِعِ مَنْهَل

[٣٠٦]

(١) في ط: « مشمل ». وفي نفح الطيب: « أشمل ». والتصويب عن م.
(٢) كذا في الأصلين. وفي نفح الطيب: « عام ».
(٣) المندل: العود.
(٤) في نفح الطيب المطبوع: « يدفع نومه ». وفي المخطوط: « يرفع رأسه ».
(٥) في نفح الطيب: « الفلا ».

لَوْلاكَ كانَ الدِّينُ[١] يُغْمَطُ حقَّهُ ... وَلَكانَ دِينُ النَّصْرِ فِيهِ يُمْطَلُ
لَكِنْ جَنَيْتَ الفَتْحَ مِنْ شَجَرِ القَنَا ... وَجَنَى الفُتُوحِ لِمَنْ عَدَاكَ مُعَلَّلُ[٢]
فلطالما[٣] اسْتَفْتَحْتَ كلَّ مُمَنَّعٍ ... مِنْ دُونِهِ بابُ المطَامِعِ مُقْفَلُ
وَمَتَى نَزَلْتَ بِمَعْقِلٍ مُتَأَشِّبٍ ... فَالعُصْمُ مِنْ شَعَفَاتِهِ[٤] تُسْتَنْزَلُ
وَإِذَا غَزَوْتَ فَإِنَّ سَعْدَكَ ضَامِنٌ ... أَلَّا تَخِيبَ وَأَنَّ قَصْدَكَ يَكْمُلُ
فَمِنَ السُّعُودِ أَمَامَ جَيْشِكَ مَوْكِبٌ ... وَمِنَ المَلائِكِ دُونَ جُنْدِكَ جَحْفَلُ
وَكَتِيبَةٍ أَرْدَفْتَهَا بِكَتِيبَةٍ ... وَالخَيْلُ تَمْرَحُ فى الحَدِيدِ وَتَرْفُلُ[٥]
مِنْ كُلِّ مُنْخَفِزٍ كَلَمْحَةِ بَارِقٍ ... بالبَدْرِ يُسْرَجُ وَالأَهِلَّةِ يُنْعَلُ
أَوْفَى بِهَادٍ كالظَّلِيمِ وَخَلْفَهُ ... كَفَلٌ كما مَاجَ الكَثِيبُ الأَهْيَلُ
حَتَّى إِذَا مَلَكَ الكَمِيُّ عِنَانَهُ ... يَهْوِى كما يَهْوِى بِجَوٍّ أَجْدَلُ
حَمَلَتْ أُسُودَ كَرِيهَةٍ يَوْمَ الوَغَى ... مَا غَابُهَا إِلَّا الوَشِيجُ الذُّبَّلُ
لَبِسُوا الدُّرُوعَ غَدَائِرًا مَصْقُولَةً ... وَالسُّمْرُ قُضْبٌ فَوْقَهَا تَتَهَدَّلُ
مِنْ كُلِّ مُعْتَدِلِ القَوَامِ مُثَقَّفٍ ... لَكِنَّهُ دُونَ الضَّرِيبَةِ يَعْسِلُ
أَذْكَيْتَ فِيهِ شُعْلَةً مِنْ نَصْلِهِ ... يُهْدَى بها إِنْ ضَلَّ عَنْهُ المَقْتَلُ
وَرُبَّ لَمَّاعِ الصِّقَالِ[٦] مُشَهَّرٍ ... مَاضٍ وَلَكِنْ فِعْلُهُ مُسْتَقْبَلُ
رَقَّتْ مَضَارِبُهُ وَرَاقَ فِرِنْدُهُ ... فَالحُسْنُ فِيهِ مُجْمَلٌ وَمُفَصَّلُ
فإذَا الحُرُوبُ تَسَعَّرَتْ أَجزالها ... يَنْسَابُ فى يُمْنَاكَ مِنْهُ جَدْوَلُ

(١) كذا فى نفح الطيب المخطوط والمطبوع . وفى ط : «الطير» . وفى م : «الطين» .
(٢) فى نفح الطيب : «مؤمل» .
(٣) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « ولقبل ما » .
(٤) الشعفات : رءوس الجبال ؛ الواحدة : شعفة (بالتحريك) .
(٥) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصل : « ترقل » .
(٦) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « الصقيل » .

وَإِذَا دَجَا لَيْلُ الْقَتَامِ رَأَيْتَهُ ... وَكَأَنَّهُ فِيهِ ذُبَالٌ مُشْعَلُ

فاعْجَبْ لَهَا مِنْ جَذْوَةٍ لا تَنْطَفِى ... فى أَبْحُرٍ زَخَرَتْ وَهُنَّ الأَنْمُلُ

هِىَ سُنَّةٌ أَحْيَيْتَهَا وَفَرِيضَةٌ ... أَدَّيْتَهَا قُرُبَاتُهَا تُتَقَبَّلُ

فَإِذَا الْمُلُوكُ تَفَاخَرَتْ بِجِهادِهَا[1] ... فَلأَنْتَ أَحْفَى بِالْجِهَادِ وَأَحْفَلُ

يَابْنَ الَّذِينَ جَمَالُهُمْ وَنَوَالُهُمْ ... شَمْسُ الضُّحَى وَالْعَارِضُ الْمُتَهَلِّلُ

يابْنَ الأمامِ ابْنِ الإمامِ ابنِ الإما ... مِ ابْنِ الإمامِ وَقدرهَا[2] لا يُجْهَلُ

آبَاؤُكَ الأَنْصَارُ تِلْكَ شِعَارُهُم ... فَلِحُبِّهِمْ آوَى النَّبِىُّ الْمُرْسَلُ

فَهُمُ الأُلَى نَصَرُوا الهُدَى بِعَزَائِمٍ ... مَصْقُولَةٍ وَبَصَائِرٍ لاَ تُخْذَلُ

[٢٠٧]

مَاذَا يُحَبِّرُ شَاعِرٌ فى مَدْحِهِمْ ... وَبِفَضْلِهِمْ أَثْنَى الْكِتَابُ الْمُنْزَلُ

مَوْلاَىَ لا أُحْصِى مَآثِرَكَ الَّتِى ... بِحَدِيثِهَا تَمْضِى[3] الْمَطِىُّ الذُّلَّلُ

وَإِذَا الحَقَائِقُ لَيْسَ يُدْرَكُ كُنْهُهَا ... سِيَّانِ فِيهَا مُكْثِرٌ وَمُقَلِّلُ

فَإِلَيْكَ مِنْ شَوَّالَ غُرَّةَ وَجْهِهِ ... أَهْدَا لَهَا يَوْمٌ أَغَرُّ مُحَجَّلُ

عَذْرَاء راقَ العيدَ رَوْنَقُ حُسْنِهَا ... فَغدا بنَظْمٍ[4] حُلِيِّهَا يَتَجَمَّلُ

رَضَعَتْ لِبَانَ العِلْمِ فى حِجْرِ النُّهَى ... فَوَفَتْ لهَا مِنهُ ضُرُوعٌ حُفَّلُ

سَلَكَ البَيَانُ لهَا سَبِيلَ إِجَادَةٍ ... لَوْلاَ صِفَاتُكَ كَانَ عَنْهَا يَعْدِلُ

جاءَت تُهَنِّى العيدَ أَيْمَنَ قَادِمٍ[5] ... وافى بشهرِ صِيامِهِ يَتَوَسَّلُ

وَطَوَى الشُّهُورَ مَرَاحِلاً مَعْدُودَةً ... كَيْمَا يُرَى بِفِنَاءِ جُودِكَ يَنْزِلُ

---

(١) فى نفح الطيب : « بجدودها » .

(٢) كذا فى نفح الطيب . والذى فى الأصلين : « ومثلها » .

(٣) فى م ونفح الطيب : « تنضى » .

(٤) كذا فى م ونفح الطيب . وفى ط : « بحسن » .

(٥) فى الأصلين : « قائم » . وما أثبتناه عن نفح الطيب .

وَأَنَّى وَقَدْ شَفَّ النُّحولُ هِلالَهُ ... وَلِشَوْقِهِ لِلِقَاءِ وَجْهِكَ يَنْحَل
عَقَدَتْ بِمَرْقَبِهِ العُيُونُ مَسَرَّةً ... فَمُكَبِّرٌ لِطُلُوعِـــهِ وَمُهَلِّل
فَاسْلَمْ لِأَلْفٍ مِثْلِهِ فى غِبْطَةٍ ... ظِلُّ المُنَى مِنْ فَوْقِها يَتَهَدَّل
فإذَا بَقِيتَ لنا فَكُلُّ سَعادَةٍ ... فى الدِّينِ وَالدُّنْيَا بِهَا تَتَكَفَّل

من أناشيده فى المواسم العقيقية

ثم قال بعد إيراد جملة قصائد :

ومن جياد أناشيده المتميزة بالسبقية ، وبارقات تهانيه فى المواسم العقيقية ، قوله يهنئه ، رضوان الله تعالى عليه ، بطلوع مولانا الوالد قدّسه الله تعالى :

طَلَعَ الهِـــلالُ وَأُفْقُهُ مُتَهَلِّلُ ... فَمُكَبِّرٌ لِطُلُوعِـــهِ وَمُهَلِّلُ
أَوْفَى عَلَى وَجْهِ الصَّبَاحِ بِغُرَّةٍ ... فَغَدَا الصَّبَاحُ بِنُورِهَا يَتَجَمَّل
شَمْسُ الخِلافَةِ قَدْ أَمَدَّتْ نُورَهُ ... وَبِسَعْدِها يَرْجُو التَّمَامَ وَيَكْمُل
لله مِنْهُ هِـــلَالُ سَعْدٍ طَالِعٌ ... لِضِيائِهِ تَعْشُو البُدُورُ الكُمَّل
وأَلَحْتَ يَاشَمْسَ الهِدَايَةِ كَوْكَبًا ... يُعْشِى سناَهُ كلُّ مَنْ يَتَأَمَّل
والتَّاجُ تاجُ البَدْرِ فى أُفُقِ العُلَا[1] ... ما زَالَ بِالزُّهْرِ النُّجُومِ يُكَلَّل
ولَئِنْ حَوَى كلَّ الجَمالِ فإنَّهُ ... بِالشُّهْبِ أبْهَى ما يكُونُ وأجْمَل
أَطْلَعْتَ يا بَدْرَ السَّمَاحِ هِـلَالَهُ ... والمُلْكُ أُفْقٌ والخِلافَةُ مَنْزِل
يَبْدُو بِهَالَاتِ السُّرُوجِ وإنَّهُ ... مِنْ نُورِ وجْهِكَ فى المَلَا يَسْتَكمِل
قلَّدْتَ عِطْفَ المُلْكِ مِنْهُ صَارِمًا ... بِغَنَائِهِ ومَضَـــائِهِ يُتَمَثَّل [٢٠٨]
حَلَّيْتَهُ بِحُلَى الكَمالِ وجَوْهَرِ الـــخُلُقِ النَّفِيسِ وكلُّ خَلْقٍ يَجْمُل
يَغْزُو أَمَامَكَ والسُّعُودُ أَمَامَهُ ... ومَلَائِكُ السَّبْعِ العُلَا تَتَنَزَّل

(١) فى الأصلين : « السما » ، وما أثبتناه عن نفح الطيب .

مَنْ مُبْلِغُ الأَنْصَارِ مِنهُ بِشَارَةً ... غُرُّ البَشَائِرِ بَعْدَهَا تَسْتَرْسِلُ
أَحْيَا جِهادَهُمُ وجَدَّد فَخْرَهمْ ... بَعْدَ المِئِينَ فَلْكُمْ يَتَأَثَّل
فيهِ إلى الأَجْرِ الجزِيلِ تَوَصَّلُوا ... وبهم إلى رَبِّ السَّما يُتَوَسَّل
مَنْ مُبلِغُ الأَذْوَاء مِنْ يَمَنٍ وَهُم ... قَدْ تُوِّجوا وتَمَلَّكوا وتَقَيَّلوا
أنَّ الخِلافَةَ فى بَنِيهِمْ أَطْلَعَتْ ... قمراً[1] بِهِ سَعْدُ الخَلِيقَةِ يَكْمُل
منْ مُبْلِغٌ قحطانَ آسَادَ الشَّرَى ... مَا غابُها إلّا الوشيجُ[2] الذُّبَّل
أنّ الخليفةَ وهْوَ شِبْلُ لُيُوثِهِمْ ... قَدْ حَاطَ مِنْهُ الدِّينَ لَيْثٌ مُشْبِل
يَهْنِى بَنِى الأنْصَارِ أَنَّ مَلِيكَهُمْ[3] ... قَدْ بَلَّغَتْهُ سُعُودُهُ مَا يَأْمُل
يَهْنِى البُنُودَ فإنَّها سَتُظِلُّهُ ... وجَناحُ جِبْرِيلَ الأمينِ يُظَلِّل
يَهْنِى الجِيادَ الصَّافِنَاتِ فإنَّها ... بِفُتُوحِهِ تَحْتَ الفَوَارِسِ تَهْدِل
يَهْنِى المَذَاكِىَ والعَوَالِىَ والظُّبَى ... فَبِهَا إلى نَيْلِ المُنَى يُتَوَصَّل
يَهْنِى المَعالِىَ والمَفاخِرَ أَنَّه ... فى مُرْتَقَى أَوْجِ العُلا يَتَوَقَّل
سَبَقَتْ مُقَدِّمَة الفتوح قدومَهُ ... وأتاكَ وهو الوادع المُتَمَهِّل[4]
وبَدتْ نُجومُ السعدِ قبلَ طُلُوعِهِ ... تجلو المَطالعَ قبلَهُ لاَ تَأْفُل[5]
ورَوَتْ أحاديثُ الفتوحِ غرائبا ... والنصرُ عالٍ والبشائرُ تَنْقُل
أَلقتْ إليكَ به السُّعودُ زِمامها ... فالسعدُ يُمضِى ما تقولُ ويفعل
فالفتحُ بين مُعجَّلٍ ومُؤَجَّلٍ ... يُنسيكَ ماضيَه الذى يُستقبل

---

(١) فى الأصلين : « فخراً » . وما أثبتناه عن نفح الطيب .
(٢) فى ط : « الشجيج » . والتصويب عن نفح الطيب .
(٣) فى م ونفح الطيب : « إمامهم » .
(٤) فى الأصلين : « المتعمل » . وما أثبتناه عن نفح الطيب .
(٥) كذا فى ط . والذى فى م ونفح الطيب : « وتؤثل » .

أوَلَيْس فى شأن المسير دلالة ... أن القاصدَ من طِلابك تَكمُلُ

ناداهُمُ داعى الضَّلال فأقبلوا ... ودعاهُمُ داعِى المَنون فجُدِّلوا

عَصَوُا الرسولَ إبايةً وتحكمتْ ... فيهم سيوفُك بعـدها فاستمثلوا

كانوا جبالا قـد عَلَتْ هَضَباتها ... نَسَفَتْهُمُ ريح الجِلاد فزُلزلوا

كانوا بحارا من حـديدٍ زاخرٍ ... أذكتهمُ نارُ الوَغى فتَسَيَّلوا

رَكِبَتْ أَرْجُلَها الأداهمَ كلَّما ... يتحركون إلى قيام تَصْهَل

كان الحديدُ لباسهم وشعارهم ... واليوم لم تلبسه إلا الأرجـل

اللهُ أعطاكَ التى لا فوقَها ... فَتْحًا بهِ دينُ الهُدَى يَتأَثَّل [٣٠٩]

جَـدَّدت للأنصار حَلْى جهادهمْ ... فالدين والدنيـا به تَتَجَمَّل

مَنْ يُتحِفُ البيْتَ العتيقَ وزَمزما ... والوفد وفْد الله فيـه يَنْزِل

مُتَسابقين إلى مَثابةِ رَحْمَةٍ ... من كل ما حَـدَبٍ إليه تَنْسِل

هِيمًا كأفواج القَطَا قـد ساقها ... ظمأ شـديد والمَطاف المَنْهَل

مِنْ كُل مرفوع الأكفّ ضراعةً ... والقلب يخفِقُ والمدامعُ تَهْمُل

حتى إذا رَوَتِ الحديث مُسَلْسَلا ... بيض الصوارم والرماحُ الذُّبَّل

عَنْ فَتْحِكَ الأسْنَى عن الجيش الذى ... بثباته أهل الوَغى تَتَمَثَّل

أهْدَتْهُمُ السَّراء نُصرة دِينهمْ ... واستبشروا بحـديثها وتهلَّلوا

وتناقلوا عنك الحديث مَسَرَّةً ... بسَماعه واهتز ذاكَ المَحْفِل

ودَعَوْا بنصركَ وهو أعْظمُ مَفخراً ... إن الحجيج بنصر ملكك يَحْفِل

فاهنأْ بملكك واعتمدْ شكرا به ... لُطفَ الإله وصُنْعه تَتَخَوَّل

شُرِّفْتَ منه باسم والدك الرِّضا ... يحيا به منـه الكريم المُفضِل

(١) فى نفح الطيب : «فتبدلوا» .

أبْديتَ مِنْ حسن الصنيع عجائبا ... تُرْوَى على مَرِّ الزمان وتُنْقَلُ
خَفَقَتْ به أعْلامُكَ الحمرُ التى ... بخفوقها النصر العزيزُ موَكَّل
هَدَرَت طبول العز تحت ظلالها ... عنوان فتح إثرَها يُسْتَعْجَل
ودَعَوْتَ أشراف البلاد وكلُّهُمْ ... يُثْنِي الجميلَ وصُنْعُ جودك أجمل
ورَدُوا ورود الهِيم أجهدها الظَّما ... فصفا لهم من ورد كَفِّكَ مَنْهَل
وأثرتَ فيــه للطراد فَوارسًا ... مثل الشموس وجُوهُهُمْ تَتَهَلَّل
من كلّ وضّاح الجبين كأنه ... نجم وجنح النقع لَيْل مُسْبَل
يَرِد الطِّرادَ على أغرّ مُحَجَّلٍ ... فى سَرْجِه بطلٌ أغرُّ مُحَجَّل
قَدْ عُوِّدُوا قَنْصَ الكماة كأنَّما ... عِقْبانها يَنْقَضُّ منها أجْدَل
يَسْتَتْبعون هوادجا مَوْشِــية ... من كل بدع فوق ما يُتَخَيَّل
قد صُوِّرَتْ منها غرائبُ جَمَّةٌ ... تُنْسِى عُقول النــاظرين وتُذْهِل
وتضمنتْ جَزْلَ الوَقُود حُمولُها ... والنصر فى التحقيق ماهى تحمل
والعادياتُ إذا تلَتْ فُرسانُها ... آىَ القتال صُفُوفُها تَتَرَتَّل
[لله خيلُك إنهــا لسوابح ... بحرَ القتام وموجه مَتَهيِّل]
من كل برق بالثُّرَيَّا مُلْجَم ... بالبدر يُسْرَج والأهلة يُنْعل
أو فى بهــاد كالظَّلِيم وخلفه ... كَفَل كما ماج[1] الكثيب الأهْيَل

[٣١٠]

هن البوارق غير أن جيادها ... عن سَبْق خيلك يا مؤيد تَنْكُل[2]
مِنْ أشهبٍ كالصبح يعلو سَرْجَهُ ... صُبْح به نجم الضلالة يأفُل
أو أدْهَم كالليل قُلِّد شُهْبَهُ ... خاضَ الصَّباح فأثبَتَتْهُ الأرجل

(١) فى نفح الطيب : «لاح» .
(٢) كذا فى ط ونفح الطيب ؛ وفى م : «تشكل» .

أو أشقر سال النُّضارُ بعطفه وكساه صِبغة بهجة لا تَنصُلُ
أو أحمر كالجمر أضرمَ بأسُهُ بالركض فى يوم الحفيظة يُشعَل
كالخمر أُترِعَ كأسها لندامها وبها حَبَابة غُرَّة تتَسلَّل
أوْ أصفر لبس العَشِىّ مُلاءة وبذيله لليل ذيل مُسْبَل
أجلتَ فى هـذا الصنيع عواندا الجود فيهـا مُجمَل ومفصَّل
أنشأت فيها من نَداك غمائما بالفضل تَنشأ والسَّماحة تَهمُل
فَجَّرت من كفيك عشرة أبحر تُزْجِى سحاب الجود وهى الأنمل
من قاس كفك بالغمام فإنه جهل القياس ومثلها لا يجهل
تسخو الغمام ووجهها متجهم والوجه منـه مع الندى يتهلّل
والسحب تسمح بالميـاه وجوده ذهب به أهل الغنى تتموّل
من قاس بالشمس المنيرة وجهَه الْعَيْبَةُ فى حكمه لا يَعْدل
من أين للشمس المنيرة مَنطِق بيبانه دُرّ الكلام يُفَصَّل
مِنْ أينْ للشمس المنيرة راحـة تسخو إذا بخل الزمان المُمْحِل
مَنْ قاس بالبـــدر المنير كمالَهُ فالبدرُ ينقص والخليفة يكمُل
مِنْ أين للبـدر المنير شمائل تسرى بريّاها الصَّبا والشَّمْأل
مِن أينَ للبـــدر المنير مَناقب بجهادها تُنضَى المطىّ الذُّلَّل
يا من إذا نفحت نواسم حمـده فالمسك يعَبق طيبه والمَنْدل
يا مَن إذا لُمِحَتْ محاسن وجهه تعشو العيون ويُبهَر المتأمل
يا مَنْ إذا تليت مفاخر قومه آى الـكتاب بذكرها تتنزّل
كَفَلَ الخلافة منكَ يا ملكَ العُلا والله جل جلاله بك أكفلُ
مأمونُها وأمينها ورشـيدها منصورها مَهْدِيُّها المتوكل

حَسْبَ الخلافة أن تكون وليَّها	ومجيرها من كل من يتخيل
[٣١١] حَسْبُ الزمان بأن تكون إمامَه	فله بذلك عزة لا تهمَلُ
حَسْبُ الملوك بأن تكون عميدها	ترجو الندى من راحتيك وتأمل
حَسْبُ المعالى أن تكون عِمَادها[1]	فعليك أطنابُ المفاخر تُسْدَل
يا حُجة الله التى برهانُها	عن المحق به وذل المُبْطلُ
أنت الإمام ابن الإمام ابن الإما	م ابن الإمام وفخرها لا يُعْدَل
عَلَّمْتَ حَتَّى لمْ تَدَعْ مِنْ جَاهِلٍ	أَعْطَيْتَ حَتَّى لمْ تَدَعْ مَنْ يَسْأَل
وعِنَايَةُ اللهِ اشْتَمَلْتَ رِدَاءَهَا	وَعَلِقْتَ[2] منها عُرْوةً لا تُفصَل

اتصل بهذا البيت جملة أبيات من القصيدة المترجمة[3] فى العيديات التى أولها :

بشرى كما وضح الصباح وأجمل

وحذفناها من هذه اقتصاراً للتكرار ، وزاد فى هذه :

أخذتْ قُلوبَ الكَافِرِينَ مَهَابَةٌ	فعُقُولهمْ مِنْ خَوْفِها لا تعْقِلُ
حَسِبُوا البُرُوقَ صَوَارِماً مسلولة[4]	أَرْوَاحُهُمْ مِنْ بَأْسِهَا تَتَسَلَّل[5]
وترَى النُّجُومَ مَنَاصِلاً مَرْهُوبَةً	فيفر منها الخائفُ المتنَصِّل
يابْنَ الأُلى إجْمَالهمْ وجَمالُهمْ	شَمْسُ الضُّحَى وَالعَارِضُ المتهلِّل
مَوْلاَيَ لاَ أُحْصِى مَآثِرَكَ الَّتِى	بجهادها يَتَوَسَّـلُ المُتَوَسِّل

---

(١) كذا فى م وفى ط : «عميدها» . وفى نفح الطيب : «إمامها» .

(٢) فى الأصل هنا : « وملكت » .

(٣) كذا فى م . وفى ط : «المتوجهة بالعيديات » .

(٤) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى م : «مصقولة» .

(٥) فى م : «تتسيل» .

أَصْبَحْتَ فى ظِلٍّ امْتِدَاحِكَ سَاجِعًا ظِلُّ[1] المُنَى مِنْ فَوْقِهِ يَتَهَدَّلُ
طَوَّقْتَهُ طَوْقَ الحَمَائِمِ أَنْعُمًا فَغَدَا بِشُكْرِكَ فى المَحَافِلِ يَهْدِلُ
فَإِلَيْكَ مِنْ صَوْنِ[2] المُقُولِ عَقِيلَةً أَهْدَى كَمَا صَنَعَ أَغَرُّ مُحَجَّلُ
عَذْرَاءَ رَاقَ الصُّنْعَ رَوْنَقُ حسنها فَغَدَا بِنَظْمِ حُلِيِّهَا يَتَكَلَّلُ
خَيَّرْتَهَا بَيْنَ المُنَى فَوَجَدْتُهَا أَقْصَى مُنَاهَا أنها تُتَقَبَّلُ
لاَ زِلْتَ شَمْسًا فى سَماءِ خِلاَفَةٍ وَهِلاَلُكَ الأَسْمَى يَتِمُّ وَيَكْمُلُ

وله فى بعض نزه مولاه فى شنيل

ثم قال بعد ذكر جملة من نظمه : ومن رقيق منازعه فى بعض نزه مولانا رضوان الله عليه بالقصر السلطانى من شَنِّيل قوله :

نَفْسِى الفِدَاءُ لِشَادِنٍ مَهْمَا خَطَرْ فَالْقَلْبُ مِنْ سَهْمِ الجُفُونِ عَلَى خَطَرْ
فَضَحَ الغَزَالَةَ وَالأَقَاحَةَ وَالقَنَا مَهْمَا تَثَنَّى أَوْ تَبَسَّمَ أَوْ نَظَرْ
عَجَبًا لِلَيْلِ ذَوَائِبُ مِنْ شَعْرِهِ وَالْوَجْهُ مِنْهُ عَنْ صَبَاحٍ قَدْ سَفَرْ
عَجَبًا لِعِقْدِ الثَّغْرِ مِنْهُ مُنَظَّمًا وَالعِقْدُ مِنْ دَمْعِى عَلَيْهِ قَدِ انْتَثَرْ
مَا رُمْتُ أَنْ أَجْنِى الأَقَاحَ بِثَغْرِهِ إِلَّا وَقَدْ سَلَّ السيُوفَ مِنَ الحَوَرْ

[٣١٢]

لم أَنْسَهُ لَيْلَ ارْتِقَابِ هِلَالِهِ وَالقَلْبُ مِنْ شَكٍّ الظُّهُورِ عَلَى غَرَرْ
بِتْنَا نُرَاقِبُـــهُ بِأَوَّلِ لَيْـلَةٍ فَإِذَا بِهِ قَدْ لاَحَ فى نِصْفِ الشَّهَرْ
طَالَعْتُهُ فى رَوْضَــةٍ كَخِلَالِهِ وَالطِّيبُ مِنْ هَذِى وَتِلْكَ قَدِ اشْتَهَرْ
وَكِلاَهُمَا يُبْدِى مَحَاسِنَ جَمَّةً مِلْءَ المَشَامِ[3] وَالمَسَامِعِ والبصر
وَالـكَأْسُ تَطْلُعُ شَمْسُهَا فى خَدِّهِ فَتَكَادُ تُعْشِى بِالأَشِعَّةِ مَنْ نَظَرْ

---

(١) فى نفح الطيب : «طل» .
(٢) فى نفح الطيب : «صوغ» .
(٣) كذا فى م وط . وفى نفح الطيب المخطوط والمطبوع : «التنسم» .

نُورِيَّةٌ كَجَبِينِهِ وَكِلاَهُمَا[1] ... يَجْلُو ظَلاَمَ اللَّيْلِ بِالْوَجْهِ الأغَرّ

هِيَ شِيمَةٌ[2] لِلشَّيْخِ فِيها نِسْبَةٌ ... ما إن يَزَالاَ يَرْعَشَان مِنَ الـكِبَر

أفْرَغت فى جسم الزُّجاجَةِ رُوحَهَا ... فرَأَيْت رُوحَ الأُنْسِ مِنها قَدْ بَهَر

لاَ تَسْقِ غيْرَ الرَّوْضِ فَضْلَةَ كأْسِها ... فَالغُصْنُ فى ذَيْلِ الأَزَاهِرِ قَدْ عثر[3]

مَا هَبَّ خَفَّاقُ النَّسِيمِ مَعَ السَحَر ... إلّا وَقَدْ شَاقَ النُّفُوسَ وَقَدْ سَحَر

نَاجِي القُلُوبَ الخَافِقَاتِ كَمِثْلِهِ[4] ... وَوَشَى بمَا تخفِي الـكِمَامُ مِنَ الزَّهَر

وَرَوَى عَنِ[5] الضَحَّاكِ مِنْ زَهْرِ الرُّبا ... مَا أَسْنَدَ الزهْرِىّ عَنْهُ عَنْ مَطَر

وَتَحَمَّلَتْ عَنْهُ صَحِيحَ حَدِيثِهِ ... رُسُلُ النَّسِيمِ وَصَدَّقَ الخُبْرُ الخَبَر

يا قَصْرَ شَنِّيلٍ وَرَبْعُكَ آهِلٌ ... والرَّوْضُ مِنْكَ عَلَى الجَمالِ قَدِ اقْتَصَر

لله بَحْرُكَ وَالصَّبَا قَدْ سَرَّدَتْ ... مِنْهُ دُرُوعاً تَحْتَ أَعْلاَمِ الشَّجَر

وَالآسُ حَفَّ عِذَارُهُ مِنْ حَوْلِهِ ... عَنْ كُلِّ مَنْ يَهْوَى العِذَارَ قَدِ اعْتَذَر

قَبِّلْ بِثَغْرِ الزَّهْرِ كَفَّ خَلِيفَةٍ ... يُغْنِيكَ صَوْبُ الجُودِ مِنْهُ عَنِ المَطَر

وافْرِشْ خُدُودَ الوَرْدِ تَحْتَ نِعَالِهِ ... وَاجْعَلْ بِها لَوْنَ المضاعف[6] عَنْ خَفَر

وانْظِمْ غِنَاءَ الطَيْرِ فِيهِ مَدَائِحاً ... وانثرْ مِنَ الزَّهْرِ الدرَاهِمَ والدُّرَرْ

المُنْتَقَى مِنْ جَوْهَرِ الشَّرَفِ الذى ... فى مدْحِهِ قد أُنزِلَتْ آىُ السُّوَرْ

والمُجْتَبَى مِنْ عُنْصُرِ النُّورِ الذى ... فى مطْلَعِ الهُدَى المقَدَّسِ قد ظَهَرْ

---

(١) فى نفح الطيب . « وهلالها » .

(٢) كذا فى ط . وفى نفح الطيب : « نسخة » . ولعل كلا اللفظين محرف عن « شيخة » .

(٣) كذا فى نفح الطيب المطبوع والمخطوط . وفى ط و م : « زهر » .

(٤) فى م : كشكله . وفى نفح الطيب : « لمثله » .

(٥) فى نفح الطيب : « عن » .

(٦) كذا فى نفح الطيب . وفى م : « المخفف » . ومكان هذه الكلمة بياض فى ط .

ذُو سَطْوَةٍ مَهْمَا كَفَى ذُو رَحْمَةٍ مَهْمَا عَفَا ذُو عِفَّـةٍ مَهْمَا قَدَرْ
كَمْ سَائِلٍ لِلدَّهْرِ أَقْسَمَ قَائِلًا وَاللهِ مَا أَيَّامُـــهُ إِلَّا غُرَرْ
مَوْلَاىَ سَعْدُكَ كالمهَنَّدِ فى الوَغَى لَمْ يُبْقِ مِنْ رَسْمِ الضَّلَالِ ولم يَذَرْ
مَوْلَاىَ وَجْهُكَ والصَّبَاحُ تَشَابَهَا وَكِلَاهُمَا فى الخافِقَيْنِ قد اشْتَهَرْ
إِنَّ الملوكَ كَوَاكِبٌ أَخْفَيْتَهَا وطَلَعْتَ وَجْهُكَ[1] فى مظاهرِها[2] قَمَرْ
فى كلِّ يَوْمٍ مِنْ زَمَانِكَ مَوْسِمٌ فى طَيِّـهِ لِلخَلْقِ أَعْيَادٌ كُبَرْ
فاسْتَقْبِلِ الأَيَّامَ يَنْدَى رَوْضُهَا ويَرِف والنَّصْرُ العَزِيزُ لهُ ثَمَرْ
قد ذَهَّبَتْ مِنْها العَشَايَا ضِعْفَ مَا قد فَضَّضَتْ منها المحاسنُ فى السَّحَرْ
يابْنَ الَّذِينَ إذا تُعَدُّ خِلَالُهُمْ نَفِدَ الحِسابُ وأَعجَزَتْ عنها القَدَرْ
إِنْ أَوْرَدُوا هِيمَ السُّيُوفِ غَدَائِرًا مَصْقُولَةً فلطَالَمَا حَمِدوا الصَّدَرْ
سائِلْ ببَدْرٍ عنهُمُ بَدْرَ الهُدَى فيهِمْ[3] عَلَى حِزْبِ الضَّلَالِ قد انتَصَرْ
واسْأَلْ مَوَاقِفَهُمْ بكُلِّ مَشَاهِدٍ[4] وَاقْرَ المَغَازِىَ فى الصَّحِيحِ وفى السِّيَرْ
تَجِدَ الثَّنَاءَ بِبَأْسِهِمْ وبجُودِهِمْ فى مُصْحَفِ الوَحْيِ المُنَزَّلِ مُسْتَطَرْ
فبِمِثْلِ هَذِيكَ فلْتُنِرْ شمسُ الضُّحَى وبِمِثْلِ قَوْمِكَ فَلْيُفَاخِرْ مَنْ فَخَرْ
مَاذَا أَقُولُ وَكلُّ وَصْفٍ مُعْجِزٌ والقَوْلُ فيكَ مَعَ الإِطَالَةِ مُخْتَصَرْ
تِلْكَ المَنَاقِبُ كالثَّوَاقِبِ فى العُلَا مَنْ رَامَهَا بالحَصْرِ أَدْرَكَهُ الحَصَرْ
إِنْ غابَ عَبْـدُكَ عَنْ حِمَاكَ فإِنَّهُ بالقَلْبِ فى تِلْكَ المَشَاهِدِ قد حَضَرْ

(١) فى نفح الطيب : « وحدك » .
(٢) فى ط : « فى جوانبها » .
(٣) فى م : « كل » مكان قوله : « فيهم » .
(٤) فى نفح الطيب : « مشهر » .

فاذْكُرْهُ إنَّ الذِّكْرَ مِنْكَ سَعَادَةٌ وبِهَا عَلَى كلِّ الأنَامِ قد افْتَخَرْ
ورِضَاكَ عنْهُ غايةٌ مَا بَعْدَهَا إلّا رِضا الله الذى ابْتَدَعَ البَشَرْ
فاشكُرْ صَنِيعَ اللهِ فيكَ فإنّهُ سُبْحانَه ضَمِنَ المَزِيدَ لِمَنْ شَكَرْ
وعلَيكَ مِنْ رُوحِ الإلَهِ تَحِيَّةٌ تَهْفُو إليكَ مَعَ الأصَائِلِ والبُكَرْ

ثم قال : ومن أغراضه الوقتية استرسالا مع الطبع البديهى ، فى الشكر على ضروب من التُّحَف التى يَقْتَضِيها[1] التحفِّى السلطانى بأولياء خدمته ، نُبَذٌ متعددة فيما يظهر : فمنها قوله :

وله فى الشكر على ضروب من التحف

يا خَيْرَ مَنْ مَلَكَ المُلوكَ بجُودِهِ وبفَضْلِهِ قدْ أشْبَهَ الأمْلَاكا
واللهِ مَا عَرَفَ الزَّمَانُ وَأهْلُهُ أمْناً وَيُمْناً دائمًا لَوْلَاكا
وافَيْتُ[2] أهْلِي بالرِّيَاضِ عَشِيَّةً فى رَوْضِ جاهِكَ تَحْتَ ظِلِّ رِضاكا[3]
فَوَجَدْتُهُ قدْ طَلَّهُ صَوْبُ النَّدَى بسَحائِبٍ تَنْهَلُّ مِنْ يُمْناكا
وسَفَائِنٍ مَشْحُونَةٍ أَلْقَى بِهَا بَحْرُ السَّماحِ يجيشُ مِنْ نُعْماكا
رُطَبٌ مِنَ الطَّلْعِ النَّضِيدِ كأنَّها قَدْ نُظِّمَتْ مِنْ حُسْنِها أسْلَاكا
مِنْ كلِّ ما كانَ النَّبِيُّ يُحِبُّها وَأَحَبَّها الأنْصَارُ مِنْ أوْلَاكا
وَبَدَائِعِ التُّحَفِ الَّتِى قَدْ أُطْلِعَتْ مِثْلَ البُدُورِ أنارَتِ الأحْلاكا[4]
نُطَفٌ[5] مِنَ النُّورِ المُبِينِ تَجَسَّمَتْ حَتَّى حَسِبْنا أنَّهُنَّ هُدَاكا

[٣١٤]

(١) فى ط : « يتتقيها » . وفى م : « بقتنيها » . والتصويب عن نفح الطيب .
(٢) فى ط : « ولقيت » . وما أثبتناه عن م ونفح الطيب .
(٣) فى نفح الطيب « ذراكا » .
(٤) كذا فى م ونفح الطيب . وفى ط : «فنارت الأفلاكا» .
(٥) كذا فى نفح الطيب المطبوع والمخطوط . وفى الأصلين : « لطف » .

يَحْلُو عَلَى الأفْوَاهِ طِيبُ مَذَاقِها لَوْلَا التَّجَسُّدُ خِلْتُهُنَّ سَنَاكَا[1]
طَافَتْ بِها النَّشَأُ الصِّغَارُ كأنَّها سِرْبُ القَطَا لَمَّا وَرَدْنَ نَدَاكَا
نَجْوَاهُمُ مَهْمَا سَمِعْتَ كلامَهُمْ وَنِدَاهُمُ : مَوْلَاىَ أَوْ مَوْلَاكَا
أَبْلَغْتَ فى الأبْنَاءِ عَبْدَكَ سُؤْلَهُ لَا زِلْتَ تَبْلُغُ فى بَنِيكَ مُنَاكَا
يَتَدَارَسُونَ مِنَ الدُّعَاءِ صَحَائِفاً كَيْمَا يُطِيلُ اللهُ فى بُقْيَاكَا
فَبَقِيتَ شَمْساً فى سَمَاءِ خِلَافَةٍ وَهُمُ البُدُورُ أَمدَّهُنَّ سَنَاكَا

فى هدية من حب الملوك

ثم قال : ومنها وقد أهداه — رحمه الله — أطباقا من حب الملوك[2] :

كَتَبَ الإلٰهُ عَلَى العِبَادِ مَحَبَّةً لَكَ كَانَ فَرْضُ كِتابِها مَوْقُوتَا
وَأَنَا الَّذِى شَرَّفْتَهُ مِنْ بَيْنِهِمْ حَتَّى جَعَلْتَ لهُ المَحَبَّةَ قُوتَا
ما زِلْتَ تُتْحِفُهُ بِكُلِّ ذَخِيرَةٍ حَتَّى لَقَدْ أَتْحَفْتَهُ اليَاقُوتَا
وَإِلَى المُلُوكِ قَدْ اعْتَزَى مِنْ عِزِّهِ فغَدَا لهُ يَاقُوتُها مَمْقُوتَا

فى هدية أخرى منه

ومنها فى مثل ذلك :

يَا خَيْرَ مَنْ مَلَكَ المُلُوكْ أَهْدَيْتَنِى حَبَّ المُلُوكْ
فَكَأَنَّمَا يَاقُوتُهَا نُظِمَتْ لَنَا نَظْمَ السُّلُوكْ
إنَّ المُلُوكَ إِذَا لَجَوْا فغِيَاثُهُمْ أَنْ أَمِّلُوكْ
وَكَذَا العُفَاةُ إِذَا شَكَوْا فغِنَاهُمُ أَنْ يَسْأَلُوكْ
فَاللهُ يَقْبَلُ مَنْ دَعَا لِعُلَاكَ مِنْ أَهْلِ السُّلُوكْ

(١) فى ط ونفح الطيب : « تناكا » . وما أثبتنا عن م .
(٢) حب الملوك ، ويقال له أيضاً حب الزلم ، هو المعروف عند عامة أهل القاهرة بحب العزيز ، لأن العزيز بن المعز الفاطمى كان مولعا به .

لَا زِلْتَ تَطْلُعُ غُـــرَّةً   كالشَّمْسِ فى وَقْتِ الدُّلُوكْ

فى صيد أهـدى إليـه

ومنها وقد أهداه صيداً مما صاده بنوه رضى الله تعالى عنه :

يا خَيْرَ مَنْ وَرِثَ السَّمَاحَ عن الأُلَى   نَصَرُوا الهُدَى وتَبَوَّءوا الإِيمَانَا
فى كلِّ يَوْمٍ منْـكَ تُحْفَةُ مُنْعِمٍ   وَالَى الجَمِيـلَ وَأَجْزَلَ الإِحْسَانَا
قَدْ أَذْكَرَتْ دَارَ النَّعِيمِ عَبِيدَهُ   وَتَضَـمَّنَتْ مِنْ فضْـلِهِ رِضْوَانَا
[٣١٠] تُهْدِى مَوَالِيكَ الَّذِينَ[1] تَفَرَّعُوا   عَنْ دَوْحِ فَخْرِكَ فى العُلَا أَغْصَانَا
لِجَـلَالِكَ الأَعْلَى قَنِيصاً أَتْعَبُوا   فى صَيْـدِهِ الأَرْوَاحَ وَالأَبْدَانَا
فتَخُصُّنِى مِنْـــهُ بِأَوْفَرِ قِسْمَةٍ   فَسَحَتْ لِعَبْدِكَ فى الرِّضَا مَيدَانَا
لِلّٰهِ مِنْ مَوْلًى كَرِيمٍ بِالَّذِى   تُهْدِى المَوَالِى يُتْحِفُ العُبْـدَانَا
تَدْعُو بَنِىَّ إِلَى الغَـنِىِّ بِرَبِّهِ   يا رَبَّنَـــا أَغْنِ الذى أَغْنَانَا
وَعَلَيْـكَ مِنْ قُدْسِ الإِلٰهِ تَحِيَّةٌ   تُهْدِيكَ مِنْــهُ الرَّوحَ وَالرَّيْحَانَا

فى أصناف من الفواكه أهديت إليـه

ومنها وقد أهداه رحمه الله تعالى أصنافا من الفواكه :

يا مَنْ لهُ الوَجْهُ الجَمِيلُ إِذَا بَدَا   فَاقَتْ مَحَاسِنُهُ البُـدُورَ كَمَالَا
وَالمُنْتَقَى مِنْ جَوْهَرِ الفَخْرِ الذى   فَاقَ الخَلَائِفَ عِزَّةً وَجَــلَالَا
مَا أَبْصَرَتْ عَيْنَاىَ مِثْلَ هَدِيَّةٍ   أَبْـدَتْ لنا صُنْعَ الإِلٰهِ تَعالَى
فِيها مِنَ التُّفَّاحِ كلُّ عَجِيبَــةٍ   تُذْكِى رَيَّاهَا صَبًــا وَشَمَالَا
تُهْدِى لنا نَهْدَ الحَبِيبِ وَخَدَّهُ   وَتُرِى مِنَ الوَرْدِ الجَنِىِّ مِثالَا
وَبِها مِنَ الأُتْرُجِّ شَمْسٌ أَطْلَعَتْ   مِنْ كلِّ شَـطْرٍ لِلْعُيُونِ هِلَالَا
وَيَحُفُّهَـــا وَرَقٌ يَرُوقُ كأَنَّهُ   وَرَقُ النُّضَارِ وَقَدْ أَجَادَ نَبــالَا[2]

(١) فى ط : «تهدى موالى للبنين» .
(٢) كذا فى الأصلين ونفح الطيب ولم يظهر لنا معنى لهذه الكلمة .

لَوْنُ العَشِيَّةِ ذُهِّبَتْ صَفَحَاتُها رَقَّتْ وَرَاقَتْ بَهْجَةً وَجَمَالَا
وبها مِنَ النُّقْلِ الشَّهِيِّ مُذَكِّرٌ عَهْدًا تَوَلَّى لَيْتَهُ يَتَوَالَى
لِلّٰهِ مِنْها خُضْرَةٌ مِنْ حَضْرَةٍ تُغْنِى العُفَاةَ وَتُحْسِبُ الآمَالَا
أَذْكَرْتَنِى العَهْدَ القَدِيمَ وَمَعْهَدًا كانَتْ شُمُوسُ الرَّاحِ فِيهِ تَلَالَا
فأَرَدْتُ تَجْدِيدَ العُهُودِ وَإِنَّمَا كَتَبَ المَشِيبُ عَلَى عِذَارِىَ لَا لَا
فأَدَرْتُ مِنْ ذِكْرَاكَ كَأْسَ مُدَامَةٍ وشَرِبْتُ مِنْ حُبِّى لها جِرْيَالَا
فبَقِيتَ شَمْسًا فى سَمَاءِ خِلَافَةٍ لَا يَسْتَطِيعُ لها الزَّمَانُ زَوَالَا

ولە فى يوم عاشوراء

ثم قال : ومنها يوم عاشوراء :

يَا أَيُّها المَوْلَى الذِى بَرَكَاتُهُ رَفَعَتْ لِوَاءً لِلنَّدَى مَنْشُورَا
لَكَ رَاحةٌ تُزْجِى الغَمَامَ بِأَنْمُلٍ فَجَّرْتَ مِنْها بالنَّوَالِ بُحُورَا
وَاليَوْمَ مَوْسِمُ قُرْبَةٍ وَعِبَادَةٍ(١) وَغَدًا ظَفِرْتَ بِأَجْرِهِ عاشُورَا
رَاعَيْتَ فِيهِ سُنَّةً نَبَوِيَّةً يَرْوِى الثِّقَاتُ حَدِيثَها المَشْهُورَا
لَا زِلْتَ عامَكَ كُلَّهُ فى غِبْطَةٍ لُقِّيتَ منها نَضْرَةً وَسُرُورَا [٣١٦]

ومن بعض قطعه

ومنها فى بعض قطعه :

وَالَيْتَ ما أَوْلَيْتَ يا بَحْرَ النَّدَى ووحَقِّ وَجْهِكَ(٢) ما رَأَيْتُ كَهٰذِهِ
فَإِذَا يَهُزُّ لها اللِّسَانُ حُسَامَهُ فَصِفَاتُ فَخْرِكَ قَدْ قَضَتْ بِنَفَاذِهِ
عَلَّمْتَ فُرْسَانَ الكلامِ نِظَامَها كَتَعَلُّمِ التِّلْمِيذِ مِنْ أُسْتَاذِهِ
وَالبَحْرُ تَمْتَارُ السَّحَائِبُ ماءَهُ فَتَجُودُهُ مِنْ غَيْثِها بِرَذَاذِهِ

(١) فى م : « شهادة » وما أثبتناه عن ط ونفح الطيب .
(٢) فى نفح الطيب : « جودك » .

في باكور أهداه إليه

ومنها وقد أهداه باكورا :

يَا وَارِثَ الأَنْصَارِ وَهْيَ مَزِيَّةٌ بِفَخَارِها أَثْنَى الكِتَابُ المُنْزَلُ
أَهْدَيْتَنِى البَاكُورَ وَهْيَ بِشَارَةٌ بِبَوَاكِرِ الفَتْحِ الذِى تَسْتَقْبِل
وَوِلَادَةٌ لِهِلَالِ تِمٍّ[1] طَالِعٍ وَجْهُ الزَّمَانِ بِوَجْهِهِ يَتَهَلَّل
هُوَ أَوَّلُ الأَنْوَارِ فِى أُفُقِ الهُدَى وَتَرَى الأَهِلَّةَ بَعْدَهُ تَسْتَرْسِل
مَوْلَاىَ صِدْقُ الفَأْلِ قَدْ جَرَّبْتَهُ مِنْ لَفْظِ عَبْدِكَ وَالعَوَاقِبُ أَجْمَل

في جفنة ثريد

ثم قال : ومنها فى جَفنة ثَريد :

طَعَامُكَ مِنْ دَارِ النَّعِيمِ بَعَثْتَهُ فَشَرَّفْتَنِى مِنْ حَيْثُ أَدْرِى وَلَا أَدْرِى
بِهَضْبَةِ نُعْمَى قَدْ سَمَوْنَا لِأَوْجِهَا فَصِدْنَا بِأَعْلَاهَا الشَّهِىَّ مِنَ الطَّيْرِ
وَقَوْرَاءَ قَدْ دُرْنَا بِهَالَةِ بَدْرِهَا كَمَا دَارَتِ الزُّهْرُ النُّجُومُ عَلَى البَدْرِ
وَقَدْ حُمِلَتْ فَوْقَ الرُّءُوسِ لِأَنَّهَا هَدِيَّةُ مَوْلًى حَلَّ فِى مَفْرِقِ الفَخْرِ
فَمَا شِئْتَ مِنْ طَعْمٍ زَكِىٍّ مُهَنَّإٍ وَمَاشِئْتَ مِنْ عَرْفٍ ذَكِىٍّ وَمِنْ نَشْرِ
وَلَوْ أَنَّهَا قَدْ قُدِّمَتْ لِخَلِيفَةٍ لَأَعْظَمَهَا قَدْرًا وَبَالَغَ فِى الشُّكْرِ
وَكَمْ لَكَ مِنْ نُعْمَى عَلَىَّ عَمِيمَةٍ يَقِلُّ لِأَدْنَاهَا الجَمِيلُ مِنَ الذِّكْرِ
فَلَا زِلْتَ يَا مَوْلَى المُلُوكِ مُبَلَّغًا أَمَانِىَّ تَرْجُوهَا إِلَى سَالِفِ الدَّهْرِ

في الشكر عن كتاب

ومنها شكرا عن كتاب :

مَوْلَاىَ يَوْمُ الجُمُعَهْ سُعُودُهُ مُجْتَمِعَهْ
فَانْعَمْ صَبَاحًا وَاغْتَنِمْ أَوْقَاتَهُ المُجْتَمِعَهْ
وَابْشِرْ بِصُنْعٍ عَاجِلٍ أَعْلَامُهُ مُرْتَفِعَهْ

(١) فى م ونفح الطيب : « سر » .

[٣١٧]

وَانْتَظِرِ الفَتْحَ الَّذِى يَأْتِيكَ بِالنَّصْرِ مَعَهْ
وَبِيضُهُ وَسُمْرُهُ إِلَى العُدَاةِ مُشْرَعَه
وَاللُّطْفُ مَرْجُوٌّ فَرِدْ بِفَضْلِ رَبِّى مَشْرَعَه
فَاتَحْتَنِى شَرَّفْتَنِى بِرُقْعَةٍ مُرَفَّعَه
بَلْ رَوْضَةٍ مَمْطُورَةٍ أَزْهَارُهَا مُنَوَّعَه
حَدِيقَةٌ قَدْ جُدْتَهَا بِصَوْبِ جُودٍ مُتْرَعَه
وَرَايَةٌ مَنْشُورَةٌ وَآيَةٌ مُسْتَبْدَعَه
كَمْ حِكْمَةٍ لَطِيفَةٍ فِى طَيِّهَا مُسْتَوْدَعَه
عَقِيلَةٌ صَوَّرْتَهَا مِنَ الْجَمَالِ مُبْدَعَه
سَقَيْتَنِى بِفَضْلِهَا مِنْ فَضْلِ كَأْسٍ مُتْرَعَه
فَدُمْ وَأَمْلَاكُ الْوَرَى عَلَى عُلَاكَ مُجْمِعَه

فى الشكر على خلعة

ومنها شكرا على خلعة :

يَا بَدْرَ تَمٍّ فِى سَمَاءِ خِلَافَةٍ حَفَّتْ نُجُومُ السَّعْدِ هَالَةَ قَصْرِهِ
أَلْبَسْتَ عَبْدَكَ مِنْ ثِيَابِكَ مَلْبَسًا قَدْ قَصَّرَتْ عَنْهُ مَدَارِكُ شُكْرِهِ
وَرِضَاكَ عَنْهُ خَيْرُ مَا أَلْبَسْتَهُ فَلَقَدْ أَشَادَ بِجَاهِهِ وَبِبِرِّهِ
أَلْبَسْتَنِى، أَرْكَبْتَنِى، شَرَّفْتَنِى أَهْدَيْتَنِى مَا لَا أَقُومُ بِحَصْرِهِ
نَظَرِى لِوَجْهِكَ وَهْوَ أَجْمَلُ نَيِّرٍ يُزْرِى عَلَى شَمْسِ الزَّمَانِ وَبَدْرِهِ
أَعْلَى وَأَعْظَمُ مِنَّةً لَا سِيَّمَا وَأَنَا الْمُنَعَّمُ فِى الحُضُورِ بِبِشْرِهِ
لَا زِلْتَ مَوْلَى لِلْمُلُوكِ مُؤَمَّلًا وَعُلَاكَ(1) لِلْإِسْلَامِ مَفْخَرُ دَهْرِهِ

(1) فى م ونفح الطيب : « وحلاك » .

ثم قال : ومنها وقد خلع — رضوان الله عليه — على رسول من أرساله :

أَبَحْرُ سَمَاحٍ مَدَّ عَشْرَةَ أَبْحُرٍ ... تُفِيضُ غَمَامَ الجُودِ وَهْيَ الْأَنَامِلِ
بِكَفِّكَ غَيْثٌ لِلبِلَادِ وَأَهْلِهَا ... يُرَوِّضُ مَحْلَ الْأَرْضِ وَالْعَامُ مَاحِلِ
لَكَ الخَيْرُ إِنْ أَصْبَحْتَ بَحْرَ سَمَاحَةٍ ... يَعُمُّ نَدَاهُ فَالمَوَاهِبُ سَاحِلِ
خَلَعْتَ عَلَى هٰذَا الرَّسُولِ مَلَابِسًا ... بِهَا تَتَسَنَّى فِي إِعْلَاكَ[1] الْعَامِلِ
وَبَلَّغْتَهُ آمَالَهُ كَيْفَ شَاءَهَا ... فَبُلِّغْتَ يَا مَوْلَايَ مَا أَنْتَ آمِلِ

ثم قال بعد إيراد عدة مقطوعات وقصائد من نمط ما سبق :

ولهفى السؤال عن حاله وقد مرض بعض أبنائه

[٣١٨] وأنشده وقد مرض بعض أبنائه — رحمة الله عليه وعليهم — سائلا عن حاله :

أُسَائِلُ بَدْرَ التِّمِّ كَيْفَ هِلَالُهُ ... وَأَدْعُو لَهُ الرَّحْمٰنَ جَلَّ جَلَالُهُ
وَأَسْأَلُهُ تَعْجِيلَ رَاحَتِهِ الَّتِي ... وَسِيلَتُنَا فِيهَا النَّبِيُّ وَآلُهُ
سَتَبْلُغُ فِيهِ مَا نُؤَمِّلُ مِنْ مُنًى ... وَيُرْضِيكَ يَا بَدْرَ الكَمَالِ كَمَالُهُ

فى مثل ذلك

وفى مثله يقول رحمه الله :

أَقُولُ لِبَدْرِ التِّمِّ كَيْفَ هِلَالُكَا ... نَعِمْتَ صَبَاحًا بِالسُّرُورِ[2] وَآلُكَا
وَبُلِّغْتَ فِى النَّجْلِ السَّعِيدِ[3] سَعَادَةً ... تَقَرُّ بِهَا عَيْنًا وَيَنْعَمُ بَالُكَا
وَخُصِّصْتَ بِالبُشْرَى مِنَ اللهِ رَبِّنَا ... كَمَا عَمَّ أَقْطَارَ الجِهَاتِ نَوَالُكَا

(١) فى م ونفح الطيب : « فى عداك » .
(٢) فى نفح الطيب : « بالسعود » .
(٣) فى م ونفح الطيب : « الكريم » .

في التورية باسم قائد

وفى التورية باسم قائد ولاّه مولانا — رضى الله عنه — على جماعة من الجند .

يا أيُّها المَوْلَى(١) الذى أيّامُـهُ تَهْمِى بِسُحْبِ الْجُودِ مِنْ آلائهِ
أبْشِرْ لِجَيْشِكَ بالسَّعادَةِ كُلَّمَا يَغْزُو فنصرُ الله تحْتَ لِوَائه

في ملبس اتخذه

وأنشده — رضى الله عنه — فى ملبس اتخذه :

أمَوْلَايَ يا بْنَ السَّابِقِينَ إلَى العُلَا وَمَنْ نَصَرُوا الدِّينَ الحَنِيفَ أوَّلَا
غَنِيتَ بِنُورِ اللهِ عَنْ كُلِّ زِينَـةٍ وَألْبِسْتَ مِنْ رِضْوَانِهِ أشْرَفَ الحلَى
وَقَارُكَ زَادَ المُلْكَ عِزًّا وَهَيْبَـةً وَسَوَّغَهُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ مَنْهَـلَا
وَيَاشَمْسَ هَدْىٍ فِي سَمَاءِ خِـلَافَةٍ وَأبْنَاؤُهُ الزُّهْرُ المُنِيرَةُ تُجْتَلَى
تَبَارَكَ مَنْ أبْدَاكَ فى كُلِّ مَظْهَرٍ جَمِيلًا جَلِيـلًا مُسْتَعَاذًا(٢) مُؤَمَّلا
فَيُخْجِلُ مِنْكَ الشَّمْسَ شَمْسُ هِدَايَةٍ وَيَحْسُدُ منكَ البَدْرُ بَدْرًا مُكَمَّلا
إذَا أنْتَ ألْبَسْتَ الزَّمَانَ وَأهْـلَهُ مَلَابِسَ عِزٍّ لَيسَ يُدْرِكُهَا البِلَى
وَطَوَّقْتَ أجْيَـادَ المُلوكِ أيَادِيًا وَتَوَّجْتَهُمْ بالفَخْرِ تاجًا مُكَلَّلَا
فَاَشِئْتَ فَالْبَسْ فالمُشَاهِدُ قَائِلٌ : تَبَارَكَ مَا أسْنَى وَأبْهَى وَأجْمَـلَا !
ألا كُلُّ مَنْ صَلَّى وَضَحَّى وَمَنْ دَعَا وَمَدَّ يَدَيْهِ ضَارِعًا وَتَوَسَّــلَا
وُجُودُكَ شَرْطٌ فِي حُصُولِ قَبُولِهِ وَجُودُكَ أثْرَى كَفَّـهُ مُتَنَفِّلَا(٣)

(١) فى م « الملك » .
(٢) فى م : « مستفادا » .
(٣) كذا فى م وط . وفى نفح الطيب : « فتنفلا » .

فيما يرسم على ثوب مهدى للسلطان أبى العباس

[٣١٩] وقال يرسم مايُرْسَم على ثوب فى بعض هدايا مولانا رحمه الله تعالى للسلطان أبى العبّاس :

أهْـدى أبَا العَبَّاسِ مَلِكَ النَّدَى وَالْبَاسِ
ثَوْبَ السَّمَاء لِأَنَّهُ بَدْرٌ بَدَا لِلنَّـاس
فَلَقُ الصَّبَاحِ بِوَجْهِهِ عَوَّدْتُهُ بِالنَّـــاس
يَكْسُو إمَامًا لَمْ يَزَلْ بِحِلَى المَحَامِدِ كَاس
فَيَالَهُ مِنْ مُرْتَدٍ ثَوْبَ التُّقَى لَبَّاس[1]
أَذْيَالُهُ مِنْ حمده[2] مِسْكِيَّةُ الأَنْفَاس
وَبِطَرْزِهِ مَدْحٌ زَرَى بِالمَدْحِ فى القِرْطَاس
إنْ كُنْتُ فِى لَوْنِ السَّمَا ءِ بِنِسْبَةٍ وَقِيَاس
فَلِأَنْتَ يَا بَدْرَ العُلَا شَرَّفْتَنِى بِلِبَاس
أَنَا مُنْشِدٌ «مَا فِى وُقُو فِكَ سَاعَةً مِنْ بَاس»
لِتَرَى رِيَاضًا أَطْلَعَتْ زَهْرًا عَلَى أَجْنَاس
أَوْرَاقُهَا تَوْرِيقُهَـا بِقَضِيبِهَا المَيَّاس
وَمِنَ المَدِيحِ مُدَامَتِى وَمِنَ المَحَابِرِ كَاسِى
فَاللهُ يُمْتِعُ لَابِسِى بِالبِشْرِ وَالإِينَاس

فى مثل ماتقدم

وفى مثل ذلك قوله رحمه الله :

إنَّ الإمَامَ مُحَمَّدًا أَهْدَى الخَلِيفَةَ أَحْمَدَا

(١) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « والباس » .
(٢) فى ط : « مزجه » . وما أثبتناه من نفح الطيب .

[لِلبَاسِهِ ثَوباً وقدْ لَبِس المَحامِدَ وارْتَدَى][1]
وَعِمَامَةَ التقوى[2] التى مِنْ فَوْقِهَا شَمْسُ الْهُدَى
يا حُسنَها إذْ أرسلت من كفهِ غَيْثَ النَّدَى
وكأنَّ وَشْىَ رُقُومِهَا بالبَرْقِ طُرِّزَ عَسْجِدا
وَبِطَرْزِهِ لَوْنُ السَّمَا ءِ وَوَجْهُهُ[3] قَمَرٌ بَدَا
لِلّهِ مِنْـهُ نَـيِّرٌ حَـلَّ المَنَازِلَ أَسْعُدَا
مُسْتَنصِرٌ أَعْـلَى لَهُ فَوْقَ الكَوَاكِبِ مَصْعَدَا

وله فى الغنى بالله وهو على جواد أدهم

ثم قال بعد ذكر قصيدة فى المدح :

وأنشده وهو على جواد أدهم :

تَجَـلى لَنَا المَوْلَى الإمَامُ مُحَمَّدٌ عَلَى أَدْهَمٍ قَدْ رَاقَ حُسْنُ أَدِيمِهِ
فأَبصرْتُ صُبْحًا فوق ليل[4] وَقَدْ حَكَى مُقَلَّدُ ذَاكَ الطِّرْفِ بَعْضَ نجومه

[٣٢٠]

وله مع هدية زهرية

وكتب له مع هدية زَهرية :

أَمَوْلَاىَ تَقْبِيلِى لِيُمْنَاكَ شَاقَنِى وَلَا يُنـكِرُ الظَّمْآنُ شَوْقًا إِلَى الْبَحْرِ
وَلَمَّا رَأَيْتُ الدَّهْرَ مَاطَلَنِى بِهَا وَشَوَّقَنِى مِنْ حَيْثُ أَدْرِى وَلَا أَدْرِى
بَعَثْتُ لَكَ الزَّهْرَ الْجَنِىَّ لَعَلَّهَا يُقَبِّلُهَا عَنِّى ثُغُورٌ مِنَ الزَّهْرِ

وله متشوقا إلى الغنى بالله

وكتب إليه أيضاً متشوقاً :

كَتَبْتُ وَدَمْعِى بَلَّلَ الرَّكْبَ قَطْرُهُ وَأَجْرَى بِهِ بَيْنَ الخِيَامِ السَّوَاقِيَا

(١) البيت عن نفح الطيب .
(٢) كذا فى م . وفى ط ونفح الطيب : « الشفق » .
(٣) فى ط : السما . . . . وبوجهه . وما أثبتناه عن نفح الطيب .
(٤) كذا فى نفح الطيب . وفى ط : « تحت ليل » ولا يستقيم به المعنى .

حَنِيناً لِمَوْلَى أَتْلَفَ المالَ جُودُهُ ... وَلكِنَّهُ قَدْ خَلَّدَ الْفَخْرَ بِاقِيا
وَمَا عِشْتُ بَعْدَ البَيْنِ إلا لِأَنَّنِى ... أُرَجِّى بِفَضْلِ اللهِ مِنْهُ التَّلاَقِيا

وأنشده أيضاً وهو بحال تألم :

وما كتبه إليه وهو فى حال تألم

كأنِّى بِلُطْفِ اللهِ قدْ عَمَّ خَلْقَهُ ... وعَافَى إمَامَ المُسْلِمِينَ وَقَدْ شَفَى
وَقَاضِى القَضَاءِ الحَتْمِ سَجَّلَ حكْمَهُ[1] ... وخَطَّ على رَسْمِ الشِّفَاءِ لهُ : اكْتَفَى

وفى مثل ذلك :

فى مثل ذلك أيضا

لكَ الخَيْرُ يا مَوْلاَىَ أبشِرْ بِعِصْمَةٍ ... عَقَدْتَ مَعَ الأيَّامِ فِى حِفْظِهَا صُلْحَا
وَعَافِيَةٍ فِى صِحَّةٍ مُسْتَجَدَّةٍ ... تُجَدِّدُ لِلدِّينِ السَّعَادَةَ وَالنُّجْحَا
فَوَجْهُ التَّهَانِى مُشْرِقٌ مُتَهَلِّلٌ ... وَجَوُّ الأمانِى بَعْدَ ما غَامَ قَدْ أصْحَى
وَقَدْ ظَهَرَتْ لِلبُرْءِ مِنْكَ عَلاَمَةٌ ... عَلامتُكَ العُظْمَى تَقُولُ لنا : صَحَّا

وفى مثل ذلك :

فى ذلك أيضا

يَا إماماً قَدْ تَخِذْنَا ... هُ مِنَ الدَّهْرِ مَلاَذَا
خَطُّ يُمْنَاكَ يُنَادِى ... صَحَّ هَذَا ، صَحَّ هَذَا

وقال مهنئاً بالشفاء :

وله فى التهنئة بالشفاء

الحَمْدُ للهِ بَلَغْنَا الْمُنَى ... لَمَّا رَأَيْنَاكَ وَزَالَ الْعَنَا
وَفُزْتَ بالأَجْرِ وَ كَبْتِ العِدَا ... وَفُزْتَ بالعزِّ وَطِيبِ الثنا
فَالْحَمْدُ للهِ عَلَى مَا بِهِ ... مَنَّ عَلَيْنَا مِن ظُهُورِ السَّنَى

---

(١) فى نفح الطيب : « ختمه » .

فى هذا أيضا

وقال أيضا فى نحو منه :

نَعَمْ قَرَّتِ الْعَيْنَانِ وَانشَرَحَ الصَّدْرُ ... وَقَدْ لَاحَ مِنْ وَجْهِ الإِمامِ لَنا الْبَدْرُ
سَرَيْنَا بلَيْـلِ التِّيهِ يَكْذِبُ فَجْرُهُ ... فَلَمَّا تَجَلَّى بِشْرُهُ صَـدَقَ الْفَجْر [٣٢١]
أَغرُّ الْمُحَيَّا بِالْحَيَـاءِ مُقَنَّعٌ ... زَهاهُ الـكَلامُ الحرُّ وَالنَّسَبُ الْحُر
إِمامُ الهُدَى قَدْ خَصَّهُ بِخِـلافَةٍ ... إِلَهٌ لهُ فِي خَلْقِهِ النَّهْيُ وَالأَمر

فى مثل ما سبق

وقال فى مثله وقد ركب رحمة الله عليه لمعاهد حضرته :

هَنِيئًا هَنِيئًا لا نَفَادَ لِمَـدِّهِ ... وَبُشْرَى لِدِينِ اللهِ إِنْجَازُ وَعْدِهِ
فقَدْ لَاحَ بدْرُ التِّمِّ فى أُفُقِ الْعُـلا ... وَحَـلَّ كما يَرْضَى مَنازِلَ سَعْدِه
وَطَافَ إمَامُ[1] الْمُسْلِمِينَ مُحَمَّدٌ ... بِحَضْرَتِهِ الْعُلْيـا مُبلَّغَ قَصْـدِه
ولاحتْ بها الأنوارُ من بِشْرِ وجهه ... وفاحَ بها النّوارُ من نَشْرِ حمده
[وأبصرتِ الأبصارُ شمسَ هداية ... وأشرقت الأرجاء من زُهرِ وَفده][2]
ولَوَّحَتِ الأعْـلامُ فِيهَا بنصرِهِ ... كما لوَّحَ الصبحُ المنيرُ[3] ببَنْدِه
سَتُهْدِى لَهُ الأيَّامُ كلَّ مَسرَّةٍ ... ويُحْيِى بِهِ الرَّحْمٰنُ آثارَ جَـدِّه
فَسُلَّ حُسَامَ السَّعْدِواضرِبْ بحَدِّهِ[4] ... وخَلِّ حُسَامَ الْهِنْدِ فِى كِنِّ[5] غِمْدِه
فَسَيفُكَ سَيْفُ اللهِ مَهْمَا سَلَلْتَهُ ... يُقِيمُ حُدُودَ اللهِ قَائِمُ حَـدِّه

(١) فى م ونفح الطيب : « أمير » .
(٢) هذا البيت عن نفح الطيب .
(٣) كذا فى نفح الطيب . وفى ط : « النصر المبين » .
(٤) فى نفح الطيب : « به العدا » مكان قوله : « بحده » .
(٥) كذا فى م . وفى ط ونفح الطيب : « كنز » .

وله يصف البازى ويشكر ما أهدى إليه من صيده

وأنشده رضى الله عنه فى طَرد مولانا الوالد ، رحمة الله تعالى عليه ، و يصف البازى ، و يشكر ما أهداه من صيده :

يا مَنْ تَمُدُّ لهُ المُلُوكُ أَكُفَّهَا ... تَدْعُو الإلهَ لهُ بطُولِ بَقَاء
أَضْحَى ولِيُّ العَهْدِ نَجْلُكَ صَائِداً ... شَأْنَ المُلُوكِ العِلْيَةِ العُظَمَاء
ورَمَى البُزَاةَ عَلَى القَنَاةِ[1] يَصِيدُهُ ... صَيْدَ الخليفَةِ شَارِدَ الأَعْدَاء
منْ كلِّ خَافِقَةِ الجَنَاحِ إذَا مَشَتْ ... تُبْدِى اخْتِيَالَ الغَادَةِ العَذْرَاء
أَهْدَتْ لَنَا سَبَجَ[2] العُيُونِ وَطَوَّقَتْ ... أَرْجَاءَهَا بِعَقِيقَةٍ حَمْرَاء
وَاسْتَاقَتِ اليَاقُوتَ فى مِنْقَارِها ... وَمَشَتْ عَلَى المَرْجَانِ فى اسْتِحْيَاء
وَوَشَتْ يَدُ الأَقْدَارِ فى أَعْطَافِهَا ... وَشْيًا زَرَى بالحُلَّةِ السِّيَرَاء
مِلكُ الطُّيُورِ أَتَى إلَى مِلكِ الوَرَى ... فاسْتَاقَهَا لِمُؤَمِّلِ الخُلَفَاء
وقَضَى سَمَاحُكَ أَنْ تَجُودَ بِبَعْضِها ... لِلعَبْدِ تُعْلِيهِ عَلَى الجَوْزَاء
للهِ هَلْ شرَفٌ يُضَاهِى ذَا الذى ... أَوْلَيْتَه مِنْ مِنَّةٍ غَرَّاء
هَيْهاتَ أَيْنَ جَزَاؤُها منْ شُكْرِهِ ... يَجْزِيكَ عَنَّا اللهُ خَيْرَ جَزَاء
أَوَلَسْتَ قَدْ أَوْلَيْتَ كلَّ خَلِيفَةٍ ... شرفاً وعَزْماً أَصْوَبَ الآرَاء
فلِصَاحِبِ الصَّفْرَاءِ[3] فَخْرٌ خَالِدٌ ... يَحْظَى بهِ مِنْ صَاحِبِ الحَمْرَاء [٣٢٢]
بيضاً وسُمْراً قدْ شرَعْتَ لنصرهِ ... وأَعَنْتَ بالبَيْضَاءِ والصَّفْرَاء[4]
لَا زِلْتَ شَمْسَ خِلَافةٍ أَبْنَاؤُهُ ... مِثْلُ البُدُورِ بمَرْقَبِ العَلْيَاء

(١) كذا فى م وط ، والكلمة كما يظهر محرفة عن اسم طير أو نحو ذلك .
(٢) السبج : خرز أسود ، شبه عيون الطير به .
(٣) الصفراء : موضع قرب المدينة . ولعله يريد بصاحب الصفراء سعد بن عبادة جد الممدوح إذ كان موطنه المدينة وما جاورها .
(٤) البيضاء والصفراء هنا : كنايتان عن الفضة والذهب .

وأجاب عن أبيات خمس، كتب — رضى الله عنه — بها إليه :

لكَ فى الخلافةِ مَظهرٌ لا يُفرَعُ ... مِنْ دُونِ مَرْقَبِهِ النجومُ الطُّلَّعُ
يا أيها الملكُ الذى أيامُهُ ... غُرَرٌ وَجْهِ الدَّهرِ لا تتقنَّعُ
سُبحانَ مَنْ حَلَّاكَ بالخُلُقِ الرِّضَا ... وكَسَاكَ منهُ حُلَّةً لا تُخلَعُ
أمَّا المُدامُ فمُذْ تُطْلِعُ شَمْسَها ... بَيْنَ البُدُورِ وشَمْسُ وَجْهِكَ تَسْطَعُ
أغْنَيْتَنِى عَنْها بخمرِ بَلاغَةٍ ... فالطِّيبُ مِنْ نفحاتها يَتَضَوَّعُ
بوأْتَنِى مِن عِزِّ نَظمِكَ روضةً ... طابَ الجنَى منها وَلَذَّ المَشرَعُ
وَأَرَيْتَنِى جُنْحَ الدُّجُنَّةِ غُرَّةً ... فالنُّورُ مِنْ قَسَماتِها يَتَطلَّعُ
يعنو لها البدرُ المنيرُ وقد علا ... والبدرُ تاجٌ بالنجومِ مُرَصَّعُ
فاتحتَنى منها بخَمْسٍ وَلائدٍ ... لتُعيذها من كلِّ عينٍ تَلْقَعُ[1]
قبَّلتُها ألفاً وبتُّ لربِّها ... أدعُو لهُ حتَّى الصَّباحِ وأضْرَعُ

وله يصف غربانا ويتفاءل

وقال يصف غربانا أجراها — رحمة الله عليه — ويتفاءل له بالراحة من شكاية ثلاثة .

أَعْلامُكَ الحُمْرُ فَوْقَ السُّفْنِ خافقةٌ ... وريحُ سَعْدِكَ تُجْرِيها عَلَى قَدَرِ
مَا إنْ رَفَعْتَ قِسِىَّ السُّفْنِ فى وَطَنٍ ... إلَّا وَنِلْتَ قَصِىَّ السُّؤْلِ وَالوَطَرِ
قالُوا السَّفائنُ فوقَ البرِّ ذا عَجَبٌ ... مِنْ غيرِ بحرٍ ولا مَوْجٍ ولا غَرَرِ
فقُلتُ آثارُ مَوْلانَا التى سَفَرَتْ ... لنا العِنايةُ عن آياتِها الكُبَرِ
تَجرِى بريحِ سُعُودٍ فى بحارِ نَدًى ... تُغنِى بَنانُكَ عن بحرٍ وعن مَطَرِ
للهِ يومٌ عجيبُ الصُّنعِ ذُو أَثَرٍ ... مُحَجَّلٌ رائقُ الأوْضَاحِ والغُرَرِ
اسْتَبْشَرَ النَّاسُ فيهِ بالصَّنيعِ وقَدْ ... تَضَمَّنَ البِشرَ فى وِرْدٍ وفى صَدَرِ

(١) يقال : لقع فلان فلانا بعينه : أصابه بها .

زَجَرْتُهُ بِشِفَاءٍ قَدْ أَتَاكَ كَمَا يُرْضِى عُلَاكَ جَمِيلَ الخُبْرِ والخَبَرِ
إِذَا شَكَوْتَ فَكُلُّ الكَوْنِ ذُو وَصَبٍ فأَنْتَ مِنْهُ مَكانَ السَّمْعِ والبَصرِ
[٣٢٣] وَمَنْ شَكَا بأَلِيمِ الوَجْدِ فى بَصرٍ فقَدْ تَعَوَّدَ غيرَ السُّهدِ والسَّهَرَ(١)
فأَسْأَل اللهَ رَبَّ العَرْشِ فى لُطَفٍ يَسرى إِلَيْكَ بها إِنْعامُ مُقْتَدِرِ
وأَنْ يُدَافِعَ عَنْ ذَاتٍ بِحُرْمَتِها تَعَوَّدَ الخَلْقُ لُطْفَ اللهِ فى القَدَرِ

فى التهنئة بعودة الأمير من جبل الشوار

ثم قال بعد إيراد جملة من نظمه :

وأنشده وقد عاد — رحمة الله عليه — من بعض متوجهاته الجهادية لجبل الشّوار .

عَلَى الطَّائِرِ المَيْمُونِ والطَّالِعِ السَّعْدِ قَدِمْتَ مَعَ الصُّنْعِ الجَمِيلِ عَلَى وَعْدِ
وَقَدْ عُدْتَ مِنْ جَبَلِ الشُّوَارِ لتَجْتَلِى عَقَائِلَ لِلْفَتْحِ المُبِينِ بِلَا(٢) عَدِّ

ثم قال بعد ذكر جملة :

فيما رسم بطيقان الأبواب

وقال مما رسم فى طيقان الأبواب بالمبانى السعيدة التى ابتناها مولانا رضى الله عنه .

أَنَا تَاجٌ كَهِلَالٍ أَنَا كُرْسِىٌّ جَمَالِ
يَنْجَلِى الإِبْرِيقُ فيهِ كَعَرُوسٍ ذِى اخْتِيَالِ
جُودُ مَوْلَانَا ابْنِ نصرٍ قَدْ حَبَانِى بالكَمَالِ

فى مثل هذا

وفى المعنى :

مَنْ رَأَى التَّاجَ الرَّفِيعَا قَدْ حَوَى الشَّكْلَ البَدِيعَا

(١) كذا ورد البيت فى الأصلين ، وفيه غموض .
(٢) فى م ونفح الطيب : « على عد » .

تحسُدُ الأَفْلاكُ مِنــــهُ قَوْسَــهُ السَّهْلَ المَنِيعَا
دمْتَ رَبْعًا لِلتَّهَــــانِي انظِم الشَّـــمْلَ الجَمِيعَا

وفيه :

لِلْغَنِي بِاللهِ قَصرٌ لِلتَّهانِي يَصْطَفِيــــهِ
فيــهِ مِحْرَابُ صَلاةٍ يَقِفُ الإِبْرِيقُ فيه
تاليا ســورَة حُبٍّ (١) وَالمَعَـالِي تَقْتَفِيــه

وفيه :

أَيُّ قَوْسٍ ذِى كَمَالٍ سَهْمُهُ سَهْمُ السَّـعَادَهْ
مَلِكُ الإِبْرِيقِ فيــهِ عُوِّدَ الإحْسَانَ عَادَه
ذُو صَـلاةٍ من صِلاتٍ كُلُّها دَأْبًا مُعَـــــادَه

في مبنى للأمير سعد

وفى المنى مما كتبه لمبنى لعمنا الأمير سعد رحمة الله تعالى عليه :

انظُرْ لأُفْقِ جَمَـالٍ بِهِ الأَبارِيقُ تَصْـعَدْ
بَدِيعِ حُسْنٍ حَبَاهُ بِهِ الأَمِيرُ المُمَجَّد
فَخْرُ الإمارَةِ سَـعْدٌ بِهِ الخَلِيفَةُ يَسْـعَد
وَكَيْفَ لَا وَأَبُوهُ فَخْرُ المُلُوكِ مُحَمَّد
[عليه حَلْيُ رِضاهُ فى كلِّ يومٍ تجدَّد] (٢)

[٣٢٤]

وفيه أيضاً :

رَفَعْتَ قَوْسَ سَمَاهُ يُزْهَى بِتَاجِ الهِلالِ

(١) كذا فى م ونفح الطيب المخطوط وفى ط : « حسن » .
(٢) هذا البيت عن م ونفح الطيب .

قَدْ قَلَّدَتْهُ نُقُوشِي دُرَّ الدَّرَارِي الغَوَالِي
تَرى الأَبَارِيقَ فِيهِ تُهْدِيكَ عَذْبَ الزُّلَالِ
قَدْ زَانَ قَصرِيَ سَعْدٌ بِسَعْدِهِ المُتَوَالِي
فَدَامَ يَعْمُرُ رَبعِي فِي ظِلِّ مَوْلَى المَوَالِي

وقال في الغرض :

مَا تَرى فِي الرِّيَاضِ أَشبَاهِي يَسْحَرُ العقل حسنيَ الباهي
زَانَ رَوْضِي أَمِيرُهُ سَعْدٌ وَهْوَ نَجْلُ الغَنِيِّ بِاللهِ
دَامَ مِنْهُ بِمُرْتَقَى عِزٍّ آمِرٌ بِالسُّعُودِ أَوْ نَاهِي

وقال في غرض الشكر [عن مُعْطًى صنهاجيٍّ أهداه إياه] (١) :

وله في الشكر عن هدية

لِمَن قُبَّةٌ حَمْرَاءُ مُدَّ فَضَاؤُهَا تَطَابَقَ مِنْهَا أَرْضُهَا وَسَمَاؤُهَا
وَمَا أَرْضُهَا إِلَّا خَزَائِنُ رَحْمَةٍ وَمَا قَدْ سَمَا مِنْ فَوْقِ ذَاكَ غِطَاؤُهَا
وَقَدْ شَبَّهَ الرَّحْمنُ خِلْقَتَنَا بِهَا وَحَسْبُكَ فَخْراً بَانَ مِنْهُ اعْتِلَاؤُهَا
وَمَعْرُوشَةٌ (٢) الأَرْجَاءِ مَفْرُوشَةٌ بِهَا صُنُوفٌ مِنَ النَّعْمَاءِ مِنْهَا وِطَاؤُهَا
تَرى الطَيْرَ فِي أَجْوَائِهَا قَدْ تَصَفَّفَتْ عَلَى أَنْعُمٍ (٣) عِنْدَ الإِلٰهِ كِفَاؤُهَا
وَنِسْبَتُهُ صِنْهَاجَةٌ غَيْرَ أَنَّهُ (٤) تُقَصِّرُ عَمَّا قَدْ حَوَى خُلَفَاؤُهَا
حَبَتْنِي بِهَا دُونَ العَبِيدِ خِلَافَةٌ عَلَى اللهِ فِي يَوْمِ الجَزَاءِ جَزَاؤُهَا

---

(١) ما بين القوسين عن م ونفح الطيب .
(٢) كذا في ط ونفح الطيب . وفي م « مفروشة » .
(٣) في م ونفح الطيب : « على نعم » .
(٤) كذا في ط . والذي في م ونفح الطيب : « ونسبتها ... غير أنها » . والضمير تذكير عائد على المعطى المهدى ، وبالتأنيث عائد على القبة .

وَفِي مِثْلِهِ :

مَا لِلْعَوَالِمِ جُمِّعَتْ فِي قُبَّةٍ ... قَدْ شَادَهَا كَرَمُ الإِمَامِ مُحَمَّدِ
فِي صَفْحِ صَرْحٍ بِالزُّجَاجِ مُمَوَّهٍ ... وَبِجُودِ مَوْلاَىَ الْإِمَامِ مُمَهَّدِ
مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلاَ سَمِعْتُ بِطَائِرٍ[(١)] ... عَنْ ثَوْبِ مُوَشِّيِّ الرِّيَاشِ مُجَرَّدِ
إِنْ لَمْ تَكُنْ تِلْكَ الطُّيُورُ تَغَرَّدَتْ ... فَلِشُكْرِ هَذَا العَبْدِ سَجْعٌ مُغَرِّدِ
صُفَّتْ عَلَيْهَا لِلْفَوَاكِهِ كُلُّ مَا ... قَدْ عَاهَدَتْهُ بِدَوْحِهَا الْمُتَعَوِّدِ
لَوْ أَبْصَرَتْ صِنْهَاجَةٌ أَوْضَاعَهُ ... دَانَتْ لَهُ أَمْلاَكُهَا بِتَعَبُّدِ[(٢)]
عَوَّدْتَنِي الصُّنْعَ الجَمِيلَ تَفَضُّلاً ... لاَ زِلْتَ خَيْرَ مُعَوِّدٍ وَمَعَوِّدِ
وَبِسُورَةِ الْأَنْعَامِ كَمْ مِنْ آيَةٍ ! ... فِيهَـــــا لِقَارٍ بِالنَّوَالِ مُجَوِّدِ [٣٢٥]

قوله فى التذييل على بيتى ابن المعتز

وقال تذييلا لبيتى ابن المعتز :

« سَقَتْنِي فِي لَيْـلٍ شَبِيهٍ بِشَعْرِهَا ... شَبِيهَةَ خَدَّيْهَا بِغَيْرِ رَقِيبِ
فَأَمْسَيْتُ فِي لَيْلَيْنِ لِلشعرِوالدُّجَى ... وشَمْسَيْنِ مِنْ خَمرٍوَخَدِّ حَبِيبِ »
إِلَى إِنْ بَدَا الصُّبْحُ الْمُنِيرُ كَأَنَّهُ ... مُحَيَّا ابْنِ نَصْرٍ لَمْ يُشَنْ بِغُرُوبِ
شَمَائِلُهُ مَهْمَا أُدِيرَتْ كُئُوسُهَا ... قَلاَئِدُ أَسْمَاعٍ وَأُنْسُ قُلُوبِ

قوله فى التذييل على بيت ابن وكيع

وقال مُذَيِّلًا على بيت ابن وَكيع أيضاً :

« هِيَ فِي أَوْجُهِ النَّدَامَى عَقِيقٌ ... وَهِيَ مِثْلُ النُّضَارِ فِي الاقْدَاحِ »
كَابْنِ نصرٍ تَرَاهُ فِي الحَرْبِ لَيْثًا ... وَهُوَ بَدْرُ الهُدَى وَغَيْثُ السَّمَاحِ

(١) فى نفح الطيب : « كطائر » .
(٢) الضمير فى أوضاعه للمغطى وهو القبة الموصوفة ؛ وفى دانت له يعود على المهدى ، وهو محمد الغنى بالله .

ذِكْرُهُ قَدْ ثَنَى قُدُودَ النَّدَامَى وَأَعَادَ الْحَيَاةَ فِي الأَشْبَاحِ (١)

وبما يرسم للغنى بالله

وقال مما يُرسَم للغنى بالله :

لِلْغَنِي بِاللهِ مُلْكٌ بُرْدُهُ بِالعِزِّ مُذْهَبْ

دَامَ فى رفعـــة شانٍ مَاجَلَا الإصْبَاحُ غَيْهَبْ

وقال أيضاً :

يَابْنَ نَصْرٍ لَكَ مُلْكٌ لَيْسَ تَعْدُوهُ الْفتوحُ

دُمْتَ رُوحاً لِلْمَعَالِي مَاسَرَى فِي الْجِسْمِ رُوحُ

من مقطوعة

وقال من مقطوعة :

وَابْنُ نَصْرٍ لَهُ مُحَيًّا كَصُبْحٍ إِنْ تَجَلَّى جَلَادُجَى (٢) كلِّ كَرْبِ

ذُو حُسَامٍ كَأَنَّهُ لَمْعُ بَرْقٍ فِي بَنَانٍ كَأَنَّهَا غَيْثُ سُحْبِ

ومن أخرى :

وَكَأَنَّ النُّجُومَ فِي غَسَقِ اللَّيْـــلِ جُمَانٌ يَلُوحُ فِي آبَنُوسِ

وَكَأَنَّ الصَّبَاحَ فِي الأُفْقِ يُجْلَى بِحُلِّي النُّجُومِ مِثْلُ العَرُوسِ

وَكَأَنَّ الرِّيَاضَ تُهْدِي ثَنَاءً لِلْغَنِي بِاللهِ فَوْقَ الطُّرُوسِ

فى عيدية

ثم قال بعد قصائد كثيرة عيدية :

وقال من أخرى عيدية شاركتها فى كثير [من أبياتها قصيدة] (٣) فتحية تقدّمت ، أولها :

---

(١) فى م ونفح الطيب : « فى الأرواح » .
(٢) فى نفح الطيب : « لنا » مكان « دجى » .
(٣) التكملة عن م .

* هِىَ نفحةٌ هَبَّتْ مِنَ الأَنْصارِ *

والمختص بهذه :

أَضِيَاءُ هَدْيٍ أَمْ ضِيَاءُ نَهَارِ وَشَذَا الْمَحَامِدِ أَمْ شَذَا الأَزْهَارِ

ومنها بعد كثير :

قَسَمًا بِهَدْيِكَ فِي الضِّيَاءِ وَإِنَّهُ شَمْسٌ تُمِدُّ الشُّهْبَ بِالانْوَارِ [٣٢٦]

ومنها أيضاً :

كَمْ مِنْ لَطَائِفَ لِلْهُدَى أَوْضَحْتَهَا خَفِيَتْ مَدَارِكُهَا(١) عَلَى الأَفْكَارِ

كَمْ مِنْ جَرَائِمَ قَدْ غَفَرْتَ عَظِيمَهَا مُسْتَنْزِلاً مِنْ رَحْمَةِ الغَفَّارِ

عَلِمَتْ مُلُوكُ الأَرْضِ أَنَّكَ فَخْرُهَا فَتَسَابَقَتْ لِرِضَاكَ فِي مِضْمَارِ

ومنها يصف الجيش : [وصف جيش]

سَالَتْ بِهِ تَحْتَ العَجَاجِ سَفِينَةٌ نُفِحَتْ بِرِيحِ العَزْمِ(٢) مِنْ أَنْصَارِ

أَرْسَتْ بِجُودِى الجُودِ فِى يَوْمِ النَّدَى وَجَرَتْ بِيَوْمِ الْحَرْبِ فِى تَيَّارِ

ومنها :

أَلْقَى بِأَيْدِى الرِّيحِ فَضْلَ عِنَانِهِ فَيَكَادُ يَسْبِقُ لَمْحَةَ الأَبْصَارِ

ومنها :

فَهِىَ العِرَابُ مَتَى أُثِيرَتْ فِى الْوَغَى قَدْ أَعْرَبَتْ عن صُنْعِ لُطْفِ البَارِى(٣)

(١) فى نفح الطيب : « لطائفها » .

(٢) فى نفح الطيب : « العز » .

(٣) كذا فى ط ونفح الطيب المخطوط . وفى م ونفح الطيب المطبوع : « ابرت » .

ومنها :

إنْ خاضَ فِي بَحْرِ العَجاجِ (١) رَأيتَهُ يَجْلُو دُجُنَّتَهُ بِوَجْـهِ نَهَارِ

ومنها :

كم فِيهِمْ مِنْ قَارِى ضَيْفٍ طارقٍ وَضحَتْ شَوَاهِدُ فَضْلِهِ لِلْقَارِى

ومنها :

يَأَيُّهَا الملِكُ الَّذِى أيَّامُـهُ غُرَرٌ تَلُوحُ بِأَوْجُهِ الأَعْصَارِ

قَدْ زَارَكَ العِيدُ السَّعِيدُ مُبَشِّرًا فاسْمَحْ لِأَلْفِ مِثـالِهِ بمَزَارِ

لَمَّا أَزْدَهَتْهُ عَوَاطِفٌ أَلْطَفْتَهَا (٢) عطَفَ الإِلٰهُ عَلَيْكَ عَطْفَ سِوَارِ

[فَأَتَى] (٣) يُؤَمِّمُ مِنْكَ هَدْيًا صَالِحًا كَىْ (٤) يَسْتَمِدَّ النُّورَ بَعْدَ سِرَارِ

وَأَتَاكَ يَسْحَبُ ذَيْلَ سُحْبٍ أَغْدَقَتْ تُغْرِى جُفُونَ المُزْنِ باسْتِعْبَارِ

جَادَتْ بَجَارِى الدَّمْعِ مِنْ قَطْرِ النَّدَى (٥) فَرَعَى الرَّبيعُ لَهَا حُقُوقَ الجَارِ

فَأَعَادَ وَجْهَ الأَرْضِ طَلْقًا مُشْرِقًا مُتَضَاحِكًا بِمَبَاسِمِ النُّـوَّارِ

لَمَّا دَعَاكَ إِلَى القِيَامِ بسُـنَّةٍ حَكَمَتْ دَوَاعِى الجُودِ وَالإِيثَارِ

فَأَفَضْتَ فِينَا مِنْ نَدَاكَ مَوَاهِبًا حَسُنَتْ مَوَاقِعُهَا عَلَى التَّكْرَارِ

فاهْنَأْ بِعِيدٍ عَادَ يَشْتَمِلُ الرِّضَا جذْلانَ يَرْفُلُ فى حِلَى أسْتِبْشَارِ

(١) فى نفح الطيب : « فى ليل العجاج » .

(٢) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى م : « لقينها » .

(٣) التكملة عن نفح الطيب .

(٤) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « إذ يستمد » .

(٥) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « بحار الدمع » .

ومنها :

لا عُذْرَ لى أنْ كنتُ فيهِ مقصِّرًا سَدَّتْ صِفاتُكَ أوْجُهَ الأعذارِ
فإذا نَظَمْتُ منَ المَناقِبِ دُرَّهَا شرَّفْتَنِى منْها بنَظْمِ دَرَارى
فَلِذاكَ أنْظِمُهَا قلائدَ لُؤْلُؤ لألاؤُهَا قد شَفَّ بالأنْوارِ

من قصيدة له ميمية

ثم أورد هذا المؤلف قصيدة ميمية طويلة ، أولها :

هَنَاءٌ لهُ ثَغْرُ الهُدَى يَتَبَسَّمُ وَبُشْرَى بِهَا عَرْفُ الرِّضَا يَتَنَسَّمُ
تَبَسَّمَ ثَغْرُ النَّغْرِ عَنْهَا بِشَارَةً فأَغْدَى ثُغُورَ الزَّهْرِ مِنْهُ التَّبَسُّمُ
وَلاَ عَجَبٌ مِنْ مَبْسِمِ الزَّهْرِ فى الرُّبَا فَلِلْبَرْقِ مِنْ خَلْفِ السَّحَائِبِ مَبْسِمُ
عِنَايَةُ مَنْ أعْطَى الخَلِيفَةَ رُتْبَةً عَلَيْهَا النُّجُومُ النَّيِّرَاتُ تُحَوِّمُ
فَمِنْهُ اسْتَفَادَ المُلْكُ كلُّ غَرِيبَةٍ تُخَطُّ عَلَى صَفْحِ الزَّمَانِ وَتُرْسَمُ
وَمِنْهُ تَلَقَّى الهُدَى كلُّ خَلِيفَةٍ كَأَنَّهُمُ مِمَّا أفَادَ تَعَلَّمُوا

[٢٢٧]

ومنها بعد نيّف على ستين بيتاً :

وكَمْ مِنْ لِوَاءٍ فى الفُتُوحِ نَشَرْتَهُ وَلِلرُّعْبِ جَيْشٌ دُونَهُ يَتَقَدَّمُ
فَقُلْ لِمُلُوكِ الأرْضِ دُونَكُمُ فَقَدْ أعَلِمْتُمْ مَالاَ زَالَ بالنَّصْرِ يُعْلَمُ
تَسَامَتْ بِهِ لِلنَّصْرِ أشْرَفُ ذِمَّةٍ لَهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ عَهْدٌ مُكَرَّمُ
وَكَمْ مِنْ جِهَادٍ قَدْ أقَمْتَ فُرُوضَهُ يُزَارُ بِهِ البَيْتُ العَتِيقُ وَزَمْزَمُ
وَكَمْ عَزْمَةٍ جَرَّدْتَ مِنْهَا إلَى العِدَا حُسَاماً بِهِ دَاءُ الضَّلاَلَةِ يُحْسَمُ
وَكَمْ بَيْتِ مَالٍ فى الجِهَادِ بَذَلْتَهُ وَأقْرَضْتَ مِنْهُ اللهَ مَا اللهُ يَعْلَمُ
وَكَمْ لَيْلَةٍ قَدْ جِئْتَ فِيهَا بِلَيْلَةٍ مِنَ النَّقْعِ فِيهَا لِلأسِنَّةِ أنْجُمُ
سَهِرْتَ بِهَا وَاللهُ يَكْتُبُ أجْرَهَا تُؤَمِّنُ فِيهَا الخَلْقَ وَالخَلْقُ نُوَّمُ

وَفَوْقَكَ[١] مِنْ سَعْدٍ لِوَاءٌ مُشَهَّرٌ ... وَدُونَكَ مِنْ عَزْمٍ حُسَامٌ مُصَمِّمُ
إِذَا أَنْتَ جَهَّزْتَ الْجِيَادَ لِغَارَةٍ ... فَإِنَّ صَبَاحَ الْحَيِّ أَغْبَرُ أَقْتَمُ
فَمِنْ أَشْهَبٍ مَهْمَا يَكُرُّ رَأَيْتَهُ ... صَبَاحاً بِلَيْلِ النَّقْعِ لَا يُتَكَتَّمُ
وَأَحْمَرَ قَدْ أَذْكَى بِهِ الْبَأْسُ جَذْوَةً ... إِذَا ابْتَلَّ عِطْفاً فِي الْوَغَى يَتَضَرَّمُ
وَأَشْقَرَ أَعْدَى الْبَرْقَ لَوْناً وَسُرْعَةً ... وَلَكِنْ لَهُ دُونَ الْبُرُوقِ التَّقَدُّمُ
وَأَصْفَرَ فِي لَوْنِ الْعَشِيِّ وَذَيْلُهُ ... وَأُونُ الَّذِي بَعْدَ الْعَشِيَّةِ يُعْلَمُ
وَأَدْهَمَ مِثْلِ اللَّيْلِ وَالْبَدْرُ غُرَّةٌ ... وَبِالشُّهْبِ فِي حَلْيِ الْمُقَلَّدِ مُلْجَمُ
وَأَشْهَبَ كَالْقِرْطَاسِ قَدْ خَطَّ صَفْحَهُ ... كِتَابٌ مِنَ النَّصْرِ الْمُؤَزَّرِ مُحْكَمُ
وَرُبَّ جِلَادٍ مِنْ جِدَالٍ سَطَرْتَهُ ... يَرَاعُ الْقَنَا[٢] فِيهِ تَخُطُّ وَتَرْسُمُ
وَقَامَ خَطِيبُ السَّيْفِ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ ... فَأَعْجَبُ مِنْهُ أَعْجَمٌ يَتَكَلَّمُ
فَكَمْ مِنْ رُءُوسٍ عَنْ جُسُومٍ أَزَالَهَا ... فَأَشْكَلَ مِنْهَا كُلُّ بَاغٍ يُجَسَّمُ
وَزُرْقِ عُيُونٍ لِلْأَسِنَّةِ قَدْ بَكَتْ ... وَلَا دَمْعَ إِلَّا مَا أُسِيلَ بِهِ الدَّمُ
وَنَهْرِ حُسَامٍ كُلَّمَا أَغْرَقَ الْعِدَا ... تَلَقَّتْهُمُ مِنْهُ سَرِيعاً جَهَنَّمُ
فَأَصْلَيْتَ عُبَّادَ الْمَسِيحِ مِنَ الْوَغَى ... سَعِيراً بِهِ يَرْضَى الْمَسِيحُ وَمَرْيَمُ [٣٢٨]
أَبَرَّ[٣] مِنَ التَّثْلِيثِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ ... فَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَاللَّهُ يَعْصِمُ
وَنَبِّهْ سُيُوفاً مَاضِيَاتٍ عَلَى الْعِدَا ... وَخَلِّ جُفُونَ الْمُرْهَفَاتِ تُهَوِّمُ
وَلِلَّهِ مِنْ شَهْرِ الصِّيَامِ مُوَدَّعٌ ... عَلَى كُلِّ مَخْتُومِ السَّعَادَةِ يَكْرُمُ
تَنَزَّلَ فِيهِ الذِّكْرُ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ... فَيُبْدَأُ بِالذِّكْرِ الْجَمِيلِ وَيُخْتَمُ

(١) كذا فى م . وفى ط : « وسعدك » .
(٢) فى ط : « القنى » .
(٣) كذا فى ط ، وفى م : « أبرز » وفى اللفظ تحريف .

وللهِ فيـــهِ من لَيَالٍ مُنيرةٍ أضَاء بنُورِ الوَحْيِ مِنهُنَّ مُظْلِمُ
وصَابَتْ سَحَابُ الدَّمْعِ يُمْحَى بمَائِها مِنَ الصُّحْفِ أوْزَارٌ تُخَطُّ ومأْثَمُ
وللهِ فيهِ لَيْلَةُ القَدْرِ قَدْ غَدَتْ عَلَى أَلْفِ شَهْرٍ فِي الثَّوَابِ تَقَدَّمُ
تَبِيتُ بهَا حَتَّى الصَّبَاحِ بإِذْنِهِ مَلائِكَةُ السَّبْعِ الطِّبَاقِ تُسَلِّمُ
وبُشْرَى بعيدِ الفِطْرِ أيْمَنَ قَادِمٍ عَلَيْكَ بمَجْمُوعِ البَشَائِرِ يَقْدَمُ
جَعَلْتَ قِرَاهُ سُــــنَّةً نَبَوِيَّةً لَهَا فِي شِعَارِ الدِّينِ قَدْرٌ مُعَظَّمُ
ومِنْ دَعَوَاتٍ لِلإلَهِ رَفَعْتَهَا تُسَدَّدُ مِنْهَا لِلإجَابَةِ أسْهُمُ
وفي كلِّ عَيْنٍ مِنْ مُحَيَّاكَ قُرَّةٌ وفِي كلِّ كَفٍّ مِنْ نَوَالِكَ أنْعُمُ
إذَا أنْتَ لَمْ تَفْخَرْ بِمَا أنْتَ أهْلُهُ فَلَا أبْصَرَ المِصْبَاحَ مَنْ يَتَوَسَّمُ[1]
فَمَا مَهَّدَ الإسْلَامَ غَيْرُ خَلِيفَةٍ عَلى عِطْفِهِ دُرُّ المَحَامِدِ يُنْظَمُ
فَكَمْ بيتِ شِعْرٍ قَدْ عَمَرْتُ بذِكْرِهِ فَبَاتَ بهِ حَادِي السُّرَى يتَرَنَّمُ
ولَسْنَ بُيُوتًا بَلْ قُصُورًا مَشِيدَةً تُطِلُّ عَلَى أوْجِ العُــلَا وتُخَيِّمُ
ومَا ضَرَّهَا أنْ قَدْ تَأَخَّرَ عَهْدُهَا إذَا طَالَ مَبْنَاهَا الَّذِينَ تَقَدَّمُوا
وَإذْ[2] أنْتَ مَوْلَاهَا وعَامِرُ رَبْعِهَا فَكُلٌّ فَخَارٍ تَدَّعِيهِ مُسَلَّمُ
أنَا العَبْدُ قَدْ أسْكَنْتَهُ جَنَّةَ الرِّضَا فَلَا زِلْتَ فِيهَا خَالِدًا تَتَنَعَّمُ
وَلَازِلْتَ فِي الأعْيَادِ ساجِعَ[3] رَوْضِهَا إذَا اخْتَفَلَتْ أشْرَافُهَا أتَرَنَّمُ
بَقِيتَ[4] مَتَى يَبْلَ الزَّمَانُ تُجِدُّهُ وَفِي كلِّ يَوْمٍ مِنْكَ عِيدٌ ومَوْسِمُ

---

(١) فى ط : « من بتوسم » . وما أثبتناه عن م .
(٢) كذا فى م . وفى ط : « ومذ أنت » .
(٣) فى ط : « ساكن » . وما أثبتناه عن م .
(٤) كذا فى م . وفى ط : « أقت » .

وَدُمْتَ لِأَلْفٍ مِثْلِهِ فى سَعَادَةٍ يَذِلُّ بِهَا بَاغٍ وَيَعْتَزُّ مُسْلِمُ
وَلَمَّا رَأَيْتُ الفَخْرَ جُهْدَ مُقَصِّرٍ وَأَنَّكَ أَعْلَى مِنْ مَدِيحِى وَأَعْظَمُ
خَتَمْتُ ثَنَائِى بِالدُّعَاءِ وَهَأَنَا أُقَلِّبُ فِى كَفِّ النَّدَى وَأُسَلِّمُ

فى رثاء الغنى بالله

ثم قال : ولمّا انتقل مولانا الجد إلى رضوان الله ونعيم خُلده ، وقام مولانا الوالد وليّ عهده بالأمر من بعده ، أنشده رثاء فى السَّلَف ، وهناء فى الخَلَف ، رحمة الله تعالى عليهما : [٣٢٩]

[عَزَاءٌ فَإِنَّ الشَّجْوَ قَدْ كَانَ يُسْرِفُ وَبُشْرَى بِهَا الدَّاعِى عَلَى الغَوْرِ يُشْرِفُ][1]
لَئِنْ غَرَبَ البَدْرُ المُنِيرُ مُحَمَّدٌ لَقَدْ طَلَعَ البَدْرُ المُكَمَّلُ يوسُف
وإِنْ رُدَّ سيفُ المُلْكِ صَوْناً لِغِمْدِهِ فَقَدْ سُلَّ مِنْ غِمْدِ[2] الخِلَافَةِ مُرْهَف
وَإِنْ طَوَتِ البُرْدَ اليَمَانِى يَدُ البِلَى فَقَدْ نُشِرَ البُرْدُ الجَدِيدُ المُفَوَّف
وَإِنْ نَضَبَ الوَادِى وَجَفَّ مَعِينُهُ فَقَدْ فَاضَ بَحْرٌ بِالجَوَاهِرِ يَقْذِف
وإِنْ صَوَّحَ الرَّوْضُ الذى يُنْبِتُ الغِنَى فَقَدْ أَزْهَرَ الرَّوْضُ الذى هُوَ يُخْلِف
وَإِنْ أَقْلَعَتْ سُحْبُ الحَيَا وَتَقَشَّعَتْ فَقَدْ نَشَأَتْ مِنْهَا غَمَائِمُ وُكَّف
وإِنْ صَدَعَ الشَّمْلَ الجَمِيعَ[3] يَدُ النَّوَى بِيُوسُفَ فَخْرِ المُنْتَدَى يَتَأَلَّف
وإِنْ رَاعَ قَلْبَ الدِّينِ نَعْيُ إِمَامِهِ فَقَدْ هُزَّ مِنْهُ بِالبِشَارَةِ مَعْطِف
وَقَدْ مَلَكَ الإِسْلَامَ خَيْرُ خَلِيفَةٍ مِنَ البَدْرِ أَبْهَى بَلْ مِنَ الشَّمْسِ أَشْرَف
يُعِيرُ مُحَيَّاهُ الصَّبَاحَ إِذَا بَدَا وَتَخْجَلُ يُمْنَاهُ الغَمَامَ وتَخْلُف
فَمِنْ نُورِ مَرْآهُ الكَوَاكِبُ تَهْتَدِى وَمِنْ فَيْضِ جَدْوَاهُ الحَيَا تَتَوَكَّف

(١) هذا البيت عن م .
(٢) فى ط : « سيف » . والتصويب عن م .
(٣) فى ط : « الجميل » والتصويب عن م .

وَلَمّا قَضَى المَوْلَى الإمَامُ مُحَمَّدٌ ... تَحَكَّمَ فِى النَّاسِ الأَسَى والتَّأَسُّفُ

فَلَا جَفْنَ إلَّا مُرْسِلٌ سُحْبَ دَمْعِهِ ... وَلَا قَلْبَ إلَّا بالجَوَى يَتَلَهَّفُ

وَقَدْ كَادَتْ الدُّنْيَا تَمِيدُ بِأَهْلِهَا ... وَقَدْ كَادَتْ الشُّمُّ الشَّوَامِخُ تَرْجُفُ

وَقَدْ كَادَتْ الأَفْلَاكُ تَرْفَضُّ حَسْرَةً ... وَكَادَتْ بِها الأَنْوارُ تَخْبُو وتُكْسَفُ

وَلَكِنْ تَلَافَى اللهُ أَمْرَ عِبَادِهِ ... بِوَارِثِهِ واللهُ بالنَّاسِ أَرْأَفُ

فَلِلدِّينِ والدُّنْيَا ابْتِهَاجٌ وغِبْطَةٌ ... ولِلثَّغْرِ ثَغْرٌ بالمُنَى يَتَرَشَّفُ

أَمانٌ كَمَا تَنْدَى الشَّبِيبَةُ نَضْرَةً(١) ... يُمَدُّ لَهُ ظِلٌّ عَلَى الأَرْضِ أَوْرَفُ

طَلَعْتَ عَلَى الإسْلَامِ فِى دَوْلَةِ الرِّضَا ... فَأَمَّنْتَهُ مِنْ كُلِّ مَا يَتَخَوَّفُ

بِوَجْهٍ يُرِينَا البَدْرَ عِنْدَ طُلُوعِهِ ... وفِى وَجْنَةِ البَدْرِ المُنِيرِ التَّكَلُّفُ

وعَزْمٍ كَمَا انْشَقَّ الصَّبَاحُ مُصَمِّمٍ ... وَرَأْيٍ بِهِ بِيضُ الصَّوَارِمِ تُرْهَفُ

وَحَوْلَكَ مِنْ حِفْظِ الإلٰهِ كَتَائِبٌ ... وفَوْقَكَ مِنْ ظِلِّ السَّعَادَةِ رَفْرَفُ

فَوَاللهِ مَا نَدْرِى والعِلْمُ عِنْدَنَا ... بَرَاهِينُ عَنْ وَجْهِ الحَقَائِقِ تَكْشِفُ

أَوَجْهُكَ أَمْ شَمْسُ النَّهَارِ تَطَلَّعَتْ ... وَكَفُّكَ أَمْ سُحْبُ الحَيَا تَتَوَكَّفُ

فَكَمْ لَكَ مِنْ ذِكْرٍ جَمِيلٍ ومَفْخَرٍ ... عَمِيمٍ عَلَى أَوْجِ الكَوَاكِبِ يُشْرِفُ

يُزَارُ بِهِ البَيْتُ العَتِيقُ وَزَمْزَمٌ ... وَيَعْرِفُهُ حَتَّى الصَّفَا والمُعَرَّفُ [٣٢٠]

وَمَنْ يَسْأَلِ الأَيَّامَ تُخْبِرْهُ أَنَّهَا ... بِقَوْمِكَ تَزْهَى فِى الفَخَارِ وتَشْرُفُ

وَهَلْ تَهْدِمُ الأَيَّامُ بُنْيَانَ مَفْخَرٍ ... تُشَيِّدُهُ آىٌ كِرَامٌ وَمُصْحَفُ

وَلَوْ كَانَتْ الأَيَّامُ قَبْلُ تَنَكَّرَتْ ... فَبِاسْمِكَ يَا بَدْرَ الهُدَى تَتَعَرَّفُ

أَلَا لَا تَرُعْنَا الحَادِثَاتُ فَإِنَّنَا ... عِصَابَةُ تَوْحِيدٍ بِهِ نَتَشَرَّفُ

(١) فى م: «ترضى الشبيبة روضه».

وَلَيْسَ لَنَا إِلَّا التَّوَكُّلَ عَادَةٌ ... وَظَنٌّ جَمِيلٌ وَعْـدُهُ لَيْسَ يُخْلَفُ
فَمَنْ مُبْلِغٌ عَنَّا الْغَنِيَّ بِرَبِّهِ ... وَقَدْ سَارَ لِلْفِرْدَوْسِ يُحْيَا وَيُتْحَفُ
بِآيَةِ مَا بَلَّغْتَ دِينَ مُحَمَّدٍ ... أَمَانِيَّ لِلرَّحْمَنِ تُدْنِي وَتُزْلِفُ
وَعَنْكَ يُرَوِّي النَّاسُ كُلَّ غَرِيبَةٍ ... يُرَوِّي لَنَا مِنْهَا الْغَرِيبُ الْمُصَنَّفُ[(١)]
فَكَسَّرْتَ تِمْثَالاً وَهَدَّمْتَ بِيعَةً ... وَنَاقُوسُهَا بِالْكُفْرِ يَهْذِي وَيَهْتِفُ
وَكَمْ مِنْ مَنَارٍ بِالْأَذَانِ عَمَرْتَهُ ... فَصَارَتْ بِهِ الْآذَانُ بَعْدُ تُشَنَّفُ
وَسِرْتَ وَقَدْ خَلَّفْتَ خَيْرَ خَلِيفَةٍ ... لَكَ الْفَخْرُ مِنْهُ وَالثَّنَاءُ الْمُخَلَّفُ
أَيُوسُفُ قَدْ أَرْضَيْتَهُ أَجْمَلَ الرِّضَا ... وَكَانَ بِمَا تَرْضَى وَتَخْتَارُ يَكْلَفُ
وَكُنْتَ لَهُ يَاقُرَّةَ الْعَيْنِ قُرَّةً ... عَلَى بِرِّهِ الْمَحْتُومِ تَحْنُو وَتَرْأَفُ
سَتَجْرِي عَلَى آثَارِهِ سَابِقَ الْمَدَى ... فَيُهْدَى لَهُ مِنْكَ الثَّنَاءُ الْمُضَعَّفُ
سَيَلْقَى عَدُوُّ الدِّينِ مِنْكَ عَزَائِمًا ... إِلَيْهِ بِجَرَّارِ الْكَتَائِبِ تَزْحَفُ
وَيَأْسَفُ لَمَّا يُبْصِرُ الْبَرَّ يَرْتَمِي ... بِفُرْسَانِهِ وَالْبَحْرَ بِالسُّفْنِ يَقْذِفُ
وَتَفْتَحُ مِنْ بُلْدَانِهِ كُلَّ مُقْفَلٍ[(٢)] ... يُعَبِّدُ عُبَّادَ الصَّلِيبِ وَيُوسُفُ
فَمَا أَرْؤُسُ الْكُفَّارِ إِلَّا حَصَائِدٌ ... بِسَيْفِكَ سَيْفِ اللهِ تُجْنَى وَتُقْطَفُ
حُسَامُكَ رَقْرَاقُ الصَّفِيحِ كَأَنَّهُ ... بِكَفِّكَ مِنْ مَاءِ السَّمَاءِ[(٣)] يُنَطَّفُ
ضَعِيفٌ بِصَحِيحِ النَّصْرِ مِنْ فَتَكَاتِهِ ... فَيُرْوَى لَنَا مِنْهُ الصَّحِيحُ الْمُضَعَّفُ[(٤)]
وَرُمْحُكَ مُرْتَاحُ الْمَعَاطِفِ هِزَّةً ... كَأَنْ قَدْ سَقَتْهُ مِنْ دَمِ الْكُفْرِ قَرْقَفُ
وَلَا عَيْبَ فِيـهِ غَيْرَ أَنَّ سِنَانَهُ ... إِذَا شَمَّ رِيحَ النَّقْعِ فِي الْحَرْبِ يَرْعَفُ

(١) فى البيت تورية بكتاب « الغريب المصنف » فى اللغة ، لأبى عبيد القاسم بن سلام .
(٢) فى م : « معقل » .
(٣) فى م . : « ماء السماحة » .
(٤) فى م : « المصحف » .

فإن كَعَّتْ[١] الأَبْطَالُ فِى حَوْمَةِ الوَغى ... يُشِيرُ لَنَا مِنْهُ البَنَانُ المُطَرَّفُ[٢]

لَقَدْ فَخَرَ الإسلامُ مِنْكَ بِبَيْعَةٍ ... وَزَالَ بها عَنْهُ الأَسَى والتَّخَوُّف

وَأَلْبَسْتَهُ بُرْداً مِنَ الفَخْرِ ضَافِياً ... عَلَى عِطْفِهِ وَشْىُ المَدِيحِ يُفَوَّف

وقَدْ نُظِمَتْ فِيهِ السُّعُودُ[٣] مَيَامِناً ... كَا يُنْظَمُ العِقْدُ النَّفِيسُ ويُرْصَف[٤] [٢٣١]

فَدُمْتَ قَرِيرَ العَيْنِ فِى كلِّ غِبْطَةٍ ... بِمَا شِئْتَ مِنْ آمَالِكَ الغُرِّ تُسْعَف

ولهُ على لحد الفنى بالله

وأنشد على لحده المقدس — رحمه الله تعالى — فى المعنى قوله :

ضَرِيحَ أَمِيرِ المُسْلِمِينَ مُحَمَّدٍ ... يَخُصُّكَ رَبِّى بالسَّلامِ المُرَدَّدِ

وَحَيَّاكَ[٥] مِنْ رُوحِ الإلهِ تَحِيَّةٌ ... مَعَ المَلإ الأَعْلَى تَرُوحُ وَتَغْتَدِى

وشَقَّتْ جُيُوبَ الزَّهرِ فيكَ[٦] كَمائِمٌ ... يَرِفُّ بهَا الرَّيْحَانُ عَنْ خَضِرٍ[٧] نَدِى

وَصَابَتْ مِنَ الرُّحْمَى[٨] عَلَيكَ غَمَائِمٌ ... تُرَوِّى ثَرَى هَذَا الضَّرِيحِ المُنَجَّد

وَزَارَتْكَ مِنْ حُورِ الجِنَانِ أَوَانِسٌ ... نَوَاعِمُ فى كلِّ النَّعِيمِ المُخَلَّد

وَجَاءَتْكَ بالبُشْرَى مَلائكةُ الرِّضَا ... كَمَا جَاءَ فى الذِّكْرِ الحَكِيمِ المُمَجَّد

وَصَافَحَ مِنْكَ الرَّوْضُ أَطْيَبَ تُرْبَةٍ ... وعاهَدَ مِنْكَ المُزْنُ أَكْرَمَ مَعْهَد

رِضاً اللهِ والصفحُ الجميلُ وعفوُه[٩] ... يُوَالَى عَلَى ذَاكَ الصفيحِ المُنَضَّد

---

(١) كعت : جبنت .

(٢) طرفت المرأة بنانها : إذا خضبته بالحناء ، يشبه سنان الرمح المخضب بالدم بالبنان المخضب بالحناء .

(٣) كذا فى م . وفى ط : « وقد نظمت فيه المديح » .

(٤) فى الأصلين : « يوصف » بالواو . ولعلها محرفة عما أثبتناه .

(٥) فى م : « وجاءتك » .

(٦) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « فيه » .

(٧) فى نفح الطيب : « خضل » .

(٨) فى ط : « وطابت من المولى » والتصويب من نفح الطيب .

(٩) فى ط : « والعفو الجميل وصفحه » .

ويا صَدَفًا قَدْ حَازَ مِنْ جَوهَرِ العُلاَ لِـكلٍّ[1] نَفيسٍ بالنَّفَاسَةِ مفرَدِ
أعِندَكَ أنَّ الحِلْمَ وَالعِلْمَ وَالحِجا وَزهْرَ الحِلَى قَدْ أُدْرِجَتْ طيَّ مُلْحَد
وَهَلْ أَنْتَ إِلاَّ هَالَةُ القَمَرِ الذى بنورِ هُداهُ الشُّهْبُ تُهْدَى وَتَهْتَدِى[2]
ويا عَجَبًا من ذَلِكَ التُّرْبِ كيفَ لا يَفيضُ ببحرٍ للسَّمَاحَةِ مُزْبِد
لَقدْ ضاقَتِ الأكْوَانُ وَهْىَ رَحِيبَةٌ بما حُزْتَ مِنْ فَخْرٍ عَظيمٍ وَسُؤْدُد
قَدِمْتَ عَلَى الرَّحمٰنِ أكرمَ[3] مَقْدَمٍ وَزُوِّدْتَ مِنْ رُحْمَاهُ خَيْرَ مُزَوَّد
أقامَ بكَ المَوْلَى الإمَامُ مُحَمَّدٌ مُؤَمِّلَ فَوْزٍ بالشفيعِ مُحَمَّـــد
فجَاءَ كما يَرْضَى وَتَرْضى بهِ العُلاَ وأَنْجزَ لِلآمالِ[4] أكْرَمَ مَوْعِد
ومَدَّ ظِلاَلَ العَــدْلِ فى كلِّ وِجْهَةٍ وكفَّ أكُفَّ البَغْىِ مِن كلِّ مُعْتَدى
وقَامَ بمَفْرُوضِ الجِهَادِ عَنِ الوَرَى وعَوَّدَ دِينَ اللهِ خَـــيْرَ مُعَوَّد
قَضى بَعْدَ مَا قَضّى الخِلاَفَةَ حَقَّها وعَامَلَ وجْهَ اللهِ فى كلِّ مَقْصِـــد
وفَتَّح بالسَّيْفِ المَالِكَ عَنْــوَةً ومَدَّتْ لهُ أمْلا كُها كَفَّ مُجْتَدى
وكَسَّرَ تِمثَالَ الصَليبِ وأُخْرِسَتْ نَواقيسُ كَانَتْ للضَلالِ بمَرْصَد
وطَهَّرَ مِحْرابًا وجَدَّدَ مِنْــــبَرًا وأَعْلَنَ ذِكْرَ اللهِ فى كلِّ مَسْجِد
ودَانَتْ له الأمْلاكُ شَرْقًا ومَغْرِبًا وكلُّهُمُ أَلْقى لهُ المُلْكَ باليَـــد
[٣٣٢] وطَبَّقَ مَعْمُورَ البَسِيطَةِ ذِكْرُهُ وسارَتْ بهِ الرُّكبَانُ فى كل فَدْفَد
وسافَرَ عَنْ دَارِ الفَنَاءِ لِيجْتَنى بِمَا قَدَّمَ اليومَ السَعَادَةَ فى غــد

(١) فى نفح الطيب: «فاز من جوهر ... بكل».
(٢) فى ط: «وتقتدى».
(٣) فى م: «أيمن». وما أثبتناه عن ط ونفح الطيب.
(٤) فى الأصلين: «الأملاك». وما أثبتناه من نفح الطيب.

وقامَ بأمْرِ اللهِ حَقَّ قِيَامِهِ بعزْمَةٍ لا وَانٍ ولاَ مُتَرَدِّدِ
لئِنْ سارَ للرَّحمٰنِ خَيْرَ مُوَدَّعٍ وحَلَّ مِنَ الفِرْدَوْسِ أَشْرَفَ مَقْعَدِ
فَقَدْ خَلَّفَ المَوْلَى الخليفَةَ يوسُفًا يُعِيدُ له غُرَّ المَسَاعِى ويَبْتَدِى
سَبِيلَكَ فى سُبْلِ المَكَارِمِ يَقْتَفِى وهَدْيَكَ يا خَيْرَ الأَئِمَّةِ يَقتدى
محمَّدُ جَلَّى الخطبَ مِنْ بَعْدِ يوسُفٍ ويُوسُفُ جَلَّى الخطبَ بعد محمَّدِ
ولَوْ وَجَدَ الناسُ الفِدَاءَ مُسَوَّغًا فَدَاكَ بِبَذْلِ النَّفسِ كلُّ مُوحِّدِ
سَتَبْكِيكَ أَرْضٌ كُنْتَ غَيْثَ بلادِها وتبكيكَ حَتَّى الشُّهْبُ فى كلِّ مَشْهَدِ
وتَبْكِي عَلَيْكَ السُّحْبُ مِلءَ جُفونِهَا بِدَمْعٍ يُرَوِّى غُلَّةَ المُجْدِبِ الصَّدِى
وتَلْبَسُ فيكَ النَّيِّرَاتُ ظَلاَمَهَا حِداداً ويُذْكِى النَّجْمُ جَفْنَ مُسَهَّدِ
ومَا هِىَ إلاَّ أَعْيُنٌ قد تَسَهَّدتْ فَكَحَّلَها نَجْمٌ[1] الظَّلامِ بإثْمِدِ
فلاَ زِلْتَ فى ظِلِّ النعيمِ مُخَلَّدًا ونَجْلُكَ يَحيَا بالبَقَاءِ المُخَلَّدِ
وأَوْرَدَكَ الرَّحمٰنُ حَوْضَ نَبِيِّهِ وأَصْدَرَ من خَلَفْتَ عَنْ خَيْرِ مَوْرِدِ
عَلَيْكَ سَلاَمٌ مِثْلُ حَمْدِكَ عَاطِرٌ يَفُضُّ خِتَامَ المِسْكِ عَنْ تُرْبِكَ النَّدِى
وَصَلَّى عَلَى المُخْتَارِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ صَلاَةً بِهَا نَرْجُو الشفَاعَةَ فى غدِ

وفى رثاء الغنى بالله أيضاً

ثم قال : وقال أيضاً فى هـذا الغرض من رثائه ، ومدح مولانا الوالد فى أثنائه :

سَــلامٌ عَلَى الدُّنْيَا جَمِيعاً وَمَا فِيهاَ غَداةَ نَعَتْ شَمْسَ الخِلافَةِ مَنْ فِيها
نَعَتْ مَالِكَ الأَمْلاكِ والكَامِلَ الذى يَكُفُّ عَوَادِى الحَادِثَاتِ وَيَكْفِيها
عَمِيدَ بَنِى الأَنْصَارِ غَيْرَ مُدافَعٍ وَمُحْيِي مَعَالِيها وَمَوْلَى مَوَالِيها

(١) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « جفن » .

وَبَدْرَ دَيَاجِيهَا وَشَمْسَ نَهَارِهَا ... وَبِشْرَ مُحَيَّاهَا وَنُورَ مَجَالِيهَا
خَفَا الكَوكَبُ الوَقَّادُ قَدْ كَانَ نُورُهُ ... يُجَلِّي مِنَ الدُّهْمِ الخُطُوبِ دَيَاجِيهَا
هَوَى[1] القَمَرُ الوَضَّاحُ مِنْ أُفُقِ العُلَا ... فَأَظْلَمَ جَوُّ النَّـيِّرَاتِ بِسَارِيهَا
وَقَدْ كُسِفَتْ شَمْسُ الهِدَايَةِ بَعْدَمَا ... أَبَانَ سَبِيلَ الحَقِّ لِلْخَلْقِ هَادِيهَا
هُوَ الجَبَلُ الرَّاسِي تَصَدَّعَ بَعْدَ مَا ... أَقَرَّتْ بِهِ شُمُّ الجِبَالِ رَوَاسِيهَا
يَعِزُّ عَلَى دِينِ الهُدَى أَنَّ شَمْسَهُ ... يَطُولُ بِأَطْبَاقِ التُّرَابِ تَوَارِيهَا[2]
يَعِزُّ عَلَى زُهْرِ النُّجُومِ مَتَى سَرَتْ ... وَلَا تَلْمَحُ الهَدْيَ الَّذِي كَانَ يَهْدِيهَا
لِأَنْدَلُسٍ ثُكْلٌ عَلَيْهِ مُرَدَّدٌ ... لَهُ لَبِسَتْ سُودَ المُسُوحِ نَوَاحِيهَا[3]
ثَلَاثِينَ حَوْلًا بَعْدَ خَمْسٍ تَعَوَّدَتْ ... يُدَافِعُ عَنْهَا كُلَّ خَطْبٍ وَيَحْمِيهَا
أُبَكِّيهِ لِلرَّايَاتِ يَخْفُقُ بَنْدُهَا ... وَفِي مَرْقَبِ النَّصْرِ المُؤَزَّرِ يُعْلِيهَا
أُبَكِّيهِ لِلْخَيْلِ المُغِيرَةِ بِالضُّحَى ... وَقَدْ أَبْعَدَ الفَتْحُ المُبِينُ مَرَامِيهَا
وَيَبْكِيهِ مَعْمُورُ البَسِيطَةِ كُلِّهَا ... وَمَا ضَمَّ مِنْ دَانِي البِلَادِ وَقَاصِيهَا
وَتَبْكِيهِ سُحْبٌ أَخْجَلَتْهَا بَنَانُهُ ... وَتُرْسِلُ دَمْعَ الغَيْثِ حُزْنًا مَآقِيهَا
وَتَبْكِيهِ حَتَّى الشُّهْبُ فِي أُفُقِ العُلَا ... وَتَلْبَسُ جِلْبَابَ الظَّلَامِ جَوَارِيهَا
عَزَاءَ أَمِيرَ المُسْلِمِينَ فَإِنَّهَا ... مَقَادِيرُ رَبِّ الخَلْقِ فِي الخَلْقِ يُجْرِيهَا
هُوَ المَوْتُ وِرْدٌ لِلْخَلِيقَةِ كُلِّهَا ... أَوَاخِرُهَا تَقْفُو سَبِيلَ أَوَالِيهَا
وَمَا بَيْنَنَا حَيٌّ وَمَا بَيْنَ آدَمٍ ... أَلَا هَكَذَا سَوَّى البَرِيَّةَ بَارِيهَا

(١) في ط : « هو » وهو تحريف .
(٢) كذا في م ، وفي ط : « رواسيها » . وهو تحريف .
(٣) كذا في ط . وفي م : « لياليها » .

وفى مَوْتِ خَيْرِ الخَلقِ أَكْبَرُ أُسْوَةٍ تُصَبِّرُ أَحْرَارَ النُّفُوسِ وتُسْلِيها

أَمَوْلَايَ لَوْ كانَ الفِدَاءُ مُسَوَّغًا فَدَيْنَاكَ بالدُّنيا جَمِيعًا وما فِيها

أَمَوْلَايَ كَمْ مِنْ نِعْمَةٍ لكَ عِندَنا إذَا نَحْنُ رُمْنَا حَصْرَهَا لَيْسَ نُحْصِيهَا

أَمَوْلَايَ خَلَّفْتَ العَبِيدَ إلى الأَسَى يُناجِيكَ مِنْ فَرْطِ الشُّجُونِ مُنَاجِيها

وَقدْ مَاتَ مِنَّا الصَّبْرُ إلّا صُبَابَةً بذِكْرِكَ فِي جُنْحِ الدُّجُنَّةِ نُحْيِيها

أَمَوْلايَ يامَوْلايَ هَلْ أَنْتَ سَامِعِي أَبُثُّكَ مَا يُشْجِي القُلوبَ ويُدْمِيها

تَحَفيتَ بى حَتَّى نَضَوْتُ شَبِيبَتِى عَزِيزًا وَجِيهًا حَيْثُمَا رُمْتُ تَوْجِيها

وقدْ كانَ ظَنِّي أَنْ تَكُونَ جَنَازَتِى يُشَيِّعُهَا مِنْكَ الرِّضَا وَيُوَارِيها[1]

[وقدعِشْتُ حَتّى ذُقْتُ فَقْدَكَ قَلَّمَا تَبَلَّغُ نَفْسٌ مَا تُرِيدُ أَمانِيها]

ولولا أبو الحجّاج نجلُك لم يكن لدِينِ الهُدَى كرّاتُ بَحْرٍ يُزَجِّيها

ولكنَّهُ وَاللهُ يُجْمِلُ[2] صَبْرَه مَنَاقِبكَ الغُرَّ الكِرَامَ سَيُحْيِيهَا

فَخَلَّفْتَنا مِنْهُ لِأَكْرَمِ كَافِلٍ يُحَمِّلُ أَعْباءَ الخِلافةِ كَافِيها

سريرَتُهُ الرُّحْمَى وَسِيرَتُهُ الرِّضَا وَأَخلاقُهُ الغُرُّ الكَرِيمَةُ تَدْرِيها

وسيلَتُكَ العُظْمَى وَظِلُّكَ فَوْقَنَا وعُمْدَتُنا واللهُ فى العِزِّ يُبْقِيها

فما كُنْتَ إِلّا الشَّمْسَ قدغَرَبَتْ لَنَا وأَنْوَارُهَا بَدْرُ التَّمَامِ يُجَلِّيها

وَمَا أَنْتَ إِلّا المِسْكُ إِنْ تَخْفَ ذاتُهُ يَنِمُّ بِهَا العَرْفُ الذَّكِيُّ فَيُفْشِيها

أَلَا قَدَّسَ الرَّحْمنُ نَفْسًا كَرِيمَةً بكُلِّ عَزِيزٍ فى الوُجُودِ نُفَدِّيها

وبُشْرى لنا أَنَّ السَّعَادَةَ نُزْلُهَا وأَنَّ رِضَا اللهِ الكَرِيمِ يُرَضِّيها

وحَاشَا وكلاَّ أَنْ تَضِيعَ وسائل سَيَذْخَرُها الرَّبُّ الكَرِيمُ ويُنْشِيها

(١) كذا فى م . وفى ط : « ويواليها » .
(٢) كذا فى م . وفى ط : « يحمد » .

فكمْ مِنْ جِهادٍ قدْ رَفعْتَ بُنودَهُ ... وقدْ أثمرتْ فيها المعالِي[1] عَوالِيها

كَسرْتَ تماثيلَ الصليبِ وأخرسَتْ ... نَواقيسُ كانتْ بالضلالِ تُناغيها

وكم مِنْ منارٍ قدْ أعدْتَ أذانَهُ ... وأعلنَ فيهِ دعوةَ الحقِّ داعيها

وكم مِنْ رياضٍ للكتائبِ قدْ غدَتْ ... تضيقُ بمُستنِّ الجيادِ نَواحيها

ومُلتفِّ زرعٍ بالأسنَّةِ مُزهرٍ ... ولكنْ بهِ المرّانُ تحلو مجانيها

إذا ظَمِئتْ منها الذوابلُ في الوغَى ... جَداولُ أنهارِ السُّيوفِ تُروِّيها

غِراسٌ زكيٌّ للجهادِ غرسْتَهُ ... فصرْتَ إلى دارِ السعادةِ تجنِيها

ولوْ لمْ يكنْ إلّا سنينَ قطعْتَها ... رَهينَ شكاةٍ لا تزالُ تُعانيها

صَبرْتَ لها صبْرَ الكرامِ وإنّما ... ذَخرْتَ أجورًا فضلُ ربِّكَ جازيها

أمالكَ في الأنصارِ خيْرُ وسيلةٍ ... وقد كنْتَ بالنصرِ العزيزِ تُحيِّيها

وحَسْبُكَ بالمُختارِ أكرمِ[2] شافعٍ ... وسُنَّتُهُ واللهِ لا زلْتَ تُحْييها

علَى عالَمِ الدُّنيا وفخْرِ مُلوكِها ... تحيَّةُ ربٍّ لا يزالُ يُوالِيها

سأبكيهِ ما دامَ الحمامُ مُطوَّقًا ... وما سجعَتْ تَبكي الهديلَ قماريها

وأهديهِ مِنْ طيبِ السلامِ مُعطَّرًا ... كما فتقَتْ أيدي التجارِ غواليها

وأسألُ ربَّ العرشِ[3] سُحْبَ كرامةٍ ... تَسُحُّ علَى ذاكَ الضريحِ غَواديها

ونسألُ فتحًا للخليفةِ يُوسفٍ ... يُملِّكُهُ أقصَى البلادِ ومَنْ فيها

وله في استعطاف السلطان أبي الحجاج

ثم ذكر هذا المؤلف جملة نظم ابن زمرك في السلطان أبي الحجاج واستعطافه، وما يهزّ له الرضا من شمائل أعطافه، ومنها:

بما قدْحُزْتَ مِنْ كرَمِ الخِلالِ ... بما أدركْتَ مِنْ رُتَبِ الجلالِ

(١) كذا في م . وفي ط : « العوالي » .
(٢) في م : « أكبر » .
(٣) في م : « وأسأل رب العرش » .

[٣٣٠]

بما خوّلتَ من دينٍ ودُنيا بما قد حُزتَ من شرفِ المعالى[1]
بما أوليتَ من صُنعٍ جميلٍ يُطابقُ لفظُهُ معنى الكمال
تغمّدنى بفضلك واغتفرها ذُنوبًا فى الفِعالِ وفى المقال

ولهُ فى خطاب السلطان أبى عبد الله

ثم قال : ومن ذلك أيضاً يخاطب أخانا السلطان أبا عبد الله رحمة الله تعالى عليه ، متوسلا بقديم ذمامه ، والخدم المتعددة من نظامه :

أتعطشُ أولادى وأنتَ غمامةٌ تعمُّ جميعَ الخلق بالنفعِ والسُّقيا
وتُظلِمُ أوقاتى ووجهُــكَ نيّرٌ تفيضُ بهِ الأنوارُ للدينِ والدُّنيا
وجدُّكَ قد سمّاكَ ربُّكَ باسمهِ وأورثكَ الرحمنُ رتبتَهُ العُليا
وقد كانَ أعطانى الذى أنا سائلٌ وسوّغنى من غيرِ شرطٍ ولا ثُنيا[2]
وشِعرى فى عُرِّ المَصانعِ خالدٌ يُحيِّيهِ عنّى فى المماتِ وفى المحيا
ومازلتُ أُهدى المدحَ مِسكاً مُفتّقاً فتحملُهُ الأرواحُ عاطرة الرّيّا
وقدأ كثرَ العبدُ[3] التشكّى وإنّهُ وحقّكَ يافخرَ الملوكِ قد استحيا
وما الجودُ إلّا ميتٌ غيرَ أنّهُ إذا نفختْ يمناكَ فى رُوحهِ يحيا
فمنْ شاءَ أنْ يدعو لدينِ محمّدٍ فيدعُو لمولانا الخليفةِ بالبُقيا

ومن شعره فى أبى عبد الله

ثم ذكر قصائد كثيرة ومقطوعات فى مدحه لأخيه أبى عبد الله ، إلى أن قال :

وقال أيضاً فيه وقد نزل بالوَلَجة من مرج الحضرة .

مَنزِلُ اليُمنِ والرضا والسُّعودِ أُنجزتْ فيهِ صادقاتُ الوُعودِ

---

(١) فى نفح الطيب : « الجمال » .
(٢) ولا ثنيا : أى من غير استثناء .
(٣) فى الأصلين : « أضمر » . وما أثبتناه عن نفح الطيب .

كلَّ يَوْمٍ نَزَاهَةٌ إنْ تَقَضَّتْ أَنْشَدَتْهَا السُّعُودُ بِاللهِ عُودِى
جَمَعَ الْمُسْتَعِينُ وصفَ كمالٍ بَيْنَ بَأْسٍ عَمَّ الْملوكَ وَجُود
فَاهْنَ فى غِبْطةٍ وعزَّةِ مُلْكٍ أَنْتَ واللهِ فَخْرُ هَذَ الْوُجُود

وقال أيضاً مشيراً لتوليته العَلامة :

لَكَ غُرَّةٌ وَدَّ الصَّبَاحُ جَمَالَهَا وَمحَاسنٌ تَهْوَى الْبُدُورُ كَمَالَهَا
وَشَمَائِلٌ تَحْكِى الرياضُ خِلالَهَا وَأَنَامِلٌ تَرْجو الأَنَامُ خِلالَها[1]
لِلْمُسْتَعِينِ خلافةٌ[2] نَصْرِيَّةٌ عَرَفَتْ مُلوكُ الْعَالَمِينَ جَمَالَها[3]

[٢٣٦]

وأَنَا الذى قَدْ نَالَ مِنْكَ مَعَالياً تَهْوَى النُّجُومُ الزَّاهِرَاتُ مَنَالَها
تُهْدِيهِ ما قَدْ نِلْتَهُ مِنْ بَعْضِها والفخرُ كلُّ الفخرِ فِيمنْ نَالَها
فى كلِّ يومٍ مِنْكَ مِنَّةُ مُنْعِمٍ لَوْ طَاوَلَتْ سَمْكَ الْمَلا[4] مَاطَالَها
بَلَّغْتَ آمالَ الْعَبِيدِ فَبُلِّغَتْ فِيكَ الْعَبِيدُ مِنَ الْبَقَا آمالَها

ثم قال : وقال أيضاً وكتبها إليه مع خمسة أقلام :

أَيَا مَلِكاً لَمْ يَبْدُ لِلْعَيْنِ حُسْنُهُ سِوَى مَلَكٍ قَدْ حَلَّ مِنْ عالَمِ القُدْسِ
لَكَ الخيْرُ خُذْهَا كالأَنَامِلِ[5] خَمْسَةً تَعَوَّذُ مَرْآكَ الْمُكَمَّلَ بِالْخَمْسِ
فَمَنْ أَبْصَرَتْ عَيْنَاهُ مَرْآكَ فَلْيَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ أَوْ آيَةِ الْكُرْسى

وله فى خطاب مولاه الوالد

ثم قال بعد ذكر قصيدة : وقال يخاطب مولانا الوالد — رحمة الله عليه —

(١) فى م : « ترجى الأنام حلاها » . وفى نفح الطيب : « ترجى الأنام حلالها » .
(٢) فى ط : « جلالة » . وما أثبتناه عن م ، ونفح الطيب .
(٣) فى نفح الطيب : « جلالها » .
(٤) فى نفح الطيب : « السما » .
(٥) كذا فى نفح الطيب . وفى ط : « من أنامل » .

وقد مرّ معه بفحص ريّة ، والثلج قد عم أنديتــه ، و بسط أرديته ، فى وجهة توَجَّهها مولانا الجد — تغمده الله تعالى — برحمته إلى ما لَقة :

يَامَنْ بِهِ رُتَبُ الْمَعالِى[1] تَعْتَلِي وَمَعَالِمُ الْفَخْرِ الْمَشِيدَةِ تَبْتَنِي
ازْجُرْ بِهذَا الثَّلْجِ فَأْلاً إِنَّهُ ثَلْجُ الْيَقِينِ بِنَصْرِ مَوْلَانَا الْغَنِى
بَسَطَ الْبَيَاضَ كَرَامَةً لِقُدُومِهِ وافْتَرَّ ثَغْرًا عَنْ مَسَرَّةِ مُعْتَنِى
فَالْأَرْضُ جَوْهَرَةٌ تَلُوحُ لِمُجْتَلٍ والدَّوْحُ[2] مَزْهَرَةٌ تَفُوحُ لِمُجْتَنِى
سُبْحَانَ مَنْ أَعْطَى الْوُجُودَ وُجُودَهُ لِيَدُلَّ مِنْهُ عَلَى الْجَوَادِ الْمُحْسِنِ
وَبَدَائِعُ الْأَكْوَانِ فِى إِتْقَانِهَا أَثَرٌ يُشِيرُ إِلَى الْبَدِيعِ الْمُتْقِنِ

مرثيته لأبى القاسم الحسنى

ثم قال : ومن غير السُّلطانيات ، مما بزّ فيه سبقاً وتبريزاً ، وعَرضه على نَقَدة البيان ، فرأت منه كلَّ مُذْهَبَة خَلَصَت إبريزاً ، مرثيّته للقاضى المعظم الشريف أبى القاسم الحسنىّ من شيوخه ، أنجزها الوعد السابق فى المقدّمة بها :

أَغْرَى سَرَاةَ الحىِّ بِالْإِطْرَاقِ نَبَأٌ أَصَمَّ مَسَامِعَ الْآفَاقِ
أَمْسَى بِهِ لَيْلُ الْحَوَادِثِ دَاجِياً وَالصُّبْحُ أَصْبَحَ كَاسِفَ الْإِشْرَاقِ
فُجِعَ الْجَمِيعُ بِوَاحِدٍ جُمِعَتْ لَهُ شَتَّى الْعُلَا وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ [٣٣٧]
هُبُّوا لِحُكْمِكُمُ الرَّصِينِ فَإِنَّهُ صَرْفُ الْقَضَاءِ فَمَا لَهُ مِنْ وَاقِ
نَقَشَ[3] الزَّمَانُ بِصَرْفِهِ فِى صَفْحَهِ : كُلُّ اجْتِمَاعٍ مُؤْذِنٌ بِفِرَاقِ
مَاذَا تُرَجِّى مِنْ زَمَانِكَ بَعْدَمَا عَلِقَ الْفَنَاءُ بِأَنْفَسِ الْأَعْلَاقِ
مَنْ تَحْسُدُ السبعُ الطباقُ علاءَهُ عَالَوْا عَلَيْهِ فِى الثَّرَى بِطِبَاقِ

(١) فى نفح الطيب المخطوط : « الإمامة » . وفى المطبوع : « الإمارة » .
(٢) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « والأرض » .
(٣) كذا فى م . وفى ط : « نشر » .

إنَّ المَنَايَا لِلْبَرَايَا غَايَةٌ سَبَقَ الكِرَامُ لِخَصْلِها بِسِبَاقِ
لَمَّا حَسِبْنَا[1] أَنْ تُحَوَّلَ أَبْؤُسًا كَشَفَتْ عَوَانُ حُرُوبِها عَنْ سَاقِ
مَا كَانَ إِلَّا البَدْرَ طَالَ سِرَارُهُ حَتَّى رَمَتْهُ يَدُ الرَّدَى[2] بِمَحَاقِ
[أَنِفَ المُقَامَ مع الفَنَاءِ نَزَاهَةً فنوى الرحيلَ إلى مُقَامٍ بَاقِ]
عَدِمَ المُوافِقَ فى مُرَافَقَةِ الدُّنَا فَثَنَى[3] الرِّكابَ إلى الرَّفيقِ البَاقِى
أَسَفًا عَلَى ذَاكَ الجَلَالِ تَقَلَّصَتْ أَفياؤُهُ وَعُهِدْنَ خَيْرَ رِوَاقِ
يَا آسِرِى بالصَّبْرِ عِيلَ تَصَبُّرِى دَعْنِى عَدَتْكَ لَوَاعِجُ الأَشْوَاقِ
وَذَرِ[4] اليَرَاعَ تَشِى بِدَمْعِ مِدَادِهَا وَشْىَ القَرِيضِ يَرُوقُ فى الأَوْرَاقِ
يا حَسْرَتِى لِلعِلْمِ أَقْفَرَ رَبْعُهُ وَالعَدْلِ جُرِّدَ أَجْمَلَ الأَطْوَاقِ
رَكَدَتْ رِيَاحُ المَعْلُوَاتِ لِفَقْدِهَا كَسَدَتْ بِهِ الآدَابُ بَعْدَ نَفَاقِ
كَمْ مِنْ غَوَامِضَ قَدْ صَدَعْتَ بِفَهْمِهَا خَفِيَتْ مَدَارِكُهَا عَلَى الحُذَّاقِ
كَمْ قَاعِدٍ فى البِيدِ فَوْقَ قَعُودِهِ قَعَدَتْ بِهِ الآمَالُ دُونَ لَحَاقِ
لِمَنِ الرَّكَائِبُ بَعْدَ بُعْدِكَ تَنْتَضِى مَا بَيْنَ شَأْمٍ تَرْتَمِى وَعِرَاقِ
تَفْلِى الفَلَا بِمَنَاسِمٍ مَفْلُولَةٍ تَسِمُ الحَصَى بِنَجِيعِها الرَّقْرَاقِ
كَانَتْ إِذَا اشْتَكَتِ الوَجَى وَتَوَقَّفَتْ يَهْفُو نَسِيمُ ثَنَائِكَ الخَفَّاقِ
فَإِذَا تَنَسَّمَتِ الثَّنَاءَ أَمَامَهَا مَدَّتْ لَهَا الأَعْنَاقَ فى الإِعْنَاقِ
يَا مُزْجِىَ البُدْنِ القِلَاصِ خَوَافِقًا رِفْقًا بِهَا فَالسَّعْىُ فى إِخْفَاقِ

---

(١) فى م : « لما خشينا » . وفى النفح المخطوط : « حبسنا » .
(٢) فى ط : « الدجى » .
(٣) فى م والنفح المخطوط : « فنضا » .
(٤) فى م : « ودع » .

مَاتَ الذى وَرِثَ العُلَا عَنْ مَعْشَرٍ ... وَرِثُوا تُرَاثَ المَجْدِ باسْتِحْقَاق
رُفِعَتْ لهمْ رَايَاتُ كلِّ جَـلَالةٍ ... فتَمَيَّزُوا فى حَلْبَـةِ السُّبَّاق
عَلَمُ الهُدَاةِ وَقُطْبُ أعْلامِ الوَرَى[1] ... حَرَمُ العُفاةِ لِمُجْتَنَى الأرْزَاق
رَقَّتْ سَجاياهُ وَرَاقَتْ مُجْتَـلَى ... كالشَّمْسِ فى بُعْدٍ وَفى إشْرَاق
كالزَّهْرِ فى لألائِهِ والبَـدْرِ فى ... عَلْيـائِهِ وَالزُّهْرِ فى الإبْرَاق
مَهْمَا مَدَحْتُ سِوَاهُ قَيَّدَ وَصْفَهُ ... وَصِفَاتُه حَمْـدٌ عَلَى الإطْلَاق [٣٣٨]
يا وَارِثاً نَسَبَ النُّبُوَّةِ جَامِعاً ... فى العِلْمِ وَالأَخْلَاقِ وَالأعْرَاق
يَابْنَ الرَّسُولِ وَإنَّها لَوَسِـيلَةٌ ... يَرْقَى بِهَا أَوْجَ المَصَاعِدِ رَاقِ
ورَدَ الكتابُ بِفَضْلِكُمْ وكمالِكُمْ ... فـكَفَى ثَنَاءُ الوَاحِدِ الخَلَّاق
مَوْلَاىَ إنِّى فى عُلَاكَ مُقَصِّرٌ ... قدْ ضَاقَ عَنْ عِلْمٍ[2] النُّجُومِ نطاق
ومَنِ الذى يُحْصِى مَناقِبَ فَضْلِكُمْ[3] ... عَدُّ الحَصَى والرَّمْلِ غَيْرُ مُطَاق
يَهْنِى قُبُورًا زُرْتَها فلقَـدْ ثَوَتْ ... مِنَّا مَصُونَ جَوَانِحٍ وحِـدَاق
خَطَّ الرَّدَى مِنْها سُطُورًا نَصُّها[4]: ... لا بُدَّ أنَّكَ لِلفَنَاءِ مُلَاق
وَلحِقْتَ تَرْجَمَةَ الكتابِ وصدْرَهُ ... وفَوَائدُ المَكْتُوبِ فى الإلْحَاق
كمْ مِنْ سَرَاةٍ فى القُبُورِ كأنَّهُمْ ... فى بَطْنِهَا دُرٌّ ثَوَى بِحِقَاق
قُلْ لِلسَّحَابِ اسْحَبْ ذُيُولَكَ نَحْوَهُ ... والعَبْ بِصَارِمِ بَرْقِكَ الخَفَّاق
أوْدَى الذى غَيْثُ العِبادِ بِكَفِّهِ ... يُزْرِى بِوَاكِفِ غَيْثِكَ الغَيْدَاق

(١) فى م ونفح الطيب: «النهى».
(٢) فى م ونفح الطيب: «حصر».
(٣) فى نفح الطيب: «مجدكم».
(٤) كذا فى م ونفح الطيب. وفى ط: «قبورا زرتها»

إنْ كانَ صَوْبُكَ بالمِيَاهِ فَدَرُّهَا ... دُرٌّ يُرَوِّضُ مَا حِلَ الإمْلَاقِ

بَشَرٌ كثيرٌ قَدْ نُعُوا لمَّا نُعِى[1] ... قَاضِى القُضَاةِ وَغَابَ فى الأَطْبَاقِ

أَلْبَسْتَهُمْ ثَوْبَ الكَرَامَةِ ضَافِياً ... وَأَرَحْتَ مِنْ كَدٍّ وَمِنْ إرْهَاقِ

يَتَفَيَّئُونَ ظِلالَ جَاهِكَ كُلَّمَا ... لَفَحَتْ سَمُومُ الخَطْبِ بالإحْرَاقِ

عَدِمُوا المُوَافِقَ فِى فِرَاقِكَ وَانْطَوَى ... عَنْهُمْ بِسَاطُ الرِّفْقِ وَالإرْفَاقِ

رَفَعُوا سَرِيرَكَ خَافِضِينَ رُءُوسَهُمْ ... مَا مِنْهُمُ إلَّا حَلِيفُ سِيَاقِ[2]

لكِنْ مَصِيرُكَ لِلنَّعِيمِ مُخَلَّداً ... كانَ الذى أَبْقَى عَلَى الأَرْمَاقِ

وَمِنَ العَجَائِبِ أَنْ يُرَى بَحْرُ النَّدَى ... طَوْدُ الهُدَى يَسْرِى عَلَى الأَعْنَاقِ

إنْ يَحْمِلُوكَ عَلَى الكَوَاهِلِ طَالَمَا ... قَدْ كُنْتَ مَحْمُولًا عَلَى الأَحْدَاقِ

أَوْ يَرْفَعُوكَ عَلَى العَوَاتِقِ طَالَمَا ... رُفِّعْتَ ظَهْرَ مَنَابِرٍ وَعِتَاقِ

وَلَئِنْ رَحَلْتَ إلَى الجِنَانِ فإنَّنَا ... نَصْلَى بِنَارِ الوَجْدِ وَالأَشْوَاقِ

لَوْ كُنْتَ تَشْهَدُ حُزْنَ مَنْ خَلَّفْتَهُ ... لَثَنَى عِنَانَكَ كَثْرَةُ الإشْفَاقِ

إنْ جَنَّ لَيْلٌ جُنَّ مِنْ فَرْطِ الأَسَى ... وَسِوَى كَلامِكَ مَالَهُ مِنْ رَاقِ

[٢٣٩] فابْعَثْ خَيَالَكَ فى الكَرَى يَنْعَشْ بِهِ ... مَيْتَ السرُورِ[3] لِثَا كلِّ مُشْتَاقِ

أَغْلَيْتَ يَا رُزْءُ التَّصَبُّرَ مِثْلَمَا ... أَرْخَصْتَ دُرَّ الدَّمْعِ فى الآمَاقِ

إنْ يُخْلِفِ الأَرْضَ الغَمَامُ فإنَّنِى ... أَسْقِى الضرِيحَ بِدَمْعِىَ المُهْرَاقِ

---

(١) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « قضى » .

(٢) يقال : ساق المريض سياقا : إذا أخذ فى نزع الروح ، والمراد هنا الجهد والحزن .

(٣) كذا فى نفح الطيب . وفى ط : « النشور » .

وله فى مدح شيخه ابن الخطيب

ومن أوّليّات نظمه يخاطب شيخه الوزير أبا عبد الله بن الخطيب رحمه الله تعالى مادحا ، قولُه من قصيدة مطلعُها :

* أمَا وَانْصِداعِ النُّورِ مِنْ مَطْلَعِ الْفَجْرِ *

يقول فيها بعد أبيات :

لَكَ اللهُ مِنْ فَــذِّ الجَلَالَةِ أَوْحَدِ ... تُطَاوِعُهُ الآمالُ فِي النَّهْىِ وَالْأَمْرِ

لَكَ الْقَلَمُ الْأَعْلَى الذى طَال فَخْرُهُ ... عَلَى الْمُرْهَفَاتِ الْبِيضِ وَالْأَسَلِ السُّمْرِ

يُقَلِّدُ أجيــادَ الطُّروس تمائمًا ... بِصِنْفَيْ لآلٍ من نظامٍ وَمِن نَثْرِ

تَهَيَّبَكَ الْقِرْطَاسُ فَاحْمَرَّ إِذْ غَــدَا ... يُقِلُّ بُحُوراً مِن أنامِلِكَ الْعَشْرِ

كأَنَّ رِيَاضَ الطِّرْسِ خَــدٌّ مُوَرَّدٌ ... يُطَرِّزُهُ وَشْيُ الْعِــذَارِ مِنَ الْحِبْرِ

فَشَارَةُ هَــذَا الْمُلْكِ رَائِقَةُ الْحُلَى ... بِأَلْوِيَةٍ حُمْرٍ وَبِالصُّحُفِ الْخُمْرِ

وَمَا رَوْضَــةٌ غَنَّاءُ عَاهَدَهَا الْحَيَا ... تَحُوكُ بها وَشْيَ الربيعِ يَدُ القَطرِ

تُغَنِّي قِيَانُ الطَّــيْرِ فِي جَنَبَاتِها ... فَيُرْقِصْنَ غُصْنَ الْبَانِ فِي حُلَلٍ خُضْرِ

تَمُدُّ لِأَكْواسٍ[1] العَرَارِ أَنَامِلاً ... مِنَ السَّوْسَنِ الغَضِّ الْمُخَتَّمِ بِالتِّبْرِ

وَيَحْرُسُ خَـدَّ الوَرْدِ صَارِمُ نَهْرِهَا ... وَيَمْنَعُ ثَغْرَ النَّورِ بِالذَّابِلِ النَّضْرِ

يُفَاخِرُ مَرْآهَا السَّمَاءَ مَحَاسِــنًا ... فَتُزْرِى[2] نُجُومُ الزَّهْرِ مِنْهَا عَلَى الزُّهْرِ

إذَا مَسَحَتْ كَفُّ الصَّبَا جَفْنَ نَوْرِهَا ... تَنَفَّسَ ثَغْرُ الزهرِ عَنْ عَنْبَرِ الشِّحْرِ

بِأَعْطَرَ مِنْ رَيَّا ثَنَائِكَ فِي السُّرَى ... وَأَبْهَــرَ حُسْناً مِنْ شَمَائِلِكَ الْغُرِّ

عَجِبْتُ لَهُ يَحْــكِي خِــلَالَ جَمِيلِهِ ... وَتَفْرَقُ مِنْهُ الْأُسْدُ فِي مَوْقِفِ الذُّعْرِ

(١) كذا فى الأصلين ونفح الطيب ، ولم نجد الأكواس جمعا للكأس فى معاجم اللغة .

(٢) فى نفح الطيب : « وتزرى » .

إذَا أضْرَمَتْ مِنْ بَأْسِهَا الحَرْبُ جَاحِمًا ... تَأَجَّجَ مِنْهُ الْعَضْبُ فِي لُجَّةِ الْبَحْرِ
وَإنْ كَلَحَ الْأَبْطَالُ فِي حَوْمَةِ الْوَغَى ... تَرَقْرَقَ مَاءُ الْبِشْرِ فِي صَفْحَةِ الْبَدْرِ
لَكَ الْحَسَبُ الْوَضَّاحُ وَالسُّؤْدُدُ الذِي ... يَضِيقُ نِطَاقُ الْوَصْفِ فِيهِ عَنِ الْحَصْرِ
تَشَرَّفَ أُفْقٌ أَنْتَ بَدْرُ كَمَالِهِ ... فَمِنْ نَاطَةٍ تَخْتَالُ تِيهاً عَلَى مِصْرِ
تَكَلَّلَ تَاجُ الْمُلْكِ مِنْكَ مَحَاسِناً ... وَفَاخَرَتِ الْأَمْلَاكَ مِنْكَ بَنُو نَصْرِ
بِعَزْمَةِ مَضْمُونِ السَّعَادَةِ أَوْحَدٍ ... وَغُرَّةِ وَضَّاحِ الْمَكَارِمِ وَالنَّجْرِ (١)
[٣٤٠] طَوَى الْحَيْفَ مَنْشُورَ اللِّوَاءِ مُؤَبَّدًا ... فَعَزَّ حِمَى الْإِسْلَامِ بِالطَّيِّ وَالنَّشْرِ
وَمَدَّ ظِلَالَ الأَمْنِ إذْ قَصَرَ (٢) الْعِدَا ... فَيُجْتَلَى ثَنَاءُ الْمُلْكِ بِالْمَدِّ وَالْقَصْرِ
إذَا احْتَفَلَ الْإِيوَانُ يَوْمَ مَشُورَةٍ ... وَتَضْطَرِبُ الآرَاءُ مِنْ كُلِّ ذِي حِجْرِ
صَدَعْتَ بِفَصْلِ الْقَوْلِ غَيْرَ مُنَازَعٍ ... وَأَطْلَعْتَ آرَاءً قَبَسْنَ مِنَ الْفَجْرِ
فَإنْ تَظْفَرِ الْخَيْلُ الْمُغِيرَةُ بِالضحى ... فَعَنْ رَأْيِكَ الْمَيْمُونِ تَظْفَرُ بِالنَّصْرِ
فَلَا زِلْتَ لِلْعَلْيَاءِ تَحْمِى ذِمَارَهَا ... وَتَسْحَبُ أَذْيَالَ الْفَخَارِ عَلَى النَّسْرِ
وَلِلْعِلْمِ فَخْرِ الدِّينِ وَالْفَتْكِ بِالْعِدَا ... بَأَوْتَ بِهِ يَابْنَ الْخَطِيبِ عَلَى الْفَخْرِ
يُهَنِّيكَ عِيدُ الْفِطْرِ مَنْ أَنْتَ عِيدُهُ ... وَيُثْنِي بِمَا أَوْلَيْتَ مِنْ نِعَمٍ غُرّ
جَبَرْتَ مَهِيضاً مِنْ جَنَاحِي وَرِشْتَهُ ... وَسَهَّلْتَ لِي مِنْ جَانِبِ الزَّمَنِ الْوَعْرِ
وَبَوَّأْتَنِي مِنْ ذِرْوَةِ الْعِزِّ مُعْتَلًى ... وَشَرَّفْتَنِي مِنْ حَيْثُ أَدْرِي وَلَا أَدْرِي
وَسَوَّغْتَنِي الآمَالَ عَذْباً مُسَلْسَلاً ... وَأَسْمَيْتَ مِنْ ذِكْرِي وَرَفَّعْتَ مِنْ قَدْرِي
فَدَهْرِيَ عِيدٌ بِالسُّرُورِ وَبِالْمُنَى ... وَكُلُّ لَيَالِي الْعُمْرِ لِي لَيْلَةُ الْقَدْرِ

(١) فى الأصلين : «ومحمود» و «الفخر» ، موضع : «وغرة» ، «والنجر» .
وما أثبتناه عن نفح الطيب .
(٢) فى ط : «ومد ظلال العدل إن قصد» .

فَأَصْبَحْتُ مَغْبُوطًا عَلَى خَيْرِ نِعْمَةٍ ... يَقِلُّ لِأَدْنَاهَا الْكَثِيرُ مِنَ الشُّكْرِ

قال :

وكتب إليه جوابا عن رسالة خاطب أولاده بها ، صدرها :

* مالى بحمل الهوى يدان *

قال جامع هذا الموضوع ، وفقه الله تعالى :

هذه قد تقدمت فى هذا الموضوع ، فراجعها .

وله مما يخاطب به ابن الخطيب أيضا

ثم قال : وكتب إليه جوابا عن آخر كذلك :

حَيَّتْ صَبَاحًا فَأَحْيَتْ سَاكِنِي الْقَصَبَهْ[1] ... وَاسْتَرْجَعَتْ أَنْفُسًا بِالشَّوْقِ مُغْتَصَبَهْ

قَضَى الْبَيَانُ لَهَا أَلَّا نَظِيرَ لَهَا ... فَأَحْرَزَتْ مِنْ مَعَانِي فَضْلِهِ[2] قَصَبَهْ

ناجت طَلِيحَ[3] سُرًى لَا يَسْتَفِيقُ لَهَا ... هَدَّتْ جَوَارِحَهُ وَاسْتَوْهَنَتْ عَصَبَهْ

فَحَرَّكَتْهُ عَلَى فَتْكِ الْكَلَالِ بِهِ ... وَأَذْهَبَتْ بِسُرُورِ الْمُلْتَقَى نَصَبَهْ

وَأَذْكَرَتْ عَهْدَ مُهْدِيهَا عَلَى شَحَطٍ ... فَعَاوَدَ الْقَلْبُ مِنْ تَذْكَارِهِ وَصَبَهْ

مَا كُنْتُ أَسْمَحَ مِنْ دَهْرِي بِجَوْهَرِهِ ... لَوْ كَانَ يَسْمَحُ لِي بِالْقَلْبِ مَنْ غَصَبَهْ

سَلْ أَدْمُعَ الصَّبِّ مَنْ أَغْرَى السَّحَابَ بِهَا ... وَقَلْبَهُ بِجِمَارِ الشَّوْقِ مَنْ حَصَبَهْ

فَاللهُ يَحْفَظُ مُهْدِيهَا وَيَشْكُرُهُ ... فَوَجْهُهَا بِعِصَابِ الْحُسْنِ قَدْ عَصَبَهْ

مَنْ كَانَ وَارِثَ آدَابٍ[4] يُشَعِّثُهَا ... بِالْفَرْضِ إِنِّيَ فِي إِرْثِي لَهَا عَصَبَهْ

هَـذَا الْمَلَاذُ مَلَاذُ النَّاسِ قَاطِبَةً ... سُبْحَانَ مَنْ لِغِيَاثِ الْخَلْقِ قَدْ نَصَبَهْ

---

(١) فى ط : « صاحب » . وما أثبتناه عن م ونفح الطيب .

(٢) فى نفح الطيب : « خصله » ، وهما بمعنى .

(٣) فى ط : « نحت طريح » وفيه تحريف ظاهر .

(٤) فى نفح الطيب المخطوط : « يحفظ آدابا » .

[٣٤١] وخاطبه كذلك [1] :

طَالَعْتُهَا دُونَ الصَّبَاحِ صَبَاحَا ... لَمَّا جَلَتْ غُرَرَ الْبَيَانِ صِبَاحَا
وَلَقَدْ رَأَيْتُ وَمَا رَأَيْتُ كَحُسْنِهَا ... وَجْهًا أَغَرَّ وَمَبْسِماً وَضَّاحا
عَذْرَاءَ أَرْضَعَهَا الْبَيَانُ لِبَانَهُ ... وَأَطَالَ مَغْدًى عِنْدَهَا وَمَرَاحا
فَأَتَتْ كَمَا شَاءَتْ وَشَاءَ نَعِيُّهَا ... تُذْكِى الْحِجَا وَتُنَعِّمُ الْأَرْوَاحا
لَا بَلْ كَمِثْلِ الرَّوْضِ بَاكَرَهُ الْحَيَا ... وَسَقَى بِهِ زَهْرَ الْكِمَامِ فَفَاحا
وَطَوَتْ بِسَاطَ الشَّوْقِ مِنِّىَ بَعْدَ مَا ... نَشَرَتْ عَلَىَّ مِنَ الْقَبُولِ جَنَاحا

وخاطبه كذلك :

يُكَلِّفُنِى مَوْلَاىَ رَجْعَ جَوَابِهِ ... وَمَا لِتَعَاطِى الْمُعْجِزَاتِ وَمَالِيَا
أُجِيبُكَ لِلْفَضْلِ الَّذِى أَنْتَ أَهْلُهُ ... وَأَكْتُبُ مِمَّا قَدْ أَفَدْتُ الْأَمَالِيَا
فَأَنْتَ الَّذِى طَوَّقْتَنِى كُلَّ مِنَّةٍ ... وَأَحْيَيْتَ [2] آمالِى وأكْسَبْتَ مَالِيَا
وَأَنْتَ الَّذِى أَعْدَى الزَّمَانَ كَمَالُهُ ... وَصَيَّرْتَ أَحْرَارَ الزَّمَانِ مَوَالِيَا
فَلَا زِلْتَ لِلْفِعْلِ الْجَمِيلِ مُوَاصِلاً ... وَلَا زِلْتُ لِلشُّكْرِ الْجَزِيلِ مُوَالِيَا

وخاطبه كذلك :

ذَرُونِى فَإِنِّى بِالْعَلَاءِ خَبِيرُ ... أَسِيرُ فَإِنَّ النَّيِّرَاتِ تَسِيرُ
وَكَمْ بِتُّ أَطْوِى اللَّيْلَ فِى طَلَبِ الْعُلَا ... كَأَنِّى إِلَى نَجْمِ السَّمَاءِ سَفِيرُ
بِعَزْمٍ إِذَا مَا اللَّيْلُ مَدَّ رِوَاقَهُ ... يَكُرُّ عَلَى ظَلْمَائِهِ فَيُنِيرُ
أَخُو كَلَفٍ بِالْمَجْدِ لَا يَسْتَفِزُّهُ ... سُهَادٌ إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ وَثِيرُ
ذَامَا طَوَى يَوْماً عَلَى السِّرِّ كَشْحَهُ ... فَلَيْسَ لَهُ حَتَّى الْمَمَاتِ نُشُورُ

(١) هذه القطعة متأخرة فى النسخة التيمورية عن التى بعدها .
(٢) فى ط ونفح الطيب : « وأحببت » . وما أثبتناه عن م .

وَإِنِّى وَإِنْ كُنْتُ الْمُمَنَّعَ جَارُهُ ... لَتَسْبِى فُؤَادِى أَعْيُنٌ وَثُغُورُ

وَمَا تَعْتَرِينِى فَتْرَةٌ فِى مَدَى الْعُلَا ... إِلَى أَنْ أَرَى لَحْظًا عَلَيْهِ فُتُور

وَفِى السِّرْبِ مِنْ نَجْدٍ تَعَلَّقْتُ ظَبْيَةً ... تَصُولُ عَلَى أَلْبَابِنَا وَتُغِير

وَتَمْنَعُ مَيْسُورَ الكلامِ أَخَا الْهَوَى ... وَتَبْخَلُ حَتَّى بِالْخَيَالِ يَزُور

أَسُكَّانَ نَجْدٍ جَادَهَا وَاكِفُ الْحَيَا ... هَوَاكُمْ بِقَلْبِى مُنْجِد وَمُغِير

وَيَاسَكَنِى بِالْأَجْرَعِ الْفَرْدِ مِنْ مِنًى ... وَأَيسَرُ حَظٍّ مِنْ رِضَاكِ كَثِير

ذَكَرْتُكِ فَوْقَ الْبَحْرِ وَالْبُعْدُ بَيْنَنَا ... فَمَدَّتْهُ مِنْ فَيْضِ الدُّمُوعِ بُحُور

وَأَوْمَضَ خَفَّاقَ الذُّؤَابَةِ بَارِقٌ ... فَطَارَتْ بِقَلْبِى أَنَّةٌ وَزَفِير [٣٤٢]

وَيَهْفُو فُؤَادِى كُلَّمَا هَفَتِ(١) الصَّبَا ... أَمَا لِفُؤَادِى فِى هَوَاكِ نَصِير

وَوَاللهِ مَا أَدْرِى أَذِكْرُكِ هَزَّنِى ... أَمِ الْكَأْسُ مَا بَيْنَ الْخِيَامِ تَدُور

فَمَنْ مُبْلِغٌ عَنِّى النَّوَى مَا يَسُوءُهَا ... وَلِلْبَيْنِ حُكْمٌ يَعْتَدِى وَيَجُور

بِأَنَّا غَدًا أَوْ بَعْدَهُ سَوْفَ نَلْتَقِى ... وَنُمْسِى وَمِنَّا زَائِرٌ وَمَزُور

إِلَى كَمْ أُرَى أُكْنِى وَوَجْدِى مُصَرِّحٌ ... وَأُخْفِى اسْمَ مَنْ أَهْوَاهُ وهُوَ شَهِير

أَمُنْجِدَ آمَالِى وَمُغْلِىَ كَاسِدِى ... ومَصْدَرَ جَاهِى والحَدِيثُ كَثِير

أَأَنسَى — ولاأَنسَى — مَجَالِسَكَ الَّتِى ... بِهَا تَلْتَقِينِى نَضْرَةٌ وسُرُور

نَزُورُكَ فِى جُنْحِ الظَّلَامِ وَنَنْثَنِى ... وَبَيْنَ يَدَيْنَا مِنْ حَدِيثِكَ نُور

عَلَى أَنَّنِى إِنْ غِبْتُ عَنْكَ فَلَمْ تَغِبْ ... لَطَائِفُ لَمْ يُحْجَبْ لَهُنَّ سُفُور

نَرُوحُ وَنَغْدُو كُلَّ يَوْمٍ وعِنْدَهَا ... رَوَاحٌ عَلَيْنَا دَائِمٌ وبُكُور

فَظِلُّكَ فَوْقِى حَيْثُمَا كُنتُ وَارِفٌ ... ومَوْرِدُ آمَالِى لَدَيْكَ نَمِير

---

(١) فى نفح الطيب : « هبت » .

وعُذْرًا فإنّى إنْ أطلْتُ فإنّما ... قُصَارَاىَ مِنْ بَعْدِ البَيَانِ قُصُورُ

وكتب إليه خاتمة رسالة كذلك :

وحقِّكَ مَا اسْتَطْعَمتُ بَعْدَكَ غَمْضَةً ... مِنَ النَّوْمِ حَتَّى آذَنَ النَّجْمُ بالغُرُوبِ[1]

وعَارَضْتُ مَسْرَى الرِّيحِ قُلْتُ لَعَلَّهَا ... تَنِمُّ بِرَيَّا مِنْكَ عَاطِرَةِ الهُبُوبِ

إلَى أنْ بَدَا وجْهُ الصَّبَاحِ كأنَّهُ ... مُحَيَّاكَ إذْ تُجْلَى بِغُرَّتِهِ الخُطُوبُ

فَقُلْتُ لِقَلْبِى استَشْعِرِ الأُنْسَ[2] وابْتَهِجْ ... فإنْ تَبْعُدِ الأجْسَامُ لم تَبْعُدِ القُلُوبُ

وسِرْ فِى ضَمَانِ اللهِ حَيْثُ تَوَجَّهَتْ ... رِكَابُكَ لاتَخْشَى الحوَادِثَ أنْ تَنُوبُ

ثم قال : وقال — بعد إيراد جملة من نظمه فى النسيب وما يناسبه — يصف مصباحا :

ولد فى وصف مصباح

لَقَدْ زَادَنِى وَجْدًا وَأَغْرَى بِىَ الْجَوَى ... ذُبَالٌ بأذْيَالِ الظَّلَامِ قَدِ التَفَّا

تُشِيرُ وَرَاءَ اللَّيْلِ مِنْهُ بَنَانَةٌ ... مُخَضَّبَةٌ وَاللَّيْلُ قَدْ حَجَبَ الكَفَّا

تَلُوحُ سِنَانًا حِينَ لَا تَنْفَحُ الصَّبَا ... وَتَبْدُو سِوَارًا حِينَ تَثْنِى لَهُ العِطْفَا

قَطَعْتُ بِهَا لَيْلِى بُطَارِحُنِى الجَوَى ... فَآوِنَةً يَبْدُو وآوِنَةً يَخْفَى

[٣٤٣] إذَا قُلْتُ لَا يَبْدُو أشَالَ لِسَانَهُ ... وَإِنْ قُلْتُ لَا يَخْبُو[3] الضِّيَاءُ بِهِ كَفَّا

إلَى أنْ أفَاقَ الصُّبْحُ مِنْ غَمْرَةِ الدُّجَى ... وأهْدَى نَسِيمُ الرَّوْضِ مِنْ طِيبِهِ عَرْفَا

لَكَ اللهُ يَا مِصْبَاحُ أشْبَهْتَ مُهْجَتِى ... وَقَدْ شَفَّهَا مِنْ لَوْعَةِ الحُبِّ مَا شَفَّا

---

(١) عقب المقرى على هذه الأبيات فى نفح الطيب ج ٣ ص ٤٤٨ طبعة الأزهرية بقوله : « قلت : هذه غاية فى معناها لولا خروجها عن القواعد فى ترتيب قافيتها ومعناها » . والأبيات من الطويل ، إلا أن التفعيلة الأخيرة تختلف عن تفعيلات الطويل .

(٢) فى م : « الأمن » .

(٣) فى نفح الطيب : « لا يخفى » .

وله فى صدر رسالة إلى ابن الخطيب

ثم قال وكتب له صدر رسالة :

أَزُورُ بِقَلْبِى مَعْهَدَ الانْسِ وَالْهَوَى وَأَنْهَبُ مِنْ أَيْدِى النَّسِيمِ رَسَائِلاَ
وَمَهْمَاسَأَلْتُ الْبَرْقَ يَهْفُو مِنَ الْحِمَى يُبَادِرُ بِهِ دَمْعِى مُجِيبًا وَسَائِلاَ
فَيَالَيْتَ شِعْرِى وَالأَمَانِى تَعِلَّةٌ أَيَرْعَى لِى الْحَىُّ الكِرَامُ الْوَسَائِلاَ
وَهَلْ جِيرَتِى الأُولَى كَمَا قَدْ عَهِدْتُهُمْ يُوَالُونَ بِالإِحْسَانِ مَنْ جَاءَ سَائِلاَ

ثم قال بعد أن ذكر عدة قطع :

وله يصف الزرافة ويمدح مدح السلطان أبا سالم

وقال يصف الزَّرَافة فى قصيدة مدح بها السلطان أبا سالم ملكَ المغرب — رحمه الله — وقد ورد عليه بها وَفْد الأحابش فى هدية من ملكهم ، ونصُّها :

لَوْلَا تَأَلُّقُ بَارِقِ التِّذْكَارِ مَا صَابَ وَاكِفُ دَمْعِىَ الْمِدْرَارِ
لَكِنَّهُ مَهْمَا تَعَرَّضَ خَافِقًا قَدَحَتْ يَدُ الأَشْوَاقِ زَنْدَ أُوَارِى
عَلِّ[1] الْمَشُوقَ إِذَا تَذَكَّرَ مَعْهَدًا أَنْ يُغْرِىَ الأَجْفَانَ بِاسْتِعْبَارِ
أَمُذَكِّرِى غَرْنَاطَةً حَلَّتْ بِهَا أَيْدِى السَّحَابِ أَزِرَّةَ النُّوَّارِ
كَيْفَ التَّخَلُّصُ لِلْحَدِيثِ وَدُونَهَا[2] عَرْضُ الْفَلَاةِ وَطَافِحٍ زَخَّارِ
هَذَا عَلَى أَنَّ التَّغَرُّبَ مَرْكَبِى وَتَوَلُّجَ الْفِيحِ الْفِسَاحِ شِعَارِى
فَلَكَمْ أَقَمْتُ غَدَاةَ زُمَّتْ عِيسُهُمْ أَبْغِى الْقَرَارَ وَلَاتَ حِينَ قَرَارِ
وَطَفِقْتُ أَسْتَقْرِى الْمَنَازِلَ بَعْدَهُمْ يَمْحُو الْبُكَاءُ مَوَاقِعَ الآثَارِ
إِنَّا بَنِى الآمَالِ تَخْدَعُنَا الْمُنَى فَنُخَادِعُ الآمَالَ بِالتَّسْيَارِ
نَتَجَشَّمُ الأَهْوَالَ فِى طَلَبِ الْعُلَا وَنَرُوعُ سِرْبَ النَّوْمِ بِالأَفْكَارِ

(١) فى نفح الطيب : « وعلى » .
(٢) فى نفح الطيب : « وبيننا » .

لايُحْرِزُ المجْدَ الخَطِيرَ سِوَى امْرِئٍ يُعْطِى العَزَائِمَ صَهْوَةَ الأَخْطَارِ
إلا[1] يفاخِرْ بالعَتَادِ فَفَخْرُهُ بالمَشْرَفِيّـــةِ والقَنَا الخَطَّارِ
مُسْتَبْصِرٍ مَرْمَى العَوَاقِبِ وَاصِلٍ فِي حَمْلِهِ الإِيرَادَ بالإِصْـــدَارِ
فَأَشَـدُّ مَاقَادَ الجَهُولَ إِلَى الرَّدَى عَمَـهُ البَصَائِرِ لَا عَمَى الأَبْصَارِ
وَلَرُبَّ مُرْبَدِّ الجَوَانِحِ مُزْبِدٍ سَبَحَ الهِلَالُ بِلُجِّهِ الزَّخَّارِ
فُتِقَتْ كَمَائِمُ جُنْحِهِ عَنْ أَنْجُمٍ سَفَرَتْ زَوَاهِرُهُنَّ عَنْ أَزْهَارِ
مَثَلَتْ عَلَى شَاطِى المَجَرَّةِ نَرْجِسًا تَضْطَفُّ مِنْـهُ عَلَى خَلِيجٍ جَارِي

[٣٤٤]

فَكَأَنَّمَا بَدْرُ التَّمَامِ بِجُنْحِهِ وجْـــهُ الإِمَامِ بِجَحْفَلٍ جَرَّارِ
وَكَأَنَّمَا خَمْسُ الثُّرَيَّا رَاحَـــةٌ ذَرَعَتْ مَسِيرَ اللَّيْلِ بِالأَشْبَارِ
أَسْرَجْتُ مِنْ عَزْمِي مَصَابِيحًا بِهَا تَهْدِى السُّرَاةَ لهـا منَ الأَقْطَارِ
وأَرَتَاعَ مِنْ بَازِي الصَّبَاحِ غُرَابُهُ لَمَّا أَطَلَّ فَطَارَ كُلَّ مَطَارِ

[ومنها] :

وَغَرِيبَةٍ قَطَعَتْ إِلَيْكَ عَلَى الوَنَى بِيـــدًا تَبِيدُ بِهَا هُمُومُ السَّارِي
تُنْسِيهِ طِيَّتَهُ الَّتِي قَـــدْ أَمَّهَا وَالرَّكْبُ فِيهـا مَيِّتُ الأَخْبَارِ
يَقْتَادُهَا مِنْ كُلِّ مُشْتَمِلِ الدُّجَى وَكَأَنَّمَا عَيْنَاهُ جُـــــذْوَةُ نَارِ
تَشْدُو[2] بِحَمْدِ المُسْتَعِينِ حُدَاتُهَا يَتَعَلَّلُونَ بِهِ عَلَى الأَكْوَارِ
إِنْ مَسَّهُمْ لَفْحُ الهَجِيرِ أَبَلَّهُـمْ مِنْـــهُ نَسِيمُ ثَنَائِكَ المِعْطَارِ
خَاضُوا بِهَا لُجَجَ الفَلَا فَتَخَلَّصَتْ مِنْهَا خُلُوصَ البَـدْرِ بَعْدَ سِرَارِ

(١) فى ط : « من لا يفاخر » . وفى م ونفح الطيب : « إما يفاخر » ولعله محرف عما أثبتناه .
(٢) فى الأصلين : « تحدو » . وما أثبتناه عن نفح الطيب .

سَلِمَتْ بِسَعْدِكَ مِنْ غَوائِلِ مِثْلِها وَكَفَى بِسَعْدِكَ حَامِياً لِذِمارِ
وَأَتَتْكَ يَا مَلِكَ الزَّمانِ غَرِيبَةٌ قَيْدُ النَّواظِرِ نُزْهَةُ الأَبْصارِ
مَوْشِيَّةُ الأَعْطافِ رَائِعَةُ الحِلى رَقَمَتْ بَدائِعَها يَدُ الأَقْدارِ
رَاقَ العُيُونَ أَدِيمُها فَكَأَنَّهُ رَوْضٌ تَفَتَّحَ عَنْ شَقِيقٍ[1] بَهارِ
مَا بَيْنَ مُبْيَضٍّ وَأَصْفَرَ فَاقِعٍ سَالَ اللُّجَيْنُ بِهِ خِلالَ نُضارِ
يَحْكِى حَدائِقَ نَرْجِسٍ فى شَاهِقٍ تَنْسابُ فِيهِ أَراقِمُ الأَنْهارِ
تَحْدُو[2] قَوائِمُ كَالجُذُوعِ وَفَوْقَها جَبَلٌ أَشَمُّ بِنَوْرِهِ مُتَوارِى
وَسَمَتْ بِجِيدٍ مِثْلِ جِذْعٍ مَائِلٍ سَهْلِ التَّعَطُّفِ لَيِّنٍ خَوَّارِ
تَسْتَشْرِفُ الجُدْرانُ مِنْهُ تَرائِباً فَكَأَنَّما هُوَ قَائِمٌ بِمَنارِ
تَاهَتْ بِكَلْكَلِها وَأَتْلَعَ جِيدُها وَمَشَى بِها الإِعْجابُ مَشْىَ وَقارِ
خَرَجُوا لَها الجَمَّ الغَفِيرَ وَكُلُّهُمْ مُتَعَجِّبٌ مِنْ لُطْفِ صُنْعِ البارِى
كُلٌّ يَقُولُ لِصَحْبِهِ قُومُوا انْظُرُوا كَيْفَ الجِبالُ تُقادُ بِالأَسْيارِ
أَلْقَتْ بِبابِكَ رَحْلَها وَلَطالَما أَلْقَى الغَرِيبُ بِهِ عَصا التَّسْيارِ
عَلِمَتْ مُلُوكُ الأَرْضِ أَنَّكَ فَخْرُها فَتَسابَقَتْ لِرِضاكَ[3] فى مِضْمارِ
يَتَبَوَّءُونَ بِهِ وَإِنْ بَعُدَ المَدَى مِنْ جَاهِكَ الأَعْلَى أَعَزَّ جِوارِ
فَارْفَعْ لِواءَ الفَخْرِ غَيْرَ مُدافَعٍ وَاسْحَبْ ذُيُولَ العَسْكَرِ الجَرَّارِ
وَاهْنَأْ بِأَعْيادِ الفُتُوحِ مُخَوَّلاً مَا شِئْتَ مِنْ نَصْرٍ وَمِنْ أَنْصارِ
وَإِلَيْكَها مِنْ رَوْضِ فِكْرِى نَفْحَةً شَفَّ الثَّناءُ بِها عَلَى الأَزْهارِ

[٢٤٥]

(١) كذا فى الأصلين ونفح الطيب ولعلها : « شتيت » .
(٢) كذا فى الأصلين ونفح الطيب .
(٣) فى ط : « لعلاك » .

فى فَضْلِ مَنْطِقِهَا وَرَوْنَقِ(1) رَسْمِهَا مُسْتَمْتَعُ ٱلْأَسْمَاعِ وَٱلْأَبْصَارِ
وَتُمِيلُ مِنْ أَصْغَى لَهَا فَكَأَنَّنِى عَاطَيْتُهُ مِنْهَا كُئُوسَ عُقَارِ

وله يستنجز كتاب المغرب ميلادياتهم

وقال رحمه الله تعالى يخاطب كتّاب الإنشاء بالمغرب وقد حضر هنالك ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنشدت قصائدهم ، واستنجز بعد ذلك وعدهم بتقييد نسخها بمقطوعات مرتجلة أجابوه عنها ، منها :

أَ كَتِيبَةَ ٱلْكُتَّابِ أَيَّدَ جَمْعَكُمْ بِعِنَايَةِ ٱلْمَوْلَى ٱلْخَلِيفَةِ أَحْمَدِ
لَا تَمْطُلُوا دَيْنَ الْغَرِيبِ فَإِنَّنِى مِنْكُمْ وَإِنْ رَغِمَتْ لِذَلِكَ حُسَّدِى
زَيَّنْتُمُ حَفْلَ ٱلْبَيَانِ بِسِحْرِكُمْ ٱلْيَوْمَ زِينَةَ سِحْرِكُمْ مِنْ مَوْعِدِ
فَلْتَسْمَحُوا لِى بِالْقَصَائِدِ عَاجِلاً وَلْتَبْلُغُوا بِمَا أُؤَمِّلُ مَقْصِدِى

وقال أيضاً :

أَبَنِى عِنَايَةِ ٱلْكُتَّابِ دَعْوَةَ مُنْصِفٍ عَلَيْكُمْ بِكُمْ فِى مَقْطَعِ ٱلْحَقِّ يَسْتَعْدِى
سَمَحْتُمْ بِنَظْمِ ٱلدُّرِّ فِى لَبَّةِ الْعُلَا فَكَمْ رَاقَ مِنْ سِمْطٍ هُنَاكَ وَمِنْ عِقْدِ
فَمَا ضَرَّكُمْ أَنْ تَسْمَحُوا لِى بِكَتْبِهَا فَتَسْتَنْجِزُوا شُكْرِى وَتَسْتَوْجِبُوا حَمْدِى

وقال أيضاً :

مَا عُذْرُكُمْ(2) أَنْ لَمْ تَجُودُوا بَعْدَمَا مُلِّكْتُمُ كَفَّ الْخَلِيفَةِ أَحْمَدِ
فَلْتَبْعَثُوا لِى كُلَّ بِكْرٍ فَذَّةٍ تَأْتِى بِفَخْرٍ خِلَالَهَا وَسْطَ النَّدِى

وله إليهم أيضاً فى المعنى المتقدم

وكتب إليهم فى المعنى أيضا وقد كان السلطان أبو العباس أعطاه قصيدة من نظمه [تلك الليلة] :

(1) فى نفح الطيب : « ورائق » .
(2) كذا فى م . وفى ط : « ما ضركم » .

ظِلَالُكُمُ تَنْدُو(١) وَمَوْرِدُكُمْ عَذْبُ … وَتَرْضَوْنَ أَنْ أَضْحَى وَبِالْمِلْحِ لِي شُرْبُ
وَأَنْتُمْ وَمَا أَنْتُمْ غَمَائِمُ رَحْمَةٍ … تَصُوبُ وَأَحْلَامُ الْعُفَاةِ لَهَا تَصْبُو
أَفِيضُوا عَلَيْنَا وَانْظُرُونَا بِفَضْلِكُمْ … لِنَقْبِسَ نُورًا لَا يَخِيبُ وَلَا يَخْبُو
أَلِفْتُ الْهَوَى حَتَّى أَنِسْتُ بِجَوْرِهِ … فَكُلُّ عَذَابٍ نَالَنِي فِي الْهَوَى عَذْبُ [٣٤٦]
وَقُلْتُ لِجِسْمِي إِنَّهُ ثَوْبُكَ الضَّنَى … وَقُلْتُ لِقَلْبِي إِنَّهُ إِلْفُكَ الْحُبُّ
وَقَالُوا صِبًا وَالشَّيْبُ لَاحَ صَبَاحُهُ … فَقُلْتُ بِبِيضٍ كَالصَّبَاحِ أَنَا صَبُّ
نَهَبْتُ عَذَارَى الْحَيِّ لَيْلَةَ عَرْضِهَا … وَقَدْ جُلِيَتْ مِنْهَا لِمُبْصِرِهَا شُهْبُ
وَلَمْ أَرَ مِنْهَا غَيْرَ رَجْعِ حَدِيثِهَا … فَتَجْهَلُ مِنْهَا الْعَيْنُ مَا يَعْرِفُ الْقَلْبُ
عِرَابٌ إِذَا اسْتَنَّتْ بِشَأْوِ بَلَاغَةٍ … تُقَصِّرُ مِنْ دُونِ اللَّحَاقِ لَهَا الْعُرْبُ
وَإِنْ أَسْنَدَتْ مَا بَيْنَ نَجْدٍ وَحَاجِرٍ … تَقُولُ رُوَاةُ الشَّرْقِ يَا حَبَّذَا الْغَرْبُ
فَمَنْعَةُ صِدْقٍ لِلْخِلَافَةِ قَدْ ضَفَتْ … عَلَى مَنْ حَوَاهُ مِنْ مَهَابَتِهِ حُجْبُ
وَجَوٌّ صَقِيلٌ قَدْ جَلَتْهُ يَدُ الصَّبَا … يُسَافِرُ طَرْفُ الطَّرْفِ فِيهِ فَمَا يَكْبُو
وَلَوْلَا الَّتِي مِنْ دُونِهَا طَاعَةُ الْهَوَى … لَحَقَّتْ بِهَا حَوْلِي الْأَبَارِيقُ وَالشَّرْبُ
وَلَكِنْ نَهَانِي الشَّيْبُ أَنْ أَقْرَبَ الْهَوَى … إِذَا لَمْ يُتِحْ مِمَّنْ أُحِبُّ لِيَ الْقُرْبُ
فَلَا تَمْطُلُوا دَيْنَ الْمُقِلِّ عَنْ غِنًى … فَجَانِبُكُمْ سَهْلٌ وَمَنْزِلُكُمْ رَحْبُ
وَإِنْ لَمْ تَرَوْنِي كُفْأَهُنَّ تَرَفُّعًا … وَصَدَّكُمُ مِنْ دُونِ خِطْبَتِهَا خَطْبُ
فَمَوْلَايَ قَدْ أَهْدَى الْعَمِيدَ عَقِيلَةً … يُكَلِّلُهَا مِنْ لَفْظِهَا اللُّؤْلُؤُ الرَّطْبُ
أَدَارَتْ كُئُوسًا مِنْ مُدَامِ صَبَابَةٍ … كَمَا امْتَزَجَ الصَّهْبَاءُ وَالْبَارِدُ الْعَذْبُ
فَوَاللهِ لَوْلَا مَوْعِدٌ يَوْمُهُ غَدٌ … لَوَاجَهَكُمْ مِنِّي عَلَى مَطْلِي الْعَتْبُ

(١) كذا فى م . وفى ط ونفح الطيب : « تندى » .

أَ كُتَّابَ مَوْلَانَا الخَلِيفَةِ أَحْمَدٍ وحَسْبُكُمُ الفَخْرُ العَمِيمُ بِهِ حَسْب
بِهِ اعْتَزَّتِ الآدَابُ وامْتَدَّ بَاعُهَا وَطَالَتْ يَدَاهَا واسْتَخَفَّ بِهَا العُجْبُ
فَلَوْ لَمْ يَكُنْ بِالفَضْلِ تَنفُقُ سُوقُهَا لَكَانَ يُقَالُ التِبْرُ فى أَرْضِهِ تُرْبُ
بَقِيتُمْ بِهِ فى ظِلِّ جَاهٍ وَغِبْطَةٍ تَخُبُّ إلى لُقْيَا نَجِيبِكُمُ النُجْبُ

وله فى مراجعة الكاتب أبى زكريا بن أبى دلامة

وقال يراجع الكاتب أبا زكريا بن أبى دُلامة منهم ، وقد أجابه رحمة الله تعالى عليه :

عَلَى الطَّائِرِ المَيْمُونِ والطالِعِ السَعْدِ أَتَتْنِى مَعَ الصُنْعِ الجميلِ عَلَى وَعْدِ
وَأَحْيَيْتَ يا يَحيى بِها نَفْسَ مُغرَمٍ يُجِيلُ جِيادَ الدَمْعِ فى مَلْعَبِ الشُهْدِ
نَسِيتُ ومَا أَنْسَى وَفَائِى وخَلَّتى وأَقْفَرَ رَبْعُ القَلْبِ إِلَّا مِنَ الوَجْدِ
وَمَا الطَلُّ فى ثَغْرٍ مِنَ الزَهْرِ بَاسِمٍ بِأَذْكى وَأَصْفَى مِنْ ثَنَائى وَمِنْ وُدِّى
فَأَصْدَقْتُهَا مِنْ بَحْرِ فِكْرِى جَواهِرا تُنَظَّمُ مِنْ دُرِّ الدَرَارِىّ فى عِقْدِ
[٢٤٧] وَكُنْتُ أُطِيلُ القَوْلَ لَوْلَا ضَرُورَةٌ دَعَتْنِى إلى الإيجازِ فى سُورَةِ الحَمْدِ

* * *

وله فى السلطان أبى العباس

وأنشد السلطان أبا العباس المذكور فى غُراب من إنشائه :

أإِنْسَانَ عَيْنِ الدَّهْرِ جَفْنُكَ قَدْ غَدَا يَحُفُّكَ مِنْهُ طَائِرُ اليُمْنِ والسَّعْدِ
إذَا مَا هَفَا فَوْقَ الرُءوسِ شِرَاعُهُ أَرَاكَ جَنَاحًا مُدَّ لِلْجَزْرِ وَالمَـدِّ

وأنشده فيه أيضاً :

لَكَ الخَيْرُ شَأْنُ الجَفْنِ يَحْرُسُ عَيْنَهُ وَهَذا بِعَيْنِ اللهِ يُحْرَسُ دَائِمَا
تَبِيتُ لَهُ خَمْسُ الثُرَيَّا مُعِيذَةً تُقَلِّدُهُ زُهْرَ النُجُومِ تَمَائِمَا

فيَا جَفْنُ لاَ تَنْفَكَّ فى الحِفْظِ دَائِمًا وَإِنْ كُنْتَ فِى لُجٍّ مِنَ ٱلْبَحْرِ عَائِمًا

انتهى ما انتقيته من هذا التأليف الملوكى مع أنى تركت أكثره .

للمؤلف فى سبب إطالة الحديث عن بن زمرك

قلت : و إنما أطلت فى كلام الرئيس ابن زمرك رحمه الله تعالى لوجوه :

أولها : أن الذى أَلَّفْتُ الكتاب من أجله راغبٌ فى ذلك .

الثانى : وَلوع كثير من الناس بكلامه ، حتى قال شيخنا سيدى الإمام العلامة المؤلف الكبير أبو العباس أحمد الشهير ببابا السودانى رحمه الله ، بعد أن ذكر فى التعريف به نحو عشرين سطراً[1] : إنى لم أقف فى أمره على غير هذا ، ولم أقف على وفاته . وبالجملة فالذى تكلم خواص الناس فيه من أمره هو ما فى الإحاطة والكتيبة ؛ وأما الجم الغفير فهم بمعزل عما فى الكتابين فضلا عن غيره .

الوجه الثالث : أن ما نقلته من ذلك كان عندى مقيداً فى عدة أوراق ، نخفت عليه الدروس ، فلذا جمعت بعضه هنا .

الرابع : ما اشتمل عليه من أوصاف الجهاد والخيل وغير ذلك من الغرائب ، وليس الخبر كالعيان .

الخامس : ما فى بعضه من أمداح المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وهو المقصود بالذات وغيره تبع ، وهو فى مسك ختام هذه الأوجه الخمس ، وليس يحتاج إلى دليل نور القمر والشمس .

من موشحات ابن زمرك

وقد عنَّ لى أن أذكر جملة من موشحاته لغرابتها ، ولأن جل ما وقفت عليه منها ينخرط فى سلك المغرب ، إذ أكثره من مخلع البسيط .

---

(١) يشير المؤلف إلى كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأبى العباس أحمد بابا ، وهو تذييل على كتاب الديباج المذهب فى علماء المذهب لابن فرحون .

موشحة له في الشوق إلى غرناطة

فمن ذلك قوله نشوقاً إلى غَرناطة — أعادها الله — ومادحاً الغنيَّ بالله :

بِاللهِ يا قَامَةَ القَضِيبِ وَمُخْجِلَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرْ
مَنْ مَلَّكَ الْحسنَ في الْقُلُوبِ وأَيَّدَ اللَّحْظَ بِالحَوَرْ
مَنْ لَمْ يَكُنْ طَبْعُهُ رَقِيقا لَمْ يَدْرِ مَا لَذَّةُ الصِّبا
فَرُبَّ حُرٍّ[1] غَدا رَقِيقا تَمْلِكُهُ نَفْحَةُ الصَّبا
نَشْوَانَ لَمْ يَشْرَبِ الرَّحِيقا[2] لَكِنْ إِلَى الْحُسْنِ قَدْ صَبا
فَعَذَّبَ الْقَلْبَ بِالوَجِيبِ وَنَعَّمَ الْعَيْنَ بِالنَّظَرْ
وَبَاتَ وَالدَّمْعُ فِى صَبِيبِ يَقْدَحُ مِنْ قَلْبِهِ الشَّرَرْ
أَوَّاهُ[3] مِنْ قَلْبِيَ المعَنَّى يَهْفُو إذا هَبَّتِ الرِّياحْ
لَوْ كانَ لِلصَّبِّ ما تَمَنَّى لَطَارَ شَوْقاً بِلَا جَناحْ
وَبُلْبُلُ الدَّوْحِ إِنْ تَغَنَّى أَسْهَرُ لَيْلِى إِلَى الصَّبَاحْ
عَسَاكَ إِنْ زُرْتَ يا طَبِيبِى بالطَّيْفِ فِي رَقْدَةِ السَّحَرْ
أَنْ تَجْعَلَ النَّوْمَ مِنْ نَصِيبِى والعينَ تَحْمِى مِنَ السَّهَرْ
كَمْ شَادِنٍ قادَ لى الحُتُوفا بِمَرْبَعِ القَلْبِ قَدْ سَكَنْ
يَسُلُّ مِنْ لَحْظِهِ سُيُوفَا فالقَلْبُ بالرَّوْعِ ما سَكَنْ
خُلِقْتُ مِنْ عَادَتِى أَلُوفَا أَحِنُّ لِلإِلْفِ وَالسَّكَنْ
غَرْناطَةٌ مَنْزِلُ الْحَبِيبِ وَقُرْبُها السُّؤْلُ وَالْوَطَرْ

(١) فى الأصلين : « من قد » مكان قوله : « حر » . وما أثبتناه عن نفح الطيب .
(٢) فى الأصلين : « الرفيقا » . والتصويب عن نفح الطيب .
(٣) فى نفح الطيب : « عجبت » مكان قوله : « أواه » .

تَبْهَرُ بالمنْظَرِ المَعجِيبِ فَلَا عَـدا رَبْعَهَا المَطَر
عَرُوسَـةٌ(١) تَاجُها السَّبِيكَهْ وَزَهْرُهَا الحَـلْى والحُلَلْ
لَمْ تَرْضَ مِنْ عِزِّهَا شَرِيكَهْ بِحُسْنِها يُضْرَبُ المَثَلْ
أَيَّدَها الله مِنْ مَلِيكَهْ تَمْلِكُهَا أَشْرَفُ الدُّوَلْ
بِدَوْلَةِ المُرْتَجَى المَهِيبِ(٢) المَلْكِ الطَّاهِرِ الأَغَرّْ
تَخْتَالُ مِنْ بُرْدِهَا القَشِيبِ فِى حُلَّةِ النَّوْرِ وَالزَّهَرْ
كُرْسِيُّها جَنَّـةُ العَرِيفِ مِرْآتُهـا صَفْحَةُ الغَـدِيرْ
وَجَوْهَرُ الطلِّ فى(٣) شُـنُوفِ تُحْكِمُهُ صَـنْعَةُ القَدِيرْ [٣٤٩]
والانْسُ فيهـا عَلَى صُـنُوفِ فَمِن هَـدِيلٍ ومِنْ هَـدِيرْ
كَمْ خَرَّقَ(٤) الزَّهْرُ مِنْ جُيُوبِ وَكَلَّلَ القُضْبَ بالدُّرَرْ
فَالغُصْنُ كَالكَاعِبِ اللَّعُوبِ وَالطَّيْرُ تَشْدُو بِلا وَتَرْ
وَلَاَمُ النَّصْرِ فِى احْتِفَالِ وَفَرْحُ دِينِ الهُـدَى(٥) جَدِيدْ
سلطانهـا مُعْمِلُ(٦) العَوَالِى مُحَمَّدُ الظَّافِرُ السَّـعِيدْ
وَمُخْجِلُ البَـدْرِ فِى الـكَمالِ سُـلْطَانُها المُجْتَـبَى الفَرِيدْ
أَصْفَحُ مَوْلًى عَنِ الذُّنُوبِ أَكْرَمُ عَافٍ إِذَا قَدَرْ
وَشَمْسُ هَدْىٍ بِلَا مَغيبِ وَبَحْرُ جُودٍ بلاَ حَسَرْ

---

(١) فى ط : « فهى عروس » . وما أثبتناه عن م ونفح الطيب المطبوع .
(٢) فى نفح الطيب المخطوط : « المحيب » .
(٣) فى ط ونفح الطيب « عن » .
(٤) فى ط : « مزق » .
(٥) فى نفح الطيب : « الهوى » .
(٦) فى ط : « يعمل » .

مَوْلَاىَ يَا عَاقِدَ الْبُنُودِ تُظَلِّلُ الْأَوْجُهَ الصِّبَاحْ
أَوْحَشْتَ يَا نُخْبَةَ الْوُجُودِ غَرْنَاطَةً هَالَةَ السَّمَاحْ
سَافَرْتَ بِالْيُمْنِ وَالسُّعُودِ وَعُدْتَ بِالْفَتْحِ وَالنَّجَاحْ
يَا مُلْهَمَ الْقَلْبِ لِلْغُيُوبِ وَمُطْعَمَ[1] النَّصْرِ وَالظَّفَرْ
أَسْمَعَكَ اللهُ عَنْ قَرِيبِ : « عَلَى السَّلَاما مِنَ السَّفَرْ »

ومن موشحاته فى وصف مبنى الرشاد

وقال أيضاً من الموَشَّحات الفائقة[2] ، فى مثل أغراض هذه السابقة ، وأشار إلى محاسنَ مِنْ وَصْف « الرَّشاد » :

نَسِيمُ غَرْنَاطَةٍ عَلِيلُ لَكِنَّهُ يُبْرِئُ الْعَلِيلْ
وَرَوْضُهَا زَاهِرٌ بَلِيلُ[3] وَرَشْفُهُ يَنْقَعُ الْغَلِيلْ
سَقَى بِنَجْدٍ رُبَا الْمُصَلَّى مُبَاكِرًا رَوْضَهَا[4] الْغَمَامْ
فَجَفْنُهُ كُلَّمَا اسْتَهَلَّا تَبَسَّمَ الزَّهْرُ فِى الْكِمَامْ
وَالرَّوْضُ بِالْحُسْنِ قَدْ تَجَلَّى[5] وَجَرَّدَ النَّهْرَ عَنْ حُسَامْ
وَدَوْحُهَا ظِلُّهُ ظَلِيلُ يَحْسُنُ فِى رَبْعِهِ الْمَقِيلْ
وَالْبَرْقُ وَالْجَوُّ مُسْتَطِيلُ يَلْعَبُ بِالصَّارِمِ الصَّقِيلْ
عَقِيلَةٌ تَاجُهَا السَّبِيكَهْ تُطِلُّ[6] بِالْمَرْقَبِ الْمُنِيفْ
كَأَنَّهَا فَوْقَهُ مَلِيكَهْ كُرْسِيُّهَا جَنَّةُ الْعَرِيفْ

(١) كذا فى ط ونفح الطيب المطبوع . وفى م : « مطام » .
(٢) فى نفح الطيب : « الرائقة » .
(٣) كذا فى ط . وفى م : « مزهر جليل » . وفى نفح الطيب : « زهره بليل » .
(٤) كذا فى م . وفى ط : « روضة » ، وفى نفح الطيب : « روضه » .
(٥) فى نفح الطيب المخطوط : « تحلى » .
(٦) كذا فى نفح الطيب المطبوع . والذى فى الأصلين والنفح المخطوط : « تظل » .

[٢٠٠]

تُطْلِعُ[(١)] مِنْ عَسْجَدٍ سَبِيكَهْ   شمُوسُها كُلَّمَا تُطِيفْ
أَبْدَعَكَ الْخَالِقُ الْجَلِيلُ   يَا مَنْظَرًا كُلُّهُ جَمِيلْ
قَلْبِى إِلَى حُسْنِهِ يَمِيلُ   وَقَبْلَنَا قد صبا جَمِيلْ
وَزَادَ لِلْحُسْنِ فِيكَ حُسْنَا   مُحَمَّدُ الْحَمْدِ وَالسَّمَاحْ
جَدَّدَ لِلْفَخْرِ فِيكَ مَغْنًى[(٢)]   فى طَالِعِ الْيُمْنِ وَالنَّجَاحْ
تُدْعَى رَشَادًا[(٣)] وَفِيكَ مَعْنَى   يَخُصُّكَ الْفَأْلُ بِافْتِتَاحْ
فَالنَّصْرُ وَالسَّعْدُ لاَ يَزُولُ   لِأَنَّهُ ثَابِتٌ أَصِيلْ
سَعْدٌ وَأَنْصَارُهُ قَبِيلُ   آبَاؤُهُ عِتْرَةُ الرَّسُولْ
أَبْدَى بِهِ حِكْمَةَ الْقَدِيرِ   وَتَوَّجَ الرَّوْضَ بِالْقِبَابْ
وَدَرَّعَ الزَّهْرَ بِالْغَدِيرِ   وَزَيَّنَ النَّهْرَ[(٤)] بِالْحَبَابْ
فَمِنْ هَدِيلٍ وَمِنْ هَدِيرِ   مَا أَوْلَعَ الْحُسْنَ بِالشَّبَابْ
هَبَّتْ عَلَى رَوْضِهَا الْقَبُولُ   وَطَرْفُهَا[(٥)] بِالسُّرَى كَلِيلْ
فَلَمْ يَزَلْ بَيْنَهَا يَجُولُ   حَتَّى تَبَدَّتْ لَهُ حُجُولْ
لِلزَّهْرِ فِى عِطْفِهَا رُقُومُ   تَلُوحُ لِلْعَيْنِ كَالنُّجُومْ
وَلِلنَّدَى بَيْنَهَا رُسُومُ   عِقْدُ النَّدَى فَوْقَهُ نَظِيمْ
وَكُلُّ وَادٍ بِهَا يَهِيمُ   وَلَمْ يَزَلْ حَوْلَهَا يَحُومْ

(١) فى نفح الطيب : « تطبع » .
(٢) فى نفح الطيب المطبوع : « مبنى » .
(٣) فى ط (هنا) : « دثارا » .
(٤) فى ط : « الزرع » وفى م : « الدرع » . وما أثبتناه عن نفح الطيب .
(٥) فى نفح الطيب المخطوط : « وروضها » .

شَنْبِلُها مُدَّ منهُ نِيلُ وَالشِّينُ ألفٌ لمُسْتَنِيلْ
وَعَيْنُ وَادٍ بِهَا[1] تَسيلُ مِنْ فَوْقِ خَدٍّ لَهُ أَسِيلْ
كَمْ مِنْ ظِلَالٍ بهِ تَرِفُّ تَضْفُو لها فَوْقَهُ سُتُورْ
ومِنْ زُجاجٍ بهِ يَشِفُّ ما بَيْنَ نَوْرٍ وَبَيْنَ نُورْ
ومِنْ شُمُوسٍ بها تُصَفُّ تُدِيرُهَا بَيْنَنَا البُدُورْ
مِزَاجُها العَذْبُ سَلْسَبِيلُ يأهَلْ إلى رَشْفِها سَبِيلْ
وَكَيفَ والشَّيْبُ لِى عَذُولُ وصِبْغُهُ صُفْرَةُ الأصِيلْ
يا مَرْحَةً فى الحِمَى ظَلِيلَهْ كَمْ نِلْتُ فى ظِلِّكِ المُنَى
رَوَّضَكِ اللهُ مِنْ خَمِيلَهْ يُجْنَى بها أَطْيَبُ الجَنَى
وبَرْقُها صادِقُ المَخِيلَهْ ما زَالَ بالغَيْثِ مُحْسِنَا
أَنْجِزْ لِى وَعْدَكِ القَبُولُ فَلَمْ أَقُلْ مِثْلَ مَنْ يَقُولْ
«يا مَرْحَةَ الحِى يا مَطُولُ شَرْحُ الذى بَيْنَنَا يَطُولْ»[2]

[٢٠١] ومن ذلك ما كتب به للغنيّ بالله :

ومن موشحاته إلى الغنى بالله

أَبْلِغْ لِغَرْنَاطَةٍ سَلَامِى وصِفْ لها عَهْدِىَ السَّلِيمْ
فَلَوْ رَعَى طَيْفُها ذِمَامِى ما بِتُّ فى لَيْلَةِ السَّلِيمْ
كَمْ بِتُّ فِيها عَلَى اقتِرَاحِ أُعَلُّ مِنْ خَمْرَةِ الرُّضَابْ
أُدِيرُ مِنْها كُئُوسَ رَاحٍ قَدْ زَانَتِ[3] الثَّغْرَ بالْحَبَابْ

(١) كذا فى نفح الطيب المطبوع . وفى الأصلين والنفح المخطوط : « به » .
(٢) هذا البيت مطلع مقطوعة للسان الدين بن الخطيب ، أوردها المقرى فى نفح الطيب (ج ٤ ص ٦٠) طبعة الأزهرية .
(٣) فى م ونفح الطيب : « زانها » .

أَخْتَالُ كَالْمُهْرِ فى الْجِمَاحِ ... نَشْوَانَ فى رَوْضَةِ الشَّبَابْ

أُضَاحِكُ الزَّهْرَ فى الكِمَامِ ... مُبَاهِيًا رَوْضَةَ الوَسِيمْ

وأَفْضَحُ الغُصْنَ فى القَوَامِ ... إِنْ هَبَّ مِنْ جَوِّهَا نَسِيمْ

بَيْنَا أَنَا والشَّبَابُ ضَافِى ... وظِلُّهُ فَوْقَنَا مَدِيدْ

ومَوْرِدُ الأُنْسِ فِيهِ صَافِى ... وبُرْدُهُ[1] رَائِقٌ جَدِيدْ

إِذْ لاحَ فى الفَوْدِ غَيْرَ خَافِى ... صُبْحٌ بِهِ نَبَّهَ الوَلِيدْ

أَيْقَظَ مَنْ كَانَ ذَا مَنَامِ ... لَمَّا انْجَلَى لَيْلُهُ البَهِيمْ

وأَرْسَلَ الدَّمْعَ كَالْغَمَامِ ... فى كُلِّ وَادٍ بِهِ أَهِيمْ

يا جِيرَةً عَهْدُهُمْ كَرِيمُ ... وفِعْلُهُمْ كُلُّهُ جَمِيلْ[2]

لاَ تَعْذِلُوا الصَّبَّ[3] إِذْ يَهِيمُ ... فَقَبْلَهُ قَدْ صَبَا جَمِيلْ

القُرْبُ مِنْ رَبْعِكُمْ نَعِيمُ ... وَبُعْدُكُمْ خَطْبُهُ جَلِيلْ

كَمْ مِنْ رِيَاضٍ بِهِ وِسَامِ ... يُزْهَى بِهَا الرَّائِدُ[4] المُسِيمْ[5]

غَدِيرُهَا أَزْرَقُ الجِمَامِ ... وَنَبْتُهَا كُلُّهُ جَمِيمْ[6]

أَعِنْدَكُمْ أَنَّنِى بِمَاسِ ... أُكَابِدُ الشَّوْقَ والحَنِينْ

أَذْكُرُ أَهْلِى بِهَا ونَاسِى ... فَاليَوْمُ فى الطُّولِ كَالسِّنِينْ

---

(١) فى الأصلين : « وبرقه » . وما أثبتناه عن نفح الطيب .

(٢) فى م : « وكل فعل لهم جميل » .

(٣) فى م : « القلب » .

(٤) فى نفح الطيب : « الرائض » .

(٥) كذا فى نفح الطيب . وفى م : « السليم » وفى ط : « الوسيم » .

(٦) كذا فى نفح الطيب المطبوع . وفى ط : « تميم » . وفى م : « بهيم » .

اللهُ حَسْبِي فَكَمْ أُقاسِي مِنْ وَحْشَةِ الصَّحْبِ وَالبَنِينْ
مُطارِحًا سَاجِعَ الحَمَامِ شَوْقًا إلى الإلْفِ وَالحَمِيمْ
وَالدَّمْعُ قَدْ لَجَّ فى انْسِجَامِ وَقَدْ وَهَى عِقْدُهُ النَّظِيمْ
يا سَاكِنِي جَنَّةِ العَرِيفِ أَسْكَنْتُمُ جَنَّةَ الخُلودْ
كَمْ ثَمَّ مِنْ مَنْظَرٍ شَرِيفِ قَدْ حُفَّ بالْيُمْنِ وَالسُّعُودْ
وَرُبَّ طَوْدٍ بِهِ مُنِيفِ أَدْوَاحُهُ الخُضْرُ كالبُنُودْ
[٢٥٢] والنَّهْرُ قَدْ سُلَّ كالحُسَامِ لِرَاحَةِ الشَّرْبِ مُسْتَدِيمْ
والزَّهْرُ قَدْ رَاقَ بابتِسَامِ مُقَبِّلاً رَاحَةَ النَّدِيمْ
بَلِّغْ عُبَيْدَ المَقَامِ صَحْبِي لاَ زِلْتُمُ الدَّهْرَ فى هَنَا
لِقَاكُمُ بُغْيَةُ المُحِبِّ وَقُرْبُكُمْ غَايَةُ المُنَى
فَعِنْدَكُمْ قَدْ تَرَكْتُ قَلْبِي فَجَدَّدَ اللهُ عَهْدَنَا
وَدَارَكَ الشَّمْلَ بانْتِظَامِ مِنْ مُرْتَجَى(١) فَضْلِهِ العَمِيمْ
فى ظِلِّ سُلْطَانِنَا الإمَامِ الطَّاهِرِ الظَّاهِرِ الحَلِيمْ(٢)
مُؤَمِّنِ الدَّوْلَتَيْنِ مِمَّا يُخَافُ مِنْ سَطْوَةِ العِدَا
وَفارِجِ الكَرْبِ إنْ أَلَمَّا وَمُذْهِبِ الخَطْبِ(٣) والرَّدَى
قدْ رَاقَ حُسْنًا وفاقَ حِلْمًا وما عَدَا غَيْرَ ما بَدَا
مَوْلاَيَ يا نُخْبَةَ الأَنَامِ وحَائِزَ الفَخْرِ فى القَدِيمْ
كَمْ أَرْقُبُ البَدْرَ فى التَّمامِ شَوْقًا إلى وَجْهِكَ الكَرِيمْ

---

(١) كذا فى ط . وفى نفح الطيب المطبوع والمخطوط : « من يرتجى » .
(٢) فى م ونفح الطيب : « الحيم » .
(٣) فى م : « الكرب » .

ومن موشحاته معارضا ابن سهل

ومن موشحاته فى غير الخلع ، موطئاً على موشَّحة ابن سهل التى أولها :

« ليل الهوى يقظان »

قوله :

نَوَاسِمُ البُسْتَانْ تَنْثُرُ سِلْكَ الزَّهَرِ
وَالطَّلُّ فى الأغْصَانْ يَنْظِمُهُ بالجَوْهَرِ
وَرَابَهُ (١) الإصْبَاحْ أضَاءَ مِنْها المَشْرِقُ
تَنْشُرُهَا الأرْوَاحْ فَلاَ تَزَالُ تَخْفِقُ
والزهْرُ زَهْرٌ فاحْ لها عُيُونٌ تَرْمُقُ
فأيقِظِ النُّدْمَانْ تُبْصِرُ مَا لَمْ يُبْصَرِ
جَوَاهِرَ الشُّهْبَانْ (٢) قَدْ عُرِضَتْ لِلْمُشْتَرِى
قَدَحْتَ لِى (٣) زَنْدَا يَأيُّهَذَا البَارِقُ
أذْكَرْتَنِى عَهْدَا إذِ الشَّبَابُ رَائِقُ
فَالشَّوْقُ لاَ يَهْدَا وَلاَ الفُؤَادُ الخَافِقُ
وكَيْفَ بالسُّلْوَانْ والقَلْبُ رَهْنُ الفِكَرِ
وسُحُبُ الهِجْرَانْ تَحْجُبُ وَجْهَ القَمَرِ
لَوْلاَ شُمُوسُ الكَاسْ نُدِيرُهَا بَيْنَ البُدُورْ
وَعَرَّجَ الإينَاسْ مِنَّا عَلَى رَبْعِ الصُّدُورْ [٣٠٣]

(١) فى نفح الطيب : « وراحة » .
(٢) كذا فى م . والشهبان : جمع شهاب . وفى نفح الطيب : « الشبان » ، وهو تحريف . وفى ط : « الملبان » .
(٣) كذا فى م ونفح الطيب . وفى ط : « له » .

لَكِنْ لها وَسْوَاسْ يُغْرِى بِرَبَّاتِ الخُدُورْ
كَمْ وَالِهٍ هَيْمَانْ بِصُبْحِ وَجْهٍ مُسْفِرِ
ضِيَاؤُهُ قَدْ بَانْ مِنْ تَحْتِ لَيْلٍ مُقْمِرِ
يا مَطْلَعَ الأَنْوَارْ كَمْ فِيكَ مِنْ مَرْأًى جَمِيلْ
وَنُزْهَةَ الأَبْصَارْ ما ضَرَّ لَوْ تَشْفِى الغَلِيلْ
يا رَوْضَةَ الأَزْهَارْ وعَرْفُهَا يُبْرِى العَلِيلْ
قَضِيبُكِ الفَيْنَانْ يُسْقَى بِدَمْعٍ هَمِرِ
فَلَاعِجُ الأَشْجَانْ فَيْضَ الدُّمُوعِ يُجْرِى[1]
هَلْ فِى الهَوَى نَاصِرْ أَوْ هَلْ يُجَارُ الهَائِمُ
لَوْ كانَ لِى زَائِرْ طَيْفُ الخَيَالِ الحَائِمُ
مَا بِتُّ بِالسَّاهِرْ وَدَمْعُ عَيْنِى سَاجِمُ
وَالحُبُّ ذُو عُدْوَانْ يَجْهَدُ فى ظُلْمِ البَرِى
وصَارِمُ الأَجْفَانْ مُؤَيَّدٌ بِالحَوَرِ
رُحْمَاكَ فى صَبٍّ أَذْكَرْتَهُ عَهْدَ الصِّبَا
بَوَاعِثُ الحُبِّ قَادَتْ إِلَيْهِ الوَصَبَا
لَمْ تَهْفُ بِالقَلْبِ رِيحُ الصَّبَا إِلَّا صَبَا[2]
بِلَيْلَةَ الأَرْدَانْ قَدْ ضُمِّخَتْ بِالعَنْبَرِ
يُشِيرُ غُصْنُ البَانْ مِنْهَا بِفَضْلِ المِئْزَرِ

(١) فى ط : « يعتر » . ولعلها محرفة عن : « يجرى » .
(٢) فى نفح الطيب : « هبا » .

طَيِّبَهَا حَمْدٌ فَخْرَ الْمُلُوكِ الْمُجْتَبَى
مَنْ يَرْجُحُ الطَّوْدْ مِنْ حِلْمِهِ إِذَا احْتَبَى
قَدْ جَرَّدَ السَّعْدْ مِنْهُ حُسَامًا مُذْهَبَا
فَالْبَأْسُ وَالْإِحْسَانْ وَالْغَوْثُ لِلْمُسْتَنْصِرِ
تَحْمِلُهُ الرُّكْبَانْ تَحِيَّةً لِلْمِنْبَرِ
عِصَابَةُ الْكُتَّابْ حُقَّ لَهَا الْفَوْزُ الْعَظِيمْ
تَخْتَالُ فِي أَثْوَابْ أَلْبَسَهَا الطَّوْلُ الْجَسِيمْ
فَحَسْبُهَا الإِطْنَابْ فِي الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ الْعَمِيمْ [٢٠٤]
خَلِيفَةَ الرَّحْمٰنْ لَازِلْتَ زَاهِيَ[1] الْمَظْهَرِ
يَا مَوْرِدَ الظَّمْآنْ وَرَأْسَ مَالِ الْمُعْسِرِ
خُذْهَا بِلَا دَعْوَى تَزْهَى عَلَى الرَّوْضِ الْوَسِيمْ
جَاءَتْ كَمَا تَهْوَى أَرَقَّ مِنْ لَدْنِ النَّسِيمْ
قَدْ طَارَحَتْ شَكْوَى مَنْ قَالَ فِي اللَّيْلِ الْبَهِيمْ[2]
«لَيْلُ الْهَوَى يَقْظَانْ وَالْحُبُّ تِرْبُ السَّهَرِ
وَالصَّبْرُ لِي خَوَّانْ وَالنَّوْمُ مِنْ عَيْنِي بَرِى»

ومن موشحاته فى الصبوحيات

ومن مُخَلَّع البسيط فى الصَّبُوحيَّات قوله سامحه الله تعالى ورحمه ورضى عنه :

رَيْحَانَةُ الْفَجْرِ قَدْ أَطَلَّتْ خَضْرَاءَ بِالزُّهْرِ تَزْهَرْ

(١) فى م ونفح الطيب : « سامى » .
(٢) فى ط : « السقيم » . وما أثبتناه عن م ونفح الطيب .

ورَايةُ الصُّبحِ إذْ[1] أطَلَّتْ ... فى مَرْقَبِ الشَّرْقِ[2] تُنْشَرْ

فالشُّهْبُ مِنْ غارَةِ الصَّباحِ ... تَرْعَــــدُ خَــوفاً وَتَخْفِقْ

وأدْهَمُ اللَيــلِ فى جِمَاحِ ... أعِنَّــةَ الــبَرْقِ يُطْلِقْ

والأفْقُ فى مُلْتَــقى الرِّياحِ ... بأدْمُـــعِ الغَيْثِ يَشْرَقْ

والسُّحْبُ بالجَوهَرِ استَهَلَّتْ ... فالبَرْقُ سَــيْفٌ مُجَوهَرْ

صِفَاحُهُ المُذْهَبَاتُ حَلَّتْ ... فى رَاحَــةِ الجَوِّ تُشْهَرْ

كَمْ لِلصَّبَا ثَمَّ مِنْ مَقِيــلِ ... بِطِيبِــهِ الزَّهرُ يَشْهَدْ

والنَّهْرُ كالصَّارِمِ الصَّــقِيلِ ... فى حِلْيَــةٍ[3] النَّوْرِ يُغْمَدْ

ورُبَّ قَالٍ بهِ وقِيــلِ ... لِلطَّيْرِ فى حِينَ تُنْشِــدْ

فألْسُنُ الوُرْقِ قَدْ أمَلَّتْ ... مَدَائِحاً عَنْــهُ تَشْــكُرْ[4]

وَنَسْمَةُ الصُّبْحِ حِينَ كَلَّتْ[5] ... فى سُنْدُسِ الرَّوْضِ تَعْثُرْ

والكَاسُ فى رَاحَةِ النَّــدِيمِ ... يَجْلُو بِها غَيْهَبَ الهُمُومْ

أقْبَسَتِ النَّــارَ[6] فى القَدِيمِ ... مِن قَبــلِ أنْ تُخْلَقَ الكُرُومْ

والغُصنُ[7] فى مَلْعَبِ النَّسِــيمِ ... لِلزَّهْــرِ فى عِطْفِهِ رُقُومْ

فَلَبَّةُ القُضْبِ قَدْ تَحَلَّتْ ... والطَّلُّ فى الحَلْيِ جَوهَرْ

---

(١) فى نفح الطيب : « قد » .

(٢) كذا فى م . وفى ط : « الصبح » . وفى نفح الطيب : « الشمس » .

(٣) كذا فى نفح الطيب . والذى فى الأصلين : « فى حلية » .

(٤) فى ط ونفح الطيب : « تسكر » .

(٥) فى نفح الطيب : « قد تجلت » .

(٦) فى رواية : « النور » .

(٧) فى نفح الطيب المطبوع : « والنهر » .

وَبَهجَةُ الكَوْنِ قد تجلَّتْ والرَّوْضُ بالحُسْنِ يَبْهَرْ
يُذْكِرُنِي وَجْنَةَ الحَبِيبِ والآسَ فى صَفْحَةِ العِذارْ
وشَارِبَ الشَّارِبِ العَجِيبِ بَينَ أقَاحٍ وجُلَّنـارْ
يُدِيرُ مِن ثَغْرِهِ الشَّنِيبِ سُلافَةً دُونَها العُقَارْ
حَلَّتْ لِأَهْلِ الهوَى وَجَلَّتْ بالذِّكْرِ وَالوَهْمِ تُسكِرْ
كَمْ مِن نُفُوسٍ بها تَسَلَّتْ فما لَهَا الدَّهرَ مُنْكِرْ
يَا غُصنَ بَانٍ يَمِيلُ زَهْوَا رَيَّانَ فى رَوْضَةِ الشَّبَابْ
لَوْ كُنْتَ تُصْغِى لِرَفْعِ شَكْوَى أَطَلْتُ مِنْ قِصَّةِ العِتَابْ
وَمَنْ لِمِثلِي بِبَثِّ نَجْوَى لِلْبَدْرِ[1] فى زَفْرَفِ السَّحَابْ
عَزَائِمُ الصَّبْرِ فِيكَ حُلَّتْ وَعُقْدَةُ الصَّبْرِ تُذْخَرْ
قَدْ أكْثَرَتْ مِنكَ مَا اسْتَقَلَّتْ وَلَيْتَ لَوْ كُنْتَ تَشْعُرْ
كَمْ لَيْلَةٍ بِتُّها وَبِتَّا ضِدَّيْنِ فى السُّهْدِ والرُّقَادْ
أُسَامِرُ النَّجْمَ فِيكَ حَتَّى عَلَّمْتُ أجْفَانَهُ[2] السُّهَادْ
أَرْقُبُ بَدْرَ الدُّجَى وَأنتَا قَدْ لُحْتَ فى هَالَةِ الفُؤَادْ
نَفْسِيَ وَلَّيْتَ مَا تَوَلَّتْ دَعْهَا عَلَى الشَّوْقِ تَصبِرْ
لَوْ سُمْتَهَا الهَجْرَ ما تَوَلَّتْ ولمْ تَكُنْ عَنكَ تَنْفِرْ
عَلَّمَهَا الصَّبْرَ فى الحُرُوبِ سُلْطَانُنَا عَاقِدُ البُنُودْ
مُعَفِّرُ الصِّيْدِ لِلجُنُوبِ أعَزُّ مَنْ حُفَّ بِالجُنُودْ

(١) فى نفح الطيب المخطوط : « للبرق » .
(٢) فى م : « أجفانها » .

نُصِرْتَ بِالرُّعْبِ فِى القُلُوبِ وَالْبِيضُ لَمْ تَبْرَحِ الْغُمُودْ
عِنَايَةُ اللهِ فِيهِ حَلَّتْ[١] بِسَعْدِهِ الدِّينُ يُنْصَرْ
وَالْخَلْقُ فِى عَصْرِهِ تَمَلَّتْ غَنَاءَمًا لَيسَ تُحْصَرْ
مَوْلَاىَ يَا نُكْتَةَ الزَّمَانِ دَارَ بِمَا تَرْتَضِى الفَلَكْ
جَلَّيْتَ بِالْيُمْنِ وَالأَمَانِ كُلَّ مَلِيكٍ وَمَا مَلَكْ
لَمْ يَدْرِ وَصْفِى ولاَ عِيَانِى أَمُمَلَّكٌ[٢] أَنْتَ أَمْ مَلَكْ
جُنُودُكَ الغُلْبُ حَيْثُ حَلَّتْ بِالنَّصْرِ والفَتْحِ تُخْفَرْ
وعَادَةُ اللهِ فِيكَ دَلَّتْ أَنَّكَ بِالكُفْرِ تَظْفَرْ
يَا آيَةَ اللهِ فِى الْكَمَالِ وَمُخْجِلَ البَدْرِ فِى التَّمَامْ
قَدِمْتَ بِالْعِزِّ وَالْجَلاَلِ والدَّهْرُ فِى ثَغْرِهِ ابْتِسَامْ
يَخْتَالُ فِى حُلَّةِ الْجَمَالِ والبَدْءُ قَدْ عَادَ فِى اخْتِتَامْ [٣٠٦]
رَيْحَانَةُ الفَجْرِ قَدْ أَطَلَّتْ خَضْرَاءَ بِالزُّهْرِ تَزْهَرْ
ورَايَةُ الصُّبْحِ إِذْ أَظَلَّتْ فِى مَرْقَبِ الشَّرْقِ تُنْشَرْ

وقال رحمه الله تعالى وسامحه :

ومن موشحاته فى الصبوح أيضا

قَدْ طَلَعَتْ رَايَةُ الصَّبَاحِ وآذَنَ اللَّيْلُ بالرَّحِيلْ
فَبَاكِرِ الرَّوْضَ باصْطِبَاحِ وَاشْرَبْ عَلَى زَهْرِهِ البَلِيلْ
فَالْوُرْقُ هَبَّتْ مِنَ السِّنَاتِ[٣] لِمِنْبَرِ الدَّوْحِ[٤] تَخْطُبْ

(١) فى نفح الطيب : « جلت » .
(٢) فى ط : « أملك » .
(٣) فى م والنفح المخطوط : « النبات » . وظاهر أنها محرفة عن « السبات » .
(٤) فى ط : « الروض » .

تَسْجَعُ مُفْتَنَّةَ اللُّغَاتِ كُلٌّ عَنِ الشَّوْقِ يُعْرِبْ
والغُصْنُ بَعْدَ الذَّهَابِ يَانِي لِأَكْؤُسِ الطَّلِّ يَشْرَبْ
وأَدْمُعُ السُّحْبِ فِي انْسِيَاحِ فِي كُلِّ رَوْضٍ لَهَا سَبِيلْ[1]
والجَوُّ مُسْتَبْشِرُ النَّوَاحِي يَلْعَبُ بالصَّارِمِ الصقِيلْ

قُمْ فَاغْتَنِمْ بَهْجَةَ النُّفُوسِ مَا بَيْنَ نَوْرٍ وبَيْنَ نُورْ
وشَفِّعِ الصُّبْحَ بالشُّمُوسِ تُدِيرُهَا بَيْنَنَا البُدُورْ
ونَبِّهِ الشَّرْبَ لِلكُئُوسِ تَمْزُجُ مِنْ رِيقِهِ الثُّغُورْ
مَا أَجْمَلَ الرَّاحَ فَوْقَ رَاحِ صَفْرَاءَ كَالشَّمْسِ فِي الْأَصِيلْ
تُغَادِرُ الصَّدْرَ ذَا انْشِرَاحِ لِلْأُنْسِ فى طَيِّهِ[2] مَقِيلْ

ولاَ تَذَرْ خَمْرَةَ الجُفُونِ فَسُكْرُهَا فِي الهَوَى جُنُونْ
وَلْتَخْشَ مِنْ أَسْهُمِ العُيُونِ فَإِنَّهَا رَائِدُ المَنُونْ
عُرِّضْتُ مِنْهَا إِلَى الفُتُونِ وَكُلُّ خَطْبٍ لَهَا يَهُونْ
أَهِيمُ بالغَادَةِ الرَّدَاحِ والجِسْمُ مِنْ حُبِّهَا عَلِيلْ
لَوْ بِتُّ مِنْهَا عَلَى اقْتِرَاحِ نَقَعْتُ مِنْ رِيقِهَا الغَلِيلْ

أُوَاعِدُ الطَّيْفَ لِلمَنَامِ ومَنْ لِعَيْنَيَّ بالمَنَامْ
أَسْهَرُ فِي لَيْلِهِ التَّمَامِ وَأَنْتَ يَا بَدْرُ فِي التَّمَامْ
وَأَلْثِمُ الزَّهْرَ فِي الْكِمَامْ عَلَيْهِ مِنْ ثَغْرِكَ ابْتِسَامْ

(١) كذا فى النفح المطبوع والمخطوط . وفى ط : « مثيل » . وفى م : « يميل » . وظاهر أن كلتا الروايتين محرف عما أثبتناه .

(٢) كذا فى ط . وفى م : « طبعه » . وفى النفح المطبوع والمخطوط : « طيه » .

سَفَرْتَ عَنْ مَبْسِمِ الأَقَاحِ وَرِيقُكَ الْعَذْبُ سَلْسَبِيلْ
قُلْ لِيَ يَا رَبَّةَ الوِشَاحِ هَلْ لِي إِلَى الْوَصْلِ مِنْ سَبِيلْ
يَا كَعْبَةَ الْحُسْنِ زِدْتَ حُسْنَا وَلِلْهَوَى حَوْلَكَ الْمَطَافْ
وغُصْنَ بَانٍ إِذَا تَثَنَّى لَوْ حَانَ[١] مِنْ زَهْرِكَ الْقِطَافْ
[٣٧٥] أَلَا انْعِطَافٌ عَلَى المُعَنَّى فَالْغُصْنُ يَزْهُو بِالانْعِطَافْ
أَصْبَحْتَ تَزْهُو عَلَى المِلَاحِ بِذَلِكَ المَنْظَرِ الْجَمِيلْ
وَوَجْهُكَ الشَّمْسُ فِي اتِّضَاحِ[٢] لَوْ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَمِيلْ
مَا الزَّهْرُ إِلَّا بِنَظْمِ دُرٍّ تَحْسُدُ[٣] فِي حُسْنِهِ المُعُقُودْ
لِلْمَلِكِ الظَّاهِرِ الأَغَرِّ أَكْرَمِ مَنْ حُفَّ بِالسُّعُودْ
مُحَمَّدِ الْحَمْدِ وَابْنِ نَصْرِ وَبَاسِطِ العَدْلِ فِي الْوُجُودْ
مُسَاجِلِ السُّحْبِ فِي السَّمَاحِ بِالغَيْثِ مِنْ رِفْدِهِ[٤] الجَلِيلْ
وَمُخْجِلِ البَدْرِ فِي الَّيَاحِ بِغُرَّةٍ مَا لَهَا مَثِيلْ
يَا مُشْرِبَ الْحُبِّ فِي القُلُوبِ وَوَاهِبَ الصَّفْحِ لِلصِّفَاحْ
نُصِرْتَ بِالرُّعْبِ فِي الحُرُوبِ والرُّعْبُ أَجْدَى[٥] مِنَ السِّلَاحْ
قَدْ لُحْتَ مِنْ عَالَمِ الغُيُوبِ لَمْ تَعْدَمِ الفَوْزَ وَالنَّجَاحْ[٦]
مَرَّاكُشٌ نُهْبَةُ افْتِتَاحِ وَالصُّنْعُ فِي فَتْحِهَا جَلِيلْ

(١) فى ط : «كان» .
(٢) فى م : «فى افتضاح» .
(٣) فى ط «تعسكر» وهو تحريف .
(٤) فى ط : «رفقه» وهو تحريف .
(٥) فى الأصلين : «أجرى» . وما أثبتناه عن نفح الطيب .
(٦) فى م ونفح الطيب المطبوع : «والفلاح» .

بُشْرَاكَ بِالْفَتْحِ وَالنَّجَاحِ والشُّكْرُ مِنْ ذَلِكَ الْقَبِيلْ

ومن موشحاته فى التهنئة بالشفاء من مرض

ومن غير المخلَّع قوله فى الهناء بالشفاء من مرض :

فِي كُئُوسِ الثَّغْرِ مِنْ خَمْرِ اللَّعَسْ[1] رَاحَـةُ الارْوَاحْ

وتغشَّى[2] الرَّوْضَ مِسْكِيُّ النَّفَسْ عَاطِـــرُ الأَرْوَاح

قَدْ كَسَا الأَدْوَاحَ وَشْيًا[3] مُذَهَّبَا يَبْهَـرُ الشَّمْسَا

عَسْجَدٌ قَدْ حَلَّ[4] مِنْ فَوْقِ الرُّبَا يُبْهِـجُ النَّفْسَا

فَاتَّخِذْ لِلَّهْوِ فِيـهِ مَرْكَبَا تَلْحَقِ الأُنْسَـا

مِنْبَرُ الغُصْنِ عَلَيْهِ قَدْ جَلَسْ سَاجِـعُ الأَدْوَاحْ

حُلَلَ السُّنْدُسِ خُضْرًا قَدْ لَبِسْ عِطْفُهُ الْمُرْتَاحْ

قُمْ تَرَى هَذَا الأَصِـيلَ شَاحِبَا حُسْنُهُ قَدْ رَاق

وَلأَذْيَالِ الغصُـونِ سَاحِبَـا فِي حِـلَى الأَوْرَاق

وَنَدِيمِي قَالَ لِي مُخَاطِبَـا قَوْلَ ذِي إِشْـفَاق

عَادَةُ[5] الشَّمْسِ بِغَرْبٍ تُخْتَلَسْ هَاتِ شَمْسَ الرَّاحْ

إِنْ أَرَانَا الجَوُّ وجْهًا قَدْ عَبَسْ أَوْقِدِ الْمِصْـبَاح

وَوُجُوهُ الشَّرْبِ تُغْنِي عَنْ شُمُوسْ كُلَّمَا تُجْـلَى

بِلِحَاظٍ أَسْكَرَتْنَا عَنْ كُئُوسْ خَمْرُهَا أَحْـــلَى

[٢٠٨]

---

(١) فى نفح الطيب : « فى كئوس ... من ذاك اللعس » .
(٢) فى ط : « وعشى » .
(٣) فى ط : « مسكا » .
(٤) فى م : « عسجدى حل » .
(٥) فى م : « غادة » . بالغين المعجمة .

مُظْهِرَاتٍ مِنْ خَبَايَا[1] فِي النفوسْ ... سُوَرًا[2] تُتْلَى
مَا زَمَانُ الأُنْسِ إِلَّا مُخْتَلَسْ ... فَاغْتَنِمْ يَا صَاحْ
وَعُيُونُ الشُّهْبِ تُذْكِى عَنْ حَرَسْ ... تَخْصِمُ النُّصَّاحْ
مَا تَرَى ثَغْرَ الوَمِيضِ بَاسِمَا ... يُظْهِرُ البِشْرَا
وَثَنَاء الرَّوْضِ هَبَّ نَاسِمَا ... عَاطِرًا نَشْرَا
بَثَّ مِنْ أَزْهَارِهِ دَرَاهِمَا ... قَانْلَا بُشْرَى
رَكِبَ الْمَوْلَى مَعَ الظُّهْرِ الفَرَسْ ... وَشُفِي[3] وَارْتَاحْ
بِجُنُودِ اللهِ دَأْبًا يُحْتَرَسْ ... إِنْ غَدَا أَوْ رَاحْ
وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا وَالْهَنَا ... بَعْضُنَا بَعْضَا
فَزَمَانُ السَّعْدِ وَضَّاحُ السَّنَى ... وَجْهُهُ الْأَرْضَى
أَثْمَرَتْ فِيهِ العَوالِي بِالْمُنَى[4] ... ثَمَرًا غَضَّا
بَجْتَنِي الإِسْلَامُ مِنْهَا مَا اغْتَرَسْ ... سَيْفُهُ السَّفَّاحْ
فِي ضَمِيرِ النَّقْعِ مِنْهَا قَدْ هَجَسْ ... شُهُبٌ تَلْتَاحْ
يَا إِمَامًا بِالْحُسَامِ الْمُنْتَضَى ... نَصَرَ الْحَقَّا
ثَغْرُكَ الوَضَّاحُ مَهْمَا أَوْمَضَا ... أَخْجَلَ البَرْقَا
وَدُيُونُ السَّعْدِ مِنْهُ تُقْتَضَى ... تُوسِعُ الحَقَّا
لَكَ وَجْهٌ مِنْ صَبَاحٍ مُقْتَبَسْ ... بِشْرُهُ وَضَّاحْ

(١) فى نفح الطيب : « خفايا » .
(٢) كذا فى م ونفح الطيب . وفى ط : « سورة » .
(٣) كذا فى م . وفى ط ونفح الطيب : « وسنى » .
(٤) فى الأصلين : « بالمنا » . وما أثبتناه عن نفح الطيب .

وَجِيلُ الصَّفْحِ مِنْهُ مُلْتَمَسْ مُنْعِمٌ صَفَّاحْ
هَا كَهَا تُمْزَجُ لُطْفًا بِالنَّسِيمْ كُلَّمَا هَبَّا
قَدْ أَتَتْ بِالبُرْءِ وَالصُّنْعِ الجَسِيمْ تَشْكُرُ الرَّبَّا
أَخْجَلَتْ مَنْ قَالَ فِي الصُّبْحِ الوَسِيمْ مُغْرَمًا صَبَّا
«غَرَّدَ الطَّيْرُ فَنَبِّهْ مَنْ نَعَسْ» يَا مُدِيرَ الرَّاحْ
«وَتَعَرَّى الفَجْرُ عَنْ ثَوْبِ الغَلَسْ»(١) وَانْجَلَى الإِصْبَاحْ

موشحة له أخرى فى الهناء بالشفاء

وقال فى الهناء بالشفاء أيضاً ، من مُخَلَّع البسيط :

[٣٠٩]

قَدْ أَنْعَمَ اللهُ بِالشِّفَاءِ وَاسْتَكْمَلَتْ رَاحَةُ الإِمَامْ
فَلْتَنْطِقِ الطَّيْرُ بِالهَنَاءِ وَلْيَضْحَكِ الزَّهْرُ فِي الكِمَامْ
وُجُودُهُ بَهْجَةُ الوُجُودِ وَبُرْؤُهُ رَاحَةُ النُّفُوسْ
قَدْ لَاحَ فِي مَرْقَبِ السُّعُودِ وَاسْتَبْشَرَتْ أَوْجُهُ الشُّمُوسْ
فَالدَّوْحُ يُومِي إِلَى السُّجُودِ أَكْمَامُهُ حَطَّتِ(٢) الرُّءُوسْ
وَالزَّهْرُ فِي رَوْضَةِ السَّمَاءِ كَالزَّهْرِ قَدْ رَاقَ بِابْتِسَامْ
وَالصُّبْحُ مُسْتَشْرِفُ اللِّوَاءِ وَالبَدْرُ مُسْتَقْبِلُ التَّمَامْ
مَحَاسِنُ الكَوْنِ قَدْ تَجَلَّتْ جَمَالُهَا العَقْلَ يَبْهَرُ
عَرَائِسٌ بِالبَهَا تَحَلَّتْ وَالطَّلُّ فِي الحَلْيِ جَوْهَرُ
وَأَلْسُنُ الوُرْقِ قَدْ أَمَلَّتْ مَدَائِحًا عَنْهُ تَشْكُرُ
تَسْتَوْقِفُ الخَلْقَ بِالغِنَاءِ كَأَنَّهَا تُحْسِنُ الكَلَامْ

---

(١) هذا الشطر والذى فوقه من بيتين لابن وكيع فى مقطوعة له وردها ابن منظور فى كتاب «نثار الأزهار فى الليل والنهار» ، ونص البيتين فيه (صفحة ٨ ؛ طبعة الجوائب) :
«غرد الطير فنبه من نعس وأدر كأسك فالعيش خلس
سل سيف الفجر من غمد الدجى وتعرّى الصبح من قمص الغلس»

(٢) فى الأصلين ونفح الطيب : «غطت» ، ولعلها محرفة عما أثبتناه .

تُطْنِبُ لِلّهِ فِي الثَّنَــاءِ ... تَقُولُ : سَلَّمْتَ يَا سَــلَامْ

كَمْ مِنْ ثُغُورٍ لَهَا ثُغُورُ ... تَبْسِمُ إِذْ جَاءهَا الْبَشِـــيرُ

وَمِنْ خُـــدُورٍ بِهَا بُدُورُ ... يُشِيرُ مِنْهَا لَهُ الْمُشِـــيرُ

تَقُولُ إِذْ حَفَّهَا السُّرُورُ ... تَبَارَكَ الْمُنْعِمُ الْقَــدِيرُ

قَدْ أَنْعَمَ اللّهُ بِالْبَقَاءِ ... فِي ظِلِّ مَوْلًى بِهِ اعْتِصَامْ

قَدْ صَادَفَ النُّجْحَ فِي الدَّوَاءِ ... فَالدَّاءُ عَنَّا لَهُ انْفِصَامْ

يَهْنِيــكَ مَوْلَايَ بَلْ يُهَنَّا ... بِبُرْئِكَ الدِّينُ وَالْهُــدَى

فَالْغَرْبُ والشَّرْقُ مِنْكَ يُغْنَى ... بِمَذْهَبِ الْخِطْبِ وَالرَّدَى

وَاللّهِ لَوْلَاكَ مَا تَهَنَّا ... مَنْ فِيــهِ مِنْ سَطْوَةِ الرَّدَى

يَا مَوْرِدَ الأَنْفُسِ الظِّمَاءِ ... قَدْ كَانَ يَشْتَفُّهَا الأُوَامْ

وَقُرَّةَ الْعَــيْنِ بِالْبَهَاءِ ... رَدَدْتَ لِلأَعْــيُنِ الْمَنَامْ

لَوْ أَبْذُلُ الرُّوحَ فِي الْبِشَارَهْ ... بَذَلْتُ بَعْضَ الَّذِى مَلَكْ

فَأَنْتِ يَا نَفْسُ مُسْــتَعَارَهْ ... مَوْلَاكِ بِالفَضْــلِ جَمَّــلَكْ

لِمْ أَدْرِ إِذْ أَسْطُرُ الْعِبَارَهْ ... أَمَلَكٌ هُـــوَ أَمْ مَلَكْ

لَازِلْتَ مَوْلَايَ فِى هَنَاءِ ... تُبَلَّغُ الْقَصْــدَ وَالْمَرَامْ [٣٦٠]

وَدُمْتَ لِلْمُلْكِ فِى اعْتِلَاءِ ... تَسْحَبُ أَذْيَالَهُ الغَمَامْ

وقال أيضاً يصف مالقة ويمدح الغنيّ بالله :

موشحة له فى وصف مالقة ومدح الغنى بالله

عَلَيْــكِ يَا رَبَّةُ السَّــلَامُ ... وَلَا عَدَا رَبْعَكِ المَطَرْ

مُذْ حَلَّ فى قَصْرِكِ الإِمَامُ ... فَقُرْبُكِ السُّؤْلُ وَالْوَطَرْ

كَمْ فِيــكِ لِلْمُغْرَمِ المَشُوقِ ... مِنْ مَنْظَرٍ يُبْهِجُ النُّفُوسْ

وَالدَّوْحُ فِي رَوْضِكِ الْأَنِيقِ ... لِلشُّكْرِ قَدْ حَطَّتِ الرُّءوسْ

وَالْجَوُّ مِنْ وَجْهِكِ الشَّرِيقِ ... تَحْسُدُهُ أَوْجُهُ الشُّمُوسْ

وَأَعْيُنُ الزُّهْرِ لَا تَنَامُ ... تَسْتَعْذِبُ السُّهْدَ وَالسَّهَرْ

تَنْفُثُ مِنْ تَحْتِهَا الْغَمَامُ ... تَرْقِيكِ مِنْ أَعْيُنِ الزَّهَرْ[1]

عَرُوسَةٌ أَنْتِ يَا عَقِيلَهْ ... تُجْلَى عَلَى مَظْهَرِ الْكَمَالْ

مُدَّتْ لَكِ الْكَفُّ مُسْتَقِيلَهْ ... تَمْسَحُ أَعْطَافَكِ الشَّمَالْ

وَالْبَحْرُ مِنْ آنُكِ الصَّقِيلَهْ ... تَشِفُّ عَنْ ذَلِكَ الْجَمَالْ

وَالْحَلْيُ زَهْرٌ لَهُ انْتِظَامُ ... يُكَلِّلُ الْقُضْبَ بِالدُّرَرْ

قَدْ رَاقَ مِنْ ثَغْرِهِ ابْتِسَامُ ... وَالْوَرْدُ فِي خَدِّهَا خَفَرْ

إِنْ قِيلَ مَنْ بَعْلُهَا الْمُفَدَّى ... وَمَنْ لَهُ وَصْلُهَا مُبَاحْ

أَقُولُ أَسْنَى[2] الْمُلُوكِ رِفْدَا ... مُخَلَّدُ الْفَخْرِ بِالصِّفَاحْ

مُحَمَّدُ الْحَمْدِ حِينَ يُهْدَى ... تُنْشَاؤُهُ عَاطِرَ الرِّيَاحْ

تُخْبِرُ عَنْ طِيبِهِ الْكِمَامُ ... وَالْخُبْرُ يُغْنِي عَنِ الْخَبَرْ

فَالسَّعْدُ وَالرُّعْبُ وَالْحُسَامُ ... وَالنَّصْرُ آيَاتُهُ الْكُبَرْ

ذُو غُرَّةٍ تَسْحَرُ الْبُدُورَا ... وَطَلْعَةٍ تُخْجِلُ الصَّبَاحْ

كَمْ رَايَةٍ سَامَهَا ظُهُورَا ... تُظَلِّلُ الْأَوْجُهَ الصِّبَاحْ

وَكَمْ ظَلَامٍ[3] جَلَاهُ نُورَا ... أَظْفَرَ بِالْفَوْزِ وَالنَّجَاحْ

الطَّاهِرُ الظَّاهِرُ الْهُمَامُ ... أَعَزُّ مَنْ صَالَ وَافْتَخَرْ

---

(١) فى م : « البصر » .

(٢) فى ط : « أهنا » .

(٣) فى نفح الطيب : « جهاد » .

[٣٦١]

لِسَيْفِهِ فِي الْعِدَا احْتِكَامْ جَرَى بِهِ سَابِقُ الْقَدَرْ
يَا مُرْسِلَ الخَيْلِ فِي الغِوَارِ[١] لَوْ تَطْلُبُ الـبَرْقَ تَلْحَقْ
لَكَ الْجَوَارِي إِذَا تُجَارِي سَوَابِقَ الشُّهْبِ تَسْـبِقْ
تَسْـنَنُّ فِي لُجَّةِ الْبِحَارِ فَالْـكُفْرُ مِنْهُنَّ يَفْـرَقْ
فَالدِّينُ وَلْيُقْصِرِ الْـكَلاَمْ بِسَيْفِكَ اعْتَزَّ وَانْتَصَرْ
كَذَاكَ أَسْلاَفُكَ الْـكِرَامْ هُمْ نَصَرُوا سَـيِّدَ الْبَشَرْ

موشحة له في وصف بناء المحدث بمالقة

وقال من غير هذا البحر في المحدث[٢] بمـالقة :

قَدْ نُظِمَ الشَّمْلُ أَتَمَّ انْتِظَامْ وَاغْتَنَمَ الأَحْبَابُ قُرْبَ الحَبِيبْ
وَاسْتَضْحَكَ الرَّوْضُ ثُغُورَ الـكِمَامْ[٣] عَنْ مَبْسِمِ الزَّهْرِ البَرُودِ الشَّنِيبْ
وَعَمَّمَ النَّوْرُ رُءُوسَ الرُّبَا وَجَلَّلَ النَّورُ صُـدُورَ البِطَاحْ
وَصَافَحَ الغُصْنَ نَسِيمُ الصَّـبَا فَالزَّهْرُ يَرْنُو عَنْ عُيُونٍ وِقَاحْ
وَعَادَ لِلرَّوْضِ زَمَانُ الصِّبَا فَقَـلَّدَ النَّهْرَ[٤] مَكَانَ الْوِشَاحْ
وَأَطْلَعَ القَصْرُ بُدُورَ التَّمَامْ فِي طَالِعِ الفَتْحِ القَرِيبِ الغَرِيبْ
خُـدُورُهَا قَامَتْ مَقَامَ الغَمَامْ لاَأَشْتَكِي مِنْ بُعْدِهَا بِالمَغِيبْ
أَصْبَحْتِ يَا رَيَّةُ مَجْـلَى الشُّمُوسْ جَمَالُكِ العَـــيْنُ بِهِ تُبْهَرُ
وَالْبِشْرُ يَسْرِي فِي جَمِيعِ النُّفُوسْ وَرَايَةُ الأُنْسِ بِهـا تُنْشَرُ
وَالدَّوْحُ لِلشُّـكْرِ تَحُطُّ الرُّءُوسْ وَأَنْجُمُ الزُّهْرِ بِهَا تَزْهَـــرُ

---

(١) الغوار (بالـكسر) : الإغارة .
(٢) المحدث : اسم مبنى عجيب كان بمالقة .
(٣) في الأصلين ونفح الطيب : « الغمام » . ولعلها محرفة عما أثبتناه .
(٤) في الأصلين ونفح الطيب : « وعاود النهر ... فقلد الزهر » ، وما أثبتناه أولى بالسياق .

وَرَاجَعَ النَّهْرُ غِنَاءَ الحَمَامْ وَقَدْ شَدَتْ تَسْجَعُ سَجْعَ الخَطِيبْ
بِمِنْبَرِ الغُصْنِ الرَّشِيقِ القَوَامْ لَمَّا انْثَنَى يَهْفُو بِقَدٍّ رَطِيبْ
يَا حَبَّذَا مَبْنَاكِ فَخْرُ القُصُورْ بِدَوْحِهِ طَالَتْ بُرُوجُ السَّمَا
مَا مِثْلُهُ فِى سَالِفَاتِ العُصُورْ وَلَا الَّذِى شَادَ ابْنُ مَاءِ السَّمَا
كَمْ فِيهِ مِنْ مَرْأًى بَهِيجٍ[(١)] وَنُورْ فِى مُرْتَقَى الجَوِّ بِهِ قَدْ سَمَا
خَلِيفَةَ اللهِ وَنِعْمَ الإِمَامْ أَتْحَفَكَ الدَّهْرُ بِصُنْعٍ عَجِيبْ
يَهْنِيكَ شَمْلٌ قَدْ غَدَا فى الْتِئَامْ مُمَهَّدٌ فِى ظِلِّ عَيْشٍ خَصِيبِ
نَوَاسِمُ الوَادِى بِمِسْكٍ تَفُوحْ وَنَفْحَةُ النَّدِّ بِهِ تَعْبَقُ [٣٦٢]
وَبَهْجَةُ السُّكَانِ فِيهِ تَلُوحْ وَجَوُّهُ مِنْ نُورِهِمْ[(٢)] يُشْرِقُ
وَرَوْضُهُ بِالسِّرِّ مِنْهُ تَبُوحْ بَلَابِلٌ عَنْ وَجْدِهِ تَنْطِقُ
لَوْ أَنَّ مَنْ يَفْهَمُ عنهَا الكَلَامْ فَهْىَ تُهَنِّيكَ هَنَاءَ الأَدِيبْ
وَنَهْرُهُ قَدْ سُلَّ مِنْهُ الحُسَامْ يَلْحَظُهُ النَّرْجِسُ لَحْظَ المُرِيبْ
فَأَجْمَلُ الأَيَّامِ عَصْرُ الشَّبَابْ وَأَجْمَلُ الأَجْمَلِ يَوْمُ اللِّقَا
يَا دُرَّةَ القَصْرِ وَشَمْسَ القِبَابْ وَهَازِمَ الأَحْزَابِ فِى المُلْتَقَى
بَشَّرَكَ الرَّبُّ بِحُسْنِ المَآبْ مَتَّعَكَ اللهُ بِطُولِ البَقَا
وَلَا يَزَالُ القَصْرُ قَصْرُ السَّلَامْ يَخْتَالُ فِى بُرْدِ الشَّبَابِ القَشِيبْ
يَتْلُو عَلَيْكَ الدَّهْرُ فِى كُلِّ عَامْ : « نَصرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبْ »

---

(١) فى ط : « جبل » .
(٢) فى م : « وبهجة المشكاة ... نوها » .
(٣) فى م : « ما أجمل » .

موشحة له أخرى فى الهناء بالشفاء

وقال — رحمه الله — من المُخَلَّع فى الشفاء :

فِي طَالِعِ الْيُمْنِ وَالسُّعُودِ قَدْ كَمُلَتْ رَاحَةُ الإِمَامْ

فَأَشْرَقَ النُّورُ فِي الْوُجُودِ وَابْتَسَمَ الزَّهْرُ فِي الْكِمَامْ

قَدْ طَلَعَتْ رَايَةُ النَّجَاحِ وَانْهَزَمَ الْبَأْسُ وَالْعَنَا

وَقَالَ حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ مُؤَذِّنُ الْفَوْزِ[1] بِالْمُنَى

فَالدَّهْرُ يَأْتِي بِالاقْتِرَاحِ مُسْتَقْبِلاً أَوْجُهَ الْهَنَا

تَخْفِقُ مَنْشُورَةَ الْبُنُودِ وَالسَّعْدُ يَقْدُمُ مِنْ أَمَامْ

وَالأُنْسُ مُسْتَجْمِعُ الْوُفُودِ وَاللُّطْفُ مُسْتَعْذَبُ الْجِمَامْ

وَأَكْؤُسُ الطَّلِّ مُتْرَعَاتْ بِأَنْمُلِ السَّوْسَنِ النَّدِي

وَالطَّيْرُ مُفْتَنَّةُ اللُّغَاتْ تَشْدُو بِأَصْوَاتِ مَعْبَدِ

وَالْغُصْنُ يَذْهَبُ ثُمَّ يَاتْ بِالسُّنْدُسِ الْغَضِّ مُرْتَدِي

وَالدَّوْحُ يُومِي إِلَى السُّجُودِ شُكْرًا لِذِي الأَنْعُمِ الْجِسَامْ

وَالرِّيحُ خَفَّاقَةُ الْبُنُودِ تُبَاكِرُ الرَّوْضَ بِالْغَمَامْ

مَظَاهِرٌ لِلْجَمَالِ تُجْتَلَى قَدْ هَزَّ أَعْطَافَهَا السُّرُورْ

وَبَاهِرُ الْحُسْنِ قَدْ تَجَلَّى مَا بَيْنَ نَوْرٍ وَبَيْنَ نُورْ

قَدْ هَنَّأَتْ بِالشِّفَاءِ مَوْلَى بِعَصْرِهِ تَفْخَرُ الْعُصُورْ

[٣٦٣]

مَا بَيْنَ بَاسٍ وَبَيْنَ جُودِ قَدْ مَهَّدَ الأَمْنَ لِلأَنَامْ

فَالدِّينُ ذُو أَعْيُنٍ رُقُودِ وَكَانَ لاَ يَطْعَمُ الْمَنَامْ

وَالْكَأْسُ فِي رَاحَةِ السُّقَاةِ تَرُوحُ طَوْرًا وَتَغْتَدِي

(١) فى نفح الطيب : « القوم » .

يُهْدِيكُمَا رَائِقُ السِّمَاتِ مَا بَيْنَ بَرْقٍ وَفَرْقَــــدِ
وَالشَّمْسُ تَذْهَبُ لِلْبَيَاتِ قَدْ لَبِسَتْ ثَوْبَ عَسْجَدِ
وَالزَّهْرُ فى اليَانِعِ الجودِ يُقَابِلُ الشَّرْبَ بِابْتِسَامْ
وَالرَّوْضُ مِنْ حِلْيَةِ الْغُمُودِ قَدْ جَرَّدَ النَّهْرَ عَنْ حُسَامْ
مَوْلَاىَ يَا أَشْرَفَ الْمُلُوكِ وَعِصْمَةَ الْخَلْقِ أَجْمَعِينْ
أُهْدِيكَ مِنْ جَوْهَرِ السُّلُوكِ يَقْذِفُهُ بَحْرُكَ الْمَعِــينْ
جَعَلْتُ تَنْظِيمَهُ سُــلُوكِى وَأَنْتَ لِى الْمُنْجِدُ الْمُعِينْ
تَحِيَّةُ الْوَاحِدِ الجيــدِ وَرَحْمَةُ اللهِ وَالسَّــلَامْ
عَلَيْكَ مِنْ رَاحِمٍ وَدُودِ يَا مُخْجِلَ الْبَدْرِ فى التَّمَامْ

موشحة له أخرى فى الغناء بالشفاء

وقال رَحِمَهُ اللهُ تعالى من الرَمَلِ الْمَجْزُوءِ :

وَجْهُ هَذَا اليَوْمِ بَاسِمْ وَشَـذَا الأَزْهَارِ نَاسِمْ
هَاتِهَا [صَاحِ] (١) كُئُوسَا جَالِبَــاتٍ لِلسُّرُورْ
وَارْتَقِبْ مِنْهَا شُمُوسَا طَالِعَــاتٍ فى بُدُورْ
مَا تَرَى الرَّوْضَ عَرُوسَا فى حُلَى نَوْرٍ وَنُورْ
وَأَتَتْ رُسْلُ النَّوَاسِمْ تَجْتَـلِى هذِى الْمَوَاسِمْ
قَدْ أَهَلَّتْ بِالْبِشَائِرْ أَضْحَكَتْ ثَغْرَ الأَزَاهِرْ
سَنَحَتْ فى يُمْنِ طَائِرْ وَنُظِمْنَ كَالجَــوَاهِرْ
فَانْشُرُوهَا فى الْعَشَائِرْ إِنَّ هذَا الصُّنْعَ بَاهِرْ
وَأَشِيعُوا فى الْعَوَالِمْ الْغَنِى بِاللهِ سَــالِمْ

(١) هذه الكلمة عن نفح الطيب .

أىُّ نُورٍ يتَوَقَّــــدْ　　أىُّ بَدرٍ يَتَلَالَا
أىُّ فَخرٍ يَتَخَلَّدْ　　أىُّ غَيثٍ يَتَوَالَى
إنمَا المَوْلَى مُحَمَّدْ　　رَحْمَــــةُ اللهِ تَعَالَى
[٣٦٤] كَفُّهُ بَحْـــرُ المَقَاسِمْ　　وَبِها حِيجُ المَبَاسِمْ
خَيْرُ أَمْلاكِ الزَّمَانِ　　مِن بَنِى سَعْدٍ وَنَصرِ
مَا تَرَى أن الشَّوَانِى　　فى صَعيد البر[1] تَجرى
قد أَطَارَتْها التَّهَانِى　　دُونَ بِحْرِىٍّ وَبَحْرِ
مُذْ رَأَتْ بَحْرَ النَعَائِمْ　　كُلُّهــا جَارٍ وَعَائِمْ
فَهَنِيئاً بالشِّـــفَاءْ　　يا أَمِـــيرَ المُؤْمِنِينْ
وَلَنَا حَقُّ الهَنَـــاءْ　　وَجَمِيعِ المُسلِمِينْ[2]
إنْ جَهَرْنَا بالدُّعَاءْ　　يَنْطِقُ الدَّهْرُ أَمِينْ
دُمْتَ مَحْرُوسَ المَكَارِمْ　　بِظُبَى البِيضِ الصَّوَارِمْ

ومن موشحاته فى تهنئة السلطان موسى بن أبى عنان المرينى

وقالَ يُهَنِّئُ السُّلْطَانَ مُوسَى بنَ السُّلْطانِ أَبى عِنَان وقد وَجَّهَ إليهِ الغَنِيُّ باللهِ أُمَّهُ وَعَيَالَهُ عِنْدَ تَمَلُّكِهِ المَغربَ مِنْ قَبله :

قَدْ نُظِمَ الشَّمْلُ أَتَمَّ انْتِظَامْ　　وَلَاحَت الأَقْمَارُ بَعد المَغِيبْ
وأَضْحَكَ الرَّوْضُ ثُغُورَ الكِمَامْ　　عَنْ مَبْسِمِ الزَّهْرِ[3] البَرُودِ الشَّنِيبْ

---

(١) فى نفح الطيب المخطوط : « النجر » .
(٢) فى نفح الطيب : « العالمين » .
(٣) فى م : « الثغر » مكان : « الزهر » .

وَعَاوَدَ الغُصْنَ زَمَانُ الصِّبَا ... وَأُشْرِبَ الأُنْسَ جَمِيعُ النُّفُوسْ

وعَمَّمَ[1] النَّوْرُ رُءوسَ الرُّبَا ... وَجَلَّلَ[2] النُّورُ وُجُوهَ الشُّمُوسْ

وأطْرَبَ الغُصْنَ نَسِيمُ الصَّبَا ... فَالدَّوحُ لِلسُّكْرِ[3] يحُطُّ الرُّءوسْ

واسْتَقْبَلَ البَدْرُ لَيَالِي التَّمَامْ ... وصَافَحَ الصُّبْحَ بِكَفٍّ خَضِيبْ

وَرَاجَعَ الأَطْيَارُ سَجْعَ الحَمَامْ ... بِكُلِّ ذِي لَحْنٍ بَدِيعٍ غَرِيبْ

نَوَاسِمُ الوَادِي بِمِسْكٍ تَفُوحْ ... وَنَفْحَةُ النَّـدِّ بِهِ تَعبَقُ

وَبَهْجَةُ السُّكَّانِ مِنْهُ تَلُوحْ ... وَجَوُّهُ مِنْ نُورِهِمْ يُشْرِقُ

وَعَرفُهُ بِالطِّيبِ مِنهُمْ يَفُوحْ ... كَأَنَّهُ عَن عَنْـبَرٍ يُفْتَقُ

وَالنَّهْرُ قَدْ سُلَّ كَمِثْلِ الحُسَامْ ... حَبَابُهُ تَطْفُو وَطَوْرًا تَغِيبْ

وَثَغْرُهَا قَدْ رَاقَ مِنْـهُ ابْتِسَامْ ... يُهَنِّئُ الأَحْبَابَ قُرْبَ الحَبِيبْ

كَوَاكِبٌ أَبْرَاجُهُنَّ الخُـدُورْ ... يَلُوحُ عَنْهَا كُلُّ بَدْرٍ لِيَاحْ

جَوَاهِرٌ أَصْـدَافُهُنَّ القُصُورْ ... نَظَمَهَا السَّعْدُ كَنَظْمِ الوِشَاحْ

يَا حَبَّذَا وَاللهِ رَكْبُ السرُورْ ... يُبَشِّرُ المَوْلَى بِنَيْـلِ اقْتِرَاحْ [٣٦٥]

ابْتَهَجَ الـكَوْنُ بِمُوسَى الإمَامْ ... وَاخْتَالَ فِي بُرْدِ الشَّبَابِ القَشِيبْ

وَعَادَهُ يَخْدُمُ مِثْلَ الغُـلَامْ ... شَبَابُهُ قَدْ عَادَ بَعْدَ المَشِيبْ

أَكْرِمْ بِهِ وَاللهِ وَفْدِ الـكَرِيمْ ... مَوْلَاتُنَا «الحُرَّةُ» فِي مَقْدَمِهْ

مَرْضَاتُهَا[4] تحظَى بِدَارِ النَّعِيمْ ... وَتُوجِبُ التَّوْفِيقَ مِنْ مُنْعِمِهْ

---

(١) فى نفح الطيب : « وجم » .

(٢) فى ط : « جل » وما أثبتناه عن م ونفح الطيب .

(٣) كذا فى الأصلين والنفح المطبوع . وفى النفح المخطوط : « للسكر » .

(٤) فى ط : « مرضاته » . وما أثبتناه عن م ونفح الطيب .

بَشَّرَ بِالنَّصْرِ (١) وَفَتْحٍ جَسِيمْ ... وَخَيْرُهُ أَجْمَعُ فى مَقْدَمِهْ
لِقَاؤُهَا المَبْرُورُ مِسْكُ الخِتَامْ ... بَشَّرَكَ اللهُ بِصُنْعٍ عَجِيبْ
وَقَصرُكَ المَيْمُونُ قَصرُ السَّلَامْ ... خُصَّ بِحِفْظٍ مِنْ سَمِيعٍ مُجِيبْ
مَوْلَاىَ يَهْنِيكَ وَحُقَّ الهَنَا ... قَدْ نُظِمَ الشَّمْلُ كَنَظْمِ السُّعُودْ
قَدْ فُزْتَ بِالفَخْرِ وَنَيْلِ المُنَى ... وَأَنْجَزَ السَّعْدُ جَمِيعَ الوُعُودْ
وَقَرَّتِ العَيْنُ وَزَالَ العَنَا ... وَكُلَّمَا مَرَّ صَنِيعٌ يَعُودْ
فَلَا يَزَلْ مُلْكُكَ حِلْفَ الدَّوَامْ ... يَحُوزُ فى التَّخْلِيدِ أَوْفَى نَصِيبْ
يَتْلُو عَلَيْكَ الدَّهْرُ بَعْدَ السَّلَامْ: ... « نَصرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ »

ومن موشحاته فى وصف غرناطة والطرد وغيرذلك

وقال رحمه الله فى وصف غَرناطةَ والطَّرد وغيرها :

لِلّهِ مَا أَجْمَلَ رَوْضَ الشَّبَابْ ... مِنْ قَبلِ أَنْ يُفتَحَ زَهْرُ المَشِيبْ
فِى عَهْدِهِ أَدَرْتُ كَأْسَ الرُّضَابْ ... حَبَابُهَا الدُّرُّ بِثَغرِ الحَبِيبْ
مِنْ كُلِ مَن يُخْجِلُ بَدْرَ التَّمَامْ ... مَهْمَا تَبدَّى وَجْهُهُ لِلعُيُونْ
وَيَفْضَحُ الغُصْنَ بِلِينِ القَوَامْ ... وَأَيْنَ مِنْهُ لِينُ قَدِّ الغُصُونْ
وَلَحظُهُ يَمْضِى مَضَاءَ الحُسَامْ ... وَيُذْهِلُ القَلْبَ بِسِحْرِ الجُفُونْ
أَبْصَرْتُ مِنْهُ إِذ يَحُطُّ النِّقَابْ ... شَمْساً وَلَكِنْ مَالَهَا مِنْ مَغِيبْ
إِذا تَجَلَّتْ بَعْدَ طُولِ ارْتِقَابْ ... صَرَفْتُ عَنْهَا اللَّحظَ خَوْفَ الرَّقِيبْ
مَنْ عَاذِرِى مِنهُ فُؤَادٍ صَبَا ... لِلَامِعِ البَرْقِ وَخَفْقِ الرِيَاحْ
يَطِيرُ إِن هَبَّ نَسِيمُ الصَّبَا ... تُمِيرُهُ الرِيحُ خُفُوقَ الجَنَاحْ

(١) فى ط : « بالنصح » . والتصويب عن م ونفح الطيب .

ماأوْلعَ الصَّبَّ بعَهْدِ الصِّبا وَهَلْ عَلَى مَن قَدْ صَبَا مِنْ جُناحْ
فَقَلْبُهُ مِن شَوْقِهِ فِي ٱلتهابْ قَدْ أحْرَقَ الأكْبَادَ مِنهُ الوَجِيبْ
وَٱلجَفْنُ مِنهُ سُحْبُهُ فِي ٱنْسِكَابْ قَد رَوَّضَ الخَدَّ بِدَمْعٍ سَكِيبْ [٣٦٦]
غَرْنَاطَةٌ رَبْعُ الهَنَا وَالمُنَى وَقُرْبُها السُّوْلُ وَنَيْلُ الوَطَرْ
وَطِيبُهَا بالوَصْلِ لَو أَمْكَنَا لَمْ أَقْطَعِ ٱللَيلَ بِطُولِ السَّهَرْ
عَمَّا قَرِيبٍ حُقَّ فِيهِ الهَنَا بِيُمْنِ ذِي العَوْدَة بَعْدَ السَّفَرْ
وَيَحْمَدُ النَّاسُ نَجَاحَ الإيَابْ بِكُلِّ صُنْعٍ مُسْتَجَدٍّ غَرِيبْ
وَيَكْتُبُ الفَالُ عَلَى كُلِّ بَابْ: «نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبْ»
مَالَذَّةُ الأمْلَاكِ إلا ٱلقَنَصْ لأَنَّهُ الفَالُ بِصَيدِ العِدَا
كَمْ شَارِدٍ جُرِّعَ فِيهِ الغُصَصْ وَأُورِدَ الحرُوبُ وِرْدَ الرَّدَى
وَكَمْ بِذَا[1] الفَحْصِ لَنَامِنِ حِصَصْ قَدْ جُمِّعَ البَأْسُ بها وَالنَّدَى

ومنها بعدَ أبْياتٍ سَقَطَتْ:

مَوْلَايَ مَوْلَايَ وَأَنتَ الَّذِي جَدَّدْتَ للأَمْلاكِ عَهْدَ الجَلالْ
وَٱلشَّمْسُ وَالبَدْرُ مِن العُوَّذِ لَمَا رَأَتْ مِنْكَ بَدِيعَ الجَمَالْ
وَٱلرَوْضُ فِي نَعْمَتِهِ يَغْتَذِي بِطِيبِ مَاقَدْ حُزْتَهُ مِن خِلالْ
بُشْرَاكَ بُشْرَاكَ بِحُسنِ المَآبْ تَسْتَضْحِكُ الرَّوْضَ بِثَغْرٍ شَنِيبْ
وَدُمْتَ مَحْرُوسَ العُلَا والجَنابْ بِعِصْمَةِ ٱللهِ السَّمِيعِ المُجِيبْ

---

(١) في الأصلين ونفح الطيب: «بدا»، ولعله محرف عما أثبتناه.

آخر موشحاته وهى فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم

وقد طال الكلامُ ؛ ولنجعل آخرَ مُوَشَّحَةٍ لهُ رَحِمهُ اللهُ تعالى زَهْرِيَّةً فى مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم ، تكونُ مِسكَ الختام ، وهى :

لَوْ تَرجِعُ الأَيامُ بَعْدَ الذَّهابْ ... لَمْ تَقدَحِ الأَشْوَاقَ ذِكْرَى حَبِيبْ
وَكلُّ مَنْ نَامَ بلَيْلِ الشَّبابْ ... يُوقِظُهُ الدَّهْرُ بِصُبْحِ المَشيبْ
يَارَاكِبَ العَجْزِ أَلَا نَهْضَةٌ ... قد ضَيَّقَ الدَّهرُ عَلَيكَ المَجَالْ
لَا تَحسبنْ أَنَّ الصِّبَا رَوْضَةٌ ... تَنَامُ فيها تَحتَ فَيْءِ الظِّلَالْ
فالعَيْشُ نَوْمٌ والرَّدَى يَقْظَةٌ ... والمَرءُ مَا بَيْنَهُما كالْخَيَالْ
والعُمرُ قَدْ مَرَّ كَمَرِّ السَّحَابْ ... والمُلْتَقَى باللهِ عَمَّا قَرِيبْ
وأَنْتَ مَخْدُوعٌ بِلَمعِ السَّرَابْ[1] ... تَحْسَبُهُ مَاءً ولَا تَسْتَرِيبْ
واللهِ مَا الكَوْنُ بِمَا قَدْ حَوَى ... إلاَّ ظِلَالٌ تُوهِمُ الغَافِلَا
وعَادَةُ الظِّلِّ إِذَا مَا استَوَى ... تُبصِرُهُ مُنْتَقِلًا زَائِلَا
إِنَّا إِلَى اللهِ عَبِيدُ الهَوَى ... لَمْ نَعرفِ الحَقَّ وَلَا البَاطِلَا
فَكُلُّ مَنْ يَرجُو سِوَى اللهِ خَابْ ... وإِنَّمَا الفَوزُ لِعَبدٍ مُنِيبْ
يَستَقْبِلُ الرُّجْعَى بِصِدْقِ المَتَابْ ... وَيَرقُبُ اللهَ الشَّهِيدَ القَرِيبْ
يَاحَسرَتَا مَرَّ الصِّبَا وانْقَضَى ... وأَقْبَلَ الشَّيْبُ يَقُصُّ الأَثَرْ
واخَجْلَتَا وَالرِّحْلُ قَدْ قُوِّضَا ... وَمَا بَقِي فِى الخُبْرِ غَيْرُ الخَبَرْ
وَلَيْتَنِي لَوْ كُنْتُ فِيمَا مَضَى ... أَدَّخِرُ الزَّادَ لِطُولِ السَّفَرْ
قَدْ حَانَ مِن رَكْبِ التَّصَابِي إِيَابْ ... ورَائِدُ الرُّشْدِ أَطَالَ المَغِيبْ
يَا أَكْمَهَ القَلْبِ بِغَيْنِ الحِجَابْ ... كَمْ ذَا أُنَادِيكَ فَلَا تَسْتَجِيبْ

[٣٦٧]

(١) فى ط : « السحاب »

هَلْ يُحْمَلُ الزَّادُ لدارِ الكَرِيمْ وَالْمُصْطَفَى الْهَادِى شَفِيعٌ مُطَاعْ
فَجَاهُهُ ذُخْرُ الْفَقِيرِ الْعَدِيمْ وَحُبُّهُ زَادِى وَنِعمَ الْمتَاعْ
وَاللهُ سَمَّاهُ الرَّءوفَ الرَّحِيمْ فَجَارُهُ الْمَكْفُولُ مَا إِنْ يُضَاعْ
عَلَى شَفِيعُ النَّاسِ يَوْمَ الحِسَابْ وَمَلْجَأُ الْخَلْقِ لِدَفْعِ الكُرُوبْ
يَلْحَقُنِى مِنْهُ قَبُولٌ مُجَابْ يَشْفَعُ لِى فِى مُوبِقَاتِ الذُّنُوبْ
يَا مُصْطَفَى وَالْخَلْقُ رَهْنُ الْعَدَمْ وَالْكَوْنُ لَمْ يَفْتِقْ كِمَامَ الْوُجُودْ
مَزِيَّةٌ أُعْطِيتَهَا فِى الْقِدَمْ بِهَا عَلَى كُلِّ نَبِىٍّ تَسُودْ
مَوْلِدُكَ الْمَرْقُوبُ لَمَّا نَجَمْ أَنْجَزَ لِلأُمَّةِ وَعْدَ السُّعُودْ
نَادَيْتُ لَوْ يَسْمَحُ لِى بِالْجَوَابْ شَهْرَ رَبِيعٍ : يَارَبِيعَ الْقُلُوبْ
أَطْلَعْتَ لِلْهَدْىِ بِغَيْرِ احْتِجَابْ شَمْساً وَلَكِنْ مَالَهَا مِنْ غُرُوبْ

وَلْيَكُنْ هَذَا آخِرَ ما أَرَدْنَاه ، وقصَدناهُ من شأن ابن زمرك وسَرَدناه .

* * *

كلام ابن خلدون فى الموشحات والأزجال

وسَنَح لِى أن أنتَقِى بعض كلام ابن خَلدونَ فى تاريخه الكبير فى ذكر المُوَشَّحَات والأزجال ، فنقول :

قال رحمه الله : وأَما أهل الأندلس فلَمَّا كثر الشعر فى قُطرهم وتهذَّبت مناحيه وفنونه ، وبلغ التنميقُ فيه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم فنا منه ، وسموه «بالموشَّح» ، ينظمونه أسماطاً أسماطاً ، وأغصاناً أغصانا ، يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ، ويسمون المتعدِّد منها بيتاً واحداً ، ويلتزمون عدد قوافى [٢٦٨] تلك الأغصان وأوزانها متتالياً فيما بعد ، إلى آخر القطعة ؛ وأكثر ما ينتهى عندهم إلى سبعة أبيات ، ويشتمل كل بيت على أغصان ، عددها بحسب الأغراض والمذاهب ، ويَنسِبُون فيها ويمدحون كما يُفعَل فى القصائد ، وتَجَاوَزُوا

فى ذلك إلى الغاية ، واستظرفه الناس جُمْلَةً[1] الخاصّة والكافّة ، لسهولة تناوله ، وقرب طريقه .

وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مُقَدَّم بن مُعافَى القَبْرِىّ[2] من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المَرْوَانى ؛ وأخذ عنه ذلك ابنُ عبدِ رَبِّهِ صاحبُ كتاب العقد ، ولم يَظهر لهما مع المتأخر بن ذكر ، وكسدت موشحاتهما ، فكان أولَ من برع فى هذا الشأن بعدهما عُبَادَةُ القَزَّاز ، شاعر المعتصم بن صُمادح صاحب المَرِيَّة ؛ وقد ذكر الأعْلَمُ البَطَلْيَوْسِىُّ أنه سمع أبا بكر بنَ زُهْر يقول : كل الوشّاحين عِيال على عُبادة القَزّاز فيما اتفق له من قوله :

بَدْرُ تِمّْ شَمْسُ ضُحَى غُصْنُ نَقَا مِسْكُ شَمْ
مَا أَتَمّْ مَا أَوْضَحَا مَا أَوْرَقَا مَا أَنَمّْ
لاَ جَرَمْ مَنْ لَمَحَا قَدْ عَشِقَا قَدْ حُرِمْ

وزعموا أنه لم يَسبق عُبادة وَشّاح من معاصريه ، الذين كانوا فى زمان ملوك الطوائف ؛ وجاء مُصلِّيًا خلفَه منهم ابن ارفع رأسَه[3] شاعر المأمون بن ذى النون صاحب طُلَيْطُلَةَ[4] . قالوا : وقد أحسن فى ابتدائه فى الموشحة التى طارت له حيث يقول :

---

(١) فى الأصلين وبعض المراجع : « وحله » .

(٢) كذا فى ط وبغية الملتمس . وهو شاعر معروف فى أيام عبد الرحمن الناصر أيضا . والقبرى (بفتح القاف وسكون الباء الموحدة ثم راء مهملة) : نسبة إلى قبرة ، بلدة بالأندلس بقرب قرطبة . (انظر نفح الطيب ج ١ ص ٦٠٤ طبعة أوربة) . وفى م : « العبرى » . والظاهر أنه مصحف عما أثبتناه .

(٣) هو أبو بكر محمد بن ارفع رأسه (انظر نفح الطيب ج ٢ ص ٥١٣ طبعة أوربة) .

(٤) اسم بلد كبير بالأندلس ، ضبطه صاحب القاموس والصاغانى بضم الطاءين ، وخطأه الشارح فضبطه بضم الأولى وكسر الثانية ، وصوبه نقلا عن مؤرخى المغرب وابن السمعانى وغيرهم .

الْعُودُ قَدْ تَرَنَّمْ بِأَبْدَعِ تَلْحِينْ
وَسَقَتْ[١] المَذَانِبْ رِيَاضَ البَسَاتِينْ

وفى انتهائه حيث يقول :

تَخْطِرْ وَلَا تُسَلِّمْ عَسَاكَ المَأْمُونْ
مُرَوِّعُ الكَتائبْ يَحْيَى بنُ ذِى النُّونْ

ثم جاءت الحَلْبة التى كانت فى مدة المُلَثَّمين ، فظهرت لهم البدائع ؛ وفُرسان حَلْبتهم الأعمى التُّطَيْلِيّ[٢] ، ثم يحيى بن بَقِيّ ، وللتُّطَيْلِيّ من الموشَّحات المُذْهَبَة[٣] قوله :

[٣٦٩]

كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى صَبْرِى وَفِى المَعَالِمْ أَشْجَانُ
وَالرَّكْبُ وَسْطَ الفَلَا بِالخُرَّدِ النَّوَاعِمْ قَدْ بَانُوا

وذكر غير واحد من المشايخ أن أهل هذا الشأن بالأندلس يذكرون أن جماعة من الوَشَّاحين اجتمعوا فى مجلس بإشبيليَة ، وكان كل واحد منهم قد صنع موشحة ، وتأنق فيها ، فتقدم الأعمى التُّطَيْلِيُّ للإنشاد ، فلما افتتح موشحته المشهورة بقوله :

ضَاحِكٌ عَنْ جُمَانْ سَافِرٌ عَنْ بَدْرِ
ضَاقَ عنهُ الزَّمَانْ وَحَوَاهُ صَدْرِى

خَرَّقَ[٤] ابن بَقِيّ مُوَشَّحَتَه ، وتبعه الباقون .

(١) كذا فى ط . وفى م ونفح الطيب ومقدمة ابن خلدون : « وشقت » .
(٢) كذا فى م ونفح الطيب ؛ وهو منسوب إلى تطيلة « بضم فتكسر وياء ساكنة ولام » مدينة بالأندلس فى شرقى قرطبة » راجع معجم البلدان لياقوت . وفى ط والمقدمة : « الطليطلى » .
(٣) فى م : « المذهبية » .
(٤) فى م : « مزق » .

وذكر الأعلم البَطَلْيَوْسِيُّ أنه سمع ابن زُهْر يقول : ما حسدت قَطُّ وَشَّاحا على قول إلا ابنَ بَقِىّ حينَ وقع له :

أَمَا تَرَى أَحْمَـــدْ فِى مجدِهِ العالى لا يُلْحَقْ
أَطْلَعَـــهُ المَغْرِبْ فَأَرِنَا مِثْلَهُ يَا مَشْرِقْ

وكان فى عصرهما من الوشاحين المطبوعين أبو بكر بن الأبيض[1] ، وكان فى عصرهم أيضا الحكيم أبو بكر بن باجَّه صاحب التلاحين المعروفة .

ومن الحكايات المشهورة أنه حضر مجلس مخدومه ابن تيفلُويت صاحب سَرَقُسْطة ، فألقى على بعض [قَيْنَاته][2] موشحته [التى أوَّلها][2] :

جَرِّرِ الذَّيْلَ أَيَّما جَرِّ

فَطَرِبَ الممدوح لذلك ، وختمها بقوله :

عَقَدَ اللهُ رَايَةَ النَّصْرِ لأمير العُلا أَبِى بَكْرِ

فلما طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلُويتَ صاح : واطرباه ! وشَقَّ ثيابه ، وقال : ما أحسن ما بدأت وما ختمت ! وحلف بالأيمان المغلَّظة[3] ألاَّ يمشىَ ابن باجَّة إلى داره إلا على الذَّهب ، نخاف الحكيم سُوء العاقبة ، فاحتال بأن جَعل ذهبا فى نعله ، ومشى عليه .

ثم قال ابن خلدون بعد كلام : واشتهر بعد هؤلاء فى صدر دولة الموحدين محمد بن أبى الفضل بن شَرَف . ثم قال : وابن هردوس[4] الذى له :

يَا لَيْلَةَ الوَصْلِ والسُّعُودِ بِاللهِ عُــودِى

---

(١) كذا فى م . وفى ط والمقدمة : « أبو بكر الأبيض » .
(٢) ما بين القوسين عن مقدمة ابن خلدون .
(٣) فى ط : «المعظمة» .
(٤) فى مقدمة ابن خلدون طبعة بلاق : « ابن بهرودس » .

وابن موهل[1] الذى له :

مَا الْعِيدُ فِى حُلَّةٍ وَطَاقٍ وشَمِّ طِيبْ [٣٧٠]
وإنَّمَا الْعِيدُ فِى التَّلاَقِى مَعَ الْحَبِيبْ

وأبو إسحق الدُّوَيْنى . قال ابن سَعيد : سمعت أبا الحسن سَهل بن مالك يقول إنه دخل على ابن زُهْر وقد أسَنَّ وعليه زِىّ البادية ، إذ كان يسكن بحصن إسْتِبّه[2] ، فلم يعرفه ، فجلس حيث انتهى به المجلس ، وجَرَّت المحاضرة أن أنشد لنفسه موشحة وقع فيها :

كُحْلُ الدُّجَى يَجْرِى مِنْ مُقْلَةِ الْفَجْرِ عَلَى الصَّبَاحْ
ومِعْصَمُ النَّهْرِ فى حُلَلٍ خُضْرِ مِنَ الْبِطَاحْ

فتحرك ابنُ زُهر ، وقال : أنت تقول هـذا ؟ قال : اختبر ؛ قال : ومن تكون ؟ فعرَّفه ، فقال : ارتفع ، فَوَاللهِ ما عرفتك . قال ابن سعيد : وسابق الحَلْبة التى أدركت هؤلاء أبو بكر ابن زُهْر ، وقد شرَّقَتْ موشحاته وَغَرَّبَتْ .
قال : وسمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول : قيل لابن زُهر : لو قيل لك ما أبدعُ ما وقع لك فى التوشيح ؟ فقال : كنتُ أقول :

مَا لِلْمُوَلَّهْ مِنْ سُكْرِهِ لا يُفِيقْ يالَهُ سَكْرانْ !
[مِنْ غَيْرِ خَمرِ ما لِلْكئِيبِ المَشُوقْ يَنْدُبُ الأوطانْ][3]
هَلْ تُسْتَعادْ أيامُنَا بالخليجْ وَلَيالينَا
إذْ يُسْتَفَادْ مِنَ النَّسِيمِ الأرِيجْ مِسْكُ دَارِينَا

(١) فى نفح الطيب المطبوع : « مؤهل » بالهمز .
(٢) كذا فى مقدمة ابن خلدون . وهى من أعمال إشبيلية . وفى ط : « سبتة » . وفى م : « أشبه » . وهو تحريف .
(٣) التكملة عن مقدمة ابن خلدون طبعة بلاق .

وَإذْ يَكادُ حُسْنُ المكان البَهيجْ أنْ يُحَيِّنَــــا
نَهرٌ أظَــلَّهْ دَوْحٌ عَلَيْهِ أنيقْ مُورقٌ فَيْنَانْ
والماءُ يَجْرِى وعـــائمٌ وغريقْ مِنْ جَنَى الرَّيحَانْ

واشتهر بعده ابنُ حَيُّون . إلى أن قال ابن خلدون : وبعـد هؤلاء ابنُ حَزمون بمُرْسِيَة . ذكر ابن الرائس أن يحيى الخزرجي[1] دخل عليه فى مجلسه ، فأنشده موشحة لنفسه ، فقال له ابن حزمون : ما الموَشَّحُ بموشح حتى يكون عاريا عن التكلّف ؛ فقال : على مثل ماذا ؟ قال على مثل قولى :

يا هاجِرى[2] هَلْ إلَى الوِصالِ مِنْكَ سَبِيلْ
أوْ هَلْ تَرَى عن هَوَاكَ سَالِى قَلْبَ العَلِيلْ

[٣٧١] وأبو الحسن سهل بن مالك بغَرناطة . قال ابن سعيـد : كان والدى يُعْجَب بقوله :

إنّ سَيْلَ الصَّبَاحِ فى الشَّرْقِ عادَ بَحْرًا فى أجْمَعِ الأفْقِ
فتـــداعتْ نوادبُ الوُرْقِ أتَرَاهَا خافَتْ مِنَ الغَرَقِ
فبَكَتْ سُحْرَةً عَلَى الوَرَقِ

واشـتهر بإشبيلية لذلك العهد أبو الحسن بن الفَضْل . قال ابن سعيد عن والده : سمعتُ سهلَ بن مالك يقول له : يا بن الفضـل ، لك على الوَشّاحين الفضل بقولك :

وَا حَسْرَتا لِزَمَانٍ مَضَى عَشِيَّةَ بَانَ الهَوَى وانْقَضَى
وأُفْرِدْتُ بِالرَّغْمِ لاَ بِالرِّضَا وبِتُّ عَلَى جَمَرَاتِ الغَضَى

---

(١) فى م : « يحيى بن الخزرجى » .
(٢) فى ط : « ياساحرى » .

أُعَانِقُ بِالفِكْرِ تِلْكَ الطُّلُولْ وأَلْثِمُ بِالْوَهْمِ تِلْكَ الرُّسُومْ

قال : وسمعت أبا بكر بن الصابونىّ يُنشدُ الأستاذَ أبا الحسن الدَّبَّاج موشحاته غير ما مرة ، فما سمعته يقول : لله دَرُّك إلا فى قوله :

قَسَمًا بِالهَوَى لِذِى حِجْرِ ما لِلَيْلِ المَشُوقِ مِن فَجْرِ

جَمَدَ الصُّبْحُ لَيْسَ يَطَّرِدُ ما لِلَيْلِى — فِيما أَظُنُّ — غَدُ

صَحَّ يَا لَيْلُ أَنَّكَ الأَبَدُ

أَوْ قُصَّتْ[1] قَوَادِمُ النَّسْرِ فَنُجُومُ السَّماء لاَ تَسرى

ومن [محاسن][2] موشحات ابن الصابونىّ قوله :

مَا حَالُ صَبٍّ ذِى ضَنًى واكْتِئَابْ أَمْرَضَـهُ يَا وَيْلَتَاه الطَّبِيبْ

عَامَـلَهُ مَحْبُوبُهُ باجْتِنَابْ ثُمَّ اقتدَى فِيه الكَرَى بِالحبِيبْ

جَفَا جُفُونِى النَّوْمُ لَكِنَّنِى لَمْ أَبكِهِ إلاَّ لِفَقْدِ الخَيَالْ

وَذَا الوِصَالُ اليَوْمَ قَدْ عَزَّنِى منـهُ كما شاء وشاء الوِصَالْ

فَلَسْتُ بِاللاَّئِمِ مَنْ صَدَّنِى بصُورَةِ الحَقِّ ولا بالمُحَالْ

واشتهر بيرّ القُدْوة ابنُ خَلَفٍ الجزائرىُّ صاحب الموشحة المشهورة :

يَدُ الإِصبَاحْ قَدَحَت زِنَادَ الأَنوَارْ من مَجَامِرِ الزَّهَرِ

[٣٧٢]

وابنُ خرز[3] البجائى ، وله من موشحة :

ثَغْرُ الزَّمَانِ مُوَافِقْ حَيَّاكَ منـهُ بابْتِسَام

(١) كذا فى إحدى روايات المقدمة طبعة باريس ؛ وقد وردت هذه الكلمة مضطربة فى الأصلين ونفح الطيب .

(٢) هذه الكلمة عن مقدمة ابن خلدون طبعة باريس .

(٣) فى المقدمة طبعة بلاق : « ابن هزر » . وفى نفح الطيب : « خزر » .

ومن محاسن الموشحات [للمتأخرين] [(١)] ، موشحة ابن سهل شاعر إشبيلية وسبتة من بعدها ، [فمنها قوله] [(١)] :

هَلْ دَرَى ظَبْيُ الحِمى أنْ قَدْ حَمَى قَلْبَ صَبٍّ حَلَّهُ عَنْ مَكْنِسِ
فَهْوَ فِي نَارٍ [(٢)] وَخَفْقٍ مِثْلَمَا لَعِبَتْ رِيحُ الصَّبَا بِالْقَبَسِ

وقد نسج على منواله فيها صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب شاعر الأندلس [والمغرب لعصره] [(٣)] ، فقال :

جَادَكَ الغَيْثُ إِذَا الغَيْثُ هَمَى يا زَمَانَ الوَصْلِ بِالأَنْدَلُسِ
لَمْ يَكُنْ وَصْلُكَ إِلَّا حُلُمَا فِي الكَرَى أَوْ خُلْسَةَ المُخْتَلِسِ
إِذ يَقُودُ الدَّهْرُ أَشْتَاتَ المُنَى تَنْقُلُ الخطوَ عَلَى مَا يَرْسُمُ
زُمَرًا بَيْنَ فُرَادَى وَثُنَى مِثْلَمَا يَدْعُو الوُفُودَ المَوسِمُ
والحَيَا قَدْ جَلَّلَ الرَّوْضَ سَنَى فَثُغُورُ الزَّهْرِ [(٤)] فيه تَبْسِمُ
وَرَوَى النُّعمانُ عَن مَاءِ السَّمَا كَيفَ يَروِي مَالِكٌ عَن أَنَسِ
فَكَسَاهُ الحُسْنُ ثَوْبًا مُعْلَمَا يَزْدَهِي مِنْهُ بِأَبْهَى مَلْبَسِ
فِي لَيَالٍ كَتَمَتْ سِرَّ الهَوَى بِالدُّجَى لَوْلَا شُمُوسُ الغُرَرِ
مَالَ نَجْمُ الكَأْسِ فِيها وهَوَى مُسْتَقِيمَ السَّيْرِ سَعْدَ الأَثَرِ
وَطَرٌ مَا فيه مِنْ عَيْبٍ سِوَى أَنَّهُ مَرَّ كَلَمْحِ البَصَرِ
حِينَ لَذَّ النَّوْمُ [(٥)] مَعْ حُلْوِ اللَّمَى [(٦)] هَجَمَ الصُّبْحُ هُجُومَ الحَرَسِ

١) هذه الكلمة عن مقدمة ابن خلدون .
(٢) فى نفح الطيب : « فى حر » . (٣) التكملة عن نفح الطيب .
(٤) فى الأصلين ومقدمة ابن خلدون : « فسى الأزهار » وما أثبتناه عن نفح الطيب .
(٥) كذا فى الأصلين ومقدمة ابن خلدون طبعة بلاق ؛ وفى النفح المطبوع والمخطوط ، والمقدمة طبعة باريس : « الأنس » .
(٦) كذا فى كتاب « العذارى المائسات فى الأزجال والموشحات » . والذى فى الأصلين ونفح الطيب ومقدمة ابن خلدون : « شيئا أو كما » .

غَارَتِ الشُّهْبُ بِنَا أَوْ رُبَّمَا ... أَثَّرَتْ فِينَا عُيُونُ النَّرْجِسِ
أَىُّ شَىْءٍ لامْرِئٍ قَدْ خَلَصَا ... فَيَكُونَ الرَّوْضُ قَدْ مُكِّنَ[1] فِيهْ
تَنْهَبُ الأَزْهَارُ منه الفُرَصَا ... أَمِنَتْ مِنْ مَكْرِه مَا تَتَّقِيهْ
فَإِذَا الْمَاءُ تَنَاجَى وَالحصَى ... وَخَلَا كُلُّ خَلِيلٍ بِأَخِيهْ
تُبْصِرُ الْوَرْدَ غَيُورًا بَرِمَا ... يَكْتَسِى مِنْ غَيْظِه مَا يَكْتَسِى
وَتَرَى الآسَ لَبِيبًا فَهِمَا ... يَسْرِقُ السَّمْعَ بِأُذْنَىْ فَرَسِ
يَأُهَيْلَ الحَىِّ مِنْ وَادِى الْغَضَى ... وَبِقَلْبِى مَسْكَنٌ[2] أَنْتُمْ بِهِ
ضَاقَ عَنْ وَجْدِى بِكُمْ رَحْبُ الفَضَا ... لا أُبَالِى شَرْقَهُ مِنْ غَرْبِهِ
فَأَعِيدُوا عَهْدَ أُنْسٍ قَدْ مَضَى ... تُعْتِقُوا عَانِيَكُمْ مِنْ كَرْبِهِ
وَاتَّقُوا اللهَ وَأَحْيُوا مُغْرَمَا ... يَتَلاشَى نَفَسًا فِى نَفَسِ
حَبَسَ الْقَلْبَ عَلَيْكُمْ كَرَمَا ... أَفَتَرْضَوْنَ عَفَاءَ[3] الحبسِ
وَبِقَلْبِى مِنْكُمُ مُقْتَرِبُ ... بِأَحَادِيثِ الْمُنَى وَهْوَ بَعِيدْ
قَمَرٌ أَطْلَعَ مِنْهُ المَغْرِبُ ... شِقْوَةَ الْمُغرَى بِهِ وهْوَ سَعِيدْ
قَدْ تَسَاوَى مُحْسِنٌ أَو مُذْنِبُ ... فى هَوَاهُ بَيْنَ وَعْدٍ وَوَعِيدْ
سَاحِرُ الْمُقْلَةِ مَعْسُولُ اللَّمَى ... جَالَ فى النَّفْسِ مَجَالَ النَّفَسِ
سَدَّدَ السَّهْمَ وَسَمَّى وَرَمَى ... فَفُؤَادِى نُهْبَةُ الْمُفْتَرِسِ
إن يَكُنْ جَارَ وَخَابَ الأَمَلُ ... وَفُؤَادُ الصَّبِّ بالشَّوقِ يَذُوبْ

[٣٧٣]

---

(١) فى الأصلين : « كان » . وما أثبتناه عن نفح الطيب والمقدمة طبعة باريس .

[2] كذا فى م ونفح الطيب المخطوط والمقدمة . وفى ط : « سكن » .

(٣) فى المقدمة طبعة بلاق : « خراب » .

فَهْوَ لِلنَّــــفْسِ حَبِيبٌ أَوَّلُ   لَيْسَ فى الْحُبِّ لِمَحْبُوبٍ ذُنُوبْ
أَمْرُهُ مُعْتَمَــدٌ[1] مُمْتَثَلُ   فى ضُلوعٍ قَدْ بَرَاهَا وقُلوبْ
حَكَّمَ اللَّحْظَ بِهـا فَاحْتَكَمَا   لَمْ يُرَاقِبْ فى ضِعَافِ الأنْفُسِ
مُنْصِفَ الْمَظْلُومِ مِمَّنْ ظَلَمَـــا   ومُجَازِى البَرِّ مِنْهــا والمُسِى
مَا لِقَلْبِى كُلَّمَا هَبَّتْ صَبَا   عَادَهُ عِيدٌ مِنَ الشَّوْقِ جَدِيدْ
كانَ فى اللَّوْحِ لهُ مُكْتَتَبَا   قَوْلُهُ : «إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدْ»
جَلَبَ الهَمَّ لهُ وَالوَصَــبَا   فَهْوَ لِلْأَشْجَانِ فى جَهْدٍ جَهِيدْ
لَاعِجٌ فى أَضْلُعِى قَدْ أُضْرِمَا   فَهْىَ نَارٌ فى هَشِيــمِ اليَبَسِ
لَمْ يَدَعْ فى مُهْجَتِى إلاَّ ذَمَا   كَبَقَاءِ الصُّبْحِ بَعْدَ الغَلَسِ
سَلِّمِى يَا نَفْسُ فى حُكْمِ القَضَا   وَاعْمُرِى الوَقْتَ بِرُجْعَى وَمَتَابْ
دَعْكِ من ذِكْرَى زَمَانٍ قَدْ مَضَى   بَيْنَ عُتْبَى قد تَقَضَّتْ وَعِتَابْ
وَاصْرِفِى القَوْلَ إلى المَوْلَى الرِّضَا   مُلْهَمِ التَّوفِيقِ فى أُمِّ الكِتَابْ
الكَرِيمِ المُنْتَهَى والمُنْتَمَى   أَسَدِ السَّرْجِ[2] وبَدْرِ المَجْلِسِ
يَنْزِلُ النَّصْرُ عليْــهِ مِثْلَمَا   يَنْزِلُ الوَحْىُ بِرُوحِ القُدُسِ

قال : وأما المشارقة فالتكلُّف ظاهر على ما عانَوْه من الموشَّحات . ومن أحسن ما وقع لهم فى ذلك موشحة ابن سَنَاء المُلْك المِصْرىّ ، التى اشتهرت شرقاً وغرباً ، أولها :

[٣٧٤]   حَبِيبِى ارْفَعْ حِجَابَ النُّــورْ   عَنِ العِذَارْ

(١) فى النفح والمقدمة : « معتمل » .
(٢) فى المقدمة طبعة باريس : « السرح » .

نَنْظُرُ المِسْـكَ عَلَى الكافُورْ فى جُلَّنَارْ
كَلِّلِي يَا سُحْبُ تِيجَانَ الرُّبَا بالحُلِي
وَاْجْعَلِي سِـوَارَهَا[1] مُنْعَطِفَ الجَدْوَلِ

ولما شاع فن التوشيح فى أهل الأندلس ، وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه ، وتصْريع أجزائه ، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ، ونظموا على طريقته بلغتهم الحَضَرية ، من غير أن يلتزموا فيه إعرابا ، واستحدثوا فنًّا سموه بالزَّجَل ، والتزموا النظم فيه على مناحيهم إلى هذا العهد ، فجاءوا فيه بالغرائب ، واتسع فيه للبلاغة مجال ، بحسب لغتهم المستعْجمة .

وأول من أبدع فى هذه الطريقة الزَّجَلية أبو بكر بن قُزْمَان ، وإن كانت قيلت قَبله بالأندلس ، لـكن لم تظهر حِلاها ، ولا انسبكت معانيها ، ولا اشتهرت رَشاقتها إلا فى زمانه ، وكان لعهد المُلَثَّمين[2] ، وهو إمام الزجالين على الإطلاق .

قال ابن سـعيد : ورأيت أزجاله مَرْوِيَّة ببغداد أكثر مما رأيتها بحواضر المغرب . قال : وسمعت أبا الحَسَن[3] بن جَحْدَر الإشبيليّ إمام الزجالين فى عصرنا يقول : ما وقع لأحد من أئمة هذا الشأن مثلُ ما وقع لابن قُزْمان شيخ الصناعة ، وقد خرج إلى متنزه مع بعض أصحابه فجلسوا تحت عريش وأمامهم تمثال أَسَد من رُخام يَصُب الماء من فيه على صفائح من الحجر ، فقال :

وَعَرِيشْ قَدْ قَامْ عَلَى دُكَّانْ بحالْ رِوَاقْ
وأسَـدْ قَدِ ابتلعْ ثُعْبانْ فِي غلظ ساقْ

(١) كذا فى م وط . وفى كثير من الأصول الأخرى : « سـوارك » . ولا يستقيم به المعنى ، لأن المراد أن تجعل السحب النهر المنعطف سوار للربا .
(٢) هو أبو بكر محمد بن قزمان ، توفى سنة ٥٥٥ هـ .
(٣) فى م ونفح الطيب المخطوط : « أبا الحسين » .

وَفتحْ فَمُو بحالْ إنْسانْ ... بِهِ الْفُـواقْ
وانْطَلَقْ يجْرِى[1] عَلَى الصّفَاحْ ... والْقِى الصّبَاحْ[2]

وكان ابن قُزْمان مع أنه قُرْطبِىُّ الدار كثيرا ما يتردد إلى إشبيليّة ، ويَنْتاب نهرها .

[٢٧٠] ثم ذكر ابن خلدون عنه وعن جماعة حكاية وكلاما ، إلى أن قال : وجاءت بعدهم حَلْبَة كان سابقها مَدْغَلِّيس ، وقعت له العجائب فى هـذه الطريقة ، فمن قوله فى زَجَلِه المشهور :

وَرَذاذْ دقّ ينْزِلْ ... وَشُعَاع الشّمْس يضْرَبْ
فَتَرَى الْوَاحِدْ يفَضَّضْ ... وتَرَى الآخَرْ يذَهَّبْ
وَالنّبَاتْ يشْرَبْ ويسْكَرْ ... وَالْغُصُونْ تَرْقُصْ وتطْرَبْ
وتْرِيدْ تجِى إلينَا ... ثُمّ تسْتحِى وتهْرَبْ[3]

ومن محاسن أزجاله قولُه :

* لاحَ الضّيا والنجوم حَيارَى[4] *

ثم قال ابن خلدون : وظهر بعد هؤلاء فى إشبيلية ابن جَحْدر ، الذى فُضّل على الزجالين فى فتح مَيُورْقَة بالزَّجل المشهور الذى أوله :

مَنْ عَانَدَ التَّوْحِيدْ بِالسَّيْف يُمْحَقْ ... أنَا بَرِى مِمّنْ يُعَانِدِ الْحَقْ

قال ابن سـعيد : لقيته ولقيت تلميذه البعبع[5] صاحب الزجل المشهور الذى أوله :

(١) كذا فى المقدمة طبعة بلاق . والذى فى الأصلين وسائر المراجع : « ثم » .
(٢) فى بعض المراجع : « ولق » . كما أن فى بعضها « الصباح » .
(٣) فى الأصلين : « وترجع » . والتصويب عن مقدمة ابن خلدون طبعة بلاق .
(٤) فى م والنفح « سكارى » .
(٥) كذا فى الأصلين ونفح الطيب . وفى المقدمة طبعة باريس : «اليعنع» . وبهامشها روايات آخر . وفى المقدمة طبعة بلاق : « المعمع » .

يَا لَيْتَنِى إِنْ رِيتُ[1] حَبِيبِى أَفْتِلُ[2] اذْنُو بِالرُّسَيْلَا[3]
لِيشْ أَخَذْ عُنْق الْغُزَيِّل وَسَرَق فمّ الْحُجيلَا

ثم جاء من بعدهم أبو الحسن سَهْل بن مالك إمام الآداب ، ثم من بعدهم لهذه العصور صاحبُنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب ، إمام النظم والنثر فى الملة الإسلامية غير مدافَع ، فمِنْ محاسنه فى هذه الطريقة :

امْزِجِ الأَكْوَاسْ وامْلاَلِي نجدّدْ مَا خُلِق المالْ إلاّ أَنْ يُبدَّدْ

ومن قوله على طريقة الصوفية وينحو منحى الشُّشْتَرِيّ منهم :

بِينْ طُلُوعْ وبِينْ نُزُولْ اِخْتَلَطَت الغزولْ
وَمَضَى مَنْ لَمْ يَكُنْ وَبَقَى مَنْ لَمْ يَزُولْ

ومن محاسنه أيضا قوله فى ذلك المعنى :

البُعْدْ عنَّكْ يَا بْنِي أَعظَمْ مَصَايِبِي
وحِينْ حَصَلْ لِي قُرْبَكْ نسِيتْ أَقَارْبِي

وكان لعصر الوزير ابن الخطيب بالأندلس محمد بن عبد العظيم ، من أهل وادى آش ، وكان إماماً فى هذه الطريقة ، وله من زجل يعارض به مَدْغَلِّيس [٣٧٦] فى قوله :

* لاَحْ الضِّيَا والنُّجُومْ حَيَارَى *

بقوله :

حَلّ المُجُونْ يَاهْلْ الشُّطَارَا مُذْ حَلّت الشّمْس بالحَمَلْ

(١) كذا فى م . وفى ط والمقدمة طبعة بلاق : «رأيت» . وفى النفح المخطوط : «لقيت» .
(٢) فى الأصلين : «أفبل» . وما أثبتناه عن المقدمة طبعة باريس .
(٣) الرسيلا (فى الأصل) : الرسيلة ، مصغر الرسلة (بالكسر) ، وهى التؤدة والرفق . يريد أنه يعرك أذن حبيبه فى لين ورفق .

ثم ذكر ابن خلدونَ جملة من هذا الزّجَل ، وقال بعد ذلك : وهذه الطريقة الزّجلية لهذا العهد ، هى فَنّ العامّة بالأندلس من الشعر ، وفيها نظمهم ، حتى إنهم لينظمون بها فى سائر البحور الخمسةَ عشر ، لكنْ بلغتهم العامّية ، ويسمّونه الشّعر الزّجَليّ . إلى أن قال : وكان من المجيدين فى هذه الطريقة لأول هذه المئة ، الأديب أبو عبد الله اللّوْشِي ، وله من قصيدة يمدح فيها السلطان ابنَ الأحمر :

طَلّ الصَّبَاحْ قُمْ يَا نَدِيمْ نِشْرِبُو ونِضْحَكُو مِنْ بَعْدِ مَا نِطْرَبُو

ثم سَرَدها ابن خلدون ، وهى طويلة جدًّا .

ثم قال : ثم استحدث أهل الأمصار بالمغرب فَنًّا آخر من الشعر ، فى أعاريضَ مُزْدَوِجة كالموشَّح ، نظموا فيه بلغتهم الحَضَرِية أيضا ، وسَمّوه عَرُوض البلد ، وكان أولَ من استحدثه بينهم رجل من أهل الأندلس نزل بفاس ، يُعْرَف بابن عُمَير ، فنظَمَ قطعة على طريقة المُوَشَّح ، ولم يخرج فيها عن مذهب الإعراب [إلا قليلا] [(١)] ، مطلعها :

أَبكَانِي[(٢)] بِشَاطِى النَّهْر نَوْحِ الحَمَامْ عَلَى الغُصْنِ فى البُسْتَانْ قريب الصَّبَاحْ

وكَفّ السَّحَرْ تَمْحُو مِدَاد الظَّلَامْ وماء النَّدَى يجْرِى بثَغْرِ الأَقَاحْ

باكَرْتُ الرِّيَاضْ والطَّلّ فِيهِ افتِرَاقْ مَسْ[(٣)] الجَوَاهِرْ فى نُحُورِ الجوَارْ

وَدَمْع النَّوَاعِرْ يِنْهرق انْهِرَاق يحاكى ثَعَابِينْ حَلَّقَتْ بالثِّمَارْ

لَوَوْا[(٤)] بالغُصُونْ خَلْخَالْ عَلَى كلّ سَاقْ وَدَارَ الجَمِيعْ بالرَّوض دوْر السِّوَارْ

(١) التكملة عن مقدمة ابن خلدون طبعة باريس .
(٢) فى م : « بكانى » .
(٣) كذا فى المقدمة طبعة بلاق . وفى ط والمقدمة طبعة باريس : « كثير » . وفى م : « كلن » .
(٤) فى م : « لو ترى » .

وأَيْدِى النَّدَى تَخرِقْ جُيُوب الـكِمَامْ وَتَحْمِلْ نَسِيم المِسْـــك عَنْهَا رِيَاحْ
وَعَاج الضِّـــيا يُطْلَى بِمِسْك الغَمَامْ وَجَرّ النَّسِيمْ ذيلُو عَليهـــا وفَاحْ
رَإِيت الحَمَامْ بينْ الوَرَقْ فى القَضِيبْ قَد أَبْتَلّت أَرْيَاشُو بِقَطْرِ النَّـدَى
ينُوح مِثْل ذَاكْ المُسْتَهَام الغَرِيبْ قَد أَلْتَفْ مِنْ ثُوبُو الجْدِيدْ فى رِدَا
ولٰكِنْ بِفَاهْ أَحْمَرْ وسَاق خَضِيبْ يِنْظِمْ سُـــلُوكْ جَوْهَرْ ويِتْقَلّدَا [٢٧٧]
جَلَسْ بين الأَغْصَانْ جِلْسة المُسْتَهَامْ جَنَاحًا تَوَسّـدْ والْتَوَى فى جَنَاحْ
وصَارْ يشْتِكِى مَافِى ٱلْفُؤَادْ مِنْ غَرَامْ منْهَا ضَمّ مِنْقَارُو لِصَـدْرُو وصَاحْ
فقُلْت اَحْمَامْ أَحْرَمْت عيْنِى الهُجُوعْ أَدِى ماتْزَالْ[1] تِبْـكِى بِدَمْع سَفُوحْ
قَالْ لِى بَكِيتْ حَتَّى صَفَتْ لِى الدُّمُوعْ بِلَا دَمْع نِبْقَى طُولْ حَيَاتِى نِنُوحْ
عَلَى فَرْخْ طَارْ لِى لَمْ يَكُنْ لُو رُجُوعْ أَلِفْت البُكَا والحُزْنْ مِنْ عَهْدِ نُوحْ
كذاكْ هُوَ الوَفَا كَذَا هُوَ الذِّمَامْ[2] أُنْظُرْ لِلجُفُونْ صَارَتْ بِحَالِ الجْرَاحْ
واتُمْ مِنْ بَكى مِنكُمْ إذا تَمّ عَامْ يِقُولْ قَدْ عَيَّانِى[3] ذَا البُكَا وَالنُّوَاحْ
فَقُلْت احَمَامْ لَوْ خُضْت بَحْر الضَّنَى كانْ تِبْـكِى وَتَرْثِى لِى بِدَمْع هَتُونْ
ولو كانْ بقَلْبَكْ مَا بقلبى أنَا رَمَادْ كانْ يصِيرْ تَحتكْ فُرُوع الغُصُونْ
اليُومْ لِى نُقَاسِى الهَجْرْ كم مِنْ سَنَا حَتَّى لا سَبِيلْ نُجْلَهْ تَرَانِى العُيُونْ
ومِمَّا كَسَا [جِسْمِى] النُّحُولْ والسقَامْ أَخْفَانِى نُحُولِى عَنْ عُيُون اللَّوَاحْ

(١) كذا فى م. وفى بعض المراجع: «أراك ما تزال».
(٢) كذا فى ط. وفى المقدمة طبعة باريس: «كذا هو الوفا قلت كذا هو الذمام»، وكذا ورد فى المقدمة طبعة بلاق بنقص كلمة: «قلت». وفى م: كذا هو الوفا قل لم كذ هو الذمام».
(٣) فى المقدمة طبعة بلاق: «عنانى».

لَوْ جَتْنِي المَنَايا كانْ نِمُوتْ فِي المَقَامْ   وَمنْ مَاتْ بَعْد يَا قَوْمْ لَقَدِ اسْترَاحْ

ثم قال ابن خلدون : فاستحسنه أهل فاس ، وَوَلِعُوا به ، ونَظَمُوا على طريقته ، وتركوا الإعراب الذى [لَيْس] [1] من شأنهم ، وكثر شِياعُه بينهم ، واستفحل فيه كثير منهم ، ونوعوه أصنافا ، إلى المزدوج ، و [والكازى] [1] ، والملعبة ، والغَزَل ؛ واختلفتْ أسماؤها باختلاف ازدواجها ، وملاحظاتهم فيها .

فمن المزدوج ما قاله ابن شجاع ، من فحولهم ، وهو من أهل تازا :

اِلْمَالْ زِينـةِ الدُّنْيَا وِعِزّ النُّفُوسْ   يِبْهِي وُجُوهًا لَيْسَ هِي بَاهِيَـا
فَهَا كُلْ مَنْ هُوْ كَثِير الفُلُوسْ   وَلُّوه [2] الـكَلَامْ والرُّتْبَـة العَالِيَا
يِكبَّرُوا مِن كُثْرِمَالُو ولَوْ كَانْ صَغِيرْ   ويِصَغّرُوا عَزِيز القَوْمْ إِذَا يِفْتِقِرْ
مِنْ ذَا يِنْطِبقْ صَدْرِى وَمِنْ ذَا يغِيرْ   وِكَادْ يِنفقـع لَوْلاَ الرُّجُوعْ لِلْقَدَرْ
حَتَّى [3] يِلْتجى مَنْ هُو فِي قُومُهْ كَبِيرْ   لِمَنْ لاَ أَصْل عِنْدُو وَلاَ لُو خَطَرْ
لَقَدْ يِنْبَغِى نِحزَنْ عَلَى ذِى العُـكُوسْ   ونُصُبْغ عليهْ ثُوبِى مِن رَاس [4] خَابِيَا
أَدِى صَارَت الأَذْنَابْ أَمَام الرُّءوسْ   وَصَارْ يستَفِيدْ الوَادْ مِنَ السَّاقِيَا
ضَعْف النَّاس عملْ ذَا أَو فَسَاد الزَّمَانْ   مَا نِدْرِيُو عَلَى مَن نِكَثّرُو ذَا العِتَابْ
[٣٧٨] أَدِى [صَار] فْلاَنِ اليُوم بِصْبَحْ بُو فْلاَنْ   وَلَوْ رِيتْ وِكِيفْ حَتَّى يِرُدّ الجَوابْ

(١) هذه الكلمة زيادة عن المقدمة .

(٢) كذا فى مقدمة ابن خلدون طبعة بلاق . وفى الأصلين : « ألوه » .

(٣) فى المقدمة طبعة باريس : « أدى » .

(٤) فى م والمقدمة طبعة باريس : « فراس » .

(٥) هذه الكلمة عن المقدمة .

عِشنا والسلام[١] حتى رِإينا عِيَانْ أَنْفَاس السلاطين[٢] فى جُلُودِ الكلابْ
كِبار النفوس جِدًّا ضِعاف الأُسُوسْ هُمْ فِى ناحْيا والمجد فى نَاحْيـــا
يروا أَنَّهُمْ ـ وَالنَّاس يروهُمْ تيُوس ـ وُجُوه البَـلَدْ والعُمَد[٣] الرَّاسْيَا

ثم ذكر ابن خلدون كلاما آخر لابن شُجاع . ثم قال : وكان منهم على بن المؤذن بتِلِمْسان . [وكان][٤] لهذه الأمصور القريبة من تخوفهم بزَرْهون من نواحى مكناسة[٥] رجل يعرف بالكفيف ، أبدع فى مذاهب هذا الفن ؛ ومن أحسن ما عَلِق له بمحفوظى قوله فى رحلة السلطان أبى الحسن و بنى مَرِين إلى إفريقية ، يصف هزيمتهم بالقَيْروان ، و يُعزِّيهم عنها ، ويُؤنسهم بمـا وقع لغيرهم ، بعد أن عَيَّبَهم[٦] على غَزاتهم إلى إفريقية فى مَلْعَبة من فنون هذه الطريقة ، يقول فى مُفْتَتَحِها ، وهو من أبدع مذاهب البـلاغة فى الإشعار بالمقصد فى مطلع الكلام وافتتاحه ، و يُسَمَّى براعة الاستهلال :

سُبْحَانْ مَالِكْ خَوَاطِرِ الأُمَرَا بنوَاصِيهَا فى كلِّ حِين[٧] وَزَمَانْ
إنْ طِعْناهْ أَعْظَمْ لنا نَصْرا وإنْ عَصِيناهْ عاقبْ بكلِّ هَوَانْ[٨]

إلى أن يقول فى السؤال عن جيوش المغرب بعد التخلص :

كُنْ مَرْعِى قُلْ وَلَا تَـكُنْ رَاعِى فالرَّاعِى عَنْ رَعِيَّتُهْ مَسْئُولْ

(١) كذا فى المقدمة . وفى ط : « ببخل بالسلام » . وفى م : « ببخل بالجواب » .
(٢) كذا فى المقدمة . وفى ط « الشياطين » . وفى م : « شياطين » .
(٣) كذا فى المقدمة طبعة باريس . وفى الأصلين والمقدمة طبعة بلاق : « والعمدة » .
(٤) هذه الكلمة عن المقدمة .
(٥) فى م . والمقدمة طبع بلاق : « ضواحى » .
(٦) فى المقدمة طبعة باريس : « عتبهم »
(٧) فى م : « فـكل » .
(٨) كذا فى المقدمة طبعة باريس . وقد ورد هذا البيت مضطربا فى الأصلين .

واسْتَفْتِحْ بالصَّلَاة عَلَى الدَّاعِى ... لِلإِسْلَامْ وَالرِّضى السَّنِى المَكْمُولْ

لِلْخُلَفَا الرَّاشِدِينَ وَالأَتْبَاعِ ... وَاذْكُرْ بَعْدَهُمْ إِذَا تحب وَقُولْ

أحُجَّاجًا تخلَّوا الصَّحْـــرَا ... ودَرُوا شَرْحَ البلاد مع السكانْ

عَسْكَرْ فاسَ المنيرةِ الغرَّا ... أَيْنَ سارت به عَزَائِمُ السُّلْطَانْ

[٣٧٩] أحُجَّاجْ بالنَّبى الَّذِى زُرْتُمْ ... وَقطَعتمْ لو كلَا كل البَيْدَا

عَنْ جَيْشِ الغربْ حِينْ نشأْ لكمْ ... المَأْلوفْ فى أفْرِيقيَا السودَا

وَأَمِيرْ كَانْ بالعَطَا يزوِّدْ كمْ ... وَبَدَعْ بَرِّيَّةُ الحجازْ رَغْـدا

قَامْ كُلْ(١) كَلَسَدْ صَادفِ الجزرَا ... وبِمَجزْ(٢) شُوطْ بَعْدْ مَا لِخْفانْ(٣)

وتَرَكوا دَمّ ولهَبْ فى الغَـبْرَا ... أَدى صارْ إذْ غَارْ لهُ سَيَحانْ(٤)

لَوْ كَانْ مَا بيْنْ تُونسِ الغَرْبَا ... وبِبْلَادِ الغَرْبْ سَدّ الاسكَندَرْ

مَبْنِى مِنْ شَرْقها إلَى غَرْبَا ... طَبَقًا بحديدْ وثانياً بصــفَرْ(٥)

لَا بُدّ للطَّيْرْ كَانْ يجِى بِنَبَا ... أَوْ يأْتى الرِّيحْ عنهمْ بفرْدْ خَبَرْ

مَا أَعْوَصْها مِنْ أمورْ وما شَرَّا ... لَوْ نُقِرَا كل يوم على الويدان(٦)

لَجَرتْ بالدَّمّ وانْصَدَعْ حَجَرَا ... وهَوَتْ الأجْرافْ وجَفّتْ الغُدْرانْ

اِذْرِى لى بمقْلَك الفَحَّاصْ ... وتفَكَّر لِي بخاطرك جَمّا

---

(١) كذا فى ط . وفى م والمقدمة : « قل » .

(٢) كذا فى المقدمة طبعة بلاق . وفى الأصلين والمقدمة طبعة باريس : « وتفجر » .

(٣) كذا فى م والمقدمة طبعة باريس . وفى ط : « بخفان » . وفى المقدمة طبعة بلاق : « بخفان » .

(٤) ورد هذا البيت مضطربا فى ط والمقدمة . وما أثبتناه عن م .

(٥) يريد الصفر (بضم الصاد وسكون الفاء) وهو نوع من النحاس .

(٦) كذا فى الأصلين والمقدمة طبعة باريس . وفى المقدمة طبعة بلاق : « الديوان » . ولعله يريد : « الوديان » ليستقيم المعنى بها فى البيت الآتى .

إن كانْ يعْلَمْ[١] حمامْ ولاَ رقّاصْ — عَنْ السُّلطانْ شَهرْ وقَبْلَهُ سَبْعَا
بكْتابْ عَبْد المُهَيْمِنْ القوّاص[٢] — وعلاَمَاتْ تُنْشَرْ عَلَى الصُّمْعَا[٣]
إلاَّ قَوْم عَازبِينْ بلاَ ســتْرَا — مَجهُولِينْ لاَ مكانْ وَلاَ إمكانْ
لمْ يدْرِيُوا كيفْ يصوّرُوا الكَسْرَا — أوْ كيف دَخَلوا مدينَة القيْرَوَانْ
أمُولاَىْ بُو الحَسَنْ خطِينَا البَابْ — بقَضيّة ســيْرنَا إلى تُونسْ
فى غِنَى كنَّا عَنْ الجريدْ وَالزّابْ — وايْشْ لكْ بعَرب إفْرِيقيَة القُونس[٤]
ما بَلغَكْ عن عُمَرْ بن الخطّابْ — الفَارُوق فَاتـح القُرَى المُونس[٥]
ملَكَ الشّامْ وَالحجَازْ وَتَاج كسرَى — ولَمْ يفْتَح مِن أفْرِيقيا دُكّانْ
كانْ إذَا نُذْكَرْ لهُ كرِهْ ذِكْرَا — ويقُولْ اسْمُهَا[٦] يُفَرِّق الإخْوَانْ
هذَا الفَارُوقْ زُمُرّدْ الاَكْوَانْ — صَرّحْ فِي أفْرِيقيا بذا التّصريحْ
وَبَقَتْ حِمَى إِلَى زَمَنْ عُثْمانْ — وفتَحْهَا ابن الزُّبَيْرْ عن تَصحِيحْ
لمّا دَخلتْ غنايمهَا الدّيوَانْ — مَاتْ عُثْمانْ وانقلَبْ علينا الرّيحْ
وافترَق النّاس عَلَى ثلاَثْ أمرَا — وبَقِى ماهو السُّكُوتْ عنُو إيمَانْ[٧]
إذَا كانْ ذَا فى مُدّة البَرَرَا — إيشْ نعمِلْ فى أوَاخِر الأزْمَانْ
وأصْحَاب الجَفْر فى كُتَيْبَانَا — وَفى تَاريخ كاتْبَا وكيــوَانَا[٨]

(١) فى ط : « توجد » .
(٢) فى المقدمة طبعة باريس : « القواس » . وفى طبعة بلاق : « القصاص » .
(٣) يريد الصومعة .
(٤) كذا فى م : « القونس » وفى ط : « القويس » .
(٥) كذا فى المقدمة طبعة باريس . وفى ط والمقدمة طبعة بلاق : « المولس » . وفى م : « البولس » .
(٦) فى ط : « فيها نفرق » مكان قوله : « اسمها يفرق » .
(٧) فى ط والمقدمة طبعة بلاق : « وبنى ما هو للسكوت عنوان » .
(٨) كاتب : عطارد . وكيوان : زحل .

[٢٨٠] تذكُرُ فى صُـحْفِها(١) وأَبْيَاتَا شِـقّ وسَطِيحٌ وابن مَرّانَا(٢)
ابن مَرِّينٍ إذَا انْـكَبَتْ بَرَايَانَا(٣) لِجِدَارْ تُونسْ فَقَدْ سقطْ شَانَا
قد ذكَرْنَا ما قَالْ سيِّد الوُزَرَا عِيسَى بن الحَسَن الرَّفيع الشَّانْ
قَالْ لِي رِبنَا وَانَا بها أدْرَى لَـكِنْ إذَا جَا القَضَا عمِتْ الاجْفَانْ
و يقُولْ لك مَا رَمَى المَرِينيّا مِن حَضْرَةْ فَاسْ إلى عَرَبْ دِيابْ(٤)
رَاذْ الدَّوْلَى يمُوتْ أَبُو يَحيَى سُلْطَانْ تُونسْ وصَاحِب العتَّابْ(٥)
ولَقَدْ كَانْ قَبْـل ذَا الأشْيَا جَعَلَ أولَادْ أَبُو الحَسَنْ أنْسَابْ

ثم أخذ فى ترحيل السـلطان وجيوشه إلى آخر رحلته ، ومنتهى أمره مع أعراب إفريقية ، وأتى فيها بكل غريبة من الابداع .

وأما أهل تونس فاستحدثوا فن المَلْعبة أيضا على لغتهم الحَضَرية ، إلا أن أكثره ردىء ، ولم يَعلَق بمحفوظى [منه شىء](٦) لرداءته .

وكان لعامّة بغداد أيضا فنّ من الشعر يسمونه المَوَالِيّا ، وتحته فنون كثيرة ، يُسَمُّون منها القُومَا ، وكانْ وكانْ ، و [منه مفرد ، ومنه فى بيتين ، و يسمونه](٦) دُوبَيْت ، على اختلاف الموازين المعتبرة عندهم فى كل واحد منها ، وغالبها مُزْدَوِجة من أربعة أغصان ، وتبعهم فى ذلك أهل مصر والقاهرة ، وأتوا فيها بالغرائب ،

(١) كذا فى ط والمقدمة . وفى م : « شعرها » .
(٢) فى المقدمة طبعة باريس : « مروانا » .
(٣) كذا فى م . وفى ط : « نكس » .
(٤) فى المقدمة طبعة باريس : « ذباب » .
(٥) كذا فى المقدمة طبعة باريس . وفى ط : « العتاب » . ولعله يريد : الأعتاب . وفى المقدمة طبعة بلاق : « الأبواب » .
(٦) التكملة عن المقدمة .

وتجاروا[1] فيها بأساليب البلاغة ، بمقتضى لغتهم الحضرية ، فجاءوا بالعجائب .

ورأيت فى ديوان الصَّفِىّ الحِلىّ من كلامه[2] أن المواليّا من بحر البسيط ، وهو ذو أربعة أغصان وأربع قواف ، ويسمى صوتا وبيتين ، وأنه من مخترعات أهل واسط ، وأنّ « كانْ وكانْ » فى قافية واحدة ، وأوزان مختلفة فى أشطاره ، والشطر الأول من البيت أطول من الشطر الثانى ، ولا تكون قافيته إلا مُرْدَفة[3] بحرف العلة ، وأنه من مخترعات البغداديين ، وأنشد فيه .

ثم ذكر ابن خلدون عدة مقطعات من المواليّا ، ومنها :

نَادَيتُهَا ومَشِيبِى قَـدْ طَوَانِى طَىّ جُودِى عَلَىَّ بِقُبْلَهْ فى الهَوَى يَا مَىّ [٣٨١]
قَالَتْ وقَدْ تَرَكَتْ[4] دَاخِلْ فُؤَادِى كَىّ مَاظُنّ ذَا القُطن يَغْشَى[5] فَمْ مَنْ هو حىّ

ومنها :

يا حادِىَ العِيس أُزْجُرْ بالمَطَايا زَجْر وقفْ عَلَى مَنْزِل أحْبَابى قُبيل الفَجْر
وصِـحْ فِى حَيِّهم يَا مَن يُرِيد الأجْر يِنْهَض يصَلِّى عَلَى مَيِّت قَتِيل الهَجْر

ومنها :

عينى التى كُنْتُ أَرْعَاكُمْ[6] بها بَاتَتْ تَرعَى النُّجُومْ وبالتَّسهيدْ اقْتَاتَتْ
وأسهُم البين صابتْنى ولاَ فَاتَتْ وسَلْوَتى[7] ـ عَظَّمَ اللهُ أجْرَكم ـ مَاتَتْ

---

(١) فى م والمقدمة طبعة بلاق : « تبحروا » .

(٢) راجعنا ديوان صفى الدين الحلى المطبوع فى بيروت سنة ١٨٩٢ م ، فلم نجد ذكرا لما أشار إليه ابن خلدون هنا .

(٣) فى ط : « مزدوجة » . وما أثبتناه عن م والمقدمة طبعة باريس .

(٤) فى المقدمة طبعة بلاق : « كوت » .

(٥) فى المقدمة طبعة بلاق : « يحشى » .

(٦) فى ط : « أنظركم » .

(٧) فى ط : « ومهجتى » .

ثم قال : ومن الذى يسمونه دُو بيت :

قَدْ أَقْسَمَ مَنْ أُحِبُّــهُ بِالْبَارِى أَنْ يَبْعَثَ طَيفَهُ مَعَ الأَسحارِ
يَا نَارَ أَشواقِى[1] بِهِ فاتَّقِدِى لَيــلاً عَسَاهُ يَهْتَدِى بالنَّارِ

واعلم أن الذوق فى معرفة البلاغة منها كلها إنما يحصل لمن خالط تلك اللغة ، وكثر استعماله لها ، ومخاطبته بين أجيالها ، حتى يُحَصِّل ملكتها ، كما[2] قلناه فى اللغة العربية ، فلا يشعر الأندلسى بالبلاغة التى فى شعر أهل المغرب ، ولا المغربىّ بالبلاغة التى فى شعر أهل الأندلس والمشرق ، ولا المشرق بالبلاغة التى فى شعر أهل الأندلس والمغرب ؛ لأن اللسان الحضرى وتراكيبه مختلفة فيهم ، وكل واحد منهم مدرك بلاغة لغته ، وذائق محاسن الشعر من أهل بلدته ، وفى خَلْق السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ آيَاتٌ لِلْعَالِمِين .

انتهى كلام ابن خلدون فى ديوان العبر ، ببعض الاختصار .

اعتذار المؤلف عن ذكره الأزجال

قلت : كأنْ بمنتقد ليس له خبره ، يُسَدِّدُ سِهام الاعتراض ويتولى كِبْرَه ، ويقول : ما لنا وإدخال الهزل فى معرض الجد الصُّراح ؟ وما الذى أحوجنا إلى ذكر هذا المَنْحَى والأليقُ طرحه كلّ الاطِّراح ؟ فنقول فى جوابه على الإنصاف :

[٣٨٢] لم تزل كتب الأعلام مشحونة بمثل هذه الأوصاف ، وليس مرادهم إيثارَ الهزل على غيره ، وإنمـا ذلك من باب ترويح القلب ، وهو أعون على خيره ، وللسَّـلَف فى مثل ذلك حكايات يطول جَلْبها ، ولا يَقْدَح ذلك فى سكينتهم ، ولا يُتَوَهَّمُ لسببه سلبُها ، ويرحم الله تعالى عياضا إذ قال :

قُلْ لِلأَحِبَّةِ وَالْحَدِيثُ شُجُونُ مَا ضَرَّ أَنْ شَابَ الوَقَارَ مُجُونُ

الأبيات الآتية فى محلها .

(١) فى الأصلين : « شوق » . وما أثبتناه عن المقدمة . (٢) فى م : « لما » .

وليس قصدُنا نحن بهذا، عَلِمَ الله، غَرَضًا فاسدا، نُنفِقُ منه فى سُوق الهزل كاسدا، وإنما غَرَضُنا صحيح، وزَنْدنا غير شحيح. على أن المقصود الأعظم مدح النبى صلى الله عليه وسلم بهذه الأوزان، وكلٌّ ما سِيق وسيلةٌ إلى ذلك مما راق أو زان.

موشحتان غير منسوبتين فى مدح الرسول

واعلم أيها الناظر، أذهبَ اللهُ عن ساحتك الأشجان، أنّ كثيرا من الأئمة مَدَحوا بذلك المبعوثَ رحمة إلى الإنس والجانّ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه، صلاةً وسلاما يتضوع نَشْرُهما فى المشارق والمغارب، ويتألق نورهما، فيهتدى به قائلهما لقضاء الأغراض والمآرب. فمن ذلك قول بعض مَن كَرَع من مَنهَل حبه العذب المشارب، من مُوَشَّح لم أقف منه إلّا على قوله:

اَلْبُلْبُلُ فِى الرِّيَاضِ لَمَّا نَشَدَا	بِالْقَوْلِ شَدَا
وَالْغُصْنُ لَهُ يَمِيلُ حَتَّى سَجَدَا	مِمَّا وَجَدَا
قَدْ مَدَّ لَهُ الأَكُفَّ مِنْ غَيْرِ نَدَا	يَمْتَاحُ نَدَى
وَالْوُرْقُ شَدَتْ بِصَوْتِهَا الْمِلحَانِ	دُونَ الْعَلَقِ[1]
لَمَّا ذُكِرَ بِأَطْيَبِ[2] الأَلْحَانِ	رَبُّ الْفَلَقِ
يَا أَشْرَفَ مُرْسَلٍ بِهِ اللّٰهُ هَدَى	مَنْ رَامَ هُدَى
بِالْمَدْحِ لَدَيْكَ عَبْدُ وَهَّابٍ غَدَا	يَرْجُوكَ غَدَا
يَا مَنْ مَدِيحُهُ جَلَا كُلَّ صَدَا	مِمَّنْ رَصَدَا[3]
يَا مَلْجَأَ كُلِّ خَائِفٍ أَوْ جَانِى	بِالذَّنْبِ شَقِى

(١) العلق: الهوى.
(٢) كذا فى م. وفى ط: «بطيب».
(٣) كذا فى ط. يريد اتجه إليك وقصدك. وفى م: «صدا».

[٢٨٣] لاَ زَالَ حِمَاكَ رَوْضَةً لِلْجَانِي وَالْمُنْتَشِــــقِ

يَا عُرْبَ تِهامَةٍ حِمَاكُمْ أَرَبِي فِيــــهِ الْعَرَبِي
فَالسَّعْيُ لِغَيْرِ أَرْضِكُمْ لَمْ يَجِبِ حَثَّ النُّجُبِ
فَالْفَضْلُ لَكُمْ مَعْ كَمال الْحَسَبِ عِنْــــدَ النَّسَبِ
مِنْ مَدْحِكُمُ[١] تَصَرَّمَتْ أَحْزَانِي وَالْفَرَحُ بَقِي
عِنْدِي أَبَدًا وَفَوَّحَتْ أَوْزَانِي مِسْــكَ الْعَبَقِ

ومن ذلك قول بعض العُدول من أهل العصر القريب من عصرنا ، رحمهم الله تعـالى :

يَا عُرَيبَ الحيِّ مِنْ حَيِّ الحِمَى أَنْتُمُ عِيدِى وَأَنْتُمْ عُرُسِى
لَمْ يَحُلْ عَنكُمُ وِدَادِى بَعْدَمَا حُلْتُمُ ، لاَ وَحَيَاةِ الأَنْفُسِ

مَنْ عَذِيرِى فى الذِى أَحْبَبْتُهُ مِلْكُ القلبِ شَـدِيدُ البُرَحَا[٢]
بَدْرُ تِمٍّ أَرْسَلَتْ مُقْلَتُهُ سَهْمَ لَحْظٍ لِفُؤَادِى جَرَحَا
إِنْ تَبَدَّى أَوْ تَثَنَّى خِلْتَهُ غُصْنَ بانٍ فَوْقَهُ شَمْسُ ضُحَى
تَطْلُعُ الشَّـمْسُ عِشاء عِنْدَمَا تَتَجَلَّى مِنْهُ أَبْهَى مَلْبَسِ[٣]
وَتَرَى اللَّيْـلَ أَضَا مُنْهَزِمًا وَتَرَى الصُّبْحَ أَضَا فى الغَلَسِ

يَا حَيَاةَ النَّفْسِ صِلْ بَعْدَ النَّوَى وَالهًا مُضْنًى شَدِيدَ الشَّغَفِ
قَدْ بَرَاهُ السُّقْمُ حَتَّى ذَا الْهَوَى كَاد أَن يُفْضِى بِهِ لِلتَّلَفِ
آهِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ بِاللِّوَى وَزَمَانٍ بِالْمُنَى لَمْ يُسْعِفِ

(١) فى ط : « مدحكم » .
(٢) كذا فى م . وفى ط : « منكم قلبى قبل هذى البرحا » . وفيه تحريف ظاهر .
(٣) كذا فى م . وفى ط : « تنجلى منه بأبهى ملبس » .

كُنتُ أَرْجُو الطَّيْفَ يَأْتِى حُلُمَا عائداً يَا نَفْسُ مِنْ ذَا فَايْأَسِى
هَلْ يَعُودُ الطَّيْفُ صَبًّا مُغْرَمَا سَاهِرًا أَجْفَانُهُ لَمْ تَنْعُس

هِمْتُ فِى أَطْلَالِ لَيْلَى وَأَنَا لَيس فِى الأَطْلَالِ لِى مِنْ أَرَبِ
مَا مُرَادِى رَامَةٌ وَالْمُنحَنَى لاَ وَلَا لَيْلَى وَسُعْدَى مَطْلَبِى
إِنَّمَا سُؤْلِى وَقَصْدِى وَالْمُنَى سَيِّدُ الْعُجْمِ وَتَاجُ الْعَرَبِ
[أَحمَد الْمُخْتَارُ طَهَ مَنْ سَمَا الشريفُ ابنُ الشَّرِيفِ الـكَيِّس] (١)
خَاتَمُ الرُّسْلِ الـكَرِيمُ الْمُنتَمَى طَاهِرُ الأَصْلِ زَكِيُّ النَّفس

ولم أقف من هذه الموشّحة على غير هذا القدر ، وهو عجيب ، عارض مُوشّحتى ابن سَهْل وابن الخطيب السابقى الذكر .

موشحات لابن الصباغ الجذامى فى مدح الرسول أيضا

[٣٨٤] ومن ذلك جملة مُوَشّحات ، انتقيتها من كلام الشيخ الإمام الصالح الزكى الصوفى ، أبى عبد الله محمد بن أحمد بن الصبّاغ الجُذَامِىّ ، وقد ألّف ذلك بعضُ الأئمة فى تأليف رفعه للسلطان المرتضى صاحب مراكش ، وأطال فيه من مُوشّحات هذا الشيخ وسائر نظمه ، ولم أذكر من مُوَشّحاته هنا إلا الغُرَر (٢) ، على أنها كلّها غرر ، فمن ذلك قوله رحمه الله :

أَلِفَ الْمُضْنَى الشَّجُونَا وَارْتَضَى الأَحْزَانَ دِينَا
فَوْقَ صَفْحِ الوَجْنَتَيْنِ أَهْمَلَ الدَّمْعَ الْهَتُونَا

يَقْطَعُ الأَيَّامَ حُزْنَا وَبُكَاءً وعــويلا
فَارْحَمُوا صَــبًّا مُعَنَّى قَلْبُهُ يُذْكِى غَلِيــلا

(١) هذا البيت عن نفح الطيب .
(٢) كذا فى م . وفى ط : « هنا على القدر » .

مُلْهَبَ الأَحْشَاءِ مُضْنَى بِالنَّوَى أَضْحَى عَلِيلاَ
ذَابَ شَــوْقًا وَحَنِينًا وَسَـــقامًا[1] وَأَنِينَا
يَالَهُ مِنْ حِلْفِ بَيْنٍ بِرْنَفِى فِيكَ الْمَنُونَا

أَتَرَى عَهْـــدًا تَقَضَّى مِنْـكُمُ هَلْ لِي يَعُودُ
فَمَتَى عَـــنِّىَ تَرْضَى قَدْ بَرَى جِسْمِى الصُّدُودُ
لِمَ أُطِقْ وَاللهِ نَهْضَـا فَبِحَقِّ الْحَقِّ جُـودُوا
وَارْحَمُوا صَـبًّا مَهِينا كَمْ شَكَا الْبَيْنَ سِنِينَا
وشُــئُونُ الْمُقْلَتَيْنِ تَسْكُبُ الدَّمْعَ الْمَعِينَا

قَدْ ذَوَى غُصْنُ الشَّـبَابِ وَمَضَى عُمْـــرِى وَوَلَّى
آنَ لِي وَقْتُ الإِيَابِ كَمْ أُسَلِّى[2] النَّفْسَ جَهْـلاَ
هَـذِهِ عِرْسُ الْمَتَابِ فِي قِبَابِ الْوَصْلِ تُجْـلَى
حَسِّنُوا فِيهَا الظُّنُونَا وَادْخُـلُوهَا آمِنِينَا
قَدْ وَصَلْنَا كُلَّ بَيْنٍ وَعَفَـــوْنَا وَرَضِينَا

نَحْوَ هَانِيـكَ الرُّبُوعِ فَاجْهَـدُوا كَدَّ الْحُمُولِ
وَإِلَى قَبْرِ الشَّفِيعِ أَعْمِلُوا سَيْرَ الرَّحِيـــلِ
إِنْ تَـكُنْ خِلِّى مُطِيعِى يَمِّمَنْ خَيْرَ رَسُولِ
كُنْ لِي يَارَبِّ مُعِينَا وَصِلِ الصَّبَّ الْحَزِينَا
قَبْلَ أَنْ يَحِينَ حَيْنِى وَأَرَى الْمَوْتَ يَقِينَا [٢٨٥]

(١) فى م : « وبكاء » .
(٢) فى م : « أمى » .

نَمّ رَيْحَانُ التَّدَانِى وَسَرَتْ رِيحُ الْوِصَالِ
قَدْ صَفَا وِرْدُ الأَمَانِى فَانْتَهِضْ نَحْوَ المَعَالِى
صَاحِ كَمْ هَذا التَّوَانِى فَاسْتَمِعْ عَذْبَ المَقَالِ
وَيْلِينَا وَابْتُلِينَا وَاشْ يقُول النَّاس فِينَا
قُمْ بِنَا يَا نُور عينِى نَجْمَل الشَّكَّ يَقِينَا

وقولُه فى التشوق إلى مكة وطَيْبة ، على ساكنها الصلاة والسلام :

زَهْرُ شَيْبِ المفَارِقْ تَفَتَّحَتْ عَنْهُ الْكِمَامْ
فَابْكِ الزَّمَانَ الْمُفَارِقْ وَحَاكِ فِي النَّوْحِ الْحَمَامْ
عُوِّضْتُ بالصُّبْحِ الأَصِيلْ وَقَدْ عَرَا الْبَدْرَ انْكِسَافْ
أَلَمَّ بِالْغُصْنِ الذُّبُولْ وَكَانَ لَدْنًا ذَا انْعِطَافْ
رِيحُ الصَّبَا كَانْ[١] تُمِيلْ كأَنْ سُقِى صِرْفَ السُّلَافْ[٢]
حَتَّى[٣] رَمَى الْقَلْبَ رَاشِقْ وَفُوِّقَتْ نَحْوِى السِّهَامْ
وَلِسَانُ الْحَالِ نَاطِقْ يُخْبِرُنِى أَنْ لَا دَوَامْ
يَا بَدْرَ أَيَّامِ الشَّبَابْ هَلْ لِلأُفُولِ مِنْكَ[٤] طُلُوعْ
أَضْحَى فُؤَادِى ذا الْمُذَابْ حَلِيفَ أَشْجَانٍ فَزُوعْ
وَنَارُ حُزْنِى فِي الْتِهَابْ تُذْكَى بِأَحْنَاءِ الضُّلُوعْ
فإِنْ هَمَا الْبَرْقُ خَافِقْ ذَكَرْتُ عَهْدِى بالْخِيَامْ

(١) فى ط : « فيها » .
(٢) فى الأصلين : « الزلال » ، وظاهر أنه خطأ من النساخ .
(٣) فى م : « حين » .
(٤) فى ط : « من » .

وَإِنْ تَأَوَّهَ عَاشِقْ سَاجَلَتْ فِي دَمْعِى الغَمَامْ
وَلَّى الشَّبَابُ وَانقضَى فَدَمْعُ عَيْنِي فِي انْهِمَالْ
وَفِي الحَشَى جَمْرُ الغَضَا لِفَقْدِ هَاتِيكَ اللَّيَالْ
يَا عَهْـدَ أَيَّامِ الرِّضَا هَلْ رَجْعَةٌ تُدْنِي الْوِصَالْ
تَحْيَا بِهَا نَفْسٌ وَامِقْ مُضْنَى الفؤادِ مُسْتَهَام
نَحْوَ المُذَيْبِ وَبَارِقْ يَحْدُو بِهِ حَادِي الغَرَامْ
(١) يَهِيجُهُ لَمْـعُ البَوَارِقْ مِنْ طَيْبَةٍ حِينَ تُشَامْ
فَإِنْ تَعَقْـنِى العَوَائِقْ أَلْصَقْتُ خَـدِّى بالرَّغَامْ

[٢٨٦] يَا دَارُ هَـلْ يَدْنُو الْمَزَارْ فَيعقُبَ اللَّيْـلَ الصَّبَاحْ
لَهْفِى عَلَى بُعْـدِ الدِّيَارْ وَقَصِّ أَرْيَاشِ الْجَنَاحْ
مَتَى أَرَى أَحْـدُو الْقِطَارْ فَقَدْ بَرَانِي الانْتِزَاحْ
أَشْدُو الْمَطَايَا السَّوَابِقْ (٢) مُزَمْزِمًا عِنْـدَ الْمَقَامْ :
ثَغْرُ الزَّمَانِ الْمُوَافِقْ حَيَّاكَ مِنْهُ بِابْتِسَامْ

وقوله رحمه الله :

رُسُومُ ظَاهِرِ الْبِـلَى بِكُلِّ رَسْمٍ طَاسِمٍ (٣) عُنْوانْ
وَرَبْعُهُمْ (٤) مَا أَشْكَلَا مِنْهَا لِكُلِّ حَازِمٍ تِبْيَانْ

---

(١) جاءت هذه « القفلة » فى ط دون م . وكان من حقها أن تسبق بدور ذى ستة أغصان على نظام أدوار هذه الموشحة . أو لعلها زائدة .
(٢) فى م : « بالسوائق » .
(٣) فى ط : « ظاهر » .
(٤) فى م : « وعنهم » .

قِفْ بِالدِّيَارِ وَاعْتَبِرْ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ العِبَرْ
وَانْظُرْ(١) لَهَا وَازْدَجِرْ فَإِنَّ فِيهَا الْأَجْرْ
كَمْ مَعْلَمٍ قَدْ دَثَرْ فَلَمْ يَبِنْ مِنْهُ أَثَرْ
تَبْكِيهِ وُرْقُ الفَلَا وَفِى بُكَا الْحَمَامِ أَشْجَانْ
فَلْنَنْتَدِبْ إِلَى الطَّلَا فَفِى فُؤَادِ الْهَائِمِ أَحْزَانْ

سَمَاعَا مِنَ الْوُجُودْ(٢) عَنْهُ تفاهم العُقُولْ(٣)
فَغَيْبَةٌ وَشُهُودْ كِلَاهُمَا عينُ الدَّلِيلْ
حَتَّى مَتَى يَا مُرِيدْ تَخْتَالُ فِي ثوبِ الْخُمُولْ
تَشْكُو لَنَا الْمَلَلَا وَأَنْتَ بِالْمَآثِمِ جَذْلَانْ
فَلُذْ بِعِزِّ العُلَا فَعِنْدَنَا لِلنَّادِمِ إِحْسَانْ

فَنَاءُ أَهْلِ الطَّرِيقْ هُوَ الْوُجُودُ الْمُطْلَقُ
فَكُلُّ مَعْنًى دَقِيقْ بِوَصْفِهِمْ مُحَقَّقُ
أَنْوَارُهُمْ فِي شُرُوقْ بِهَا اسْتَضَا الْمُوَفَّقُ
قَدْ أَوْضَحُوا السُّبُلَا فَهُمْ لَنَا فِي الْعَالَمِ بُرْهَانْ
فَاجْنَحْ إِلَيْهِمْ وَلَا تُغْفِلِ الْمَوَاسِمَ إِبَّانْ

يَانَاسِيًا لِوَصْلِنَا أَيْقِظْ مِنَ النَّوْمِ الْجُفُونْ
سَلِّمْ إِلَيْنَا فِعْلَنَا مَا كَانَ مِنْهُ أَوْ يَكُونْ
لَاحَوْلَ إِلَّا حَوْلَنَا فَانْفِ الشُّكُوكَ وَالظُّنُونْ

---

(١) فى ط : « وانطق » .
(٢) كذا ورد هذا الشطر بالأصلين .
(٣) فى م : « عنه نبا فهم العقول » .

[٣٨٧]

يَا غَادِرًا قَدْ سَلَا أَقْصِرْ فَلَيْسَ يَجْمُلُ سُلْوَانْ
لِلّهِ مَا أَجْمَلَا مَنْ بَاتَ وَهْوَ بِالْهَوَى نَشْوَانْ

يَا طَالِبًا لِلنَّدَى يَبْغِى السَّمَاحَةَ وَالنَّوَالْ
يَمِّمْ — فُدِيتَ — أَحْمَدَا بَدْرَ العُلَا شَمْسَ الكَمَالْ
وَعَدِّ عَمَّنْ شَدَا وَاسْتَغْرِقِ المَدْحَ وَقَالْ :
إِنْ جِئْتَ أَرْضَ سَلَا تَلْقَاكَ بِالْمَكَارِمِ فِتْيَانْ
هُمُ سُطُورُ العُلَا وَيُوسُفُ بْنُ القَاسِمِ عُنْوَانْ

وقوله رحمه الله :

بِأَرْضِ طَيْبَةَ مَعْهَدْ شَوْقِى إِلَيْهِ مُجَدَّدْ
هَلْ لِى بِتِلْكَ الطُّلُولِ
مِنْ زَوْرَةٍ وَمَقِيلِ
يَاقَبْرَ خَيْرِ رَسُولِ
مَتَى يَرَاكَ فَيَسْعَدْ صَبٌّ بِبُعْدِكَ مُكْمَدْ؟
مُذْ قَدْ بَرَاه انْتِزَاحُ
وَقُصَّ مِنْهُ الْجَنَاحُ
لَهُ إِلَيْكَ ارْتِيَاحُ
بِالْغَرْبِ أَضْحَى مُقَيَّدْ وَالضَّعْفُ وَالشَّيْبُ يَشْهَدْ
رَبْعُ التَّوَاصُلِ أَقْوَى
فَمَنْ عَلَى الْهَجْرِ يَقْوَى
قد صَيَّرَ الجسمَ نِضْوَا

سَهْمُ بِعادٍ مُسَدَّدْ لَقَدْ[1] رَمَانِى فَأَقْصَدْ

مَتَى يُتَاحُ التَّدَانِى
لِمُكْمَدِ الْقَلْبِ عانِى
يَشْدُو بِكلِّ لِسَانِ
عَسَى الَّذِى كُنْتُ أَعْهَدْ مِمَّا تَقَضَّى يُجَدَّدْ

يَا بُغْيَتِى يا مُرَادِى
أَشْكُوكَ فَرْطَ بِعَادِى
فى كلِّ وَادٍ أُنادِى :
مَالِىَ غَيْرَكَ مَقْصِدْ فَكَيْفَ بِالْهَجْرِ أُقْصَدْ

فَوَّضْتُ أَمْرِى إِلَيْكَا
فَذَاكَ وَقْفٌ عَلَيْكَا
مَالِى شَفِيعٌ لَدَيْكَا
إِلَّا بُكائِىَ سَرْمَدْ فَمَنْ عَلَى الْحُسْنِ[2] يُسْعِدْ

بِى فَافْعَلْ مَا تَشَا
أَضْحَى لِى مِنْكَ الرَّجَا
فَكلُّ دَاءٍ دَوَا
وَكلُّ رَأْيِى[3] مُسَدَّدْ وكلُّ أَمْرٍ مُرَشَّدْ

(١) فى ط : « حين » .
(٢) كذا فى الأصلين ؛ ولعلها : « الحزن » .
(٣) فى م : « رأى » .

وقوله رحمه الله :

قُمْ وَنَاجِ اللهَ فِي دَاجِي الْغَلَسْ تَنْتَشِي الأَرْوَاحْ[1]
وَالْتَمِسْ لِلْعَفْوِ فِيهِ مُلْتَمَسْ وَانْتَبِهْ قَدْ فَاحْ
عَرْفُ أَزْهَارِ الرِّضَا ثُمَّ اقْتَبِسْ نُورَ رُشْدٍ لاَحْ
وَانْتَشِقْ يَا صَاحِ أَرْوَاحَ السَّحَرْ يَا لَهَا مَشْمُومْ

[٢٨٨] عَرْفُهُ إِنْ هَبَّ فِي إِثْرِ الزَّهَرْ يُنْعِشُ الْمَزْكُومْ

مَرِّغِ الخَدَّ وَنَادِ بِالنَّحِيبْ وَاهْمِلِ الأَجْفَانْ
قِفْ بِمَغْنَاهُمْ وُقُوفَ مُسْتَرِيبْ خَالَفَ الأَشْجَانْ
وَاشْكُ إِنْ وَافَتْ إِصْغَاءَ الطَّبِيبْ عِلَّةَ الهِجْرَانْ
فَعَسَى بِالوَصْلِ تُحْيِي مَا دَثَرْ وَيَطِيبُ النَّعِيمْ
فَالنَّوَى مَا إِنْ عَلَيْهِ مُصْطَبَرْ وَالبِعَادُ أَلِيمْ

يَا رَحِيمَ الخَلْقِ رُحْمَاكَ فَقَدْ جِئْتُ مُغْنَى رَحِيبْ
لَيْسَ لِلعَبْدِ عَلَى النَّارِ جَلَدْ وَهْوَ عَبْدٌ مُرِيبْ
عَبْدُ سَوْءٍ [لحاك][2] قَدْ قَصَدْ يَشْتَكِي بِالذُّنُوبْ
مَنْ لَهُ يَوْمَ ترامى بِالشَّرَرْ زَفَرَاتُ الجَحِيمْ
فَيَهَابُ الخَلْقُ[3] مِنْ خَيْرِ البَشَرْ عَافِنِي يَا رَحِيمْ

أَنَا مَا بَيْنَ مَقَامَيْنِ مُقِيمْ أَوْرَثَانِي شَجَا

(١) فى م : « تقتنى الأرياح » .
(٢) السياق ووزن البيت يقتضيان هذه الكلمة أو ما فى معناها .
(٣) فى ط : « فيها ندا الخلق » .

فِي فُؤَادِي مِنْ دُمُوعِي كُلُومْ   قَلَّمَا تُرْتَجَى
وَاعْتِلَاقِي بِجَنَابِ الكَرِيمْ   مُشْعِرٌ بِالنَّجَا
هَا أَنَا فِي الحَالَتَيْنِ فِي خَطَرْ   وَالفُؤَادُ سَلِيم
سَالِكَ التَّوْحِيدُ فِيهِ بِالنَّظَر   سُبْلَ نَهْجٍ قَوِيم

أَحْلِيفَ الحُزْنِ تَشْكُو بِالبِعَاد   لُذْ بِمَجْد[١] أَثِيل
فِي قِبَابِ المَجْدِ تَحْظَى بِالْمُرَادْ   حَيْثُ[٢] حَلَّ الرَّسُول
عِنْدَهُ يَشْفِي صَدَاهُ الفُؤَاد   وَاسْأَلَنْ مَنْ يَقُول :[٣]

« لَيْتَنِي رَمْلَةُ الحَرَّهْ »[٤]

وقوله رحمه الله :

نَأَتْ بِيَ الأَوْطَانْ   عَنْ حَضْرَةِ الإِحْسَانْ   وَلَا مُعِينْ
فَمَنْ لِذِي أَحْزَانْ   لِطَيْبَةٍ قَدْ كَانْ   لَهُ حَنِينْ

شَطَّتْ بِيَ الدَّارُ   فَيَا شَوْقَاهُ   لِيَثْرِبْ
أَحْبَابُهُ[٥] سَارُوا   والبَيْنُ أَقْصَاهُ   بِالمَغْرِبْ
فِي قَلْبِهِ نَارُ   تُذْكِيهِ أَسْوَاهُ   فَلْتَعْجَبْ
لَوْ سَابَقَ الإِخْوَانْ   فِي ذَلِكَ المَيْدَانْ   أَضْحَى مَكِينْ

---

(١) كذا فى ط . وفى م : « لذ بذى مجد » .
(٢) فى م : « حينما حل » .
(٣) فى ط : « واسأل عمن » . وفى م : « وسل عما » . ولعلهما مبدلتان عما أثبتناه ، ليجرى الوزن مع ما سبق .
(٤) كذا وردت هذه العبارة فى م ، ولم ترد فى ط .
(٥) فى ط : « أخدانه » .

فَحَالِفِ[1] الأشْجَانْ وَاصْحَبْ مَعَ الأحْيَانْ[2] قَلْبًا حَزِينْ

[٣٨٩] لِلْمَوْرِدِ العَـــذْبِ وَالمَنْهَـلِ السَّـلْسَلْ شُدُّوا الرَّحِيلْ
فَيَا ظَمَا قَلْـبِي لِذَلِكَ المَنْهَـلْ هَلْ مِنْ مَقِيلْ
بِسَـاحَةِ القُرْبِ فَيُـبْرِدَ السَّلْسَلْ حَرَّ الغَلِيـلْ
إِنْ أَمْكَنَ الإمكانْ أَنْ يَكْرَعَ الظَّمآنْ مِنَ المَعِينْ
فى مَشْرَبِ الرِّضْوَانْ فَذَاكَ سَعْدٌ دَانْ لِلرَّائِدِينْ

يَا حَادِيَ الظُّعْنِ وَسَائِقَ الرَّكْبِ إِلَى العَقِيقْ
أَسْفْتُ لِلبَيْنِ فَهَلْ إِلَى القُرْبِ يُلْفَى طَرِيقْ
مَتَى النَّوَى تُدْنِي مِن مَطْلَعِ الشُّهْبِ قَلْبًا خَفُوقْ
فَيَنْزِبُ بُسْتَانْ لِلرَّوْحِ والرَّيْحَانْ فِيهِ فُنُونْ
وَدَوْحُهُ المُزْدَانْ تَحْيَا بِهِ الأكْوَانْ فى كلِّ حِينْ

يَا خَيْرَ مُرْسُولِ لِلْحُرِّ وَالعَبْدِ بِالمُعْجِزَاتْ
نِدَاءَ مَخْبُولِ نَادَى عَلَى بُعْدِ خَوْفَ المَمَاتْ
أَنْتَ مُنَى سُولِي وَأَنتُمُ قَصْدِي وَلِي صِفَاتْ
تَمُجُّهَا الآذَانْ وَتَقْتَضِي الهِجْرَانْ فَمَا يَكُونْ
مِنْ ذِي شُجُونٍ عَانْ يَحْكِي بِدَوْحِ البَانْ شَادِي الغُصُونْ

يَا صَاحِ وَالقَصْدُ أَنْ يَظْفَرَ الأوَّاهْ بِقَصْدِهِ

---

(١) فى ط : « تحالف » .
(٢) فى ط : « الأعيان » .

إنْ شَفَّكَ البُعْدُ فَثِقْ بِعَفْوِ اللهْ عَنْ عَبْدِهِ
وَدَعْ فَتًى يَشْدُو وَٱللَّهْوُ قَدْ أَلهاهْ عَنْ رُشْدِهِ
جِنَّانُ يَا جَنَّانْ اِجْنِ مِنَ البُسْتَانْ اليَاسَمِينْ
وَخَلِّ الرَّيْحَانْ بِحُرْمَةِ الرَّحْمٰنْ لِلعاشِقِينْ

وقوله[1] رحمه الله تعالى :

لِأَحْمَدَ المُصْطَفَى مَقَامُ
جَلَّ عُلاً فَلاَ يُرَامُ
بِنُورِهِ يَهْتَدِى الأَنَامُ
فَأَىُّ شَمْسٍ وَأَىُّ بَدْرٍ قَدْ أَطْلَعَتْهُ لَنَا السُّعُودُ
بِنُورِهِ تُشْرِقُ الشُّمُوسُ
فِى حُبِّهِ تُخْلَعُ النُّفُوسُ
يَأَيُّهَا المُسْمِعُ الرَّئِيسُ
أَدِرْ عَلَيْنَا كُئُوسَ فَخْرٍ مِنْ ذِكْرِهِ تُعْطَ مَا تُرِيدُ
أَمْدَاحُ خَيْرِ الوَرَى نَعِيمُ
نَحْنُ أُنَاسٌ بِهَا نَهِيمُ
يَا مَادِحِيهِ بِاللهِ قُومُوا
خُوضُوا بِنَا مَوْجَ بَحْرِ فَخْرٍ مَنْ مَاتَ فِيهِ فَهْوَ شَهِيدُ
الشَّطحُ فِى حُبِّهِ مُبَاحُ
وَنَحْنُ قَوْمٌ لَنَا ٱرْتِيَاحُ
قُلُوبُنَا حَشْوُهَا جِرَاحُ

---

(١) هذه الوشحة من م .

مِنْ نَأْيِ مَغْنَاهُ لَيْتَ شِعْرِى مَتَى يَرَى قَبْرَهُ العَمِيدُ
إنْ سَمَحَ الدَّهْرُ بالوُصُولِ
لِقَبْرِ خَيْرِ الوَرَى الرَّسُولِ
السَّيِّدِ الأرْفَعِ الجَلِيلِ
ثُمَّ نَخْلَع ثِيَابَ طُهْرٍ وَنُوفِي رُوحِي لِمَنْ تُرِيدُ

وقوله أيضا :

لَهْفِي عَلَى عُمْرِى[1] مَضَى وَالشَّيْبُ فِي الفَوْدِ بَدَا وَمَا قَضَيْتُ الغَرَضَا
أَيَّامُ رَيْعَانِ الشَّبَابْ وَلَّتْ وَلَمْ تَنْوِ الإِيَابْ
فَنَارُ حُزْنِي فِي الْتِهَابْ وَدَمْعُ عَيْنِي فِي انسِكَابْ
يَا عَهْدَ أَيَّامِ الرِّضَا هَلْ رَجْعَةٌ تَشْفِي الصَّدَى حَقًّا وَتَنْفِي المَرَضَا
إنْ كُنتَ مِنْ أَهْلِ الصَّفَا دَعْ عَنكَ أَوْصَافَ الجَفَا
وَاذْكُرْ لِرَسْمٍ قَدْ عَفَا وَهِمْ بِمَدْحِ المُصْطَفَى
الهَاشِمِيِّ المُرْتَضَى تَاجِ العُلاَ شَمْسِ الهُدَى لاَ تَبْغِ مِنْهُ عِوَضَا
[٢٩٠] وشِمْ رُبُوعًا لِلحَبِيبْ وَانْزِلْ بِمَغْنَاهُ الرَّحِيبْ
وَلُذْ بِمَرْعَاهُ الخَصِيبْ فَهُوَ لِمَا نَشْكُو الطَّبِيبْ
نَادِ بِهِ مُعَرِّضَا هَلْ تَقْبَلُونَ مُكْمَدَا قَدْ كَانَ عَنكُمْ أَعْرَضَا
رَمَتْ فُؤَادِيَ النَّوَى وَغُصْنُ عُمْرِى قَدْ ذَوَى
وَالشَّوْقُ قَلْبِيَ قَدْ كَوَى وَاهًا عَلَى فَقْدِي القُوَى

(١) في م : « عمر ».

قَضَى النَّوَى مَا قَدْ قَضَى هَلْ يَسْتَطِيعُ الْجَلَدَا قَلْبٌ عَلَى جَمْرِ الغضَى

لَقَــدْ تَنَاءَتِ الدِّيَارْ وَشَطَّ بِي عَنْهَا الْمَزَارْ

لَوْ كَانَ لِي حُكْمُ اخْتِيَارْ مَا قَرَّ بِي عَنْهَا قَرَارْ

مَا شَاءَهُ حُكْمُ القَضَا يَجْرِي وَلَوْ طَالَ الْمَدَى فَلَا تَكُنْ مُعْتَرِضَا

وقوله رحمه الله :

أَطْلَعَ الصُّــبْحُ رَايَةَ الفَجْرِ فَتَبَدَّى الْمَكْتُومُ مِنْ سِرِّى

إِنْ تَكُنْ بَاحِثًا عَنِ الأَسْرَارْ فَانْتَشِقْ صَاحِ نَفْحَةَ الأَسْحَارْ

وَأَطِلْ فِي الأَصَائِلِ الأَذْكَارْ فَهْيَ أَذْكَى مِنْ عَاطِرِ الأَزْهَارْ

أَيْنَ طِيبُ الْمِسْكِ وَشَذَا[1] الزهْرِ فِي دُجَى اللَّيْلِ مِنْ شَذَا الذِّكْرِ

آهِ مِنْ أَدْمُعِي وَمِنْ حُزْنِي فَجْمَةُ البَيْنِ كَمْ تَرَى تُضْنِي

جِسْمَ مُشْتَاقٍ دَمِي الجَفْنِ يَا عَذُولِي عليهم عــيِّ[2]

عــبَرَاتِي تَنْهَلُّ كَالْقَطْرْ وَفُؤَادِي يُذْكَى عَلَى الجَمْرِ

شَفَّنِي الوَجْدُ فَاجْبُرُوا صَدْعِي يَوْمَ بِنْتُمْ عَنْ سَاحَتَيْ سَلْعِ

خَدَّدَ الخَدَّ سَاكِبُ الدَّمْعِ إِنْ تَعُودُوا مُتَيَّمَ الجِزْعِ

بُدِّلَ العُسْرُ مِنْــهُ بِالْيُسْرِ وَأَتَتْـــهُ السُّعُودُ بِالْبِشْرِ

لَيْسَ لِلعَبْــدِ مِنْكُمُ بُدُّ قَدْ بَرَانِي وَشَــــفَّنِي البُعْدُ

(١) كذا فى الأصلين . والصواب : « شذا » بدون واو العطف ، ليجرى مع المطلع ، وهو من الخفيف .

(٢) كذا فى ط . وفى م : « غي » .

مَنْ لِصَبٍّ أَذَابَهُ الوَجْـدُ ... بَاتَ فِي دَوْحِ حُزْنِهِ يَشْدُو
فِي هَوَاكُمْ لَقَـدْ فَنِي عُمْرِي ... فَالطُفُوا بِي وَأَمِّنُـوا ذُعْرِي
سَـيِّدِى أَنتَ مَلجَأُ الصَّبِّ ... فَأَجِرْ مِنْ ضَنَى النَّوَى قَلْبِي
إِنْ تَكُنْ لِي أَوْ إِنْ تَكُنْ حَسْبِي ... فِيكَ أَشْـدُو مَقَالَ ذِى عُجْبٍ :
(١) جَـرِّرِ الذَّيلَ أَيَّمَا جَرِّ ... وَصِلِ السُّكْرَ مِنْكَ بِالشُّكْرِ (٢)

[٣٩١] وقوله رحمه الله تعالى :

لِأَحْمَدٍ بَهْجَـهْ ... كَالقَمَـرِ الزَّاهِرْ ... فِي أَبْرُجِ السَّـعْدِ
عَـلاؤُهَا يَسْـبِي ... بِنُورِهِ البَاهِرْ ... كُلَّ سَـنَى مَجْدِ

فِي عَالَمِ القُـدْسِ ... قُدِّسَ عَلْيَـاهُ ... فَفَاقَ فِي الحَمْدِ
بِالْبَـدْرِ والشَّمْسِ ... يُزْرِى مُحَيَّـاهُ ... فَجَـلَّ عَنْ نِدِّ
لِلجِنِّ وَالإِنْسِ ... أَرْسَـلَهُ اللهُ ... يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ
أَذَلَّ بِالحُجَّـهْ ... وَأَمْرِهِ الظَّـاهِرْ (٣) ... مَنْ خَانَ لِلعَهْدِ
بِالشَّرْقِ وَالغَرْبِ ... ثَنَاؤُهُ العَـاطِرْ ... أَنْدَى مِنَ النَّـدِّ

يَا خَيْرَ مَرْسُـولِ ... مِنْ خِيرَةِ الخَلْقِ ... أَذَابَـنِي البُعْـدُ
إِلَيْـكَ يَا سُؤْلِي ... قَدْ قَادَنِي شَـوْقِي ... فَكَمْ أُرَى أَشْدُو
بِصَـوْتِ مَخْبُولِ ... حَكَى غِنَا وُرْقِ ... هَيَّجَهَا الوَجْـدُ
غَرِقْتُ فِي لُجَّهْ ... وَلَيْسَ لِي نَاصِرْ ... عَلَى جَوَى البُعْدِ

---

(١) هذا مطلع موشحة لأبى بكر بن باجة .
(٢) فى رواية : « وصل السكر منك بالسكر » .
(٣) فى م : « القاهر » .

إلَّاكَ يَا حَسْبِي   وَأَدْمُعُ النَّاظِرْ   تَنْهَلُّ فِي الْخَدِّ
إنْ عَاقَنِي ذَنْبِي   عنْ ذٰلِكَ المَغْنَى   فَلَيْسَ لِي حَوْلُ
وَكَيْفَ بالْقُرْبِ   لِلْهَائِمِ الْمُضْنَى   وَبَيْنَنَا سُبْلُ
تُذِيبُ بالْكَرْبِ   جِسْماً ذَوَى حُزْنَا   وَشَفَّهُ الْخَبْلُ
إلَيْكُمُ وَجَّهْ   وَجْهًا غَدَا حَائِرْ   وَالدَّمْعُ فِي الْخَدِّ
تَنْهَلُّ كَالسُّحْبِ   وَزَفْرَةُ الْخَاطِرْ   تُلْهَبُ بالْوَقْدِ

يَا سَامِعَ النَّجْوَى   إلَيْكَ أَوْصَابِي   تَشْكُو بأَوْجَالِي
تَرَكْتَنِي نِضْوَا   أَلُوذُ بالْبَابِ   مُقَسَّمَ الْبَالِ
إنْ كَانَ بالْبَلْوَى   لِطُولِ أَغْيَابِي   أَسَأْتُمُ حَالِي
فَقَلْبُكُمْ(١) رَجَّهْ   بِهَا أَرَى حَاسِرْ(٢)   إنْ لَمْ تَكُنْ نِدَّى(٣)
أَعُوذُ بالْحُبِّ   مِنْ أَمْرِكَ الآمِرْ   بالْبُعْدِ لِلْعَبْدِ

بِحُبِّ مَنْ تُحْدَى   لِقَبْرِهِ النُّجْبُ   السَّيِّدِ الطَّاهِرْ
هِمْ دَائِمًا وَجْدَا   يَا أَيُّهَا الصَّبُّ   وَعَدِّ عَنْ خَاطِرْ
مَنْ قَالَ إذْ أَوْدَى   بِقَلْبِهِ الْحُبُّ   قَوْلاً غَدَا سَائِرْ
بدائِعُ(٤) الْبَهْجَةْ   وَنُزْهَةُ النَّاظِرْ   وجَنَّةُ الْخُلْدِ   [٣٩٢]
وَبُغْيَةُ الْقَلْبِ   ورَاحَةُ الْخَاطِرْ   فِي ذٰلِكَ الْخَدِّ

(١) كذا فى م. وفى ط: «قبلكم». والمعنى — على كلتا الروايتين — غير واضح.
(٢) فى ط: «خاسر».
(٣) فى م: «رفدى».
(٤) فى الأصلين: «براكع». ولعلها محرفة عما أثبتناه.

وقوله ، رحمه الله تعالى :

لِأَحْمَــــدَ تَعْنُو الْأَقْمَارْ	فَمَــدِّدْ فَخَـارَهْ
وَأَنْظِمْ ثَنَاهُ أَشْعَـــــارْ	وَلَازِمْ وَقَارَهْ
لِأَحْمَـــــدَ بَدْرِ الْأُفْقِ	وشَمْسِ المَعَالِي
تَأَجَّجُ نَارُ الشَّـــوْقِ	وكَيفَ احتِيَالِي
لَئِنْ فَازَ أَهْـلُ السَّـبْقِ	بِذَاكَ الـكَمَالِ
وَحَلُّوا بِهَاتِيــــكَ الدَّارْ	وَحَازُوا جِوَارَهْ
فَفِي القَلْبِ نَارُ الأَفْـكَارْ	قَدْ أَذْكَتْ أُوَارَهْ
حَادِي الرَّكْبِ بَلِّغْ عَنِّي	سَـلَامًا كَثِيرًا[1]
وَقُلْ مُغْرَمٌ ذُو حُزْنٍ	قَدْ أَضْحَى أَسِيرًا
أَضْـنَتْهُ سِهَامُ البَيْنِ	لَمْ يُلْفِ نَصِيرًا
وَقَدْ أَبْعَـدَتْهُ الْأَقْدَارْ	وَالحُزْنُ أَثَارَهْ
فِي القَلْبِ تَنَائِي الْأَقْطَارْ	يُضْرِمُ نَارَهْ
إِذَا لَاحَ لَمْعُ الــبَرْقِ	مِنْ أَكْنَافِ نَجْدِ
دَعَانِي إِلَيْهِ شَـــوْقِي	وَإِفْرَاطُ وَجْدِي
إِلَى قَــبْرِ خَـيْرِ الخَلْقِ	سَأُجْهِدُ جَهْدِي
لَعَـلِّيَ أَقْضِي الْأَوْطَارْ	وأُعْطَى مَزَارَهْ

(١) كذا في م . وفي ط : « أسيرا » . ولعلها هذه الأخيرة محرفة عن « أنيرا » .

فَمَــــنِّىَ تُمْحَى الأوْزَارْ إذَا زُرْتُ دَارَهْ

يَا حَادِىَ شَوْقِىَ زَمْزِمْ بِذِكْرِ الحَبِيبْ
يَا حَرَّ وَجْــدِىَ ضَرِّمْ نِيرَانَ الوَجِيبْ
يَا دَمْـعَ عَيْنِىَ ارْقُمْ بِخَدِّ الكَثِيبْ
رُسُــومَ سُطُورِ التِّذْكَارْ لِرَبْـعٍ أَنَارَهْ
سَــنَا نُورِ وَجْهِ الُمخْتَارْ قَدْ أَعْلَى[1] مَنَارَهْ

أَيَا رَبِّ بِالُمخْتَــــــارْ والصَّحْبِ الكِرَامْ
قَرِّبْ قُرْبَ نَائِى الدَّارْ[2] مِنْ ذَاكَ المَقَامْ
واغْفِرْ قَوْلَ[3] ذِى إضْرَارْ غَنَّى فى هُيَامْ
مَنْ يُرُونِى دَارَ العَطَّارْ بِذُرَا المَنَـارَهْ
ثِيابِى وَمَا تَحْوِى الدَّارْ[4] نُعْطِهِ البِشَـارَهْ

وقوله ، رحمه الله تعالى :

آهِ مِنْ فَرْطِ الوَجِيبِ أَوْرَثَتْ قَلْبِىَ خَبَــلاَ
زَفَرَاتُ شَوْقِ مُـدْنَفْ مِنْـكُمْ لَمْ يُعْطَ وَصْـلاَ

قَدْ أَذَابَتْهُ الشُّجُونُ والبُكَاء والأَنِينُ
نَحْوَكُمْ لَهُ حَنِينُ أَبَدًا بِهِ يَدِينُ

(١) فى م : « ضيا » .
(٢) فى م : « قرب نائى الديار » .
(٣) فى ط : « قوى » .
(٤) رواية هذا الشطر فى ط : « وما تحوى الدار » . والتصويب عن م .

دَمْعُ خَـــدَّيْهِ الهَتُونُ   دَمِيَتْ منـــه[1] الجُفُونُ
يَا سَقَامِى[2] يَا طَبِيبِى   عَوْنُكُمْ عَـــنِّىَ أَوْلَى
لَمْ تَزَلْ[3] بِاللُّطْفِ تُوصَفْ   فَأَنِلْ عَبْـدَكَ فَضْـــلاَ

لَمْ تَزَلْ بِى فِى أُمُورِى   سَـــيِّدِى مَوْلًى لَطِيفَا
أَنْتَ مَوْلاَىَ نَصِـــيرِى   فَاجْـــبُرِ العَبْـدَ الضَّعِيفَا
مَنْ عَذِيرِى أَوْ مُجِيرِى   إِنْ أَطَلْتَ بِى الوُقُوفَا
يَا لِيَـوْمِىَ العَصِيبِ   وَسِـجِلُّ الصُّحْفِ يُتْلَى
وقُلوبُ الخَلْقِ تَرجُفْ   وَلِنَارِ الخَوْفِ تَصْلَى

بِالنَّبِـــــىِّ بِالعَـــلِىِّ   [بالرَّفيع][4] القَدْرِ أحمَدْ
وَعَتِيـــــقٍ الرَّضِىِّ   وَأَبِى حَفْصٍ المُمَجَّدْ
والشَّهِيـــــدِ وَعَلِىٍّ   غُرَرِ الفَخْرِ المُؤَبَّدْ
نَحْوَ سَاحَاتِ الحَبِيبِ   فَلْتَيَسَّرْ لِىَ سُـــبْلَا
فَمَتَى بِالقُرْبِ أُسْعَفْ   أَوْ أَرَى لِذَاكَ أَهْلَا
يَا حُدَاةَ العِيسِ عَنِّى   فَاحمِلُوا نَحْوَ العَقِيقِ
أَسَـــفِى وَطُولَ حُزْنِى   وَبُكَائِى وَشَهِيـــقِى
عَلِّنِى بِالْخَيْفِ[5] أَجْنِى   زَهْرَ إِبَّانِ اللُّحُوقِ

[٢٩٤]

(١) فى ط هنا : « به الجفون » وفى عجز البيت الذى قبله : « منه بدين » . ولعل الناسخ وضع كلا من حرفى الجر مكان الآخر .
(٢) كذا فى م . وفى ط : « ياشقائى » .
(٣) فى ط : « لا تزال » . وما أثبتناه عن م .
(٤) هذه الكلمة أو ما فى معناها يقتضيها السياق .
(٥) فى ط : « بالخوف » .

هَلْ لِصَبٍّ مِنْ نَصِيبِ فَيَعُودَ الْهَجْرُ وَصْلَا
يَا زَمَانَ الْقُرْبِ اعْطِفْ وَأَنِلْ مُضْنَاكَ شَمْلَا[1]

سَيِّدِى قَدْ ذُبْتُ حُزْنَا لَا تُخَيِّبْ فِيكَ قَصْدِى
وَأَنِلْنِى مِنْكَ حُسْنَى[2] قَدْ بَرَانِى طُولُ بُعْدِى
وَاغْتَفِرْ قَوْلَ مُعَنًّى هَائِمًا يَشْكُو بِوَجْدِى
يَا فُلَانْ إِنْ زُرْتَ حِبِّى اِفْتِلِ أَذْنُو بِالرَّسِيلا
لِيشْ أَخَذْ عُنْقِ الْخُشَيْفْ وَسَرَقْ فَمْ الْحَجِيلا[3]

انتهى ما قصدته من مُوَشَّحات هذا الشيخ النبوية .

نظم الجذامى فى غير الموشحات

وأما نظمه فى غير الموشحات ، فمنه قوله رحمه الله :

هَبَّ النَّسِيمُ بِطِيبِ ذِكْرِ الهَادِى فَتَأَرَّجَتْ نَفَحَاتُ عَرْفِ النَّادِى
يَا شَادِيًا يَشْدُو بِمَدْحِ مُحَمَّدٍ كَرِّرْ فَدَيْتُكَ مَدْحَهُ يَا شَادِى
كَرِّرْ عَلَى الأَسْمَاعِ ذِكْرَ مُحَمَّدٍ فَلِذِكْرِهِ بَرْدٌ عَلَى الأَكْبَادِ
وَأَعِدْ عَلَيْنَا نَظْمَ فَخْرِ هِلَالِ مَنْ بَهَرَ الوَرَى مِنْ حَاضِرٍ أَوْ بَادِى
هُوَ ذِرْوَةُ الْمَجْدِ الأَثِيلِ وَقُطْبُهُ هُوَ صَفْوَةُ الأَشْرَافِ وَالأَمْجَادِ
هُوَ بَحْرُ جُودٍ فَاضَ عَذْبُ نَوَالِهِ وَصَفَتْ مَوَارِدُهُ لَدَى الوُرَّادِ
هُوَ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ والْمُخْتَارُ مِنْ أَعْلَى نِجَارٍ[4] جَلَّ عَنْ أَنْدَادِ

(١) فى م : « نيلا » .
(٢) فى الأصلين : « حسنا » . وما أثبتناه أولى .
(٣) هذه الخرجة من زجل للبيع ، وقد وردت فى صفحة ٢١٨ من هذا الجزء باختلاف فى بعض الكلمات ، فلتراجع .
(٤) فى الأصلين « نجار » . وما أثبتناه أحق بالسياق .

هُوَ مُنْتَهَى أَمَلِي وَمَلْجَأُ مَفْزَعِي ... هُوَ شَمْسُ إِيمَانِي وَبَدْرُ رَشَادِي
هُوَ عِصْمَتِي مِمَّا أَخَافُ وَحُبُّهُ ... يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْخُطُوبِ عِمَادِي
إِشْرَاقُ كُلِّ النَّيِّرَاتِ وَحُسْنُهَا ... مِنْ نُورِ حُسْنِ شِهَابِهِ الْوَقَّادِ
لَا تَعْجَبُوا فَعِنَايَةُ الْمُخْتَارِ قَدْ ... خَرَقَتْ قِيَاسَ الْعَقْلِ فِي الْمُعْتَادِ
شَوْقِي إِلَى ذَاكَ الْمَقَامِ أَثَارَهُ ... حُزْنٌ تَلَهَّبَ لَفْحُهُ بِفُؤَادِي
يَا وَيْحَ مُكْتَئِبٍ وَمَا قَدْ شَفَّهُ ... مِنْ فَرْطِ أَحْزَانٍ وَطُولِ بِعَادِ
كَمْ رَامَ قُرْبَ الدَّارِ مِنْ أَحْبَابِهِ ... لَوْ أَسْعَفَ الْمَقْدُورُ بِالإِسْعَادِ
كَمْ رَامَ أَنْ يَشْفِي بِزَوْرَتِهِ ظَمَا ... قَلْبٍ إِلَى تِلْكَ الْمَعَاهِدِ صَادِي
أَيَّامَ أَطْلَعَ بَدْرُ حُسْنِ شَبَابِهِ ... مِنْ فَوْقِ نَاعِمِ غُصْنِهِ الْمَيَّادِ
فَالْآنَ قَدْ لَعِبَتْ بِهِ أَيَّامُهُ ... وَعَدَتْ عَلَيْهِ الْمَشِيبِ عَوَادِي

[٣٩٥]

شَيْبٌ وَضَعْفٌ وَانْتِزَاحُ مَوَاطِنٍ ... فَمَتَى يُتِيحُ الدَّهْرُ نَيْلَ مُرَادِي
لَهْفِي عَلَى عُمْرٍ تَصَرَّمَ وَانْقَضَى ... أَفْنَيْتُ فِيهِ طَارِفِي وَتِلَادِي
فَلَأَنْزَحَنَّ مَدَامِعِي أَسَفًا عَلَى ... مَا قَدَّمَتْهُ يَدِي لِيَوْمِ مَعَادِي
يَا حَادِيَ الْأَظْعَانِ يَأْمُلُ طَيْبَةً ... اُقْصُصْ فَدَيْتُكَ قِصَّتِي يَا حَادِي
وَانْزِلْ بِهَاتِيكَ الرُّبُوعِ وَقِفْ عَلَى ... نَادِي النَّدَامَى إِنْ عَرَضْتَ وَنَادِ:
هَذَا أَسِيرُ بِعَادِكُمْ أَجْفَانُهُ ... تَحْكِي بِفَيْضِ الدَّمْعِ سُحْبَ عِهَادِ
فَمَتَى عَلَى بُعْدِ الدِّيَارِ وَشَحْطِهَا[1] ... يَحْظَى بِوَصْلِكُمُ حَلِيفُ سُهَادِ
فَعَلَيْكُمُ مِنِّي سَلَامٌ طَيِّبٌ ... مَا نَاحَ غِرِّيدٌ بِسَرْحَةِ وَادِي

وقوله رحمه الله :

سَأَنْظِمُ مِنْ فَخْرِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ... لَآلِئَ لَا يَبْلَى جَدِيدُ نِظَامِهَا

(١) في م : « وشطها » .

تَضَوَّعَ طِيباً عَرْفُها فَكأنَّهُ تَضَوُّعُ أزْهَارٍ بدَتْ مِنْ كِمامِهَا
سَجَايا أبَتْ إلاّ السَّمَا كَيْنَ مَنْزِلاً فَفَاقَ عَلَى العَلياءِ علوُّ[1] مَقَامِهَا
خِلالٌ إذَا لاحَتْ قِبابٌ لَدَى عُلاً تُنيفُ فَتعلُوها قِبابُ خِيَامِهَا
إذَا يَمَّمُوا يَوْماً إمَامَ مَكارِمٍ فَأحْمَدُ قَدْ أضْحَى إمامَ إمَامِهَا
فَكَمْ ذُو عُلاً أوْمَا لِدَرْكِ مَقَامِهَا فَمَرَّ ولَمْ يُدْرِكْ مَرامِى مَرامِهَا
وَكَمْ ظَامِئٍ قَدْ رَامَ يُرْوَى بِرِيِّهَا فَآبَ وَقَدْ أضْحَى عَلِيلَ[2] أوَامِهَا
لِذَاكَ العُلا قَلبِى مَشُوقٌ بِحُبِّهِمْ وَقَدْ شُوِّقَتْ[3] نَفسى بِطُولِ مُقامِها
فلله عَيْنٌ لاَ تَمَلُّ بُكاءَهَا وَقَدْ حُرِمَتْ فِيهِ لَذِيذَ مَنَامِهَا
وَنَفْسٌ عَلَى بُعْدِ الدِّيَارِ قَرِيحَةٌ تُطَارِحُ فِي النَّوَى حَمَامَ حِمامِهَا
وَعمرٌ مَضَتْ أيامُ شَرْخِ شَبَابِهِ وَقَدْ قَدَّصَرفُ الدَّهْرِ غُصْنَ قَوامِهَا
فَيَا نَسْمَةَ الأسحارِ مِنْ نَحْوِ يَثْرِبٍ ألِمِّى بِنَفْسٍ قَدْ ذَوَتْ بِضِرامِهَا
وَيَا حَادِىَ الأظْعَانِ نَحْوَ قِبَابِهِمْ ألاَ فَاخْصُصِ العَلْيَا بِطِيبِ[4] سَلاَمِهَا

ومن تخميسه — ومن ذلك قوله رحمه الله مُخَمِّسًا شعراً لغيره :

أَلا هَلْ إلَى وَادِى العَقِيقِ طَرِيقُ
فَقَدْ هَاجَ شَوْقاً[5] لِلدِّيارِ مَشُوقُ
يَقُولُ وَفِى الأكْبادِ مِنْهُ خُفُوقُ
دُمُوعِى عَلَى وَادِى العَقِيقِ عَقِيقُ وَلِى زَفْرَةٌ تَحْدُو بها وَتَسُوقُ [٣٩٦]

---

(١) كذا فى م . وفى ط : « علو » .
(٢) فى ط : « غليل » .
(٣) فى ط : « سولت » .
(٤) فى ط : « بطول » .
(٥) فى م : « شوق » .

إذَا مَا حَدَا فِى ظُلْمَةِ اللَّيْلِ دَاجُ
تُحَرِّكُنِى نَحْوَ الْعَقِيقِ لَوَاعِجُ
وَعِنْدِى مِنَ الشَّوْقِ الْمُبَرِّحِ هَائِجُ
وَفِى كَبِدِى مِنْ لَوْعَةِ الْبَيْنِ لَاعِجُ يَهِيجُ بِهَا بَيْنَ الضُّلُوعِ حَرِيقُ
وَلَمَّا جَرَتْ بِى نَحْوَ طَيْبَةَ أَسْعُدِى
وَبُلِّغْتُ آمَالِى وَأُوتِيتُ مَقْصِدِى
وَأَوْرَدَنِى التَّوْفِيقُ أَعْظَمَ مَوْرِدِ
نَظَرْتُ فَقَالُوا إِنَّ ذَا قَبْرُ أَحْمَدٍ وَذَاكَ أَبُو حَفْصٍ وَذَاكَ عَتِيقُ
فَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّنِى شِمْتُ بَارِقًا
فَفَتَّ[1] الجَوَى مِنِّى ضُلُوعًا خَوَافِقَا
وَأَبْدَيْتُ وَجْدًا لِلْعَوَائِدِ خَارِقَا
فَمَا مَلَكَتْ عَيْنِى دُمُوعًا سَوَابِقَا وَلَا هَدَأَتْ لِى زَفْرَةٌ وَشَهِيقُ
بِذِكْرِكَ يَا خَيْرَ الْأَنَامِ تَلَذُّذِى
وَبِاسْمِكَ مِنْ خَطْبِ الْبِعَادِ تَعَوُّذِى
وَمَا زَالَ قَلْبِى بِامْتِدَاحِكَ يَغْتَذِى
أَلَا يَا رَسُولَ اللهِ حُبُّكَ مُنْقِذِى وَإِنِّى لَفِى بَحْرِ الذُّنُوبِ غَرِيقُ
عَلَيْكَ مَدَى[2] الْأَحْيَانِ تَنْهَلُّ أَدْمُعِى
وَفِيكَ وَإِنْ أُبْعِدْتُ مَا زَالَ مَطْمَعِى
شَفِيعِى حُبِّى لِلنَّبِىِّ الْمُرَفَّعِ
وَهَلْ تُحْرِقَنَّ النَّارُ قَلْبِى وَأَضْلُعِى وَحُبُّكَ فِى قَلْبِى وَأَنْتَ رَفِيقُ

(١) كذا فى م . وفى ط : «عمرت» . (٢) فى م : «مع» .

ثَنَاؤُكَ رَيْحَانِى وَمِسْكِى وَمَنْدَلِى
عَلَيْكَ رَسُولَ اللهِ كلُّ مُعَوَّلِى
حَنَانَيْكَ لِلْقَلْبِ المُتَيَّمِ فابْذُلِ
فَكَمْ فِيهِ مِنْ مِثْقَالِ حبَّةِ خَرْدَلٍ وَرَبُّكَ بِالوَعْدِ الكَرِيمِ حَقِيقُ

من نظمه فى مدح النبى

قلتُ : ولنجعل آخر ما أوردنا[1] من أمداحه النبوية قولَه :

تَرَكْتُ امْتِدَاحَ الْعَالَمِينَ وَلُذْتُ مِنْ مَدَائِحِ خَيْرِ الْخَلْقِ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى
سَأَجْعَلُهَا كَهْفِى وَحِصْنِى وَمَلْجَئِى لَعَلِّى بِالأَمْدَاحِ أَسْتَوْجِبُ العِتْقَا

نسأل الله ، بجاه هذا النبى الشريف القدر ، العظيم المَزِيَّة ، أن يُعتِقَنا من النار ، ويُجيرنا فى الدنيا والآخرة من كلّ مصيبة ورزيّة ، وأن يُسَهِّل علينا زيارته العظيمة البَرَكات ، وأن يَلْطُف بنا فى السَّكَنات والحَرَكات .

* * *

لابن خاتمة فى الموشحات

وقد عَنَّ لى لَمَّا ذكرت كلام ابن خلدونَ فى الموشّحات أن أذكر كلام الإمام ابن خَاتمة .

[٢٩٧]

قال رحمه الله تعالى فى كتابه « مَزِيَّةَ المَرِيَّة » فى باب محمد ، ما نصه :

« محمَّد[2] بن عُبادة ، يكْنَى أبا بكر ، ويُعرف بالقَزَّاز ، وأحسِبُه من أهل مالَقَة ، كان من صدور الأُدباء ، ومشاهير الشعراء الألِبَّاء ؛ وممن له باع فسيح ، فى طريقة التوشيح ؛ حتى طار اسمه فيها كل مَطار ، واشتهر بها نظمه أيَّ اشتهار . وهذه الطريقة من مخترعات أهل الأندلس ، ومُبْتَدَعاتهم الآخذة

(١) فى ط : « أوردناه » .
(٢) انظر ترجمة محمد بن عبادة هذا فى القسم الثانى من الذخيرة لابن بسام .

بالأنفُس ؛ هم الذين نَهَجُوا[1] سبيلها ، ووضعوا مَحْصُولها .

قال أبو الحسن بن بَسَّام : وأول [من صنع أوزان هذه الموشَّحات بأفُقنا ، واخترع طريقتها][2] ، فيما بلغنى ، محمد بن محمود[3] القَبْرِىّ الضرير ، وكان يصنعها[4] على أعاريض أشطار الأشعار ، غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة ، غير المستعملة ، يأخذ اللفظ العامىّ أو العَجَمِىّ ، يسميه المَرْكَز ، ويضع عليه الموشَّحة ، من غير تضمين فيها ولا أغصان . وقيل إن أبا عَمَرَ أحمد بن عبد ربّه ، صاحب كتاب « العقد » هو أول من سبق إلى هذا النوع من الموشّحات .

وحكى الكاتب أبو الحسن على بن سعيد العَنْسِىّ فى كتابه « المُقْتَطَف من أزاهر الطُّرَف » : أن الحجارىّ ذكر فى كتابه « المُسْهِب فى غرائب المَغرب » أن المخترع لها بجزيرة الأندلس المُقَدَّم بن مُعَافَى[5] القَبْرِىّ ، من شعراء الأمير عبد الله المروانى ، وأخذه عنه أبو عُمَرَ بن عَبد رَبّه ، صاحب « العقد » ، ثم غَلَبَهما عليه المتأخرون . وأول من برع فيــه منهم عُبادة بن القَزَّاز ، شاعر المعتصم صاحب المَرِيّة .

قال الأستاذ أبو الحسن على بن سَعْد الخير البَلَنْسِىّ فى كتابه : « نُزْهَة الأنْفُس ، وروضة التَّأنُّس ، فى توشيح أهل الأندلس » ضمنه عشرين وَشَّاحا ، على طريقاتهم فى الإجادة والإحسان :

العُباديُّون ثلاثة : ابنُ ماء السماء ؛ وهو عُبَادة بن عبد الله بن محمد بن عُبادة

(١) فى م : « نحوا » .
(٢) مكان مابين القوسين فى الأصلين : « وأول من اخترعها » وما أثبتناه من الذخيرة لابن بسام ، طبعة الجامعة المصرية (ج ٢ ص ١) .
(٣) فى الذخيرة : « حمود » .
(٤) فى م : « يضعها » .
(٥) فى الأصلين هنا : « المقدم أبو معافى » .

[٣٩٨] ابن ماء السماء بن أفلح بن الحسين بن سعيد بن قيس بن سعد بن عُبادة الخَزْرَجيّ الأنصاريّ ، من أهل مالَقَة . وعُبَادَة بن محمد بن عُبادة الأقرع ، ومحمد بن[1] عُبادةَ القزّاز هذا .

قال الأستاذ أبو جعفر : وكان محمد بن عُبادة من شعراء المعتصم ، فوشحه منها بكل دُرٍّ مُنْتظم ، وعقد بمعنى البلاغة والبراعة مُلْتَئِم . ومن أظرف ما وقع له فى للمديح من التوشيح ، موشَّحَتُه التى أوَّلُها :

كَمْ فى القُدُود اللِّيَانْ تَحْتَ اللِّمَمْ مِنْ أَقْمُرٍ عَوَاطِى

ومن أظرف ماوقع له فى خلالها من حسن الالتئام ، وسهولة النظام ، ماينذُر وجود مثله فى منثور الكلام ، وذلك فى أحَد مراكزها حيث يقول :

لَمَّا غَــــدَا قَادِرَا أَضْحَى قَلِيلَ[2] المَعْذَلَهْ
يا حاكِمًا جَائِرًا قتَلْتَ مَنْ لا ذنبَ لَهْ
سَطَوْتَ بِالْهَيَمَانْ[3] ظُلْمًا وَلَمْ تَسْتَبْصِرِ يا ساطِى
خَفْ سَطْوَةَ الرَّحْمَن إذَا حَكَمْ بَيْنَ البرى والخاطِى

ويخرج فى هذه الموشحة على قوله :

مَا أَمْلَحَ المِهْرَجَانْ وَقُلْ نَعِمْ كالْعَنْبَرِ لِلسَّوَاطِى
والفُلْكُ كالعقبان والمعتصِمْ بالعَسْكَرِ فى الشَّاطِى»

ثم قال ابن خاتمة : « ومن شعره ما أنشده الأديب أبو أحمد ، جعفر بن إبراهيم ابن الحاجّ المَعَافِرىّ فى كتابه « محك[4] الشعر » ونَسَبه إليه :

(١) فيما مر من عبارة ابن سعيد « ... عبادة بن القزار » . وفيا نقل عن ابن خلدون فى هذا الجزء (ص ٢٠٧) : « عبادة القزاز » .
(٢) فى ط « عزيز » ، وهى بمعناها .
(٣) فى ط : «بالهيمان» .
(٤) فى م : « مجد » .

أَوْدِعْ فُؤَادِي حُرَقًا أَوْ دَعِ ... ذَاتُكَ تَرْدَى أَنتَ فِي أَضلعِي
وَارْمِ سِهَامَ اللَّحْظِ أَوْ كُفَّهَا ... أَنْتَ بِمَا تَرْمِي مُصَابٌ مَعِي
مَوْقِعُهَا قَلْبِي وَأَنْتَ الَّذِي ... مَسْكَنُهُ فِي ذَلِكَ المَوْضِعِ

ولهُ رحمه الله :

[٣٩٩] أُنْظُرْ إِلَى البَدْرِ الَّذِي لَاحَ لَكْ ... فِي وَسَطِ اللُّجَّةِ تَحْتَ الحَلَكْ
قَدْ جَعَلَ البَحْرَ سَمَاءً لَهُ ... وَاتَّخَذَ الفُلْكَ مَكَانَ الفَلَكْ

وحضر مجلس المنعصم ابن صُمادح وبين أيديهم ورد مَصْبُوب ، فبرز من داخل وردة منها الحيوان الأخضر، الموجود في الورد ، وتسميه العرب القيقزان[1] فقال له المعتصم : صفه ، فقال :

وأَخضرَ حَمَّادِيّ[2] فِي الوَرْدِ لَائِحٌ ... على صَفْحِ وَرْدٍ حُسْنُهُ مُتَنَاهِي
كَمَا أَخَذَتْ حَسْنَاءُ فَصَّ زُمُرُّدٍ ... بِصُفْرَةِ مِسْوَاكٍ وَحُمْرِ شِفَاهِ

وكتب يوما إلى المعتصم وقد تأخرت صلات شعرائه :

يأَيُّهَا المَلِكُ الَّذِي حَازَ العُلَا ... مَعْنٌ أَبُوهُ وَخَالُهُ المَنْصُورُ
بِفِنَاءِ قَصْرِكَ عُصْبَةٌ أَدَبِيَّةٌ ... لا زَالَ وَهْوَ بِشَمْلِهِمْ مَعْمُورُ
زَفُّوا إِلَيْكَ بَنَاتِ أَفْكَارِهِمْ ... وَاستَبْطَئُوكَ فَهُمْ لَهُنَّ قُصُورُ»

انتهى كلام ابن خاتمة ، رحمه الله تعالى :

---

(١) كذا في ط . وفي م : « القيقوان » . ولم نجد في المعاجم اسم دويبة تكون في الورد بأحد هذين اللفظين . ووجدنا لفظة «قمقبان» اسما لدويبة كالخنفساء تكون في النبات .

(٢) كذا في ط . وفي م : « سماوي » . والمعنى غير ظاهر على الروايتين .

رجـــع

وحيث انتهينا إلى هذا المقدار ، من الخروج عن أصل الترجمة ، فَلْنَثْنِ العِنان إلى ما ألممنا به أولا من ذكر سَبْتَة . أعادها الله ، فنقول :

بعض ما ورد من الأثر فى سبتة

إن بعض الفقهاء يذكر فى شأن سَبْتَةَ حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد اختلف الناس فى أمره ، وقد حَدَّث به الفقيه أبو عبد الله محمدُ [بن محمد] (١) ابن يحيى السَّرَّاج ، عن جده العلامة أبى زكريا السَّرَّاج ، قال أخبرنا أبو البركات محمد بن إبراهيم ، قال : أخبرنا إبراهيم بن أحمدَ الغافقىُّ (٢) ، حدثنا (٣) محمد بن عبد الله بن أحمد الأزدىّ ، حدثنا محمد (٤) بن حسن بن عطية ، هو ابن غازى ، حدثنا أبو الفضل عِياض ، [حدثنا] (١) أحمد بن قاسم أبو العباس الصِّنْهاجى ، شيخ لا بأس به ، أنبأنا أبو على بن خالد ، وأبو عبد الله محمد بن عيسى ، قالا [حدثنا] (١) أبو عبد الله محمد بن على بن الشيخ ، [حدثنا] (١) وهب بن مَيْسَرة ، عن محمد بن وَضَّاح ، عن سُحْنون ، عن ابن القاسم ، عن مالك ، عن نافع ، عن ابن عمر ، قال : [٤٠٠]

« مَدِينَةٌ بالمغرب سَمِعْتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إنها على مجمع بَحْرَى المَغْرِب ، وهى مدينة بناها سَبْتُ بن سام بن نوح عليه الصلاة والسلام ، واشتق لها اسماً من اسمه ، فهى سَبْتة ، ودعا لها بالبرَكة والنصر ، فلا يريد أحد بها سوءا إلا رَدَّ الله دائرة السوء عليه » .

(١) التكملة عن م .
(٢) فى م : « الشافعى » .
(٣) فى ط « ابن » مكان قوله حدثنا . والتصويب عن م .
(٤) فى ط : « بن عمر » مكان قوله : « حدثنا محمد » :

هكذا ذكره الشيخ الإمام الحافظ ، سيدى أبو عبد الله محمد ابن الشيخ العالم الربانى ، سيدى الحسن بن مخلوف التِّلِمْسانى — رحمه الله — فى شرحه للشفاء ، ورواه عن شيخه أبى عبد الله السَّرَّاج المذكور ، بالسَّند المذكور ، وقال إثْرَه : تَرَدَّدَ رأى القاضى عياض فى هذا الحديث ، ففى الغُنْية[1] : « أنا بَرَاء[2] من عُهدة هذا الحديث » . وفيه : « هذا حديث موضوع . وابن الشيخ لا يُتَّهمُ ، ولا أدرى من [أين][3] دخل عليه[4] هذا » . وفى المدارك[5] : « هو حديث رواه ابن الشيخ عن وهب بن مَيْسَرَة ، يرفعه إلى مالك ، عن نافع ، عن ابن عُمر :

أنَّ فى أقصى المغرب ، على ساحل من سواحل البحر ، مدينةً تسمى سَبْتَة ، أسسها رجل صالح اسمه سَبَت ، واشتق لها اسماً من اسمه ، ودعا لها بالنَّصر والظَّفَر ، فما رامها أحد بسوء إلا ردَّ الله بأسه عليه » .

وذكر أشياء على من رامها بسوء ، ثم قال : وهـذا كله يصدّق هذا الحديث . انتهى .

الخليفة الناصر وسبتة

وكانت سَبْتَة مَطمَحَ هِمَم ملوك العُدْوَتين ، وقد كان للناصر المَرْوَانىّ صاحب الأندلس عنايةٌ واهتمام بدخولها فى إيالته ، حتى حَصَل له ذلك ، ومنها مَلَكَ المَغْرِب ، حَسْبما هو مذكور فى أخباره ، وكان تملُّكه إياها سنة تسع عشرة وثلاث مئة ، وبها اشتدَّ سلطانه ، وملك البحرَ بعُدْوَتيه ، وصار المَجاز فى يده ، وتوطَّدَتْ طاعته بأرض المغرب ، وكان أولَ من سما إلى ذلك من أمْلاك [٤٠١]

(١) الغنيـة : كتاب لعياض ، وقد سبقت إشارة المؤلف إليه فى مقدمة الجزء الأول وسيأتى الكلام عليه عند ذكر مؤلفات عياض .
(٢) كذا فى ط . وفى م : « أبرأ » .
(٣) التكملة عن م .
(٤) فى ط : « عليهم » .
(٥) كذا فى م . يريد كتاب المدارك لعياض . وفى ط : « المذكور » . وهو تحريف .

الأندلس ، منذ سكنها الإسلام ، فاستظهر بها على أمره ، وخلّفها[1] ميراثاً لمن بعده من وُلاة الأندلس ، وأكرم وجوه أهل سَبتة الذين جَنَحوا إلى طاعته ، ورفع منازلهم ، وقضى حوائجهم ، ووَصَلَهم ، وخلع عليهم وعلى قاضيهم حُسَيْن ابن فتح .

خلافة الناصر

والناصر أول من تسمَّى بأمير المؤمنين من بنى أمية بالأندلس ، لأن الدولة عظمت فى أيامه ، حين اختلّ[2] نظام ملك العباسيين بالمشرق ، وتغلَّبت عليه الأعاجم ، ولم يَتَسَمَّ أحد من سَلَفه[3] بالأندلس إلا بالأمير . وكان مُلكه بالأندلس فى غاية ما يكون من الضخامة[4] ورفعة الشأن ، وهادَتْه الرُّوم ، وأزدلفت إليه ، تطلب مُهادنته ومُتاحفته بعظيم الذخائر ، ولم تَبْقَ أُمَّة سمِعَتْ به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم ، إلا وجَّهَتْ إلَيْه ، أو وفدت خاضعة راغبة ، وانصرفت عنه راضية . وقد سَرَد الإمام ابن حَيّان من ذلك فى تاريخه الكبير ما هو معلوم ، وذكر هو وغيره أن صاحب مدينة القُسْطَنْطِينِيَّة العُظمى هاداه ، ورغب فى مُوادعته .

رسل ملك الروم إليه

وكان وُصُول أَرْسَال صاحب القسطنطينية عظيم الروم قُسْطَنْطِين بن ليونَ فى شهر صفر سنة ثمان وثلاثين[5] وثلاث مئة ، وتأهبَ الناصر لورودهم ، وأمر أن يُتَلَقَّوْا أعظم تَلَقٍّ وأنخمه ، وأحسن قبول وأكرمه ، وأخرج إلى لقائهم بِبَجّانة يحيى بن محمد بن اللّيث وغيرَه ، لخدمة أسباب الطريق ، فلما صاروا بأقرب المحلاّت من قُرطبة ، خرج إلى لِقائهم القوّاد ، فى العَدَد والعُدَّة

(١) فى ط : « وخلاها » . (٢) فى ط : « اختلط » .
(٣) فى ط : « ممن سلف » . (٤) فى ط : « الفخامة » .
(٥) كذا فى م ونفح الطيب ، وفيه أيضاً نقلا عن ابن خلدون ، أنها كانت سنة ست وثلاثين ، ولم يرجح المؤلف إحدى الروايتين . وفى ط : « ثلاث وثلاثين » .

والتَّعبية ، فتلقَّوْهُم قائداً بعد قائد ، وكَمَّل اختصاصهم بعد ذلك بأن أخرج [٤٠٢] إليهم الفَتَيَيْن الكبيرين الخَصِيَّين : ياسرا وتَمَّاما ، إبلاغا فى الاحتفاء بهم ، فلقياهم بعد القُوّاد ، فاستبان لهم بخروج الفَتَيَيْن إليهم بَسْطُ الناصر وإكرامه[١] ، وأُنزلوا بمُنْية ولىّ العَهْد الحَكَم ، المنسوبة إلى نُصَير[٢] ، بعُدْوَة قُرْطبة فى الرَّبَض ، ومُنِعُوا وحُمُوا من لقاء الخاصَّة والعامَّة ، ومُلابسة الناس جُملة ، ورُتِّب لحجابتهم رجال تُخُيِّروا من الموالى ووُجوه الحشَم[٣] ، فصُيِّرُوا على باب قصر هذه المُنْية ستة عشرَ رجلا ، لأربع دُوَل ، لكل دولة أربعة منهم ، ورحل الناصر لدين الله من قَصْر الزَّهْراء إلى قصر قُرطبة ، لدخول وفود الروم عليه ، فقعد لهم يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، من السنة المذكورة ، فى بَهْو المجلس الزاهر ، قُعوداً حَسَنًا نبيلا ؛ فقعد عن يَمينه من بنيه ، ولىّ العهد الحَكَم ، ثم عبد الله ، ثم عبد العزيز ، ثم الأصبغ ، ثم مَرْوان ؛ وقعد عن يَساره المُنذر ، ثم عبد الجبَّار ، ثم سليمان ؛ وتخلَّف عبد الملك ، لأنه كان عليلا لم يُطِق الحضور ؛ وحضر الوزراء على مراتبهم يمينا وشمالا ، ووقف الحُجَّاب من أهل الخِدْمة من أبناء الوزراء والموالى والوكلاء وغيرهم ، وقد بُسط صحن الدار أجمع بعِتاق البُسط وكَرائم الدَّرانك[٤] ، وظُلِّلت أبواب الدار وحناياها بظُلَل الدِّيباج ورَفيع السُّتور ، فوصل [رُسُل][٥] ملك الروم حائرين مما[٦] رأوه

(١) ذكر المقرى بعد هذا فى النفح هذه العبارة : « لأن الفتيان حينئذ هم عظماء الدولة ، لأنهم أصحاب الخلوة مع الناصر وحرمه ، وبيدهم القصر السلطانى » .

(٢) كذا فى نفح الطيب . وفى م « نصر » . وفى ط « مضر » .

(٣) فى ط : « المشيخة » .

(٤) الدرانك : ضروب من البسط .

(٥) هذه الكلمة عن نفح الطيب .

(٦) فى ط : « حائرين لمتعة ما رأوه » . وفى م : « حائرين لشنعة ما رأوه » . وما أثبتناه عن نفح الطيب .

من بَهجة المُلك ، وفَخَامة السلطان ، ودَفعوا كتابَ مَلِكهم صاحب القسطنطينية ، وهو فى رَقّ مَصْبوغ لوناً سماويًا ، ومكتوب بالذهب بالخط الإغريقى ، وداخل الكتاب مُدْرَجَة مصبوغة أيضا ، مكتوبة بفضّة بخط إغريقىّ أيضاً ، فيها وصف هديته التى أرسل بها وعَددُها ، وعلى الكتاب طابَع ذهب ، وزنُه أربعة مثاقيل ، على الوجه الواحد منه صورة المسيح ، وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده . وكان الكتاب بداخل دُرْج فِضّة منقوش ، عليه غِطاء ذهب ، فيه صورة قسطنطين الملك ، مَعْمولة من الزجاج الملوّن البديع ، وكان الدُّرْج داخل جَعْبَة[1] مُلْبسة بالدِّيباج ، وكان فى تَرجمة عُنوان الكتاب فى سَطر منه : [٤٠٣]

« قُسطنطين ورُومانُس[2] ، المؤمنان بالمسيح ، المَلِكان العظيمان ، مَلِكا الروم » .

وفى سطر آخر :

« العظيم الاستحقاق للفخر ، الشريف النسب ، عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس ، أطال الله تعالى بقاءه » .

وفى خمس بقين منه نُقِل هؤلاء الرُّسُل من منزلهم بمُنية نُصَيْر[3] بالرَّبَض ، إلى دار إبراهيم الفتى ، بداخل قُرطبة .

وفى آخر هذا الشهر أعاد الناصر لدين الله القُعود الثانىَ لرُسُل مَلِك الروم ، بقصر الزهراء ، فاحتفل لذلك أيضاً ، واستكمل له الأُهْبة ، وبالغ فى الزينة ، وقعد على باب السُّدة صاحب المدينة ، مع من ضُمّ إليه من العُرَفاء والشُّرَط والحَرَس ، وهم صفوف قيام ، وقام مع سُور القصر سِماط من الموالى ، فى

(١) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى م : « جفنة » .
(٢) كذا فى إحدى روايات نفح الطيب (طبعة أوربة) . وقد ورد هذا الاسم مضطربا فى الاصلين وكثير من المراجع ، والصواب ما أثبتناه .
(٣) انظر الحاشية رقم (٣) صفحة (٢٥٧) من هذا الجزء .

الملابس الحسان والسلاح الشاكّ ، وألْزَمَ[1] الفُصْلان[2] كلّها جُمَلا من العبيد والحَشَم والبوّابين وغيرهم ، فى أشكل زِيّهم .

ثم أعاد القعود لهم بالزهراء ، وهذا[3] القعود الثالث ، كان يوم الخميس لثلاث بقين منه ، على ما تقدم فى[4] الأُهبة والاحتفال فى الزينة .

وفى النصف من جُمادى الأولى منها أدخل الناصر لدين الله هؤلاء الرسل على نفسه ، فى مجلس خاص ، قعد لهم فيه بقصر الزّهراء ، فى المجلس المشرف على الرياض ، فلما خرجوا من عنده ، أُدخلوا فى[5] ديار الصّناعات والعُدّة بأكناف الزهراء ودار السّكّة ، وطِيف بهم بأرجائها ، ثم صُرفوا إلى دار [٤٠٤] نُزولهم ، فاتصل مُقامهم بقُرطبة فى كرامة موصولة ، وعطايا متوالية ، إلى أن كَمَلت الهدية التى كوفئ بها الطاغية مُرْسِلهم ، وأُسلمت إليهم ، مع أجوبتهم ، وأُمِروا بالرحيل .

وجلس لهم الناصر لدين الله فى النصف من شوال من السنة بعدها ، فدخلوا للوَداع ، وجُدِّدت لهم الخِلع ، وانطلقوا لسبيلهم ، متعجبين مما رأوا من عزّ الإسلام .

هدية ابن شهيد إلى الناصر

وفى سنة سبع وعشرين وثلاث مئة ، لثمان خَلَون من شهر جُمادى الأولى ، وردت على الناصر لدين الله هدية وزيره أحمدَ بن عبد الملك بن شُهَيد ، العظيمة الشأن ، التى اشتهر ذكرها إلى الآن ، ووقع الإجماع على أنه لم يُهادَ أحد من ملوك الأندلس بمثلها ، فأعجبت الناصر وأهل مملكته جميعاً ، وأقروا أن نَفْساً

(١) كذا فى م . وفى ط : « والروم » . ولا يستقيم بها الكلام .

(٢) الفصلان ، كما فى كتب اللغة : جمع فصيل ، وهو حائط قصير دون الحصن أو دون سور البلد . وقد توسع المغاربة فى استعماله ، فأطلقوه على ما نسميه « الجناح » وهو القسم المستقل من بناء يجمع عدة أقسام . وسترد هذه الكلمة بهذا المعنى بعد قليل فى هذا الجزء .

(٣) فى ط : « وهو » . (٤) فى م : « من » .

(٥) زادت م هنا : « رياض » .

لم تسمح بإخراج مثلها ضربة عن[1] يدها، وكتب مع هديته هذه رسالة حسنة، بالاعتراف للناصر لدين الله بالنعمة، والشكر عليها، استحسنها الناس وكتبوها.
وزاد الناصر وزيره هذا حُظْوَةً واختصاصاً، وأسمى منزلته على سائر الوزراء جميعاً، فأضعف له رزق الوزارة، وبلّغه ثمانين ديناراً فى الشهر، وبلغ مصروفه إلى ألف دينار فى السنة[2]، وثنّى له العظمة، لتثنيته له الرزق، فسماه ذا الوزارتين لذلك، وكان أولَ مَن سُمِّى بذلك بالأندلس، امتثالا لاسم صاعد بن مَخْلَد الوزير، وزير بنى العباس ببغداد. وأمر بتصدير فراشه فى البيت، وتقديم اسمه فى زمام[3] الارتزاق فى أول التسمية، فعظُم مقداره فى الدولة جدًّا.

وتفسير هديته هذه، على ما ثبت فى كتابه للناصر: وذلك من المال العين خمسُ مئة ألف دينار؛ ومن العُود المرتفع أربعُ مئة رِطال، منها فى قطعة واحدة مئة وثمانون رطلا؛ ومن المسك الذكى المفضَّل فى جنسه مئتا أوقية واثنتا عشرة أوقية؛ ومن العنبر الأشهب الذى بقى على خلقته ولم تدخله صناعة مئة أوقية، منها قطعة عجيبة الشكل أربعون أوقية؛ ومن الكافور المرتفع النقى الذكى ثلاث مئة أوقية؛ ومن أنواع الثياب ثلاثون شُقّة، وبُقّج[4] خاصّية للباسه، بيضا وملوّنة، وخمس طهائر شُعَيْبِيَّة[5] خاصّية له، وعشرة فِراء من عالى الفَنَك، منها سبعة بيض خُراسانية، وثلاثة مُلوّنة، وستة مَطارف عراقية خاصّية له، وثمانى وأربعون مِلْحَفَة زَهْرية لِكُسوته، ومئة مِلحفة زهرية [٤٠٠]

(١) فى م والنفح طبعة أوربة: «على».
(٢) كذا فى م. وفى ط: «وبلغه ثمانين ألف دينار فى السنة»، ونص هذه العبارة فى جميع نسخ النفح التى تحت أيدينا: «وبلغه ثمانين ألف دينار أندلسية، وبلغ معروفه إلى ألف دينار». (٣) فى نفح الطيب: «فى دفتر».
(٤) كذا فى ط. وفى م: «فنج». وفى جميع نسخ نفح الطيب: «خنج»، ولعله محرف عما أثبتناه. (٥) كذا فى الأصلين ونفح الطيب.

لرقاده ، وعشرة قناطير شُدَّ فيها مئة جلد سَمُّور ، وأربعة آلاف رطل من الحرير المغزول ، وألف رطل من لون الحرير ، قبض جميع ذلك صاحب الطِّراز ، وثلاثون بساطاً من صوف مختلفة الصناعات ، طول كل بساط منها عشرون ذراعاً ، ومئة مُصَلًّى من وجوه الفُرُش المختلفة الصناعات ، من جنس البُسُط ، وخمسة عشر نخًّا[1] من عمل الخز المقطوع شَطرها ، وسائرُها من جنس البُسُط الوجوه ؛ ومن السلاح والعُدَّة مئة تِجْفاف[2] ، بأبدع الصناعات[3] وأغربها وأكملها ، وألف تُرْس سُلطانية ، ومئة ألف سهم ؛ ومن الخيل مئة فرس ، منها من الخيل العِراب المتخيرة لركابه خمسة عشر فرسا ، وخمسة من عُرْض هـذه الخيل مسرجة ملجمة ، لمراكب الخلافة ، مجالس[4] سروجها خز عِراق ، وثمانون فرساً مما يصلح للوُصفاء والحَشَم ، وخمسة أبغل عالية الركاب ، وأربعون وصيفا ، وعشرون جارية من مُتَخَيَّر الرقيق ، بكسوتهم وجميع آلاتهم .

وفى الـكتاب : كان قد أمرنى أيده الله بابتياعهم من مال الأخماس قبـلُ ، فانْتَعشتهم من نعمته عندى ، وصيرتهم من بيتى[5] ، ومع ذلك عشرة قناطير سُكَّر طَبَرْزَذ ، لا سُحاق[6] فيه . [٤٠٦]

وفى آخر الـكتاب : ولما علمت تطلع مولاى — أيده الله تعالى — إلى قرية كذا بالعقبانية[7] المنقطعة الغَرْس فى شَرَفها ، وتَرداده — أيده الله

(١) فى الأصلين والنفح المخطوط « نوخا » . وفى النفح المطبوع « نخاخا » ، والـكامة محرفة عما أثبتناه .
(٢) التجفاف (بالـكسر) : آلة للحرب ، يلبسه الفرس والإنسان ليقيه فى الحرب .
(٣) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى م : « الصباغات » .
(٤) كذا فى جميع نسخ نفح الطيب . وفى الأصلين : « ملابس » .
(٥) فى ط : « وبعنى » .
(٦) يريد بالسحاق (السكر الناعم) . ولم نجد هـذه الـكامة فى معاجم اللغة .
(٧) كذا فى الأصلين . وفى نفح الطيب طبعة أوربة : « الفتيانية » . وفى النفح المخطوط وطبعة القاهرة : « القبتانية » .

تعالى — لذكرها ، لم أهنأ بعيش حتى أعملت الحيلة فى ابتياعها بأحوازها ، وأكتبت وكيله ابن بقيّة الوثيقة فيها باسمه ، وضمّها إلى ضياعه ، وكذلك صنعت فى قرية شيرة من نَظَر[١] جيّان ، عندما اتصل بى من وصفه لها ، وتطلّعه إليها ، فما زلت أتصدى لمسرّته بها ، حتى ابتعتها الآن بأحوازها ، وجميع منازلها وربوعها[٢] ، واحتاز ذلك كله الوكيل ابن بقيّة ، وصار فى يده له أبقاه الله سبحانه ، وأرجو أنه سيُرفع فيها فى هذه السنة آلافُ أمداد من الأطعمة إن شاء الله تعالى .

ولما علمت نافذ عزمه — أبقاه الله تعالى — فى البُنيان ، وكَلَفه به ، وفكرت فى عدد الأماكن التى تَطَلَّع نفسه الكريمة إلى تخليد آثاره فى بنيانها ، مدّ الله فى عمره ، وأوفى بها على أقصى أمله ، علمت أن أسّه وقوامه الصخر ، والاستكثار منه ، فأثارت لى همتى ونصيحتى حِكمة حيلة أحكمها سعدُك وجدّك ، اللذان يبعثان ما لا يُتَوَهَّم علمه ، حيلة أُقيم لك بها فى عام واحد عدد ما كان يقوم على يدى عبدك ابن عاصم فى عشرين عاما ، وينتهى تحصيل النفقة فيه إلى نحو الثمانين ألفا ، أعجّل شأنَه فى عام ، سوى التوفير العظيم الذى يبديه العيان ، إن شاء الله تعالى ؛ وكذلك ما ثاب إلىّ فى أمر الخَشب لهذه البُنْية المكرّمة ، فإن ابن خليل عبدك المجتهد الدءوب انتهى فى تحصيل عدد ما تحتاج إليه ، ثلاث مئة ألف عود ، ونيّف على عشرين ألفَ عود ، على أنه لا يدخل منه فى السنة إلا نحو الألفى عود ، ففتح لى سعدك رأيا أُقيم له بتمامه جميع هذه الخشب العام على كماله ، بورود الجَلِيبة لوقتها ، وقيمته على الرخص ما بين الخمسين ألفا إلى الستين[٣] ألفا . [٤٠٧]

(١) كذا فى جميع نسخ نفح الطيب . وفى الأصلين : « قطر » .
(٢) فى الأصلين : « وزروعها » . وما أثبتناه عن نفح الطيب .
(٣) كذا فى ط . وفى م والنفح : « والستين » .

انتهى ما بعث به الوزير ابن شُهيد ملخَّصا[1] .

الناصر وقد أراد الفصد يوما

ومن غريب ما يُحكى أن أمير المؤمنين أراد الفَصد ، فقعد فى البهو بالمجلس الكبير المشرف بأعلى مدينته بالزهراء ، واستدعى الطبيب لذلك ، وأخذ الطبيب المِبضَع ، وجَسّ عَضُد[2] الناصر ، فبينما هو كذلك إذ أطلّ زُرزور ، فصعِد على إناء ذهب بالمجلس ، وأنشد :

أيُّها الفاصِدُ رِفْقًا ... بأمـيرِ المؤمنينَا
إنما تفصِدُ عِرْقًا ... فيهِ مَحْيَا العالمينَا

وجعل يكرر ذلك المرة بعد المرة ، فاستظرف أمير المؤمنين الناصر ذلك غاية الاستظراف ، وسُرّ به غاية السرور ، وسأل عمن اهتدى إلى ذلك وعَلَّم الزُّرزور ، فذُكر له أن السيدة الكبرى مَرْجانة ، أم ولده ولىّ عهده الحكم المستنصر بالله ، صنعت ذلك ، وأعدته لذلك الأمر ؛ فوهب لها ما يُنَيِّف على ثلاثين ألف دينار .

بناء الناصر جامع الزهراء

والناصر المذكور هو البانى لمدينة الزَّهراء العظيمة المقدار . وكان يَعمل فى جامعها حين شرع فيه من حُذّاق الفَعَلة كلّ يوم ألفُ نَسَمة ، منها ثلاث مئة بَنَّاء ، ومِئتا نجار ، وخمس مئة من الأجراء وسائر أهل الصنائع ، فاستتمّ بنيانَه وإتقانه فى مدة ثمانية وأربعين يوما ، وجاء فى غاية الإتقان ، من خمسة أبهاء عجيبة الصنعة . وطوله من القبلة إلى الجوف ، حاشى المقصورة ، ثلاثون ذراعا ، وعرْض البَهْو الأوسط من أبهائه ، من الشرق إلى الغرب ثلاث عشرة ذراعا ، وعَرْض كل بهو من الأربعة المكتنفة له اثنتا عشرة ذراعا ، وطول

(١) ورد الخبر عن هدية ابن شهيد لعبد الرحمن الناصر فى نفح الطيب نقلا عن تاريخى ابن خلدون وابن الفرضى ، فارجع إليه .
(٢) فى م ونفح الطيب : « يد » .

صحنه المكشوف من القبلة إلى الجوف ثلاث وأربعون ذراعا ، وعرضه من الشرق إلى الغرب إحدى وأربعون ذراعا ، وجميعه مفروش بالرخام الخَمْرىّ ؛ وفى وسطه فوّارة يجرى فيها الماء ؛ فطول هذا المسجد أجمع من القبلة إلى الجوف — سوى المحراب — سبع وتسعون ذراعا ، وعرضه من الشرق إلى الغرب تسع وخمسون ذراعا ، وطول صَومعته فى الهواء أربعون ذراعا ، وعرضها عشر أذرع فى مثلها .

وأمر الناصر لدين الله باتخاذ منبر بديع لهذا المسجد ، فصُنع فى نهاية من الحسن ، ووُضع فى مكانه منه ، وحُظِرت حوله مقصورة عجيبة الصنعة . وكان وضع هذا المِنْبر فى مكانه من هذا المسجد عند إكماله ، وذلك يوم الخميس لسبع بَقِين من شعبان من سنة تسع وعشرين وثلاث مئة .

بناؤه القناة

وكان فى صدر هذه السنة كَمل الناصر بُنيان القناة الغريبة الصنعة ، التى أُجْرِىَ فيها الماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة غربىّ قرطبة ، فى المناهر المهندسة ، وعلى الحنايا المعقودة ، يجرى ماؤها بتدبير عجيب ، وصنعة غريبة محكمة ، إلى بِركة عظيمة ، عليها أسد عظيم الصورة ، بديع الصنعة ، شديد الروعة ، لم يُشاهَد أوفى منه ولا أبهى منه فيما صوّر الملوك فى غابر الدهر ، مطلىّ بذهب إبريز ، وعيناه جوهرتان ، لهما وميض شديد . يجوز هذا الماء إلى عجز هـذا الأسد ، فيمجه فى تلك البركة من فيـه ، فيَبْهر الناظر بحسنه وروعة منظره ، وثجاجة[1] صبّه ؛ فتُسْـقَى من مُجاجه جنان هـذا القصر على سعتها ، ويستفيض على ساحاته وَجنَباته ، ويُمدّ النهر الأعظم بما فَضَل منه ، فكانت هذه القناة وبِركتها ، والتمثال الذهب الذى يصب فيها ، من أعظم آثار الملوك فى

(١) لم نجد هذه الكلمة من مصادر : ثج الماء ، بمعنى انصب .

غابر الدهر ، لبعد مسافتها ، واختلاف مسالكها ، وفخامة بنيانها ، وسُموّ أبراجها ، التى يترقى الماء فيها ، ويتصوّب من أعاليها .

[٤٠٩] وكان مدة العمل فيها ، من يومَ ابتُدِئَت من الجبل إلى أن وصلتْ [أعنى القناة] (١) إلى هذه البركة ، أربعة عشر شهرا . وكان انطلاق الماء فى هذه البركة الانطلاق الذى انصل واستمر ، يومَ الخميس غُرة جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، وكانت للناصر فى هذا اليوم بقصر الناعورة دعوة حسنة ، أفضل فيها على عامّة أهل مملكته ، ووصل المهندسين والقُوّام بالعمل بصِلات حسنة جزيلة .

تشييد الناصر مدينة زهراء

واستمر العمل فى مدينة الزّهراء من عام خمسة وعشرين وثلاث مئة [إلى آخر دولة الناصر وابنه الحكَم ، وذلك نحو من أربعين سنة] (١) .

ولما فرغ من بناء مسجد الزهراء على ما ذكرناه آنفاً ، كانت أول جماعة صُلِّيت فيه صلاة المغرب من ليلة الجمعة لثمان بقين من شعبان ، وكان الإمام لها فيه القاضى [أبا عبد الله] (١) محمد بن عبد الله بن أبى عيسى . ومن الغد صَلّى الناصر فيه الجمعة ؛ وأول خطيب خَطَب به القاضى المذكور .

ولما بنى الناصر قصر الزهراء المتناهى فى الجلالة والفخامة ، أطبق الناس على أنه لم يُبْنَ مثله فى الإسلام ألْبَتّة ، وما دخل إليه أحد قط من سائر البلاد النائية ، والنِّحَل المختلفة ، من ملك وارد ، ورسول وافد ، وتاجر ، وجهْبِذ ، وفى هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفِطنة ، إلا وكلهم قطع أنه لم ير له شبيها ، بل لم يَسْمع به ، بل لم يتوهم كون مثله ، حتى إنه كان أعجب ما يؤمله القاطع إلى الأندلس فى تلك العصور النظر إليه ، والتحدث منه ؛ والأخبار عن هذا تتسع جدا ، والأدلة عليه تكثر ، ولو لم يكن فيه إلا السطح المُمَرّد ،

(١) التكملة عن نفح الطيب .

المشرق على الروضة ، المباهي بمجلس الذهب والقبّة وعجائب ما تضمنته من إتقان الصنعة ، وفخامة الهمّة ، وحسن المستشرَف ، وبراعة الملبس والحُلّة ، ما بين مَرْمَر مَسنون ، وذهب مَوْضون ، وعَمَد كأنما أُفرِغَت فى القوالب ، [٤١٠] ونقوش كالرياض ، وبِرَك عظيمة محكمة الصنعة ، وحياض وتماثيل عجيبة الأشخاص ، لا تهتدى الأوهام إلى سبيل استقصاء التعبير عنها ؛ فسبحان الذى أقدر هذا المخلوق الضعيف على إبداعها واختراعها من أجزاء الأرض المنحلة ، كيما يُرِى الغافلين عنه من عباده ، مثالا لما أعده لأهل السعادة فى دار المُقامة ، التى لا يتسلّط عليها الفناء ، ولا تحتاج إلى الرَّمّ ، لا إله إلا هو المنفرد بالكرم .

وذكر المؤرخ أبو مَرْوان بن حيّان صاحب الشرطة ، أن مبانى قصر الزهراء اشتملت على أربعة آلاف سارية ، ما بين كبيرة وصغيرة ، حاملة ومحمولة ، ونَيِّف على ثلاث مئة سارية زائدة ؛ وفسّر بعضهم هذا النيّف بثلاث عشرة ، منها ما جُلِب من مدينة رُومة ، ومنها ما أهداه صاحب القسطنطينية ؛ وأن مصاريع أبوابها ، صغارها وكبارها ، كانت تنيّف على خمسة عشر ألف باب ، وكلها مُلبَسة بالحديد والنحاس المموّه ، والله أعلم ، فإنها كانت من أهول ما بناه الإنس ، وأجله خطرا ، وأعظمه شأنا .

وقال بعض المؤرخين : وكان عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر ألف فتى ، وسبع مئة وخمسين فتى ، ودَخالتهم [1] من اللحم كل يوم ، حاشى أنواع الطير والحوت ، ثلاثة عشر ألف رطل ؛ وعدّة النساء بقصر الزهراء ، الصغار والكبار وخدم الخِدْمة ، ستة آلاف وثلاث مئة امرأة وأربع عشرة . ورأيت فى بعض الدواوين

(١) الدخالة يعنى الراتب : لفظة أندلسية مولدة لم تذكرها المعاجم العربية ، وذكرها دوزى فى تكملة المعاجم العربية .

— وهو الصواب إن شاء الله — أن عدد الفتيان الصقالبة ثلاثة آلاف وسبع مئة وخمسون ، [وجعل بعضهم مكان الخمسين سبعة وثمانين] [١] ، وعدد النساء بقصر الزهراء مثل ما ذكرنا أولا .

[٤١١] ثم قال بإثره : وكان لهؤلاء من اللحم ثلاثة عشر ألف رطل ، تقسّم من عشرة أرطال للشخص إلى ما دون ذلك ، سوى الدّجاج والحَجَل وصنوف الطير وضروب الحِيتان . والله تعالى أعلم .

وقال ابن حيان : ألفيت بخط ابن دحون الفقيه ، قال مسلمة بن عبد الله العريف المهندس : بدأ عبد الرحمن الناصر لدين الله بنيان الزهراء أول سنة خمس وعشرين وثلاث مئة ، وكان مبلغ ما ينفق فيها كل يوم من الصخر المنحوت المنجور المعدّل ستة آلاف صخرة ، سوى الصخر المنصرف فى التبليط ، فإنه لم يدخل فى هذا العدد . وكان يخدم فى الزهراء كل يوم ألف وأربع مئة بغل ، منها أربع مئة زوامل الناصر لدين الله ، ومن دوابّ الأكرية الراتبة للخدمة ألف بغل ، لكل بغل منها ثلاثة مثاقيل فى الشهر ، يجب لها فى الشهر ثلاثة آلاف مثقال . وكان يرد الزهراء من الجير والجصّ فى كل ثالثٍ من الأيام ألف ومئة حِمْل [١] ، وكان فيها حمامان ، واحدة للقصر ، وثانية للعامّة .

وذكر بعض أهل الخدمة فى الزّهراء أنه قدّر النفقة فيها فى كل عام بثلاث مئة ألف دينار ، مدة خمسة وعشرين عاماً [التى بقيت من دولة الناصر ، من حين ابتدأها ، لأنه تُوُفّى سنة خمسين] [٢] ، وحصّل جميع الإنفاق فيها ، فكان مبلغه خمسة عشر بيتَ مال .

(١) التكملة عن نفح الطيب .
(٢) كذا فى نفح الطيب : وفى الأصلين : « حمل » .

قال : وجلب إليها الرُّخام من قَرطاجَنَّة وإفريقية وتونس ، وكان الذين يجلبونه عبدُ الله بن يونس عَريف البنائين ، وحسنٌ وعلىٌ[١] ابنا جعفر الإسكندرانى . وكان الناصر يصلهم على كل رخامة ، صغيرة أو كبيرة بعشرة دنانير .

وقال بعض المؤرخين الأثبات : كان يصلهم على كل رُخامة صغيرة بثلاثة دنانير ، وعلى كل سارية بثمانية دنانير سجلماسية[٢] ، وكان عدد السَّوارى المجلوبة من إفريقية ألف سارية ، وثلاث عشرة سارية ، ومن بلاد الإفرنج تسع عشرة سارية . وأهدى إليه ملك الروم مئة وأربعين سارية ، وسائرها من [٤١٢] مقاطع الأندلس : طَرَّكونة وغيرها ، فالرُّخام المجزّع من رَيَّة ، والأبيض من غيرها ، والوردىُّ والأخضر من إفريقية ، من كنيسة سَفَاقُس . وأما الحوض المنقوش المُذَهَّب الغريب الشكل ، الغالى القيمة ، فجلبه إليه أحمد اليونانى من القُسطنطينية ، مع ربيع الأسقفّ القادم من إيلياء ؛ وأما الحوض الصغير الأخضر المنقوش بتماثيل الإنسان ، فجلبه أحمد من الشام ، وقيل من القسطنطينية مع ربيع الأسقفّ أيضا ، وقالوا إنه لا قيمة له ، لفرط غرابته وجماله ، وحُمل من مكان إلى مكان ، حتى وصل فى البحر ، ونصبه الناصر فى بيت المنام ، فى المجلس المستشرف الشرقى ، المعروف بالمؤنس ، وجعل عليه اثنى عشر تمثالا من الذهب الأحمر ، مرصّعة بالدر النفيس الغالى ، مما عمل بدار الصناعة بقرطبة : صورة أسد إلى جانبه صورة غزال ، إلى جانبه صورة تمساح ، وفيما يقابله ثعبان وعُقاب ، وفى

(١) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « عامر » .

(٢) فى ط : « سلجماسية » وفى م : « سلجسماتية » . وظاهر أنهما محرفتان عما أثبتناه .

المُجَنَّبتين حَمامة ، وشاهين ، وطاوس ، ودَجاجة ، وديك ، والثانى عشر[١] لم يحضرنى اسمه الآن ؛ وكل هذا من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ، [ويخرج الماء من أفواهها][٢] . وكان المتولِّى لهذا البنيان المذكور ابنه الحَكَم ، لم يتّكل فيه الناصر على أمين غيره ، وكان يُخبز فى أيامه كل يوم برسم حيتان البحيرة[٣] ثمان مئة خُبْزة [وقيل أكثر][٢] ، إلى غير ذلك مما يطول تتبعه[٤] .

وكان الناصر قد قسّم الجباية أثلاثا ، ثلث للجند ، وثلث للبناء ، وثلث مُدَّخر . وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكُوَر والقُرى خمسة آلاف ألف[٥] ، وأربع مئة ألف ، وثمانين ألف [دينار][٢] ، ومن السُّوق والمستخلص سبعَ مئة ألف ، وخمسة وستين ألفَ دينار ؛ وأما أخماس الغنائم فلا [٤١٣] يحصيها ديوان . وقيل إن مبلغ تحصيل النفقة فى بُنْيان الزهراء مئة مُدْى[٦] من الدراهم القاسمية ، بكيل قُرطبة . وقيل إن مبلغ النفقة فيها بالكيل المذكور ثمانون مُدْيا وستة[٧] أقفزة ، من الدراهم المذكورة . واتصل بُنيان الزهراء أيام الناصر خمسا وعشرين سنة ، شطر خلافته ، ثم اتصل بعد وفاته **خلافةَ ابنه** الحَكَم كلَّها ، وكانت خمسة عشر عاما وأشهرا . فسبحان الباقى بعد **فناء الخلق** ، لا إله إلا هو .

(١) لم يذكر المؤلف (هنا) غير عشرة ، وقد ذكرها فى نفح الطيب وزاد على ماذكره هنا : الفيل ، والحدأة ، والنسر .
(٢) التكملة عن نفح الطيب .
(٣) فى نفح الطيب : « البحيرات » .
(٤) ورد فى كتاب « إعمال الأعلام » للسان الدين بن الخطيب (قسم ثان) فى ترجمة عبد الرحمن الناصر ذكر بناء الزهراء باختلاف فى بعض التفاصيل .
(٥) فى نفح الطيب : « خمسة آلاف ألف ألف » .
(٦) المدى : مكيال ، وهو غير المد .
(٧) فى نفح الطيب : « سبعة » .

شىء عن عمران قرطبة

وكانت قرطبة إذ ذاك أم المدائن ، وقاعدة الأندلس ، وقرارة الملك . وكان عدد شُرطتها أربعة آلاف وثلاث مئة ، وكانت عدّة الدور التى فى القصر الكبير أربع مئة دار [ونيفا وثلاثين] (١) ، وكانت عدة دور الرعايا والسواد بها ، الواجب على أهلها المبيت فى السور ، مئة ألف دار ، وثلاثة عشر ألف دار ، حاشى دور الوزراء وأكابر الناس والبياض (٢) ، وعدد أرباضها ثمانية وعشرون ، وقيل أحد وعشرون ؛ ومبلغ (٣) المساجد بها ثلاثة آلاف وثمان مئة وسبعة وثلاثون مسجدا ؛ وعدد الحمامات المُبرّزة للناس سبع مئة حمام ، وقيل ثلاث مئة ؛ ووسط الأرباض قَصَبة (٤) قرطبة ، التى تختص بالسور دونها . وأما اليتيمة التى كانت فى القصر فى المجلس البديع ، فإنها كانت من تُحَف (٥) قيصر اليونانيين ، بعث بها صاحب القسطنطينية إلى الناصر مع تحف كثيرة سنية .

احتفال الناصر لمقدم ملك الروم وظهور البلوطى على سائر الخطباء

وكان القاضى مُنذرُ بن سعيد البَلّوطى ممن يُكرمه الناصر ويُجلّه ، وولّاه قضاء جماعته ؛ وكان أولَ الأسباب فى معرفته بالناصر ، وزُلفاه لديه ، أنّ الناصر لما احتفل بالجلوس لدخول [رسل] (٦) ملك الروم الأعظم صاحب القسطنطينية عليه بقصر قُرطبة ، الاحتفالَ الذى اشتهر ذكره فى الناس ، حسبما تقدم بعضُ [٤١٤] الإلماع به ، أحبّ أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه ، لتذكُر جلالة مَقعده ، وعظيمَ سلطانه ، وتَصِف ما تهيأ له من توطيد الخلافة فى دولته . وتقدّم إلى الأمير الحكم ابنه وولىّ عهده ، بإعداد من يقوم بذلك من الخطباء ، ويقدمه أمام نشيد

(١) التكملة عن نفح الطيب .
(٢) يريد بالبياض : خاصة الناس ، وهو فى مقابل السواد والجمهور .
(٣) كذا فى م ونفح الطيب . وفى ط : « وبلغ » .
(٤) فى نفح الطيب : « قبة قرطبة التى تحيط بالسور » ، وفى العبارة تحريف ظاهر .
(٥) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « فكانها كانت تحف »
(٦) زيادة يقتضيها السياق .

الشعراء ، فأمر الحكم صَنيعه[1] الفقيه محمد بن عبد البر الكُسَيْبانى بالتأهب لذلك ، وإعداد خطبة بليغة يقوم بها بين يدى الخليفة ، وكان يدَّعى من المقدُرة على تأليف الكلام ما ليس فى وسع غيره ، وحضر المجلس السلطانىّ ؛ فلما قام يحاول التكلم بما رآه ، بهره هول المقام ، وأُبَّهة الخلافة ، فلم يهتد إلى لفظة ، بل غُشِىَ عليه ، وسقط إلى الأرض ؛ فقيل لأبى على البغدادىّ إسماعيل بن القاسم القالى ، صاحب الأمالى والنوادر ، وهو [حينئذ][2] ضيف الخليفة ، الوافد عليه من العراق ، وأمير الكلام ، وبحر اللغة : قُمْ فارقع هذا الوَهْى ؛ فقام ، فحمد الله وأثنى عليه ، بما هو أهله ، وصلّى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم انقطع به القَوْل ، فوقف ساكتاً مُفَكِّرا فى كلام يدخل به إلى ذكر ما أُرِيد منه ، فلما رأى ذلك مُنذر بن سعيد ، وكان ممن حضر فى زمرة الفقهاء ، قام من ذاته ، [بدرجة من مرقاته][2] ، فوصل افتتاح أبى على لأول خطبته بكلام عجيب ، وفصل مصيب[3] ، يَسُحُّه سَحًّا[4] ، كأنما يحفظه قبل ذلك بمدة ، وبدأ من المكان الذى انتهى إليه أبو على البغدادى ، فقال :

أمَّا بعد حمد الله والثناء عليه ، والتعداد لآلائه ، والشكر لنعمائه ، والصَّلاة على محمد صفيه وخاتم أنبيائه ، فإن لكل حادثة مَقاماً ؛ ولكل مَقام مقال ، وليس بعد الحق إلا الضَّلال ؛ وإنى[5] قمت فى مَقام كريم ، بين يدى ملك [٤١٥]

(١) فى ط : « ضيفه » . والتصويب عن م ونفح الطيب

(٢) التكملة عن نفح الطيب .

(٣) مكان هذه العبارة : « وفصل مصيب » فى نفح الطيب : « ونادى من الإحسان فى ذلك المقام كل مجيب » .

(٤) فى م : « نسجه نسجاً » .

(٥) فى ط : « فقد » . وما أثبتناه عن م ونفح الطيب .

عظيم ، فأصغُوا إلىَّ مَعشرَ المَلأ بأسماعكم ، وَالقَنُوا[1] عنى بأفئدتكم ؛ إن من الحقّ أن يقال للمُحقّ صدقت ، وللمُبطل كذبت ؛ و إن الجليل تعالى فى سمائه ، وتقدّس بصفاته وأسمائه ، أمر كليمه موسى صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا وعلى جميع أنبيائه ، أن يُذَكِّر قومه بأيام الله عزّ وجل عندهم ، وفيه وفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أُسْوَة حسنة ؛ و إنى أذَكِّرُكم بأيام الله عندكم ، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين ، التى لَمَّتْ شَعَثَكم ، وأَمَّنَتْ سِرْبكم ، ورفعت قُوَّتَكم ، بعد أن كنتم قليلا فكثَّركم ، ومُستضعفين فقوَّاكم ، ومستذلين فنصركم ، ولاّه الله رعايتكم ، وأسند إليه إمامتكم ، أيام ضربت الفتنة سُرادقها على الآفاق ، وأحاطت بكم شُعَل النفاق ، حتى صرتم فى مثل حَدَقة البعير[2] ، من ضيق الحال ، ونكَد العيش والتقتير[3] ، فاستبدلتم بخلافته من الشدة الرَّخاء ، وانتقلتم بيُمن سياسته إلى تمهيد [كَنَف][4] العافية بعد استيطان البلاء . أنشُدُكم بالله معاشرَ الملأ ، ألم تكن الدماء مسفوكة فحَقَنها ، والسُّبُل مخوفة فأمَّنها ، والأموال مُنْتَهبة فأحرزها وحصَّنها ، ألم تكن البلاد خَرابًا فعمَّرَها ، وثغور المسلمين مُهتضمة فحَماها ونصرها ، فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته ، وتلافيَه جمعَ كلمتكم بعد افتراقها بإمامته ، حتى أذهب الله عنكم غيظكم ، وشَفَى صدوركم ، وصرتم يداً على عدوِّكم ، بعد أن كان بأسُكم بينكم ، فأَنْشُدُكم الله ألم تكن خلافته قُفل الفتنة بعد انطلاقها من عِقالها ، ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب [٤١٦] أحوالها ، ولم يكل ذلك إلى القواد والأجناد ، حتى باشره [بالقوة][4] والمهجة

(١) كذا فى م . وفى ط ونفح الطيب : « وأنقنوا » .
(٢) فى م : « العين » .
(٣) فى نفح الطيب : « التغيير » .
(٤) هذه الكلمة عن نفح الطيب .

والأولاد ، واعتزال النِّسوان ، وهجر الأوطان ، ورفض الدَّعة وهى محبوبة ، وترك الرُّكون إلى الراحة وهى مطلوبة ، بطَوِيَّة صحيحة ، وعزيمة صريحة . وبصيرة نافذة ثاقبة ، وريح هابَّة غالبة ، ونُصْرَة من الله واقعة واجبة ، وسلطان قاهر ، وجَدّ ظاهر ، وسيف منصور ، تحت عدل مشهور ، متحمِّلا للنصَب ، مستقلا لما ناله فى جانب الله من التعب . حتى لانت الأحوال بعد شدّتها ، وانكسرت شوكة الفتنة عند حدَّتها ، ولم يبق لها غارب إلا جَبَّه ، ولا نَجَمَ لأهلها قَرْن إلا جَذَّه ، فأصبحتم بنعمة الله إخوانا ، وبلمِّ أمير المؤمنين لشَعَثكم على أعدائه أعوانا ، حتى تواترت لديكم الفتوحات ، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب [الخيرات و](1) البرَكات ، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم ، وآمال الأقصَين والأدنين مُستخدَمةً إليه وإليكم ، يأتون من كل فجّ عميق ، وبلد سَحيق ، لأخذ حَبْل بينه وبينكم ، جملة وتفصيلا ، « ليقضيَ اللهُ أمراً كان مَفْعولا » ، ولَنْ يخلف الله وعده ، ولهذا الأمر ما بعده ، وتلك أسباب ظاهرة بادية ، تدل على أمور باطنة خافية ، دليلها قائم ، وجَفْنها غير نائم : « وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمنُوا مِنْكُمْ وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فى الأرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » الآية . وليس فى تصديق ما وعد الله ارتياب ، ولِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرّ ، ولكل أجَل كتاب ، فاحمدوا الله ، أيُّها الناس ، على آلائه ، واسألوه المَزيد من نَعمائه ، فقد أصبحتم فى خلافة أمير المؤمنين ، أيده الله بالعصمة والسَّداد ، وألهمه بخالص [٤١٧] التوفيق إلى سبيل الرشاد ، أحسن الناس حالا ، وأنعمهم بالا ، وأعزهم قَرارا ، وأمنعهم دارا ، وأكثفهم جمعا ، وأجملهم صُنعا ، لا تُهاجون ولا تُذَادُون ، وأنتم بحمد الله على أعدائكم ظاهرون ، فاستعينوا على صلاح أحوالكم ، بالمناصحة

(١) التكملة عن نفح الطيب .

لإمامكم ، والتزام الطاعة لخليفتكم ، وابن عم نبيكم صلى الله عليه وسلم ، فإن من نزع يداً من الطاعة ، وسعى فى تفريق الجماعة ، ومرَق من الدين ، فقد خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين ؛ وقد علمتم أن فى التعلق بعصمتها [والتمسك بعُروتها] [(١)] ، حفظَ الأموال وحَقْنَ الدماء ، وصلاح الخاصة والدَّهْماء ، وأنَّ بقوام الطاعة تقام الحدود ، وتُوَفَّى العُهود ، وبها وُصِلت الأرحام ، ووضحت الأحكام ، وبها سَدَّ الله الخَلَل ، وأمَّن السُّبُل ، وَوَطَّأَ الأكناف ، ورفع الاختلاف ، وبها طابَ لكم القرار ، واطمأنت بكم الدار ، فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به ، فإنه تبارك وتعالى يقول : « أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ » الآية . وقد علمتم ما أحاط بكم فى جزيرتكم هذه من ضُروب المُشركين ، وصُنوف المُلحدين ، الساعين فى شَقِّ عصاكم ، وتفريق مَلَئِكم ، الآخذين فى مخاذلة دينكم ، وهَتْك حَرِيمكم ، وتَوهين دعوة نبيكم ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين . أقول قولى هذا ، وأختتم بالحمد لله رب العالمين ، وأستغفر الله الغفور الرحيم ، فإنه خير الغافرين .

[٤١٨] فخرج الناس يتحدثون عن حسن مَقام مُنذر ، وثبات جنانه ، وبلاغة لسانه [(٢)] . وكان الخليفة الناصر لدين الله أشدَّهم تعجبا منه ، فأقبل على ولى عهده ابنه الحَكَم يسائله عنه ، ولم يكن يُثْبت معرفة عينه ، وقد سمع باسمه ، فقال له الحكم : هو منذر بن سعيد البَلُّوطىّ [(٣)] . فقال : والله [(٤)] لقد أحسن ما شاء ؛ فَلَئِنْ كان حبّر خطبته هذه وأعدها ، مخافة أن يدور ما دار ، فيتلافى الوهْى ،

(١) هذه العبارة عن نفح الطيب .
(٢) كذا فى م ونفح الطيب . وفى ط : « منطقه » .
(٣) نسبة إلى فحص البلوط قرب قرطبة .
(٤) كذا فى م ونفح الطيب . وفى ط : « له » .

فإنه لبديع من قدرته واحتياطه ؛ ولئن كان أتى بها على البديهة لوقته ، إنه لأعجب وأغرب ؛ فكان ذلك سبب اتصاله به ، واستعماله له .

من خطبة البلوطى

وذكر ابن أصبغ الهَمْدانىّ عن منذر القاضى ، أنه خطب يوماً وأراد التواضع ، فكان من فصول خطبته أن قال :

حَتَّى مَتى و إلى متى أعظ غيرى[1] ولا أتعظ ، وأزْجُر ولا أزْدجر ، أدل الطريق على المستدلين[2] ، وأبقى مُقيما مع الحائرين ، كلاَّ ، إن هذا لهو البلاء المبين ، « إن هى إلا فتنتك تضلّ بها من تشاء وتهدى من تشاء » الآية . اللهم فرِّغنى لما خلقتنى له . ولا تَشْغَلْنى بما تَكَفَّلْتَ لى به ، ولا تَحْرِمنى وأنا أسألك ، ولا تعذِّبْنى وأنا أستغفرك ، يا أرحم الراحمين . قال :

بينه وبين الناصر فى التزهيد فى تنميق البناء

وكان الخليفة الناصر لدين الله كَلِفا بعمارة الأرض ، و إقامة معالمها ، وتخليد الآثار الدالة على قوة الملك ، وعزّة السُّلطان ، فأفضى به الإغراق فى ذلك إلى أن ابتنى مدينة الزّهراء ، البناء الذى شاع ذكره ، واستفرغ وُسْعَه فى تنميقها ، و إتقان قُصورها ، وزخرفة مصانعها[3] ؛ فأراد القاضى منذر أن يَغُضّ منه ، بما يتناوله من الموعظة ، بفصْل الخطاب والحكمة ، والتذكير بالإنابة والرجوع[4] ، فأدخل فى خطبته فصلا ، مبتدئاً بقوله تعالى : « أَتَبْنُونَ بكلِّ رِيعٍ آيةً تَعبَثُونَ . وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعلَّكُم تَخْلُدُون . وَ إذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِين . فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعون . وَاتَّقُوا الَّذِى أَمَدَّكُمْ بما تَعلَمُون . أَمَدَّكُمْ بأَنعامٍ وَبَنِين . [٤١٩]

(١) هذه الكلمة ساقطة من نفح الطيب .

(٢) كذا وردت هذه العبارة فى الأصلين ونفح الطيب .

(٣) زاد المقرى فى نفح الطيب (هنا) العبارة الآتية : « وانهمك فى ذلك حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد الجامع الذى اتخذه ، ثلاث جمع متواليات » وقد آثرنا إثباتها هنا توضيحا للمقام .

(٤) فى ط : « والرجعة » .

وَجَنَّاتٍ وَعُيُون . إنى أَخَاف عليكمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » . ولا تقولوا : « سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِين » . « قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ؛ والآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى » ؛ وهى دار القرار ، ومَكان الجزاء .

ووصل ذلك بكلام جَزْل ، وقول فَصْل ، ومضى فى ذم تشييد البنيان ، والاستغراق فى زخرفته ، والإسراف فى الإنفاق [عليه] [1] ؛ فجَرَى طَلْقًا ، وانتزع فيه قوله [2] تعالى : « أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ » الآية ؛ وأتى بما يشاكل المعنى من التخويف بالموت ، والتحذير من فَجْأته ، والدعاء إلى الزهد فى هذه الدار الفانية ، والحض على اعتزالها ، والرفض لها ، والندب إلى الإعراض عنها ، والإقصار عن طلب اللذات ، ونَهْى النفس عن اتّباع هواها ؛ فأسْهَب فى ذلك كله ، وأضاف إليه من آى القرآن ما يطابقه ، وجلب من الحديث والأثر ما يشاكله ، حتى اذّكر من حضره من الناس ، وخضعوا ورَقُّوا ، واعترفوا وبكَوا ، وضجُّوا ودَعَوْا ، وأعلنوا التضرع إلى الله والتوبة ، والابتهالَ فى المغفرة ، وأخذ خليفتُهم من ذلك بأوفر حظ ، وقد علم أنه المقصود ، فبكى وندم على ما سلف له [من فَرْطه] [3] ، واستعاذ بالله من سُخْطه ؛ إلا أنه وَجَد على مُنذر بن سعيد ، اغلَاظ ما تَقَرَّعه به ، فشكا ذلك إلى ولده الحَكَم بعد انصرافه ، وقال : والله لقد تَعَمَّدَنى منذر بخطبته ، وما عَنَى بها غيرى ؛ فأسرف علىّ ، وأفرَط فى تقريعى ، ولم يُحْسِن السياسة فى وعظى ، فزعزع قلبى ، وكاد بعصاه يَقْرعنى [4] ؛ واستشاط غيظا عليه ، فأقسم ألاّ يُصَلِّى [٤٢٠]

(١) هذه الكلمة عن نفح الطيب .
(٢) فى ط : « بقوله » . وما أثبتناه عن م ونفح الطيب .
(٣) التكملة عن نفح الطيب .
(٤) فى ط : « يصرعنى » . وما أثبتناه عن م والنفح .

خلفه صلاة الجمعة خاصّة ، فجعل يلتزم صلاتَها وراء أحمد بن مطرّف[1] ، صاحب الصلاة بقرطبة ، ويُجانب الصلاة بالزّهراء ؛ وقال له الحكم : وما الذى يمنعك من عزل المنذر من الصلاة بك ، والاستبدال منه إذ كرهته ؟ فزجره وانتهره ، وقال له : أمثل مُنذر بن سعيد فى خيره وفضله وعلمه — لا أم لك — يُعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد ، [سالكة غير القصد][2] ؟ هذا ما لا يكون ؛ وإنى لأستحيى من الله ألا أجعل بينى وبينه فى صلاة الجمعة شفيعا مثل مُنذر ، فى ورعه وصدقه ، ولكنه قد أحرجنى فأقسمت ؛ ولَوَدِدْتُ أنى أجد سبيلا إلى كفارة يمينى بملكى ؛ بل يصلّى بالناس حياتَه وحياتَنا إن شاء الله تعالى .

خطبة لمنذر فى الاستسقاء

وقحط الناس آخر مدة الناصر ، فأمر القاضىَ المذكورَ منذرَ بن سعيد بالبروز إلى الاستسقاء بالناس ، فتأهّب لذلك ، وصام بين يديه أياما [ثلاثة][2] ، تنفّلا وإنابة ورهبة ، فاجتمع له الناس فى مصلّى الرَّبَض بقرطبة ، بارزين إلى الله تعالى فى جمع عظيم ، وصعد الخليفة الناصر فى أعلى مصانعه المرتفعة من القصر ، ليشارف[3] الناس ، ويشاركهم فى الخروج إلى الله تعالى ، والضراعة له ؛ فأبطأ القاضى حتى اجتمع الناس ، وغَصّت بهم ساحة المصلّى ؛ ثم خرج نحوهم ماشيا متضرعا ، مُخْبِتا متخشّعا ، وقام ليخطب ، فلما رأى بِدار الناس إلى ارتقابه[4] ، واستكانتهم من خِيفة الله ، وإخباتَهم له ، وابتهالهم إليه ، رقّت نفسه ، وغلبته عيناه ؛ فاستعبر وبكى حينا ، ثم افتتح خطبته بأن قال :

يأيها الناس ، سلام عليكم . ثم سكت ، ووقف شبيهَ الحَصِر ، ولم يكُ من

(١) فى ط : « معتوف » . وما أثبتناه عن م والنفح .
(٢) التكملة عن نفح الطيب .
(٣) فى ط : « ليشرف الناس » . وما أثبتناه عن م والنفح .
(٤) كذا فى م . وفى ط : « ارتفاعه » . وفى النفح : « ارتقائه » .

عادته ؛ فنظر الناس بعضهم إلى بعض ، لا يدرون ما عراه ، ولا ما أراد بقوله ؛ ثم اندفع تاليا لقوله تعالى : « كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » ؛ استغفروا ربكم إنه كان غفّارا ، استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، وتزلّفوا بالأعمال الصالحات لديه . [٤٢١]

قال الحاكى : فضجّ الناس بالبكاء ، وجأروا بالدعاء ؛ ومضى على تمام خطبته ، فقرّع النفوس[١] بوعظه ، وانبعث الإخلاص بتذكيره ، فلم ينقض النهار حتى أرسل الله السماء بماء مُنْهَمِر ، روّى الثرى ، وطرد المَحْل ، وسكّن الأَزْل ، والله لطيف بعباده .

من خطبة له أخرى فى ذلك

وكان له فى خطب الاستسقاء استفتاح عجيب ؛ ومنه أن قال يوما وقد سَرَّح طَرْفه فى مَلأ الناس ، عند ما شَخَصوا إليه بأبصارهم ، فهتف بهم كالمنادى : « يأيها الناس » ، وكررها [عليهم][٢] ، مشيرا بيده فى نواحيهم : « أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ » . فاشتد وجد الناس ، وانطلقت أعينهم بالبكاء ، ومضى فى خطبته .

بعض أخباره مع الناصر وحديث القبيبة

قال القاضى أبو الحسن[٣] : ومن أخبار مُنذر المحفوظة له مع الخليفة الناصر ، فى إنكاره عليه الإسراف فى البناء ، أن الناصر كان اتخذ لسطح القُبَيْبَة ، المصغرة الاسم للخصوصية ، التى كانت مائلة على الصَّرْح الممرّد المشهور شأنه بقصر الزهراء ، قراميدَ مُغشّاةً ذهباً وفضة ، أنفق عليها مالا جسيما ، وقَرْمَد

(١) كذا فى م . وفى ط والنفح : « الناس » .
(٢) هذه الكلمة عن نفح الطيب .
(٣) هو القاضى أبو الحسن بن الحسن النباهى ، وقد مر التعريف به فى صدر هذا الجزء .

سقفها به ، وجعل سقفها صَفْرَاء فاقعة ، إلى بيضاء ناصعة ، فتستلب الأبصار بأشعة أنوارها ، وجلس فيها إثر تمامها يوما لأهل مملكته ، فقال لقرابته ومن حضر من الوزراء وأهل الخدمة ، مفتخرا عليهم بما صنعه من ذلك : هل رأيتم أو سمعتم مَلِكا كان قبلى فعل مثل هذا أو قدر عليه ؟ فقالوا : لا والله يا أمير [٤٢٢] المؤمنين ، وإنك لأوحدُ فى شأنك كله ، وما سبقك إلى مبتدعاتك هذه مَلِك رأيناه ، ولا انتهى إلينا خبرُه ، فأبهجه قولهم وسره . فبينما هو كذلك إذ دخل عليه القاضى مُنْذِر بن سعيد واجما ناكس الرأس ، فلما أخذ مجلسه ، قال له كالذى قال لوزرائه ، من ذكر السقف المذهب ، واقتداره على إبداعه ، فأقبلت دموع القاضى تتحدر على لحيته ، وقال له : والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان لعنه الله يبلغ منك هذا المبلغ ، ولا أن تمكنه من قيادك(١) هذا التمكين ، مع ما آتاك الله من فضله ونعمته ، وفضَّلك به على العالمين ، حتى يُنزلك منازل الكافرين . قال : فانفعل عبد الرحمن لقوله ، وقال له : انظر ما تقول ، وكيف أنزلتنى منزلتهم . فقال له : نعم ، أليس الله تعالى يقول : « وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ » . فَوَجَم الخليفة ، وأطرق مَلِيّا ، ودموعه تتساقط ، خشوعا لله سبحانه . ثم أقبل على منذر ، وقال له : جزاك الله يا قاضى عنا وعن نفسك خيراً ، وعن الدين والمسلمين أجل جزائه ، وكثَّر فى الناس أمثالك ، فالذى قلت هو الحق . وقام عن مجلسه ذلك [وهو يستغفر الله

(١) فى م : « قلبك » .

تعالى] [١] ، وأمر بنقض سقف القُبيبة ؛ وأعاد قرمدها [٢] تراباً على صفة غيرها . انتهى .

الناصر وأيام سروره

وحكى غيرُ واحد أنه وُجد بخطِّ الناصر رحمه الله : أيامُ السرور التى صفت له دون تكدير يومُ كذا من شهر كذا من سنة كذا ، ويومُ كذا من كذا . وعُدَّت تلك الأيام ، فكانت أربعة عشر يوماً .

فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها ، وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها . هذا الخليفة الناصر حِلْف السعود ، المضروب به المثل فى الارتقاء [٤٢٣] فى الدنيا والصعود ؛ ملكها خمسين سنة وستة أو سبعة أشهر وثلاثة أيام ، ولم تَصْفُ له إلا أربعة عشر يوماً ، فسُبحان ذى العزة القائمة ، والمملكة الدائمة ، تبارك اسمه وتعالى ، لا إله إلا هو .

إعذار الناصر لأولاد ابنه وما كان بينه وبين الفقيه أبى إبراهيم لتخلفه

وحُكى أنه — أعنى الناصر — لما أعْذَرَ لأولاد ابنه أبى مَرْوانَ الأكبر عبيدِ الله ، اتخذ لذلك صنيعاً عظيما بقصر الزهراء ، لم يتخلف عنه أحد من أهل مملكته ، وأمر أن يُنْذَر لشهوده الفقهاء المشاوَرون ، ومن يليهم من العلماء والعُدول ، ووجوه الناس ، فتخلَّف من بينهم الفقيه المشاوَر أبو إبراهيم المذكور الذكر فى كتب النوادر [٣] والأحكام ، وافتُقِد مكانه ، لارتفاع منزلته ، فساء ذلك الخليفةَ الناصر ، ووجّد على أبى إبراهيم ، وأمر ابنه ولىَّ العهد الحَكَم بالكتاب إليه ، والتَّفنيد له [٤] ، فكتب إليه الحكم رقعة ، نسختها :

---

(١) الزيادة عن نفح الطيب .
(٢) كذا فى م ونفح الطيب . وفى إعمال الأعلام لابن الخطيب : « وإعادة قراميدها ترابا على غير تلك الصفة » . وفى ط : « وأعاد سقفها ... الخ » .
(٣) فى ط : « النوازل » . وما أثبتناه عن م .
(٤) فى م : « والتنفيذ إليه » .

بسم الله الرحمن الرحيم

حفظك الله وتولاّك ، وسددك ورعاك ، لما امتحن أمير المؤمنين مولاى وسيدى أبقاه الله الأولياء الذين يستمدُّ بهم ، وجَدَك متقدما فى الولاية ، متأخرا عن الصِّلة ، على أنه قد أنذرك ، أبقاه الله ، خصوصا المشاركة فى السرور الذى كان عنده ، لا أعدمه الله ، والىَ المسرة ؛ ثم انْذرْتَ من قبلُ إبلاغا فى التكرمة ، فكان ، على ذلك كله ، من التخلف ما ضاقت عليك فيه المعذرة ، واستبلغ أمير المؤمنين فى إنكاره ، ومعاتبتك عليه ، فأعْيتْ عليك عنك الحجة . فعرِّفنى أكرمك الله ، ما العـذر الذى أوجب توقُّفك عن إجابة دعوته ، ومشاهدة السرور الذى سُرَّ به ، ورغب المشاركة فيه [لنعرّفه] [(١)] ، أبقاه الله بذلك ، فتسكن نفسه العزيزة إليه ، إن شاء الله تعالى » . [٤٢٤]

فأجابه أبو إبراهيم :

« سلام على الأمير ورحمة الله وبركاته .

رأيت ، أبقى الله سيدى ، هذا الكتاب وفهمته ، ولم يكن توقّفى لنفسى ، إنما كان لأمير المؤمنين سيِّدنا ، أبقاه الله وسلطانه ، لعلمى بمَذهبه ، واسكونى إلى تقواه ؛ واقتفاره لأثر سلفه الطيب رضوان الله عليهم ، فإنهم كانوا يَسْتبقون من هذه الطبقة بقيّة ، لا يَمتهنونها بما يَشينها ، ولا بما يَغُضّ منها ، ويَطرُق إلى تنقُّصها ، فيستعدُّون بها لدينهم ؛ ويَتزَيّون [(٢)] بها عند رعاياهم ؛ ومن يَفِدُ عليهم من قُصّادهم ، فلهذا تخلّفت ، ولعلمى بمذهبه توقفت ، إن شاء الله تعالى .

قال : فلما أقرأ الحَكَمُ أباه الناصر لدين الله جواب أبى إبراهيم إسحاق ،

---

(١) التكملة عن نفح الطيب .

(٢) فى م ونفح الطيب : « ويتزينون » .

أعجبه واستحسن اعتذاره ، وزال ما بنفسه عليه . وكان الفقيه أبو إبراهيم المذكور معظما عند الناصر وابنه الحكم ، وحُقّ لهما أن يعظماه .

بين الحكم والفقيه أبي إبراهيم

وقد حكى الفقيه أبو القاسم مفرّج بن محمد بن مفرّج قال : كنت أختلف إلى الفقيه أبي إبراهيم — رحمه الله — فيمن يختلف إليه للتفقّه والرواية ، فإني لعنده فى بعض الأيام فى مجلسه ، بالمسجد المنسوب لأبى عثمان ، الذى كان يصلّى فيه قربَ داره ، بجَوْفيّ قصر قرطبة ، ومجلسه حافل بجماعة الطلبة ، وذلك بين الصّلاتين ، إذ دخل عليه خَصيٌّ[1] من أصحاب الرسائل ، جاء من عند الخليفة الحكم ؛ فوقف وسلّم ، وقال له : يا فقيه ، أجب أمير المؤمنين ، أبقاه الله ، فإن الأمر خرج فيك ، وها هو قاعد ينتظرك ، وقد أُمِرْت بإعجالك ، فاللهَ اللهَ . فقال له : سَمْعا وطاعة لأمير المؤمنين ، ولا عَجَلة ؛ فارجع إليه — وفقه الله — وعَرِّفه عنى أنك وجدتنى فى بيت من بيوت الله عز وجل ، مع طلاب العلم ، [٤٢٥] أسمعهم حديث ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم يقيّدونه عنى ، وليس يمكننى ترك ما أنا فيه حتى يتمّ المجلس المعهود لهم ، فى رضاء الله وطاعته ، فذلك أوكد من مسيرى إليه الساعة ، فإذا انقضى أمر من اجتمع إلىّ من هؤلاء المحتَسِبين فى ذات الله ، الساعين فى مرضاته ، مشيت إليه إن شاء الله تعالى .

ثم إنه أقبل على شأنه ، ومضى الخَصيّ يُهَيْنِم متضاجرا من توقّفه ؛ فلم يلْبَثْ إلا ريثما أدّى جوابه وانصرف سريعا ساكن الطّيش . فقال له : يا فقيه ، أنْهيتُ قولك على نصّه إلى أمير المؤمنين ، أبقاه الله ، فأصغى إليه وهو يقول [لك][2] : جزاك الله خيراً عن الدين ، وعن أمير المؤمنين ، وجماعة المسلمين ،

(١) فى م هنا : « الفتى » .
(٢) هذه الكلمة عن نفح الطيب .

وأمتعهم بك ، و إذا أنت أوْعَبْت ، فامض[(١)] إليه راشدا ، إن شاء الله تعالى ، فقد أُمِرْتُ أن أبقَى معك حتى ينقضيَ شغلك ، وأُذَكِّرك تمضى معى . فقال له : حسن جميل ، ولـكنى أضعُف عن المشى إلى باب السُّدة ، و يصعب علىّ ركوب دابة لشيخوختى ، وضعف أعضائى ، وباب الصناعة الذى يقرب إلىّ من أبواب القصر المـكرم أحوط لى ، وأرفق بى ؛ فإن رأى أمير المؤمنين ، أيَّدَه الله تعالى ، أن يأمر بفتحه ، لأدخل إليه منه ، هَوْن علىّ المشى ، ووَدُع جسمى ؛ وأحب أن تعود ، فتنهى إليه ذلك عنى ، حتى تعرف رأيه فيه ، وكذلك تعود إلىّ ، فإنى أراك فتى شديدا ، فكن على الخير معينا .

ومضى عنه الفتى ، ثم رجع بعـد حين ، وقال : يا فقيه ، قد أجابك أمير [٤٢٦] المؤمنين إلى ما سألت ، وأمر بفتح باب الصناعة ، وانتظارك من قِبَله ، ومنـه خرجتُ إليك ، وأُمرت بملازمتك مذكرا بالنهوض عند فراغك ؛ وقال : افعل راشدا ؛ وجلس الخَصِىّ جانبا ، حتى أكمل أبو إبراهيم مجالسه ، بأكمل وأفسح ما جرت[(٢)] به عادته ، غير منزعج ولا قَلِق ؛ فلما انفضضنا عنه قام إلى داره ، فأصلح من شأنه ، ثم مشى إلى الخليفة الحَكَم ، فوصل إليه من ذلك الباب ، وقضى حاجته من لقائه ، ثم صرفه على ذلك الباب ، فأعيد إغلاقه على إثر خروجه .

قال مفرّج : ولقد تعمَّدْنا فى تلك العشية ، إثر قيامنا عن الشيخ أبى إبراهيم ، المرورَ بهذا الباب المعهود إغلاقه ، بدير القصر ، لنرى الذى تجشم[(٣)] الخليفة له ، فوجدناه كما وصف الخَصِىّ مفتوحا ، قد حفّه الخدم والأعوان منزعجين ، ما بين

(١) فى م : « فانهض » .
(٢) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « كأفسح ما جرت » .
(٣) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى م : « لنرى تحنم » .

كنّاس وفرّاش ، متهيئين لانتظار أبى إبراهيم ؛ فاشتد عجبنا لذلك ، وطال تحدثنا عنه . انتهى .

هـكذا هـكذا تكونُ المَعالِى طُرُقُ الجِدِّ غيرُ طُرْقِ المُزَاحِ

بيعة الحكم المستنصر

وكان الخليفة الحَكَم المستنصر المذكور قد قام بأعباء الملك أحسن قيام ، لما توفى والده الناصر فى يوم الأربعاء لثلاث — وقيل لاثنتين — مضين[1] من شهر رمضان ، من سنة خمسين وثلاث مئة ، واستقرت الخلافة به ، حتى لم يَعْدَم من الناصر إلا شخصه ، واعتلى سرير الملك ثامن وفاة أبيه ، يوم الخميس ، وأنفذ الكتب إلى الآفاق بتمام الأمر له ، ودعا الناس إلى بيعته ، واستقبل من يومه النظر فى تمهيد سلطانه ، وتثقيف مملكته ، وضبْط قصوره ، وترتيب أجناده .

وأولُ ما أخذ البيعة على صقالبة قصره ، الفتيان المعروفين بالخلفاء الأكابر ، كجعفر صاحب الخيل والطِّراز ، وغيره من عظمائهم ، وتكفّلوا بأخذها على من وراءهم وتحت أيديهم ، من طبقتهم [وغيرهم][2] ؛ وأوصل إلى نفسه فى الليل دون هؤلاء ، [٤٢٧] الأكابرَ من الكتاب والوُصَفاء ، والمقدَّمين والعُرَفاء ، فبايعوه ؛ فلما كملت بيعتهم وبيعة أهل القصر تقدم إلى عظيم دولته جعفر بن عثمان ، بالنهوض فى أخيه شقيقه أبى مروان عبيد الله ، المتخلف لملته ، بأن يلزمه الحضور للبيعة دون معذرة ؛ وتقدم إلى موسى بن أحمد بن حُدَير بالنهوض أيضا فى أبى الأصبغ عبد العزيز شقيقه الثانى ، فمضيا إليهما ، كل واحد منهما فى قطيع من الجند ، وأتيا بهما إلى قصر مدينة الزهراء ؛ ونفّذ غيرُهما من وجوه الرجال فى الخيل ، للإتيان بغيرهما من الإخوة ، وكانوا يومئذ ثمانية ، فوافى جميعهم الزهراء فى الليل ، فنزلوا فى مراتبهم

---

(١) فى م : « بقين » .
(٢) هذه الكلمة عن نفح الطيب .

بفُصلان دار الملك ، وقعدوا فى المجلسين الشرقى والغربى ، وقعد المستنصر بالله على سرير الملك ، فى البهو الأوسط من الأبهاء المذهَّبة القبلية ، التى فى السطح الممرد ؛ فأول من وصل إليه الإخوة ، فبايعوه ، وأنصتوا لصحيفة البَيعة ، والتزموا الأيمان المنصوصة بكل ما انعقد فيها ؛ ثم بايع بعدهم الوزراء وأولادهم وإخوتهم ، ثم أصحاب الشُّرْطة ، وطبقات أهل الخدمة ؛ وقعد الإخوة والوزراء والوجوه عن يمينه وشماله ، إلا عيسى بن فطيس ، فإنه كان قائما يأخذ البيعة على الناس ؛ وقام الترتيب على الرسم فى مجالس الاحتفال المعروفة ؛ فاصطف فى المجلس الذى قعد فيه أ كابر الفِتيان يمينا وشمالا ، إلى آخر البهو ، كل منهم على قدره فى المنزلة ، عليهم الظهائر البيض ، شعار الحزن ، قد تقلدوا فوقها السيوف ، ثم تلاهم الفتْيان الوُصفاء ، عليهم الدروع السابغة ، والسيوف الحالية ، صفين منتظمين فى السطح ، وفى الفصلان المتصلة به ذوو الأسنان من الفِتيان الصقالبة الخصيان ، [٤٢٨] لابسين البياض ، بأيديهم السيوف ، يتصل بهم مَنْ دونهم من طبقات الخصيان الصقالبة ، ثم تلاهم الرُّماة متنكبين قِسِيَّهم وجعابهم ، ثم وصلت صفوف هؤلاء الخصيان الصقالبة صفوف العبيد الفُحول ، شاكين فى الأسلحة الرائقة ، والعُدة الكاملة ، وقامت التعبية فى دار الجند والترتيب من رَجَّالة العبيد ، عليهم الجواشن والأقبية البيض ، وعلى رءوسهم البيضات الصَّقْلبيّة[1] ، وبأيديهم التِّراس الملونة ، والأسلحة المزينة ، انتظموا صفين إلى آخر الفصيل[2] . وعلى باب السُّدَّة الأعظم البوابون وأعوانهم ، ومن خارج باب السُّدة فُرسان العبيد إلى باب الأقباء ، واتصل بهم فُرسان الحشَم ، وطبقات الجند والعبيد والرُّماة ، موكبا

(١) فى م : « الصقلية » .
(٢) الفصيل : واحد الفصلان (انظر الحاشية رقم ٢ صفحة ٢٦١ من هذا الجزء) . وفى الأصلين والنفح : « الفصل » . وظاهر أنها محرفة عما أثبتناه .

إثر موكب ، إلى باب المدينة الشارع إلى الصحراء ، فلما تمّت البَيْعة أُذن للناس بالانفضاض ، إلا الإخوةَ والوزراء و [أهل] (١) الخدمة ، فإنهم مكثوا بقصر الزهراء ، إلى أن احْتُمل جسد الناصر رحمه الله إلى قصر قرطبة ، للدفن هنالك فى تُرْبة الخلفاء .

وفى ذى الحجة من سنة خمسين المذكورة تكاثرت الوفود بباب الخليفة الحَكَم من البلاد ، للبيعة والتماس المطالب ، من أهل طليطلة وغيرها من قواعد الأندلس وأصقاعها ؛ فتوصَّلوا إلى مجلس الخليفة ، بمحضر جميع الوزراء والقاضى منذر ابن سعيد والملأ ، وأُخذت عليهم البيعة ، ووُقِّعت (٢) الشهادات فى نسخها .

وفود أردون عليه وحديث ذلك

وفى آخر صفر من سنة إحدى وخمسين أخرج الخليفة الحَكَم المستنصر بالله موليبه محمدا وزيادا ابنى أفلح الناصرىّ ، فى كتيبة من الحشَم والخدم ، لتلقى غالب الناصرىّ ، صاحب مدينة سالم ، المُورد للطاغية أردون بن أدفونش الخبيث فى الدولة ، المتملك على طوائف من أمم الجلالقة ، والمنازع لابن عمه المتملّك قبله شانجه بن رُذْمير ؛ وتبرّع هذا اللعين أردون بالمسير إلى باب المستنصر بالله من ذاته ، غير طالب إذن ، ولا مستظهر بعهد ، وذلك عندما بلغه من اعتزام المستنصر بالله فى عامه ذلك على الغزو إليه ، وأخذه فى التأهب له ، فاحتال فى تأميل المستنصر بالله ، والارتماء إليه ، وخرج قبل أمان يُعقَد له ، أو ذمّة تعصمه ، فى عشرين رجلا من وجوه أصحابه ، تكنّفهم غالب الناصرى ، الذى خرج [٤٢٩] إليه ؛ فجاء بهم نحو مولاه الحكم ؛ وتلقاهم ابنا أفلح بالجيش المذكور ؛ فأنزلاهم ؛ ثم تحركا بهم ثانى يوم نزولهم إلى قرطبة ، فأخرج المستنصر بالله إليهم هشام بن محمد بن عثمان المُصْحَفِىّ ، فى جيش عظيم كامل التعبية ، وقدموا إلى باب قرطبة ،

(١) هذه الكلمة عن نفح الطيب . (٢) فى م : « ووقفت » .

فروا بباب قصرها . فلما انتهى أردون[١] إلى ما بين السُّدة وباب الجنان ، سأل عن مكان رَمس الناصر لدين الله ، فأشير إلى ما يوازى موضعه من داخل القصر فى الروضة ؛ فخلع قلنسوته ، وخضع نحو مكان القبر ودعا ، ثم رد قَلَنْسُوته إلى رأسه .

وأمر المستنصرُ بإنزال أُردون فى دار[٢] الناعورة ، وقد كان تقدَّم فى فرشها بأنواع الغطاء والوطاء ، وانتهى من ذلك إلى الغاية ؛ وتوسع له فى الـكرامة ولأصحابه ، فأقام بها الخميس والجمعة ، فلما كان يومُ السبت ، تقدم المستنصر بالله باستدعاء [٤٣٠] أُردون ومن معه ، بعد إقامة الترتيب ، وتعبية الجيوش ، والاحتفال فى ذلك ، من العُدد والأسلحة والزينة ؛ وقعد المستنصر بالله على سرير الملك فى المجلس الشرقى من مجالس السطح ، وقعد الإخوة وبنوهم ، والوزراء ، ونظراؤهم صفًّا[٣] فى المجلس ، فيهم القاضى منذر بن سـعيد ، والحـكام والفقهاء ؛ فأتى محمد بن القاسم بن طملس[٤] بالملك أُردون وأصحابه ، وعالى[٥] لَبوسه ثوب ديباجىّ رومىّ أبيض ، وبَلْيُوَال من جنسه وفى لونه ؛ وعلى رأسه قلنسوة رومية منظومة بجوهر ، وقد حَفّته جماعة من نصارى وجوه الذمة بالأندلس ، يؤنسونه ويبصرونه ، فيهم وليد بن حيزون[٦] قاضى النصارى بقرطبة ، وعبيد الله بن قاسم مُطران طليطلة ، وغيرهما[٧] ؛ فدخل بين صَفّى الترتيب ، يقلب الطَّرْف فى نَظْم الصفوف ، ويجيل النظر[٨] فى كثرتها ، وتظاهر أسلحتها ، ورائق حليتها ، فراعهم ما أبصروه ،

(١) تقدم قريبا هذا الاسم مضبوطا (بفتح الهمزة) . والصواب (بضمها) .
(٢) فى م : فى منية « الناعورة » .
(٣) فى الأصلين : « معاً » . وما أثبتناه عن نفح الطيب طبعة مصر والمخطوط . وفى نفح الطيب طبع أوربة : « جفا » . أى : جماعة .
(٤) كذا فى الاستقصا للسلاوى (ج ١ صفحة ٨٧) وفيما سيأتى من م . وفى نفح الطيب المطبوع والمخطوط : « طميس » . وفى ط وم هنا : « طلس » .
(٥) فى م : « وعلى » . (٦) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « خيزران » .
(٧) مكان هذه الكلمة « وغيرهما » فى م : « وأصبغ بن نبيل وعبد الرحمن بن لب » .
(٨) فى ط : « الفكر » وما أثبتناه عن م والنفح .

وصلَّبوا على وجوههم ، وتأملوا ناكسى رءوسهم ، غاضّين من جفونهم ، قد سُكِّرت أبصارهم ، حتى وصلوا إلى باب الأقباء ، أول باب قصر الزهراء ، فترجَّل جميع من كان خرج إلى لقائه ، وتقدم الملك أردون وخاصة قوامسه[1] على دوابهم ، حتى انتهوا إلى باب السُّدَّة ، فأمر القوامس بالترجُّل هنالك ، والمشى على الأقدام ، فترجَّلوا ، ودخل الملك أردون وحده ، راكباً مع محمد بن طماس[2] ، فأنزل فى بَرْطَل[3] البهو الأوسط ، من الأبهاء القبلية ، التى بدار الجند ، على كرسىّ مرتفع ، مكسو الأوصال بالفضة ، وفى هذا المكان بعينه نزل قبله عدوُّه ومناوئه شانجة بن رُذْمير ، الوافد على الناصر لدين الله ، رحمه الله تعالى ، فقعد أردون على الكرسىّ ، وقعد أصحابه بين يديه ، وخرج الإذن لأردون الملك من المستنصر [٤٣١] بالله ، بالدخول عليه ، فتقدم يمشى وأصحابه يتبعونه ، إلى أن وصل إلى السطح ، فلما قابل المجلس الشرقى ، الذى فيه المستنصر بالله ، وقف وكشف رأسه ، وخلع بُرْنُسَه ، و بقى حاسراً ، إعظاما لما بان له من الدنو إلى السرير ، واستُنْهِض ، فمضى بين الصفّين المرتَّبين فى ساحة السطح ، إلى أن قطع السطح ، وانتهى إلى باب البَهْو ، فلما قابل السرير خر ساجدا سُويعة ، ثم استوى قائما ، ثم نهض خطوات ، وعاد إلى السجود ، ووالى ذلك مرارا ، إلى أن قُدِّم[4] بين يدى الخليفة ، وأهوى إلى يده ، فناوله إياها ، وكَرّ راجعا ، مقهقرا على عقبه ، إلى وساد ديباج مُثَقَّل بالذهب ، جُعل له هنالك ، ووضع على قدر عشرة أذرع من السرير ، فجلس عليه والبُهْرُ قد علاه ؛ وأنهض خلفه من استدْنى من قوامسه وأتباعه ، فدَنَوْا ممتثاين

(١) القوامس : الأمراء . الواحد : قومس بوزن جعفر .

(٢) انظر الحاشية (رقم ٤) صفحة (٢٨٩) من هذا الجزء .

(٣) البرطل (كجعفر وبرثن) : كلمة إسبانية ومعناها : سقيفة عند باب البيت ، أو فى أحد جوانب الفناء ، ولا تزال تستعمل فى المغرب . (راجع تكملة المعاجم العربية لدوزى) . (٣) فى م : « قام » .

فعله فى تكرير الخنوع ، وناولهم الخليفة يده ، فقبلوها وانصرفوا مُقهقَرين ، فوقفوا على رأس ملكهم ، ووصل بوصولهم وليد بن خيزون قاضى النصارى بقرطبة[١] ، فسكن الترجمانَ عن الملك أُردون ذلك اليوم ، وأطرق الخليفة الحكم عن تكليم الملك أُردون إثر قعوده [أمامه وقتا] [٢] ريثما [٣] يُفْرِخُ رَوعُه ، فلما رأى أن قدخُفِّض عليه ، افتتح تكليمه ، فقال : لِيَسُرَّك إقبالك ، ويُغْبِطْك تأميلك ، فلدينا لك من حسن رأينا ، ورُحب قبولنا ، فوق ما قد طلبته .

فلما تُرْجم له [كلامه] [٢] إياه ، تطلّق وجه أُردون ، وانحط عن رتبته ، فقبّل البساط ، وقال : أنا عبد أمير المؤمنين مولاى ، المتوركُ على فضله ، القاصد إلى مجده ، المحكِّم فى نفسه ورجاله ، فحيث وضعنى من فضله ، وعوّضنى من خدمته ، رجوت أن أتقدم فيه بنية صادقة ، ونصيحة خالصة . [٤٣٢]

فقال له الخليفة : أنت عندنا بمحل من يستحق حسن رأينا ، وسينالك من تقديمنا لك ، وتفضيلنا إياك على أهل ملتك ، ما يُغْبِطك ، وتتعرّف به فضل جنوحك إلينا ، واستظلالك بظل سلطاننا .

فعاد أُردون إلى السجود عند فهمه مقالة الخليفة ، وابتهل داعيا ، وقال : إن شانجة ابن عمى تقدم إلى الخليفة الماضى مستجيراً به منى ، فكان من إعزازه إياه ما يكون من مثله من أعاظم الملوك ، وأكارم الخلفاء ، لمن قصدهم وأملهم ؛ وكان قصده قصد مضطرّ ، قد شنَأته رعيته ، وأنكرت سيرته ، واختارتنى لمكانه ، من غير سعي منّى — علم الله ذلك — ولا دعاء إليه ، فخلعته وأخرجته عن ملكه مضطرا مضطهدا ؛ فتطوّل عليه رحمه الله ، بأن صرفه إلى ملكه ،

(١) زادت م بعد هذه الكلمة : « وعبيد الله بن قاسم مطران طليطلة » .
(٢) هذه الكلمة عن نفح الطيب .
(٣) فى ط : « كيا » ، وما أثبتناه عن م ونفح الطيب .

وقوّى سلطانه ، وأعز نصره . ومع ذلك فلم يقم بفرض النعمة التى أسديت إليه ، وقصّر فى أداء المفروض عليه وحقه وحق أمير المؤمنين مولاى من بعده ؛ وأنا قد قصدت باب أمير المؤمنين لغير ضرورة ، من قرارة سلطانى ، وموضع احتكامى[1] ، مُحكِّمًا له فى نفسى ورجالى ومَعاقلى ، ومن تحويه من رعيتى ؛ فشتّانَ ما بيننا من قوة الثقة ، ومَطرَح الهمة .

فقال الخليفة : قد سمعنا قولك ، وفهمنا مغزاك ، وسوف يظهر من إقراضنا إيّاك على الخصوصية فوق شأنه ، ويترادف من إحساننا إليك به أضعافُ ما كان من أبينا رضى الله عنه إلى نِدِّك ، وإن كان له فضل التقدم بالجنوح إلينا ، والقصد إلى سلطاننا ، فليس ذلك مما يؤخرك عنه ، ولا يَنقصك مما أملناه ، وسنصرفك مغبوطا إلى بلدك ، [ونشدُّ أواخيّ ملكك][2] ، ونملكك جميع من انحاش إليك من أمتك ، ونعقد لك بذلك كتابا يكون بيدك ، نُقرر به حدَّ [٤٣٣] ما بينك وبين ابن عمك ، ونقبضه عن كل ما يُصرِّفه من البلاد إلى يدك ، وسَيُرَادَف عليك من إفضالنا فوق ما احتسبته . والله على ما نقول وكيل .

فكرر أردون الخضوع ، وأسهب فى الشكر ، وقام للانصراف مقهقِرا ، لا يولِّى الخليفة ظهره ، وقد تكنّفه الحَفَدة من جِلّة الفِتيان ، فأخرجوه إلى المجلس الغربىّ فى السطح ، وقد علاه البُهْر ، وأذهله الرَّوع ، من هول ما باشره ، وجلالة ما عاينه ، من فخامة الخليفة ، وبهاء العزة . فلما أن دخل المجلس ، ووقعت عينه على مقعد أمير المؤمنين خاليا منه ، انحط ساجداً إعظاماً له ، ثم تقدّم الفِتيان به إلى البهو الذى بجوفىّ هذا المجلس ، فأجلسوه هنالك على وساد مثقّل بالذهب ، وأقبل نحوه الحاجب جعفر ، فلما بَصُر به قام إليه ، وخضع له ،

(١) فى نفح الطيب « أحكامى » . (٢) التكملة عن نفح الطيب .

وأومأ إلى تقبيل يده ، فقبضها الحاجب عنه ، وانحنى إليه ، فعانقه ، وجلس معه ، فمنّطه ، ووعده من إنجاز عدات الخليفة له بما ضاعف سروره ؛ ثم أمر الحاجب جعفرٌ ، فصُبَّت عليه الخِلَع التى أمر له بها الخليفة ، وكانت دُرّاعة منسوجة بالذهب ، وبُرْنُسا مثلها ، له لوزة مُفْرَغة من خالص التِّبْر ، مرصّعة بالجواهر والياقوت ، ملأت عين العِلْج تجِلّةً ، فخرّ ساجداً ، وأعلن بالدعاء ؛ ثم دعا الحاجب أصحابه رجلا رجلا ، فخلع عليهم ، على قدر استحقاقهم ؛ فكمل جميع ذلك بحسب ما يصلح لهم . وخرَّ جميعهم خاضعين شاكرين ، ثم انطلق الملك [أُردون] (١) وأصحابه ، وقُدِّم لركابه فى أول البهو الأوسط فرس من عتاق خيل الركاب ، عليه سرج حَلْى ، ولجام حَلْى مفرَغ ، وانصرف مع ابن طملس إلى قصر الرُّصافة ، مكان تضييفه ، وقد أُعِد له فيه كل ما يصلح لمثله من الآلة والفَرْش والماعون ، واستقر الملك أُردون وأصحابه فيما لا كِفاء له من سَعة التضييف ، وإرغاد المعاش ، واستشعر الناس من مسرة هذا اليوم وعزة الإسلام فيه ، ما أفاضوا فى التبجّح به ، والتحدث عنه أياما . [٤٣٤]

شعر المرادى فى هذا المقام

وكانت للخطباء والشعراء بمجلس الخليفة فى هـذا اليوم مقامات حِسان ، وإنشادات لأشعار محكمة مِتان ، يطول القول فى اختيارها .

فمن ذلك قول عبد الملك بن سعيد المراديّ من قصيدة طويلة :

مُلْكُ الخليفةِ آيةُ(٢) الإقبال	وسُعوده موصولة بنوال
فالمسلمون بعزة وبرفعة	والمشركون بذلة وسفال
ألقت بأيديها الأعاجم نحوه	متوقِّعين لصَوْلَة الرئبال
هـذا أميرهمُ أتاه آخذا	منه أواصرَ ذمّة وحِبال

(١) هذه الكلمة عن نفح الطيب .
(٢) فى نفح الطيب : « غاية » .

متواضعا لجلاله متخشّعا ... متبرّعا لمّا يُرَعْ بقتالِ

سينال بالتأميل للملِك الرضا ... عِزا يعمُ عِداه بالإذلال

لا يومَ أعظمُ للولاة مسرة ... وأشدُّه غيظا على الأَقيال

من يوم أُردونَ الذى إقباله ... أَمَلُ المَدَى ونهاية الإقبال

مَلك الأعاجم كلها ابنُ ملوكها ... وَالِ نماه للأعاجم والِ

إن كان جاء ضريرة فلقد أتى ... عن عزٍّ مملكة وِطوع رجال

فالحمــد لله المنيل إمامنا ... حظ الملوك بقدرة المتعالى

هو يومُ حشر الناس إلا أنهم ... لم يُسألوا فيه عن الأعمال

أضحى الفضاء مُفَعَّما[(١)] بجيوشه ... والأفق أقتم أغبر السِّربال

لا يهتدى السارى لليل قتَامه ... إلا بضوء صــوارم وعَوالى

وكأن أجسام الكُماة تسربلَتْ ... مُذ غُبِّرتْ منه[(٢)] جسومَ صِلال[(٣)]

وكأنما العِقبانُ عِقبانُ الفَلا ... منقضة لِتخطُّفِ الضّــلال

وكأن منتصب القنا مهتزَّه ... أشطانُ نازحةٍ بعيدةِ جال[(٤)]

وكأنما خَيْلِ التجافيف[(٥)] اكتست ... نارا توهُّجها بلا إشــعال

وتتبُّع مثل هذه الأخبار لا آخر له ؛ والله المستعان .

شيء عن منذر ابن سعيد البلوطى

[٤٣٥] وكان القاضى مُنذر بن سعيد السابق ذكره ، سمع بالأندلس من عبيد الله ابن يحيى بن يحيى ونظرائه ، ثم رحل حاجًّا سنة ثمان وثلاث مئة ، فسمع من عدَّة أعلام ، منهم محمد بن المنذر النَّيْسابورىّ ، سمع عليه كتابه المؤلف فى

---

(١) فى نفح الطيب المطبوع والمخطوط : « مخيما » .

(٢) كذا فى م . وفى ط : « غيرت » . وفى نفح الطيب : « عريت عنه » .

(٣) كذا فى الأصلين ونفح الطيب المطبوع والمخطوط . (٤) يريد بالجال : قعر البئر .

(٥) كذا فى م . وفى ط ونفح الطيب : « قبل التجافيف » . والتجافيف : جمع تجفاف (بالكسر) وهو آلة للحرب يلبسه الفرس والإنسان ليقيه فى الحرب .

اختلاف العلماء ، المسمى بالإشراف ، وروى بمصر كتاب العين للخليل ، عن أبي العباس بن وَلّاد ، وروى عن أبي جعفر بن النحاس . وكان متفننا فى ضروب العلوم ، وغلب عليه التفقه بمذهب أبى سليمان داودَ بن عليّ الأَصْبَهانيّ ، المعروف بالقياسي[1] و بالظاهريّ ؛ فكان منذر بن سعيد يؤثر مذهبه ، ويجمع كتبه ، ويحتجّ لمقالته ، ويأخذ به فى نفسه وذويه ؛ فإذا جلس للحكومة قضى بمذهب الإمام مالك وأصحابه ، بالذى استقر عليه العمل فى بلدهم ، وحَمَل عليه السلطانُ أهل مملكته .

وله تواليف مفيدة ؛ منها كتاب أحكام القرآن ؛ والناسخ والمنسوخ ، وغير ذلك فى الفقه والكلام والرد على أهل المذاهب ؛ وكان خطيبا بليغا ، عالما بالجدل ، حاذقا فيه ، شديد العارضة ، حاضر الجواب ، عتيده ، ثابت الحجة ذا شارة عجيبة ، ومنظر جميل ، وخُلُق حميد ، وتواضع لأهل الطلب ، وانحطاط لهم ، وإقبال عليهم ؛ وكان مع وقاره التامّ فيه دُعابة مستملَحة ، وله نوادر مستحسنة ، لولا السآمة لجلبنا منها طرَفا . وكانت ولايته القضاء بقرطبة للناصر ، فى شهر ربيع الآخر[2] سنة تسع وثلاثين وثلاث مئة ، ولبث قاضيا من ذلك التاريخ للخليفة الناصر إلى وفاته ، ثم للخليفة الحَكَم المستنصر ، إلى أن تُوُفِّى [٤٣٦] رحمه الله . عقب ذى الحجة سنة خمس وخمسين وثلاث مئة ؛ فكانت ولايته لقضاء الجماعة ستة عشر عاما كاملة . لم يُحفظ عليه فيها جَور فى قضية ، ولا قَسْم بغير سَوِيّة ، ولا ميل بهوى ، ولا إصغاء إلى عناية ، رحمه الله ورضى عنه . ودُفن بمقبرة قريش ، بالرَّبَض الغربى من قرطبة ، أعادها الله ، جوفيّ مسجد السيدة الكبرى ، بقرب داره .

(١) فى م : «بالعباسى» . (٢) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى م : «الأول» .

بعض مأثور كلامه

قال القاضى أبو الحسن[١] : كان شيخنا القاضى أبو عبد الله بن عياش الخزرجى يستحسن من كلام القاضى مُنذر قولَه فى التزكية :

اعلم أن العدالة من أشد الأشياء تفاوتاً وتبايناً ، ومتى حَصَّلت ذلك عرفت حالة الشهود ، لأن بين عدالة أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وعدالة التابعين رضى الله عنهم فَوْتا[٢] عظيما ، وتباينا شديدا ؛ و بين عدالة أهل زماننا وعدالة أولئك مثلُ ما بين السماء والأرض ؛ وعدالة أهل زماننا على ما هى عليه بعيدة التباين أيضاً . والأصل فى هذا عندى ، والله الموفق ، أن من كان الخير أغلبَ عليه من الشر ، وكان متنزِّها عن الكبائر ، فواجبأن تُعْمَلَ[٣] شهادته ، فإن الله تعالى قد أخبرنا بنص الكتاب أن من ثَقُلَتْ موازينه فهو فى عيشة راضية ، وقال فى موضع آخر : «فأولئك هم المفلحون» ؛ فمن ثقلت موازين حسناته بشىء لم يدخل النار ؛ ومن استوت حسناته وسيئاته لم يدخل الجنة فى زمرة الداخلين أولا ، وهم أصحاب الأعراف ، فذلك عقوبة لهم ، إذ تخلفوا عن أن تزيد حسناتهم على سيئاتهم ؛ فهذا حكم الله فى عباده . ونحن إنما كُلِّفنا الحكم بالظاهر ، فمن ظهر لنا أن خيره أغلب عليه من شره حكمنا له بحكم الله فى عباده ، ولم نطالب له علم الباطن ، ولا كُلِّفه محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد ثبت عنه أنه قال : « إنما أنا بَشَر ، وإنكم تختصمون إلىّ ، فلعلّ بعضكم أن يكون ألْحَن بحجته من بعض ، فأحكم له على نحو مما أسمع » . فأحكام الدنيا على ما ظهر ، وأحكام الآخرة على ما بطن ؛ لأن الله تعالى يعلم الظاهر والباطن ، ونحن لا نعلم إلا الظاهر ؛ ولأهل كل بلد قوم قد تراضى عليهم عامتهم ، فبهم تنعقد مناكحهم و بيوعهم ، وقد قدموهم فى مساجدهم ولجُمَعهم وأعيادهم ، فالواجب على من اسْتُقْضِىَ على [٤٣٧]

(١) هو أبو الحسن النباهى السابق الذكر . (٢) فى م : « بونا » .
(٣) إعمال الشهادة : قبولها والعمل بها .

موضع أن يُعمِل شهادة أمثالهم وفقهائهم ، وأصحاب صلواتهم ، وإلا ضاعت حقوق ضعيفهم وقويهم ، وبطلت أحكامه . ويجب عليه أن يسأل إن استراب فى بعضهم فى الظاهر والباطن عنهم ، فمن لم يثبت عنده عليه اشتهار فى كبيرة ، فهو على عدالة ظاهرة ، حتى يثبت غير ذلك . انتهى .

نقد الونشريشى فى تشنيع ابن الخطيب على الموثقين

قلت : تذكرت هنا ما رأيته بخط الإمام الحافظ سيدى أحمد الونشريشى رحمه الله على ظهر كتاب ابن الخطيب : « مُثْلَى الطريقة فى ذم الوثيقة » ، وقد مدَّ فيه ابن الخطيب الباع فى ذم المُوَثِّقين[1] ، وذكر مثالبهم ، ونصّ ما ألفيته بخط المذكور :

الحمد لله . جامعُ هذا الكلام المقيَّد هنا بأول ورقة منه ، قدْ كدَّ نفسه فى شىء لا يَعْنى الأفاضل ، ولا يعود عليه فى القيامة ولا فى الدنيا بطائل ، وأفنى طائفة من نفيس عمره فى التماس مساوئ طائفة ، بهم تُستباح الفروج ، وتُمْلَك مُشَيَّدات الدور والبُروج ، وجعلهم أضحوكة لذوى الفَتْك والمَجانة ، وانتزع عنهم جلباب الصدق والديانة ، سامحه الله وغفر له . قال ذلك وخطَّه بيُمنى يديه عُبيد ربه أحمد بن يحيى بن محمد بن على الونشريشى ، خار الله سبحانه له . انتهى .

رجع إلى سبتة وما كان بين ابن خميس وبعض طلبتها

ولنرجع إلى ما كنا فيه من أخبار سَبْتة ، فنقول :

كان أهل سَبْتة فى غاية الذكاء والفطنة ، والعلم والمعرفة ؛ وقد حكى الشيخ النظّار أبو إسحاق الشاطبىّ فى شرحه على ألفية ابن مالك ، عن شيخه أبى عبد الله الفَخّار ، عن بعض أهل سبتة ، أن الشيخ أبا عبد الله بن خميس التِّلِمْسانىّ لما ورد على سَبْتة بقصد الإقراء بها ، اجتمع عليه عيون طلبتها ؛ فألقوا عليه [٤٣٨]

(١) كذا فى ط . وفى م : « الموقعين » .

مسائل من غوامض باب الاشتغال ، فحاد عن الجواب ، بأن قال لهم : أنتم عندى كرجل واحد . يَعْنى أن ما ألقوا عليه من المسائل إنما تلقوها من رجل واحد ، وهو ابن أبى الربيع ؛ فكأنه إنما يُخاطب رجلا واحداً ، ازدراء بهم . فاستقبله أصغر القوم سِنًّا وعلما ، بأن قال له : إن كنت بالمكان الذى تزعُم ، فأجبنى عن هذه المسائل ، من باب معرفة علامات الإعراب ، التى أذكرها لك ؛ فإن أجبت فيها بالصواب ، لم تحظ[1] بذلك فى نفوسنا ، لصغرها بالنظر إلى تعاطيك من[2] الإدراك والتحصيل ، وإن أخطأت فيها لم يسعْك هذا البلد ؛ وهى عشرة :

الأولى : أنتُمْ يا زَيْدُون تَغْزُون .

والثانية : أنتُنَّ يا هندات تغْزُون .

والثالثة : أنتُمْ يا زيْدُونَ و ياهندات تَغْزُون .

والرابعة : أنتنَّ يا هندات تَخْشَيْن .

والخامسة : أنتِ يا هندُ تخشَيْنَ .

والسادسة: أنْتِ يا هندُ تَرْمِين .

والسابعة : أنْتنَّ يا هِنْدَاتُ تَرْمِين .

والثامنة : أنْتُنَّ يا هِنْدَاتُ تَمْحُونَ أوْ تَمْحِيْن [كيفَ تَقُول][3]

والتاسعة : أنْتِ يا هندُ تَمْحِين أوْ تَمْحُون[4] كيفَ تقول .

والعاشرة : أنْتُما تَمْحُوانِ أو تَمْحِيَان ، كيف تقول .

---

(١) كذا فى م ونفح الطيب . وفى ط : « لم تحط » .

(٢) فى نفح الطيب المخطوط والمطبوع : « تعاميك عن » .

(٣) التكملة عن نفح الطيب .

(٤) فى هذه الصيغة خطأ سيعرض له ابن مرزوق (فى صفحة ٣٠١) من هذا الجزء . عند قوله : « وليس ما وقع فى السؤال ... الخ »

وهل هذه الأفعال كلُّها مَبْنِيَّة أو مُعْرَبة ؟ أو بعضها مبنيٌّ وبعضها معرب ؟ وهل كلها على وزن واحد أم على أوزان مختلفة ؟ علينا السؤال ، وعليك التمييز ، لنعلم الجواب . فبُهِتَ الشيخ وشَغَل المحَل بأن قال : إنما يُسْأَل عن هذا صغار الولدان . فقال له الفتى : فأنت دونهم إن لم تجب . فانزعج [الشيخ] (١) وقال هذا سوء أدب . ونهض منصرفا ، ولم يصبح إلا بمالَقة ، متوجها إلى غَرناطة ، فلم يزل بها مع الوزيران الحكيم ، إلى أن مات . تغمده الله برحمته . انتهى .

[٤٣٩] وأورد هذه الحكاية أيضا عالم الدنيا ، سيدى أبو عبد الله بن مرزوق ، فى شرحه على الألفية لابن مالك ، وهو شرح متسع جدا ، وقفت منه على بعضه بتلمسان ، وكان آخر السِّفر الأول اسمُ الإشارة ، وذلك السِّفر أعظم جزْءا من جميع شرح المُرادىّ ؛ ونصّ [محل] (١) الحاجة منه :

وقد حُكِي أن بعض طلبة سَبْتة أورد على أبى عبد الله بن خميس عشر مسائل من هذا النوع ، وهى : أَنْتُمْ يا زَيْدُونَ تَغْزُون : وَأَنْتُنَّ يا هِنْدَاتُ تَغْزُون ؛ وَأَنْتُمْ يا زيدُون ويا هِنداتُ تَغزُونَ ؛ وأَنْتنّ يا هندات تَخْشَيْن ؛ وأنْت ياهندُ تَخْشَين ؛ وأنْت يا هِنْدُ تَرْمِين ؛ وأنْتنّ يا هِنْدَاتُ تَرْمين ، وأنْتنّ يا هندات تَمْحُون أو تَمْحَين كيف تقول . وأنتِ ياهندُ تَمْحِين أَوْ تَمْحَيْنَ كيف تقول ؛ وأنتما تَمْحُوَان أو تَمْحيَان ، على لغة من قال محوت كيف تقول ؟ وهل هذه الأمثلة كلها مبنية أو معربة أو مختلفة ؟ وهل وزنها واحد أو مختلف ؟

قالوا : ولم يجب بشىء . قلت : فلعله استسهل أمرها .

فأما المثال الأول فمعرب ، ووزنه تَفْعُون (٢) ، إذ أصله تَغْزُوُون ،

(١) هذه الكلمة عن نفح الطيب .

(٢) فى الأصلين : « تفعلون » وهو ظاهر التحريف .

كتنظرون(١) ، فاستثقلت ضمة الواو ، التى هى لام ، فحذفت ، ثم حُذفت الواو أيضا ، لالتقائها ساكنة مع واو الضمير ، وكانت أولى بالحذف ، لأن واو الضمير فاعل ، ولغير ذلك مما تقدم بعضه .

وأما الثانى فمبنى ، ووزنه تَفْعُلْن ، كتخرُجْنَ .

وأما الثالث فكالأول إعراباً ووزناً ، لأن فيه تغليبَ المذكر على المؤنث .

وأما الرابع فمبنىّ ، ووزنه تَفْعَلْن ، مثل تفرَحْن ، لأنه لما احتيج إلى تسكين آخر الفعل ، لإسناده إلى نون جماعة النسوة ، رُدَّت الياء إلى أصلها ، لأنها إنما قلبت ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، والآن ذهبت حركتها لاستحقاقها السكون . [٤٤٠]

وأما الخامس فمعرب ، ووزنه تَفْعَيْن ، وأصله تَخْشَيينَ ، كتفرَحين ، فقلبت الياء ألفاً ، لتحركها وانفتاح ما قبلها ، ثم حذفت لالتقائها ساكنة مع ياء الضمير ، وتركت فتحة الشين دالة على الألف .

وأما السادس فمعرب ، ووزنه تَفْعِينَ . وأصله تَرْمِيينَ ، كتضْرِبين ، حذفت كسرة الياء لاستثقالها ، ثم حذفت الياء لاجتماعها ساكنة مع ياء الضمير .

وأما السابع فمبنى ، ووزنه تَفعِلْنَ كتضرِبْن .

وأما الثامن والتاسع ، فمضارع مَحَى ورد بالأوزان الثلاثة ، فمن قال يَمحو [قال فى المضارع من جماعة النسوة : تَمْحُون ، مثله من غزا بناء ووزنا . ومن قال يَمحِى] (٢) قال فيه : تَمْحِين كترْمِين ، بناء ووزنا . ومن قال يَمحَى قال

(١) وردت هذه الكلمة فى الأصلين بعد قوله : « تفعون » على أنهـا تنظير للوزن . وهكذا جرى المؤلف فى الثالث الخامس والسادس . وقد أخرناها إلى موضعها الصحيح فيا ساقه المؤلف ليستقيم الكلام .

(٢) التكملة عن نفح الطيب .

فيه تَمْحَيْن كتخْشَيْن، بناء ووزنا . ويقال فى مضارع الواحدة على اللغة الأولى تَمْحِين كتدْعِين : إعراباً ووزنا وتصريفا . وقد تقدم فى كلام المصنف . وعلى الثانية ، كما يقال لها من رمى إعراباً ووزناً وتصريفاً . وعلى الثالثة كما يقال لها من تخشى أيضاً ، وقد تقدما .

وليس ما وقع فى السؤال كما نُقِل من خطّ بعض الشارحين أنه يقال فيها « تَمْحَوْن » كتفْرَحْن بشىء .

وأمر التثنية ظاهر . انتهى بحروفه .

قلت : وقد جزم غير واحد بأن ابن خميس لا يجهل مثل هذه المبادئ ، إذ هو من أكابر الأعلام العارفين بالنحو واللغة وغيرهما من أنواع العلوم ؛ وقد نقل بعض من له خبرة بأحواله أنه كان يُحسِن علم السيمياء . والله أعلم .

التعريف بابن خميس ، ومقتله

وهو محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد الحَجْرى[1] (بفتح الحاء وسكون الجيم) ، الرُّعَيْنى ، نسبة إلى حَجْر ذى رُعَين[2] . وهو من أهل تلمسان ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن خميس . [٤٤١]

قال ابن الخطيب فى «عائد الصلة» : كان رحمه الله نسيجَ وَحْدِه زهداً وانقباضا وأدبا وهمة ، حسن الشيبة ، جميل الهيئة ، سليم الصدر ، قليل التصنع ، بعيداً عن الرياء والهوى ، عاملا على السياحة والعُزْلة ، عارفا بالمعارف القديمة ، مضطلعا بتفاريق النِّحل ، قائمًا على العربية والأصلين : طَبَقَة الوقت فى الشعر ، وفحل الأوان فى المطوّل ، أقدر الناس على اجتلاب الغريب .

ثم ذكر ابن الخطيب من أحواله جملة ، إلى أن قال : و بلغ الوزيرَ أبا عبد الله

(١) فى م : « محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد الحميرى الحجرى » .
(٢) حجر ذى رعين : أبو قبيلة من اليمن .

ابن الحكيم أنه يروم السفر ، فشق ذلك عليه ، وكأنه تحريك الحديث بحضرته ، وجرى ذلك فقال الشيخ : أنا كالدم بطبعى أتحرك فى كل ربيع . انتهى .

وقال ابن خاتمة فى حقه ، بعد أن وصفه بالشاعر المجيد : إنه رحل من تلمسان بلده إلى سَبتة ، فأقام بها مدة ، ومدح رؤساءها من بنى العَزَفى ، ثم أجاز البحر إلى الأندلس ، فاحتل بحضرة غَرناطة فى أواخر سنة ثلاث وسبع مئة ، فى جوار الوزير أبى عبد الله بن الحكيم ، فتقارضا حُلل الحمد . وتباريا فى الرِّفْد والحمد ، فأدنى له ذو الوزارتين أخلاف بره وإكرامه ، وخلع عليه ابن خميس أثواب نثره ونظامه ، فله فيه القصائد التى حَليت بها لَبَات الآفاق . وتنفّست عنها صدور الرِّفاق .

وكان رحمه الله من فحول الشعراء ، وأعلام البلغاء ، يُصرِّف العويص ، ويرتكب مستصعَبات القوافى ، ويطير فى القريض مَطار ذوى القوادم الباسقة والخوافى ، حافظا لأشعار العرب وأخبارها ، له مشاركة فى العقليات ، واستشراف على الطالب[1] ؛ وقعد لإقراء العربية بحضرة غَرناطة ، وكان ما ينتحله من العلم فوق ما يحصله . ومال بأخَرة إلى التصوف والتَّجْوال ، والتحلى بحُسن السَّمْت ، وعدم الاسترسال ، بعد طى بساط ما فَرَط له فى بلده من الأحوال ، وكان صَنَع [٤٤٢] اليدين . حدثنى بعض من لقيه[2] من الشيوخ أنه صنع قدحا من الشمع على أبدع ما يكون فى شكله ، ولطافة جوهره ، وإتقان صنعته ، وكتب بدائرة شفته :

وما كنتُ إلا زهرةً فى حديقةٍ تبسَّمُ عنى ضاحكاتُ الكمائمِ
فقُلِّبتُ[3] من طورٍ لطورٍ فهأنا أقبلُ أفواه الملوك الأعاظمِ

وأهداه خدمةً للوزير أبى عبد الله بن الحكيم .

وأنشدنا شيخنا القاضى أبو البركات ابن الحاجّ وحكى لنا ، قال :

---

(١) فى م : « الطب » . (٢) فى ط : « لقيت » .
(٣) كذا فى م . وفى ط : « تنقلت » .

أنشدنى أبو عبد الله بن خميس وحكى لى ، قال : لما وقفت على الجزء الذى ألفه ابن سَبْعين ، يعنى أبا محمد عبد الحق بن أحمد بن إبراهيم بن نصر ، وهو الذى سماه بالفقيرية[١] ، كتبت على ظهره :

الفقرُ عندىَ لفظ دَقَّ مَعناهُ   من رامه من ذوى الغايات عَنَّاهُ
كَمْ مِنْ غَبِيِّ بعيد عن تصوره   أراد كشفَ مُعمَّاه فَعَمَّاهُ

وأنشدنا شيخنا الأستاذ أبو عثمان بن ليون غير مرة ، قال : سمعت أبا عبد الله بن خميس ينشد ، وكان يحسب أنهما له ، ويقال إنهما لابن الرومى :

ربَّ قومٍ فى منازلهم   غُرَرٍ صاروا بها غُررا
ستر الإحسانُ ما بهمُ   ستَرى لو زالَ ما سَتَرَا

ثم قال ابن خاتمة بعد كلام : وقد جمع شعره ودوَّنه صاحبنا القاضى أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الحضْرمى فى جزء سماه : « الدر النفيس من شعر ابن خميس » ، وعرَّف به صدرَ الجزء . وقد نقلت منه هنا :

وقدم أبو عبد الله بن خميس المَرِيَّةَ سنة ست وسبع مئة ، فنزل بها فى كنَف القائد الحاضر[٢] بها حينئذ ، أبى الحسن بن كماشة ، من خدام الوزير أبى عبد الله ابن الحكيم ، فوسع له فى الإيثار والمَبَرَّة ، وبسط له وجه الكرامة طَلْق الأسِرَّة ؛ وبها قال فى مدح الوزير أبى عبد الله بن الحكيم قصيدته التى أولها :

العُشْبُ تَعْيا والنَّوابغْ   عن شكر أنعمك السوابغ

ووجَّه بها إليه من المريّة . ومنها :

ودسائع ابن كماشة   معْ كل بازغة وبازغ

---

(١) فى م : « بالفقيرة » .
(٢) كذا فى م . وفى ط : « الحافد » .

تأتى بمـا تهوى النّغا   نع من شهيات اللّغالغ

ويقال إن الوزير أبا عبد الله بن الحكيم اقترح عليه أن ينظم له قصيدة هائية ، فابتدأ منها مطلعها ، وهو قوله :

لِمَن المنازلُ لا تجيب هواها[1]   مُحِيَت معالمها بِصُمِّ صَدَاها

وذلك فى أواخر شهر رمضان من سنة ثمـان وسبع مئة . ثم لم يزد على ذلك إلى أن توفى ؛ فكان آخر ما صدر عنه من الشعر ، وقد أشار معناه إلى معناه ، وقد آذن أوله بحضور أخراه ، فكانت وفاته بحضرة غرناطة قتيلا ، ضحوةَ يوم الفطر ، مستهلَّ شوال ، سنة ثمـان وسبع مئة ، وهو ابن نيِّف وستين سنة ، وذلك يوم مَقتل مخدومه الوزير أبى عبد الله بن الحكيم ، أصابه قاتله لحقده على مخدومه . ويقال إنه لـما هم به قاتله قال له . أنا دحيل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يلتفت إليه ، وجعل يُجْهِز عليه . فقال له : لم لم تقبل الدخيل بينى و بينك ؟ فكان آخر ما سُمع منه : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟ ثم إنه استفاض بعد ذلك من حال القاتل أنه هلك قبل أن يُكمل سنة من حين قتله من فالج شديد أصابه ؛ فكان يصيح و يستغيث : ابن خميس يطلبنى ، ابن خميس يعذبنى[2] ، ابن خميس يقتلنى . وما زال الأمر يشتد به حتى قضى نحبه على تلك الحال . [٤٤٤]

نعوذ بالله من الوَرَطات ، ومواقعات العَثَرات . انتهى كلام ابن خاتمة .

وحكى غيره أنَّ مطلعَ تلك القصيدة نظمه ليهنئ بها ابن الحكيم فى ذلك العيد الذى قتل فيه ، فلم يقدر على زيادة شىء ، فلما قُتل كتب بعضهم بعد قوله :

* لِمَن المنازلُ لا تجيبُ هواها *

لابن الحكيم .

(١) فى م هنا وفيا سيأتى : « صداها » .

(٢) فى م : « يضربى » .

ونقل غير واحد فى شأن قاتله خلافَ ما حكاه ابن خاتمة . والله أعلم .

ومن مشهور نظمه رحمه الله قصيدته التى أولها :

مَشُوقٌ زَارَ رَبْعَكِ يا أُمامَا   مَحا آثارَ دِمْنَتِها الشَّآما

تَتَبَّعَ رِيقَةَ الطَّلِّ ارْتِشافا   فلا نَقَعَتْ ولا نَقَعَتْ أُواما

وهى طويلة ، ولكنها من غُرَرِ القصائد ، يمدح بها أبا سعيد بن عامر ويذكر الوحشة الواقعة بينه وبين أبى بكر بن خطاب .

ومن بديع شعره قولُه مطلعَ قصيدة :

تُراجِعُ مِن دُنياكَ ما أنتَ تاركُ   وتسألُها العُتْبَى[1] وها هى فَارِكُ

تُؤمِّلُ بعد التَّرْكِ رَجْعَ وِدادِها   وشَرُّ ودادٍ ما تَوَدُّ التَّرائكُ

حَلالَكَ[2] منها ماحَلالكَ فى الصِّبا   فأنتَ عَلَى حَلْوائه مُتَهالِكُ

تَظَاهَرُ بالسُّلْوانِ عَنها تَجَمُّلا   فقلبُكَ مَحزونٌ وثغرُكَ ضاحِكُ

تَنَزَّهْتُ عنها نَخْوةً لا زَهادةً   وشَعْرُ عِذارى أسودُ اللونِ حالكُ

وهى من القصائد الطَّنَّانة ، وتركتُها لطولها ؛ وفى آخرها يقول :

فلا تَدْعُوَنْ غَيرى لِدفعِ مُلِمَّةٍ   إذا مادَهَى من حادثِ الدَّهرِدَاهِكُ[3]

فما إنْ لِذاكَ الصَّوْتِ غيرىَ سامِعٌ   وما إنْ لِبيتِ المجدِ بَعْدِىَ سَامِكُ

يَغُصُّ ويَشْجَى نَهْشَلٌ ومُجاشِعٌ   بِما أورثَتْنى حِميَرٌ والسَّكاسِكُ

تُفارِقُنى الرُّوحُ الَّتى لَسْتُ غَيْرَها   وطيبُ ثَنائى لاصِقٌ بىَ صَائِكُ

(١) فى ط : « العقبى » . وما أثبتناه عن م ونفح الطيب .

(٢) كذا فى م ونفح الطيب . وفى ط : « حلالك » .

(٣) كذا فى ط . ودهكه (كمنعه) : طحنه وكسره . وفى نفح الطيب : « داعك » .

وَمَاذَا عَسَى تَرْجُو لِدَانِى وأَرْتَجِى وقَدْ شَمِطَتْ مِنِّى اللِّحَى والأَفَانِكُ[١]
يَعُودُ لَنَا شَرْخُ الشَّبَابِ الَّذِى مَضَى إِذَا عَادَ لِلدُّنْيَا عَقِيلٌ ومَالِكُ

[٤٤٠]

وممـا اشتهر من نظمه قوله :

أَرَّقَ عَيْنِى بارِقٌ مِنْ أُثَالْ كَأَنَّهُ فى جُنْحِ لَيْلٍ ذُبَالْ
أَثَارَ شَوقًا من صَمِيمِ[٢] الحَشَى وعَبْرَةً فى صَحْنِ خَدِّى أَسَالْ
حَـكَى فُؤَادِى قَلَقًا واشْتِعَالْ وجَفْنَ عَيْنِى أَرَقًا وانْهِمَالْ
جَوانِحٌ تَلْفَحُ نِيرَانُهـــــا وأَدمُعٌ تَنْهَلُّ مِثْلَ العَزَالْ[٣]
قُولُوا وُشَاةَ الحُبِّ ما شِئْتُمُ[٤] ما لَذَّةُ الحُبِّ سوى أَنْ يُقَالْ
أَعْذِرُ لُوَّامِى[٥] وَلَا عُذْرَ لِى فَزَلَّةُ العالِمِ ما إِنْ تُقَالْ
قُمْ نَطْرُدِ الهَمَّ بِمَشْمُولَةٍ تُقَصِّرُ اللَيلَ إذا الليــلُ طَالْ
وعاطِها صَفْرَاءَ ذِمِّيَّـــــــةً تَمْنَعُها الذِّمَّةُ مِنْ[٦] أَنْ تُنَالْ
كالمِسْكِ رِيحًا والَّلمَى مَطْعَمًا والتِّبْرِ لَوْنًا والهَوا فى اعْتِدَالْ
عَتَّقَهَا فى الدَّنِّ خَمَّارُها والبِكْرُ لا تَعْرِفُ غَيْرَ الحِجَالْ
لَا تُثْقِبِ المِصْبَاحَ لَا واسْقِنِى عَلَى سَنَى البَرْقِ وضَوْءِ الهِلالْ

---

(١) الأفانك : جمع إفنيك ، وهو مجمع اللحيين أو طرفهما عند العنفقة . وفى الأصلين : « الأفاتك » بالتاء بدل النون ؛ وفى نفح الطيب : « الأماثك » ؛ وظاهر أن فى كلتا الروايتين تصحيفا .

(٢) فى النفح : « ضمير » .

(٣) العزالى : جمع عزلاء ، وهى مصب الماء من الراوية ونحوها .

(٤) فى ط : « ما شأنكم » . وما أثبتناه عن م ونفح الطيب .

(٥) كذا فى م . وفى ط ونفح الطيب : « عذرا للوامى » .

(٦) فى النفح المخطوط : « ما » مكان قوله : « من » .

فالْعَيْشُ نَوْمٌ والرَّدَى يَقظَةٌ وَالْمَرْءُ مَا بَيْنَهُمَا كالْخَيَالْ

خُذْهَا عَلَى تَنْغِيمِ مُسْطَارِها(١) بَين خَوابِيها وَبين الدَّوَالْ

فِي رَوْضَــــةٍ بَاكَرَ وَسْمِيُّهَا أَخمَلَ دَارِينَ وأَنْسَى أَوَالْ(٢)

كَأَنَّ فَأْرَ المِسْكِ مَفْتُوقَةٌ(٣) فِيها إذا هَبَّتْ صَبًا أَوْ شَمَالْ

مِنْ كَفِّ ساجِى الطرف ألحاظه مُفَــوَّقات أبدًا لِلنِّضَالْ

مَنْ عاذِرِى والكلُّ لى عاذِرٌ مِنْ حَسَنِ الوجه قبيحِ الفِعالْ

مِنْ خُلَّبِيِّ الوعْــــدِ كَذَّابِهِ لَيَّانَ لا يَعرِفُ غَيرَ المِطالْ

كأنَّهُ الدَّهْرُ وأَيُّ امرِئٍ يبقَى على الدَّهْرِ إذا الدَّهْرُ حَالْ

أمَا تَرانى آخِــذًا نَاقِضًا عَلَيْهِ مَا سَوَّغنى(٤) مِنْ مُحَالْ

ولَمْ أكُنْ قَطُّ له عائبا كمثلِ ما عابَتْهُ(٥) قبلى رجالْ

يَأْبى ثَرَاءَ المالِ عِلْمِى وهَلْ يجتمع الضِّدَّانِ عِلْمٌ ومَالْ

وتأنفُ الأَرضُ مُقَامِى بِهـا حَتَّى تَهَادَانى ظهورُ الرِّحَالْ

لَوْلَا بَنُو زَيَّانَ مَا لَذَّ لِى الــعَيْشُ وَلَا هَانَتْ عَلَىَّ اللَّيَالْ

هم خَوَّفُوا الدَّهْرَ وهم خَفَّفُوا على بَنِى الدُّنيا خُطاهُ الثِّقَالْ

أَلْفَيْتُ(٦) مِنْ عَامِرِهِم سَيِّدًا غَمْرَ رِدَاءِ الحمدِ جَمَّ النَّوَالْ

---

(١) المسطار (بضم الميم) : الخمرة الصارعة لشاربها ، لشدة حموضتها .

(٢) دارين : فرضة بالبحرين ، كان بها سوق للمسك . وأوال (كسحاب) : جزيرة كبيرة بالبحرين ، عندها مغاص اللؤلؤ .

(٣) فى النفح المطبوع : « مفتوتة » .

(٤) فى النفح المطبوع : « سوفى » .

(٥) فى النفح المخطوط : « عائبا ... عاتب » .

(٦) فى النفح وم : « لقيت » .

[٤٤٦]

وكَعْبَةً للجودِ مَنْصُوبةً يَسْعَى إليها الناسُ في[1] كل حالْ[2]
خُذْهَا أبا زيَّانَ مِنْ شاعِرٍ مُسْتَعْذَبٍ[3] النَّزْعةِ عذْبِ المقالْ
يَلْتَقِطُ الألفاظَ لَقْطَ النَّوَى ويَنظِمِ الآلاءَ نَظْمَ اللآلْ
مُجارِيًا مِهْيارَ في قولِهِ «ما كنتُ لولا طمَعِي في الخَيالْ»

ومَطْلَع قصيدة مِهيار التى عارضها ابن خميس هو قوله :

« ما كنتُ لولا طمعى فى الخيال أنْشُد ليلَى بين طول اللّيالْ »

وربما يهجس[4] فى خاطر من يرى وصف هؤلاء الأئمة للخمر وغيرها ، أنَّ ذلك منهم على حقيقته ، حاشاهم من ذلك ، وإنما مَقْصِدهم بذلك خلافُ ما يُتوَهَّمُ ، فلا يُساء بهم الظنُّ ، فإن العُذر لهم فى مثل ذلك بَيِّن ، واعتقادَ براءتهم من هذا الشَّين مُتَعَيِّن؛ ويرحم الله شيخ الشيوخ ، وَلِيَّ الله الرَّبَّانيَّ الشهير البركات ، سيدى أبا مدين شُعَيْبا ، أفاض الله علينا من أنواره إذ يقول ، على ما نسبه له بعض الأئمة :

شعر صوفى لأبى مدين

بَكَتِ السَّحابُ فأضحكتْ لبُكائها زَهْرَ الرِّياضِ وفاضَتِ الأنْهارُ
وقدَ أقبلَتْ شَمْسُ النهارِ بحُلَّةٍ خَضْرا وفى إشرارِها أسْرارُ
وأتى الربيعُ بخَيلِه وجُنودِه فتمتَّعَتْ فى حُسْنِهِ الأبْصارُ
والوردُ نادَى بالوُرودِ إلى الجَنَى فتسابقَ الأطيارُ والأشجارُ
والكأسُ تَرْقُصُ والعُقار تَشَعْشَعتْ والجوّ يَضْحَكُ والحبيبُ يُزَارُ

(١) كذا فى النفح المخطوط . وفى ط « عن » . وفى م والنفح المطبوع « من » .
(٢) فى النفح المطبوع والمخطوط : « نال » .
(٣) فى نفح الطيب : « مستملح » .
(٤) فى م : « ينجم » .

والعُودُ للغيد الحِسَان مُجاوِبٌ … والطَّارُ أَخْفَى صَوْتَهُ المِزْمَارُ
لا تحسَبُوا الزَّمْرَ الحَرَامَ مُرادَنَا … مِزْمَارُنَا(١) التَّسْبِيحُ والأَذْكَارُ
وشَرابُنَا مِن لُطْفِهِ وغِنَاؤُنا … نِعْمَ الحبيبُ الواحدُ القَهَّارُ
والعُود عادَاتُ الجميل وكَاسُنا … كاسُ الكِيَاسَةِ والعُقار وَقَارُ
فتألَّفُوا وتَطَيَّبُوا واسْتَغْنِموا … قبلَ المَاتِ فَدَهْرُكُمْ غَـدَّارُ
واللهُ أرحمُ بالفقـير إذا أَتَى … مِنْ وَالدَيْهِ فإنَّهُ غَفَّار
ثم الصَّلاة على الشفيع المُصطفَى … ما رنَّمَتْ بلغاتها الأَطْيَار

تخميس على قصيدة لسيدى ابراهيم التازى

وقد تَذَكَّرْتُ بلاميّة ابن خَميس المذكورة ، قصيدة على رويّها ووزْنها ، أولها قوله :

ما حالُ مَنْ فارقَ ذاكَ الجمالْ … وذاقَ طعْم الهَجْرِ بَعْدَ الوِصالْ

[٤٤٧] وهى من نظم الشيخ العارف الصالح سيدى إبراهيم التَّازِىّ ، رضى الله عنه ، رأيت أن أذكرها هنا كفارة لما يتوهَّمُه السامع فى لامية ابن خميس ، وقد كنت رأيت بتلمسان تخميساً لبعض الأكابر على قصيدة سيدى إبراهيم هذه ، وأنشدته الشيخ مولانا العمّ ، شيخ الإسلام ، سيدى سعيد بن أحمد المَقَّرِىّ رضوان الله عليه ، فانفعل لذلك غايةً واهتز ، وهأنا أذكر القصيدة ضمن التخميس ، وهو :

بَدَتْ كغُصْنٍ نَاعِمٍ فى اعتدَالْ
وأبدلتْ وَصْلى بصاد ودالْ
قُلْتُ كصبٍّ عاشق حيث قالْ

(١) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى م : « فرادنا » .

ما حالُ مَن فارقَ ذاكَ الجمالْ وذاقَ طعمَ الهَجْرِ بَعْدَ الوصالْ

صَبٌّ صبَا مِنْ وَجْدِ لَحْظِ الرَّشا

مِنْ حُبّه عن لُبّه يُنْتَشَى(١)

وسِرُّه بِدَمْعِهِ قَدْ فَشَا

والعَقلُ منهُ ذاهبٌ والحشَى مُلتَهِبٌ والجِسْمُ يَحْكِى الخَيَالْ

شَأْنى بِها ما دُمْتُ فى رِقِّها

رَاقٍ ولا رَغبةَ فى عِتْقِها

دُمْتُ لَها عَبْداً ومِن حَقِّها

أَبِيتُ أَرْعى النَّجْمَ فى أُفْقِها ولَيلُ أهلِ الحُبِّ رَحْبٌ طُوالْ

جاء بِها التَّنصيصُ فى جُمْلَتِى(٢)

أَقضى بِها فَرْضِى وَهِىَ مِلَّتى

نَأتْ بِصَبْرى صِحَّتُ واخجلتى

والدَّمعُ كالمِدْرارِ مِنْ مُقْلَتى يَجرى على الوَجْنة يا لَلرِّجالْ

ما عَمِرَتْ لى بالهوى رَاحةٌ

مِنْ بُعْدِها وَلاَ خَلَتْ ساحَةٌ

مِنْ حُسْنِها إذ هِىَ وَضَّاحةٌ

ولَيسَ لى عَيْشٌ ولا رَاحةٌ والحالُ يُغْنِى ذا الحِجا عَنْ سُؤالْ

الوَصْلُ قد أبْدَى لنا حُسْنَهُ

---

(١) انتشى : سكر . وفى الأصلين : « يختشى » . ولعله محرف عما أثبتناه .

(٢) فى م : « التنضيض فى حلق » .

والبُعْدُ[١] قَدْ أَبْدَى لنا شَيْنَهُ[٢]

قُولُوا لِمَنْ ليلُ الهَوَى جَنَّهُ

يا قَبَّحَ اللهُ النَّوَى إنَّهُ قَتْلٌ بلا سَيْفٍ وداءٌ عُضَالْ

إلْفِيَ مُذْ حَلَّ بِقلبى قَضى[٣]

أعادَهُ اللهُ لنا[٤] بالرِّضا

[٤٤٨] بِطالِعِ السَّعْدِ ونورٍ أضَا

ويا رَعَى اللهُ زمانًا مَضى بالأُنْسِ فى وارفِ تِلكَ الظِّلالْ

للهِ أَطْلالٌ بها خَيَّمَتْ

فكَمْ بها مِنْ أُمَّةٍ أَحْرَمَتْ

ويا رَعى اللهُ بها ما حَمَتْ

ظِلالُ تَيْماءَ الَّتى تَيَّمَتْ قَلبِى وخَلَّتْ مُهْجَتِى فى نَكالْ

نِلْتُ لذيذَ الوَصْلِ فى تُرْبِها

لو دامَ ما غُيِّبْتُ عَنْ قُرْبِها

فكيفَ لا أُعْلِنُ مِنْ حُبِّها

آهًا لَهَا مَنْ لِى بأُنْسٍ بها خَوْفَ الوَجَى[٥] ما بينَ تلكَ الجبالْ

تلكَ رُبوعٌ فازَ مَنْ حلَّها

---

(١) فى م : « والصد » .

(٢) فى الأصلين « سنه » ، والظاهر أنها محرفة عما أثبتناه .

(٣) كذا فى الأصلين ولعلها : « مضى » .

(٤) فى ط : « علينا » .

(٥) فى ط : « خوف الرجا » وفى م : « عرف الرجا » ، ولعله محرف عما أثبتناه .

وعُقــــدَة الإبعاد قَدْ حَلّها
مَنْ لِي بِقربٍ أجتني وَصْلَهَا
أَلْزَمَهَا أَبُثُّ أَمْرِى لَهَا أنْعِمْ[1] الطَّرْفَ بذاكَ الجمالْ

ما فازَ إِلَّا مَنْ غــدَا خِلَّها
ومَنْ أتَاهَا قاصــدًا أهْلَهَا
يا عاشِقينَ استعطِفُوا دَلَّهَا
لله مَا أَحْسَن خَالًا لَهَــا تقبيلُه المحظورُ عَيْنُ الحَــلَالْ

نَفسِي فِدَا مَنْ حَــلَّ فى رَكْبِها
ومَرَّغَ الخَــدَّيْنِ فى تُرْبِها
ونالَ ظِــلَّ الأمْنِ فى حِزْبِهــا
وما أَلَذَّ العيشَ فى قُرْبِهـــا فى ربِّهِ بَذْلُ[2] العطَا والنَّوَالْ

يَأهــل ذاكَ المَنصِبِ المَوْلَوِى
عَنْ حُبِّكُمْ قلبِىَ ما يَرْعَوِى
لأنَّنى مِنْ مائكُمْ أرْتَوِى
يا سَادتى يا صَــفْوَتى يا ذَوِى بِرِّى وشُكْرِى يا كِرامَ الفِعالْ

كَمْ بتُّ لَيْــلِي[3] بِكُمْ سَاهِرًا
سَامرْتُ فيــه كوْكبًا زاهِرا

---

(١) فى م : « وأنعم » .
(٢) كذا فى م . وفى ط : « لجده بعد » مكان قوله : « فى ربه بذل » .
(٣) فى م : « من ليل » مكان قوله : « ليلى » .

وصِرْتُ مِنْ شَوْقٍ لكم ذاكرَا
كانَ سُرُوري بكُمُ وَافِرَا وبَدْرُ سَعْدِي مُشْرِقًا فى كَالْ

فها أنا اليــــومَ أعانى العَنَا
وظِــلُّ أمْنِي كانَ فى المُنْحَنَى
وبَدْرُ سَـــعْدِي ناظِمٌ شَمْلَنَا
[٤٤٩] فانخسَفَ البَـــدْرُ وَرَاحَ الْهَنَـا ما كانَ ذا يخطُرُ مِنِّى ببـالْ

يا مَنْ غَـــدَا قَلبي بِهِمْ مُغْرَمَا
مِنْ أجْلِ خَوْدٍ حُسْـــنُها قَدْ سَمَا
مَنْ لِي بها أرشُـفُ ذاكَ اللَّمَى
يا جيرَةَ الحَيِّ وأهْلَ الحِمَى أنْتُمْ مُنَى قَلبِي على كلِّ حالْ

كانتْ بكُمْ لى فى الهوى نُزْهَةٌ
فصِرْتُ[1] أبكِي إذْ بَدَتْ وَحْشَةٌ
وهأنا لمْ تَرْقَ لى دَمْعَـــةٌ
ولَيْسَ بِي صَـبْرٌ ولاَ سَلْوَةٌ عنكمْ ولو شَطَّ المَدَى واسْتَطَالْ

يا مَنْ بِهِمْ قَلبي غَـــدا مُوامَا
وحَقِّ مَنْ طافَ ومَنْ قَدْ سَعى
ما العبـــدُ إلاّ صادِقٌ ما ادَّعَى
فارْعَوْا ذِمامِي واجْهَـدُوا فى الدُّعَا لِلْمُذْنِبِ المُضْنَى عَسى ذُو الجَلالْ

مَتَى أرَى رَكبِي بِهِمْ قافلاَ

(١) فى ط : « فكنت » ، وما أثبتناه عن م .

وَرَبْعَكُمْ أَضْحَى بِهِ آهِلَا
فَاللهَ أَرْجُو داعِيًا سَائِلاَ
أَنْ يجمعَ الشَّمْلَ بكُمْ عاجِلَا فى ذَلِكَ المَغْنَى العَدِيمِ المِثالْ

ومن نظم ابن خميسٍ التِّلِمْسَانِىِّ المذكور قولُه :

نَظَرَتْ إليكَ بِمِثْلِ عَيْنَىْ جُؤْذَرِ وَتَبَسَّمَتْ عَنْ مِثْلِ سِمْطَىْ جَوْهَرِ
عَنْ ناصِعٍ كالدُّرِّ أو كالبَرْقِ أَوْ كالطَّلْعِ أو كالأُقْحُوانِ مُؤَشَّرِ
تَجْرِى عَلَيْهِ مِنْ لَمَاها نُطْفَةٌ بل خَمْرَةٌ لَكِنَّهَا لم تُعْصَرِ
لوْ لَمْ يَكُنْ خَمْرًا سُلافًا رِيقُها تُزْرِى وتَلْعَبُ بالنُّهَى لَمْ تُحْظَرِ
وكَذَاكَ سَاجِى جَفْنِهَا لَوْ لَمْ يَكُنْ فيـهِ مُهَنَّدُ لَحْظِها لَمْ يُحْذَرِ
لو عُجْتَ طَرْفَكَ فى حديقةِ خَدِّها وأَمِنْتَ سَطْوَةَ صُدْغِها المُتَنَمِّرِ
لرَتَعْتَ مِنْ ذاكَ الحِمَى فِى جَنَّةٍ وكَرَعْتَ مِنْ ذَاكَ اللَّمَى فى كَوْثَرِ
طَرَقَتْكَ وَهْنًا والنُّجومُ كأَنَّها حَصْبَاءُ دُرٍّ فى بِساطٍ أَخْضَرِ
والرَّكْبُ بيْن مُصَمِّدٍ ومُصَوِّبٍ والنَّوْمُ بيْنَ مُسَكَّنٍ ومُنَفَّرِ
بَيْضَا إذا اعْتَكَرَتْ ذوائِبُ شَعْرِها سَفَرَتْ فأَزْرَتْ بالصَّباحِ المُسْفِرِ
سَرَحَتْ غَلائِلَهَا[1] فَقُلْتُ سَبِيكَةٌ مِنْ فِضَّةٍ أَوْ دُمْيَةٌ مِنْ مَرْمَرِ
مَنَحَتْكَ ما مَنَعَتْكَ يَقْظَانًا فَلَمْ تُخْلِفْ مَواعِدَهَا ولَمْ تَتَغَيَّرِ [٤٠٠]
وكأَنَّما خافَتْ بُغَاةَ وُشَاتِها فأَتَتْكَ من أَرْدَافِها فى عَسْكَرِ
وبِجِزْعِ ذاكَ المُنْحَنَى أَدْمَانَةٌ تَعْطُو فتَسْطُو بالهِزَبْرِ القَسْوَرِ

(١) سرحت غلائلها : أى خرجت منها .

وتَحِيةٌ جاءتْكَ فى طَيِّ الصَّبَا أَزْكى وأعطرُ مِنْ شَمِيمِ العَنْبَرِ
جرَتْ عَلَى وَادِيكَ فضْلَ رِدَائِها فَعَرَفْتَ فيها عَرْفَ ذَاكَ الإذْخِرِ
هاجَتْ بَلابلَ نازحٍ عن إِلْفِهِ مُتَشوِّقٍ ذَاكِى الحَشَى مُتَسَعِّرِ
وإذا نسيتَ لَيالِىَ العَهْدِ الّتى سَلَفَتْ لنَا فتذكَّرِيها تَذْكُرِى
رُحْنا تُغَنِّينَا وتَرْشُفُ ثَغْرَها والشَّمس تنظرُ مِثْلَ عَيْنِ الأَخْزَرِ
والرَّوضُ بَيْن مُفَضَّضٍ ومُعَسْجَدٍ والجوُّ بَيْن مُمَسَّكٍ ومُعَصْفَرِ

قصيدة لابن مرج الكحل تشبه قصيدة لابن خبس

وقد تذكرت بهذه القصيدة قول الأديب ابن مَرْجِ الكُحْل :

عَرِّجْ بِمُنْعَرَجِ الكَثِيبِ الأعْفَرِ بَيْنَ الفُرَاتِ وبينَ شَطِّ الكَوْثَرِ
ولْتَغْتَبِقْهَا قَهْوَةً ذَهَبِيَّةً مِن راحَتَىْ أَحْوَى المَرَاشِفِ[1] أَحْوَرِ
وعَشِيَّةٍ قَدْ كنتُ أرقُبُ وَقْتَها سَمَحَتْ بها الأيامُ بعْدَ تعذُّرِ
نِلْنا بها آمالَنا فى رَوْضَةٍ تُهْدِى لِناشِقِها شَمِيمَ العَنْبَرِ
والدَّهْرُ مِنْ نَدَمٍ يُسَفِّهُ رَأْيَهُ فِيما مَضَى مِنْهُ بِغَيْرِ تَكَدُّرِ[2]
والوُرْقُ تَشدُو والأَرَاكةُ تَنْثَنِى والشمسُ تَرْفُلُ فى قميصٍ أصفرِ
والرَّوضُ بينَ مُفَضَّضٍ ومُعَسْجَدٍ والزَّهْرُ بينَ مُدَرْهَمٍ ومُدَنَّرِ
والنهرُ مَرْقُومُ الأباطحِ والرُّبا[3] بِمُصَنْدَلٍ من زَهْرِهِ ومُعَصْفَرِ
وكَأَنَّهُ وكَأَنَّ خُضْرَةَ شَطِّهِ سَيْفٌ يُسَلُّ على بِساطٍ أخضرِ

(١) كذا فى ط والإحاطة (ج ٢ ص ٢٠٣). وفى م : « الدامع ».
(٢) كذا فى الإحاطة. وفى الأصلين :
« والدهر من ندم ... * فيما صفا ... الخ »
(٣) فى ط : « بالربا ». وما أثبتناه عن م.

وكأنّما ذاك الحَبابُ فرِندُه مَهْما طفا[1] فى صَفْحِهِ كالجَوْهَرِ
وكأنّهُ وَجِهاتُهُ[2] محفوفةٌ بالآسِ والنُّعمانِ خَدُّ مُعَذَّرِ
نَهْرٌ يَهيمُ بحُسْنِهِ مَنْ لَمْ يَهِمْ ويُجيدُ فيهِ الشعرَ مَنْ لَمْ يَشْعُرِ
ما اصفَرَّ وجهُ الشَّمْسِ عندَ غُروبِها إلّا لِفُرْقَةِ حُسْنِ ذاكَ المَنْظَرِ

ولابن مرج الكحل

وما أحسن قول ابن مَرْجِ الكُحْل المذكور :

رَأَوْا بالجِزْعِ بَرْقاً فَاسْتَهامُوا ونامَ العاذلونَ ولَمْ يَنامُوا
وعندي من مَراشِفِها[3] حديثٌ يُخَبِّرُ أنَّ رِيقَتَها مُدامُ
وفى أجْفانِها السَّكْرى دَليلٌ وما ذُقْنا ولا زَعَمَ الهُمامُ
تَعالَى اللهُ ما أَجْرَى دُموعِى إذا عَرَضَتْ[4] لمُقْلَتِيَ الخِيامُ
وأشْجانِى إذا لاحَتْ بُروقٌ وأطْرَبَنى إذا غَنَّى الحَمامُ

[٤٠١]

السلطان أبو عنان يروى شعر ابن خميس

وكان السلطانُ أبو عِنانٍ المَرِينيّ رحمه الله كثيرَ الاعتناء بنظم الشيخ أبي عبد الله بن خميس وحفظه وروايته . قال رحمه الله : أنشدنى بلفظه الشيخ الفقيه القاضى المحدّث ، الراوية العالم المدرّس ، خطيب حضرتنا العلية ، أبو عبد الله محمد بن الشيخ الأجل ، الصالح المبارك الراوية ، المرحوم أبى الحسن بن عبد الرزاق ، وذلك بقصر المَصارَة يَمَّنه الله ، فى يوم الاثنين خامسَ عشرَ من شهر المحرم المبارك ، مفتتح عام خمسة وخمسين وسبع مئة ؛ قال أنشدنا بلفظه شيخ الأدباء ، وفحل الشعراء ، أبو عبد الله محمدُ بن عمر بن محمد بن خميس الحِمْيَرِيّ ، ثم الحَجْرِيّ : حَجْرِ ذِي رُعَيْن ، لنفسه ، رحمه الله تعالى :

(١) فى الأصلين : « صفا » . والتصويب عن الإحاطة .
(٢) فى الأصلين : « وكأنما وجناته » . والتصويب عن الإحاطة .
(٣) فى الأصلين : « معاطفها » ، والتصويب عن الإحاطة .
(٤) فى الإحاطة والنفح المطبوع فى مصر : « عنت » .

أَنِبْتُ ولكنْ بعد طُولِ عِتابِ وفَرْطِ[(١)] لَجاجٍ ضاع فيه شَبَابِي

وما زِلتُ والعَلْيا تُعَنِّي غَرِيمَها أُعلِّل نفسى دائمًا بِعتَابِ

وهيهاتَ مِنْ بَعْدِ الشَّباب وشَرخِه يلَذُّ طَعامِي أوْ يسوغُ شَرابِي

خُدِعتُ بهذَا العَيْش قبْل بَلائِه كَمَا يُخْدَع الصادِي بلَمْع سَراب

تقولُ هُوَ الشَّهد المَشُور جَهَالَةً وما هو إلا السُّمُّ شِيبَ بِصَاب

وما صَحِب الدنيا كَبكْرٍ وتَغْلِبٍ ولا كَكُلَيْبٍ رِىءِ فَحْلُ ضِراب

إذا كَمَّت الأبطالُ عنْها تقدَّموا أعاريبَ غُرًّا فى مُتُونِ عِراب

وإن نابَ خَطْبٌ أو تفاقمَ مُعْضِلٌ تلقَّاهُ منْهُمْ كُلُّ أصْيدَ نَاب

تَرَاءتْ لجسَّاسٍ مَخِيلَةُ فُرْصَةٍ تأتَّتْ لَهُ فى جَيْئَةٍ وذَهَاب

فجاءَ بها شَوْهاءَ تُنْذِرِ قَوْمَها بتَشْييد أَرْجامٍ وهَدْمِ قِباب

وكَانَ رُغاء السَّقْبِ فى قوم صالح حَدِيثًا فأَنساهُ رُغَاءُ سَرَاب

فما تَسمعُ الآذانُ فى عَرَصاتِهِمْ سِوَى نَوْحِ ثَكْلَى أو نَعيبِ غُرابِ

وسَلْ عُرْوَةَ الرَّحَّالَ[(٢)] عَنْ صِدْقِ بأسِهِ وعَنْ بَيْتِه فى جَعْفَرِ بْنِ كلابِ

---

(١) فى م : « وطول » .

(٢) هو عروة بن عتبة بن جعفر بن كلاب ، كان سيد هوازن ، ويلقب بالرحال ، وقد قتله البراض بن قيس الضمرى ، فجرت بين هوازن وقريش حرب الفجار الآخر ، وقد شهدها النبي وله من العمر أربع عشرة سنة ، وكان ينبل فيها على أعمامه . وسبب هذه الحرب أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، كان يبعث إلى سوق عكاظ فى كل عام ، لطيمة فى جوار رجل شريف من العرب يجيرها له ، حتى تباع هناك ، ويشترى له بثمنها من أدم الطائف ما يحتاج إليه ؛ فجهز النعمان عير اللطيمة ، ثم قال : من يجيرها ؟ فقال البراض بن قيس الضمرى : أنا أجيرها على بنى كنانة . فقال له النعمان : ما أريد إلا رجلا يجيرها على أهل نجد وتهامة . فقال عروة الرحال وهو يومئذ رجل هوازن كلها : أنا أجيرها لك على أهل الشيح والقيصوم ، فى أهل =

وكانتْ على الأملاكِ منهُ وِفادةٌ إذا آبَ منها آبَ خيرَ مآب [٤٠٢]

يُجيرُ على الحيَّين قيْسٍ وخِنْدِف بفضْلِ يَسارٍ أو بفضْلِ خِطاب

زَعامةُ مَرْجُوِّ النَّوالِ مُؤمَّلٍ وعزْمةُ مسموعِ الدُّعاءِ مُجاب

فَمَرَّ يُزجِّيهـــا حَوامِرَ ظُلَّعاً بما حمَّلوها مِن مُنًى ورِغاب

إلى فَدَكٍ والموْتُ أقربُ (١) غايةً وهٰذا المُنَى يأْتِى بكلِ عُجاب

تبرَّضَ صَفْوَ العيْش حتى اسْتَشفَّهُ فَداف له البرَّاض قَشْبَ حُباب

فأصْبحَ فى تلكَ المَعاطِفِ نُهْزَةً لِنَهْبِ ضِباعٍ أو لنَهْش ذِئاب

وما سَهْمُهُ عندَ النِّضال بأهْزَعٍ ولا سيفُه عنـد المِصَاعِ (٢) بنابى

ولـكنَّها الدنيـا تكرُّ على الفتَى وإن كانَ منهـا فى أعزِّ نِصاب

وعادَتُهـــا ألَّا تَوسُّط عندها فإما سماءٌ أوْ تُخومُ تُراب

فلا تَرْجُ من دُنياكَ ودا وإن يكُنْ فما هو إلّا مِثْلِ ظلِّ سحاب

وما الحزمُ كلُّ الحزم إلا اجتنابُها فأشقَى الورَى مَنْ تَصْطَفِى وتُحابِى

أبَيْتُ لَها ما دامَ شخصِىَ أن تُرَى تَمُرُّ ببـــابِى أوْ تَطُورُ جَنابِى

فكَمْ عَطَّلتْ مِنْ أربُعٍ ومَلاعِبٍ وكَمْ فرَّقَتْ مِنْ أُسْرةٍ وصِحاب

وكم عفَّرت من حاسِرٍ ومُدَجَّجٍ وكم أثْكَلَتْ من مُعْصِرٍ وكَعاب

إليكمُ بنى الدُّنيا نصيحةَ مُشْفِقٍ عليكُمْ بصـيرٍ بالأُمور نِقاب (٣)

= نجد وتهامة . فدفعها النعمان إلى عروة ، فخرج بها وتبعه البراض وعروة لا يخفى منه شيئا ، لأنه كان بين ظهرانى قومه من غطفان ، إلى جانب فدك ، إلى أرض يقال لها أوارة ، فنزل بها عروة ، فشرب وغنته قينته ؛ فجاء البراض فدخل عليه وقتله . وإلى هذه القصة تشير الأبيات التسعة التى ابتدأت بهذا البيت . (انظر تفصيل الخبر فى العقد الفريد لابن عبد ربه فى أيام العرب ، عند الكلام على يوم «الفجار الآخر» .

(١) فى نفح الطيب : « أغرب » . (٢) المصاع : المجالدة بالسيوف . والذى فى نفح الطيب : « الصراع » . (٣) النقاب (بالكسر) : الرجل العلامة .

طويلِ مِراسِ الدَّهرِ جزْلٍ مُماحِك عريضِ مَجالِ الهَمّ حِلْسِ رِكاب
تأتَّتْ لهُ الأهوالُ أدهَمَ سابقا وغَصَّت به الأيامُ أشهبَ كابى
ولا تحسَبوا أنّى على الدّهرِ عاتِب فأعظمُ ما بى منهُ أيسرُ ما بِى
وما أسَنِى إلّا شَبابٌ خَلَفْتُه وشيْبُ أبى إلا نُصولَ خِضابِ
وعُمْرٌ مضى لم أحْلَ منهُ بطائلٍ سِوَى ما حَلا[1] من لَوْعة وتصابى
ليالىَ شيطانى على الغَىّ قادرٌ وأعذبُ ما عنـدى أليمُ عَذاب
عكسنا قضايانا على حكم عادنا وما عكسُها عند النُّهى بصَواب
على المصطفى المختار أزكى تحيّتى فتلك التى أعتدّ[2] يومَ حسابى
فتلكَ عَتادى أوْ ثناء أصوغُه كَدَرٍّ سَحاب أو كدُرّ سِخَاب

ومن مشهور نظم ابن خميس رحمه الله تعالى :

[٤٥٣] عَجَبًا لها أيذوقُ طعْمَ وِصالها من لَيس يأْمُل أنْ يَمُرّ ببالها
وأنا الفقيرُ إلى تَعِلّة ساعةٍ منْها وتمنَعنى زَكاةَ جَمالها
كَمْ ذاد عَنْ عَينى الكَرى مُتَألّقٌ يبدو ويخْفَى فى خَفِىّ[3] مطالها
يسمو له بدرُ الدُّجَى مُتضائلا كتَضاؤُل الحَسناء فى أسْمالها
وابنُ السَّبيل يجىء يَقبِس نارَها ليلا فتَمنحُه عَقيلةَ مالها
يَعتادنى فى النوم طَيْفُ خيالها فتُصيبُنى الحاظُها بنِبالها
كَمْ ليلةٍ جادتْ بهِ[4] فكأنّما زُفّتْ عَلَىّ ذُكاء وقْتَ زَوالها

(١) فى ط والنفح : « ما خلا » . وما أثبتناه عن م .
(٢) فى م : « أعتدت » .
(٣) فى م : « فى حبى » . والحبى : السحاب .
(٤) كذا فى الأصلين . وفى نفح الطيب : « جادت » .

أَسْرَى فعطَّلَها وعَطَّلَ شُهْبَها ... بِأَبِي شَذَا المعطارِ من مِعْطالها

وسَوادُ طُرَّته كجُنْحِ ظَلامِها ... وبَياضُ غُرَّته كضَوْء هِلالها

دَعْنِى أَشِمْ بالوَهْمِ أَدْنَى لَمْعَةٍ ... مِنْ ثَغرها وَأَشُمَّ مِسْكَةَ خَالها

ما رَادَ طَرْفى فى حقيقة خَدِّها ... إلا لِفِتْنَتِه[1] بحسن دَلالها

أَنَسِيبَ شِعرى رقَّ مثلَ نَسيمها ... فشَمولُ رَاحِك مثلُ ريحِ شمالها

وانقُلْ أحاديثَ الهَوَى واشرَحْ غَريـ ... ـب لُغاتها وَاذْكُر ثِقاتِ رجالها

وإذا مَرَرْتَ برامَةٍ فتَوَقَّ مِنْ ... أَطْلائِها وتَمَشَّ فى أَطْلالها

وانصبْ لِغُزَّلِها[2] حِبالَةَ قانصٍ ... ودَعِ السُّكَرَى شَرَكًا لصَيْدِ غَزالها

وأَسِلْ جَداوِلَها بفَيض دُموعها ... وانْضَحْ جَوانحها بفصل سِجالها

أنا من بقيَّة مَعْشَرٍ عَرَكَتهمُ ... هَذِى النَّوَى عَرْكَ الرَّحى بثِفالها

أَكْرِمْ بها فِئَةً أَرِيقَ نَجيعُها ... بَغْيًا فَراقَ العَيْنَ حُسْنُ مَآلها

حَلَّتْ مُدامَةُ وَصْلِها وحَلَتْ لَهُمْ ... فإن انْتَشَوْا فَبِحُلْوِها وحَلالها

بَلغَتْ بِهُرْمُسَ غايةً ما نالَها ... أَحَدٌ ونَاءَ لها لبُعْـدِ مَنالها

وَعَدَتْ على سُقْراطَ سَوْرَةُ كأسِها ... فَهُرِيقَ ما فى الدَّنِّ من جِرْيالها

وسَرَتْ إلى فَارابَ منها نَفْحَةٌ[3] ... قُدُسِيَّةٌ جاءت بنُخْبة آلها

ليصوغَ من أَلحانه فى حَانها ... ما سَوَّغَ القِسِّيسُ مِنْ أَرْمَالها

وتَغَلْغَلَتْ فى سُهْرَوَرْدَ فأَسْهرَتْ ... عَيْنًا بِوَرْقَاها طُروقُ خَيالها

---

(١) فى الأصلين : « لتفتنه » . وما أثبتناه عن نفح الطيب المطبوع .

(٢) كذا فى م . وفى ط ونفح الطيب المطبوع : « لمغزلها » . وفى المخطوط : « بمغزلها » .

(٣) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى م : « نغمة » .

[٤٠٤] فبا شِهابُ الدّين لما أشرَقَتْ ... وخَوى[1] فلمْ يثْبُتْ لنُور جَلالِها

ما جُنَّ مِثلَ جُنونه أحَـدٌ ولا ... سمحتْ يد بيضًا[2] بمثل نَوالِها

وبَدَت على الشُّوذِيّ[3] منها نَشْوةٌ ... ما لاحَ منهـــا غيرُ لَمْعَةِ آلِها

بطلتْ حقيقتُــه وحالَتْ حالُه ... فبِما يُعَبِّرُ عن حقيقة حالِها

هَـذِى صُبابتهم تَرِقّ صَبابةً ... فيَروقُ شاربَهـا صفاءُ زُلالها

اعلم أبا الفضْل بنَ يَحْيى أنّنى ... مِنْ بَعْـدِها أحرى على آمالها[4]

فإذا رأيتَ مُدَلَّهًا مِثلى فخُذْ ... فى عَذْلِهِ إنْ كنتَ مِنْ عُذّالها

لا تَعجبنَّ لِما تَرى مِنْ شأنِها ... فى حَلِّها إن كانَ أوْ تَرْحالها

فصلاحُها بفســادها ونعيمُها ... بعذابها ورشـــادُها بضَلالِها

ومن العَجائب أنْ أُقيمَ ببلدةٍ ... يومًا وأسْـلَمَ من أذَى جُهّالها

شُغِلوا بدُنيـــاهمْ أمَا شَغَلَتْهمُ ... عنّى فكَمْ ضَيَّعْتُ مِنْ أشغالها

حُجِبوا بجهلِهمُ فإن لاحت لهمْ ... شمسُ الهُدَى عَبِثُوا بضَوء ذُبالها

وإن انتسبْتُ فإننى من دَوْحة ... يتفيأ الإنسانُ[5] بَرْدَ ظِلالها

من حِمْيرٍ مِنْ ذى رُعَيْنٍ مِنْ ذَوِى ... حَجْرٍ منَ العُظَماء مِنْ أَقيالها

وإذا رَجَعتُ لِطينَتى مَعْنًى فما ... سَلْسالُه بأرقّ مِنْ صَلْصالها

لله دَرُّكَ أيُّ نَجْلٍ كريمةٍ ... ولَدَتْهُ فاسٌ منك بعْـدَ حِيالها

---

(١) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « وضوى » .

(٢) فى ط : « سمحت به أيضاً » . وفى م : « سمحت يد أيضا » : وما أثبتناه عن النفح المطبوع .

(٣) كذا فى الأصلين ، وهو تحريف . وفى نسخة من نفح الطيب : « المشود » . ولعله محرف أيضا عن : « ممشاد » ، وهو ممشاد الدينورى ، صوفى مشهور ، توفى سنة ٢٩٩ هـ .

(٤) كذا فى ط . وفى م : « آسالها » . ولعله محرف عن « أمثالها » .

(٥) كذا فى ط . وفى م : « تتقيل الأنساب » .

ولأَنتَ لا عَدِمْتُكَ والدُ فخرِها وسماكُ سُؤْدُدِها وبَدْرُ كمالها
أُغْلُظْ على مَن عاث مِنْ أنذالها واخشعْ لمنْ تَلْقاه من أبدالها
والبسْ بما أوليتَهـــا من نعمةٍ حُلَلَ الثَّنـاء وجُرَّ من أذيالها
خُذْها أبا الفضلِ بنَ يحيى تُحْفةً جاءتْكَ لم يُنْسَجْ على منوالها
ما جاء فى مِضمارِها شِـــعْرٌ ولا سَمحتْ قَريحةُ شاعرٍ بمثالها
وأَنِلْ أبا البَرَكاتِ مِن بَرَكاتها وادْفَعْ محالَ شُكوكِه مِنْ آلِها[1]

منزلة ابن خميس عند علماء المشرق

قال السلطان أبو عنان رحمه الله : أخبرَنا شيخُنا الإمامُ العالمُ العلامة ، وحيد زمانه ، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبُلىّ رحمه الله ، قال :

لما توجه الشيخ الصالح الشهير أبو إسحاقَ التَّنَسىّ من تِلِمْسانَ إلى بلاد المَشرق ، اجتمع هنالك بقاضى القضاة تقىّ الدين بن دَقيق العيد ، فكان من [٤٠٥] قوله له : كيف حال الشيخ العالم أبى عبد الله بن خميس ؟ وجعل يُحلّيه بأحسن الأوصاف ، ويُطنب فى ذكر فضله ؛ فَبَقِىَ الشيخ أبو إسحاق متعجّبا ، وقال : من يكون هذا الذى حَلَّيتموه بهذا الحَلْى ولا أعرفه ببلدى ؟ فقال له هو القائل :

« عَجَبا لها أيذوقُ طعمَ وصالها »

قال : فقلت له : إن هذا الرجل ليس هو عندنا بهذه الحالة التى وَصَفْتم ، إنما هو عندنا شاعر فقط . فقال له : إنكم لم تُنْصفوه ، وإنه لَحقيق بما وصفناه .

قال السلطان أبو عنان : وأخبرنا شيخنا أبو عبد الله المذكور أن قاضى القضاة ابنَ دَقيق العيد كان قد جعل القصيدة المذكورة بخزانة كانت له ، تعلو مَوضِعَ جلوسه المطالعة ، وكان يُخرجها من تلك الخزانة ، ويكثر تأمُّلها والنظر فيها .

ثم قال السلطان أبو عنان : قال لنا شيخنا أبو عبد الله الآبُلىّ المذكور :

---

(١) كذا فى م . وفى ط : « بمحالها » . مكان قوله : « من آلها » .

ولقد تعرّفت أنه لمّا وصلت هـذه القصيدة إلى قاضى القضاة تقىّ الدين المذكور ، لم يقرأها حتى قام إجلالا لها انتهى .

وقد وصَلَ ابنُ خميس رحمه الله هذه القصيدة إلى قاضى القضاة بنثْر لم أُثبته هنا لطوله ، وإنما قيل إن هذا الرجل مَعَرّىُّ النّزْعة ، أى نظمه أحسن من نثره ؛ وقد أوردها ابن الخطيب فى الإحاطة ، وأوردها السلطان أبو عنان فى مَرْويّاته .

شوق ابن خميس إلى بلده تلمسان

وكان ابن خميس بعد مفارقته بلده تِلِمْسان ، سقى الله أرجاءها أنواء نَيْسان[1] ، كثيرًا ما يتشوق لمشاهدها ، ويتأوه عند تذكره لمعاهدها ، وهى شيمة الأحرار فى حنينهم إلى أوطانهم ، وللدهر إحلاء وإمرار .

[٤٥٦] فمن ذلك قوله رحمه الله تعالى :

تِلِمْسانُ لوْ أنّ الزمانَ بها يَسخو ... مُنَى النّفسِ لا دارُ السلامِ ولا الكَرْخُ
ودارِى بها الأولى التى حِيل دُونَها ... مَثارُ الأسى لوْ أمكنَ الحنَقَ اللّبْخُ[2]
وعَهْدِى بها والعُمْرُ فى عُنْفوانه ... وماءُ شَبابِى لا أُجينٌ ولا مَطْخُ[3]
قَرارةَ تَهْيامٍ ومَغْنَى صَـبابةٍ ... ومَعْهَـدَ أنسٍ لا يَلَذُّ به لَطْخُ
إذِ الدّهرُ مَثْنِىُّ العِنانِ مُنَهْنَهٌ ... ولا رَدْعَ يَثْنِى مِنْ عِنانى ولا رَدْخُ[4]
ليالىَ لا أُصغِى إلى عَذْلِ عاذلٍ ... كأنَّ وُقوعَ العَذْلِ فى أُذُنى صَمْخُ[5]
مَعاهِدُ أُنسٍ عُطِّلَتْ فكأنّها ... ظواهرُ ألفاظٍ تَعمَّدها النّسْخ
وأربُعُ أُلّافٍ عَفَا بعضُ آيِها ... كما كانَ يعْرو بعضَ ألْواحِنا اللّطْخُ[6]

(١) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين . « التيسان » .
(٢) اللبخ : الاحتيال .
(٣) المطخ : ما يبقى فى الحوض والغدير من الماء الذى فيه الدعاميص ، لا يقدر على شربه .
(٤) الردخ : الردع .
(٥) الصمخ : الضرب فى صماخ الأذن .
(٦) اللطخ : التلويث .

فمَنْ يكُ سكرانًا من الوَجْد مرَّةً فإنىَ منه طولَ دهْرِى لَمُلْتَخُ[١]
ومَن يَقتدحْ زَنْدًا لِمَوْقد جَذوةٍ فزَنْدُ اشتياقِى لا عَفارٌ ولا مَرْخُ[٢]
أأنسَى وُقوفى لاهيًا فى عِراصها ولا شاغلٌ إلا التودُّعُ والسَّبْخُ[٣]
وإلّا اختيالِى ماشيًا فى بِماطها رَخِيًّا كما يمشِى بُطرَّته الرُّخُّ[٤]
وإلا فَعدْوِى مثلُ ما ينفِرُ الطَّلَا وَليدًا وحَجْلِى مثلُ ما ينهضُ الفَرْخ
كأنِّىَ فيها أزدشيرُ بن بابَكٍ ولا مُلْكَ لى إلّا الشَّبيبةُ والشَّرْخ
وإخوانُ صِدْقٍ من لِداتى كأنهمْ جآذرُ رمْلٍ لا عِجافٌ ولا بُزْخُ[٥]
وُعاةٌ لما يُلقِى إليهمْ منَ الهُدى وعن كلِّ فَحْشاءَ ومُنْكَرَةٍ صُلْخُ[٦]
هُمُ القومُ كلُّ القومِ سِيّان فى العُلا شَبابُهُمُ الفُرْعانُ والشِّيخةُ السُّلْخ[٧]
مَضَوا ومضَى ذاكَ الزمانُ وأُنسُه ومرَّ الصِّبا والمالُ والأهلُ والبَذْخ
كأنْ لم يكُنْ يومًا لأقلامِهمْ بها صَريرٌ ولم يُسمعْ لأكعُبِهم جَبْخُ[٨]
ولم يَكُ فى أرواحها[٩] منْ ثنائِهمْ شَميمٌ ولا فى القُضبِ مِنْ لينِهم مَلْخُ[١٠]
ولا فى مُحيَّا الشَّمس من هَدْيِهم سنًى ولا فى جَبين البدْرِ مِن طيبِهمْ ضَمْخُ[١١]

(١) يقال سكران ملتخ : إذا كان لا يفهم شيئا ، لاختلاط عقله .
(٢) العفار والمرخ : نوعان من الشجر يسرع اشتعالها .
(٣) السبخ : الفراغ .
(٤) الرخ : طائر كبير ، يرد ذكره فى القصص والخرافات .
(٥) البزخ (بالتحريك) : خروج الصدر ودخول الظهر ، ومنه رجل أبزخ ، وامرأة بزخاء ، والجمع بزخ .
(٦) صلخ : جمع أصلخ ، وهو الأصم جدا ، لا يسمع ألبتة .
(٧) السلخ : جمع أسلخ وهو الأصلع الشديد الحمرة .
(٨) الجبخ : إجالة الكعاب فى الميسر .
(٩) فى نفح الطيب المخطوط : « فى أدواحها » .
(١٠) الملخ : التثنى والتكسر .
(١١) الضمخ : لطخ الجسد بالطيب .

سَعيتمُ بنى عَمُورَ فى شتِّ شَمْلنا ... فما تَجْرُ كُمْ رِبْح وَلا عَيْشُنَا رَنْخ[(١)]

دُعيتم إلى مايُرْتجى من صَلاحكمْ ... فَرَدَّ كُمُ عنه التَّعَجْرُفُ والجَمْخ[(٢)]

تَعاليتُمُ عُجْبًا فَطَمَّ عليكمُ ... عُبابٌ له فى رأس عَلْيائكم جَلْخ[(٣)]

وهى طويلة جدا ، ألمَّ فيها بمدح سَبْتة وملوكها بنى العَزَفى ، فقال :

[٤٥٧]

تَرَكتُ لمينَا سَبتة كُلَّ نُجْعةٍ ... كما تُركَتْ للعِزِّ أهضابُها الشُّمْخُ[(٤)]

وآليتُ ألَّا أرتوى غيرَ مائها ... ولو حَلَّ لى فى غيره المَنُّ والمذْخ[(٥)]

وألَّا أحُطَّ الدهرَ إلا بمُغْفَرِها ... ولو بَوَّأتْنى دارَ إمْرَتها بَلْخ

فكمْ نَقَعَتْ من غُلَّة نلكم الأضَا ... وكم أبرأتْ من علّة تلكمُ الَّلبْخ[(٦)]

وحَسْبِىَ منها عَدْلُها واعتدالُها ... وأبحُرُها المُطْمَى وأريافُها النُّفْخ[(٧)]

وأملاكُها الصِّيد المَغاولة الأُلَى ... لِعزِّهِمُ تعنو الطَّراخمةُ البُلْخ[(٨)]

كَواكبُ هَدْى فى سَماء رياسةٍ ... تُضِيء فما يَدْجو ضَلالٌ ولا يَطْخو[(٩)]

ثواقبُ أنوار تُرى كلَّ غامضٍ ... إذا النّاسُ فى طَخْياء غَيِّهِمُ الْتَخُوا[(١٠)]

---

(١) رنخ (كفرح ومنع) : وقع فى الشدائد .

(٢) الجمخ : التكبر .

(٣) جلخ السيل الوادى جلخا : قطع أجرافه وملأه .

(٤) كذا فى الأصلين وفى نفح الطيب : « ... للعز أهضابها شمخ » .

(٥) المذخ : نوع من العسل يظهر فى جلنار الرمان البرى ، يتمصصه الناس .

(٦) اللبخ (محركة) : اسم جنس لشجر معروف . واحدته : لبخة (بالتحريك) وسكن الباء لضرورة الشعر .

(٧) النفخ : جمع نفخاء ، وهى الأرض المرتفعة المكرمة ، ليس فيها رمل ولا حجارة ، أو هى الأرض اللينة فيها ارتفاع . وجمعه : نفاخى ، كصحارى ، لكن الشاعر راعى هنا ما فيه من الوصفية ، فجمعه على فعل ، كحمراء وحمر .

(٨) الطراخمة : جمع طرخم ، وهو المتكبر . والبلخ جمع أبلخ ، وهو المتكبر أيضا .

(٩) يطخو تشتد ظلمته .

(١٠) الطخياء : الظلمة الشديدة . والتخوا : حاروا والتبس عليهم الأمر .

وروْضاتُ آدابٍ إذا ما تأرَّجت ... تضاءل فى أفياء أفنانها الرِّمْخ[(١)]

مَجامِرُ نَدٍّ فى حـدائق نَرْجِس ... تَنِمُّ ولا لَفْحٌ يُصيبُ ولا دَخّ[(٢)]

وأبحرُ عِلْمٍ لا حِيــاضُ رواية ... فيكبُرَ منها النضحُ أو يَعظُمَ النَّضْخ

بنو العَزَمِيِّينَ الأُلَى من صُدورهمْ ... وأيديهمُ تُمْلَا القراطيسُ والطَّرْخ[(٣)]

إذا ما فَتًى منهم تصدَّى لغاية ... تأخَّرَ من يَنْحو وأقصرَ مَنْ يَنْخو[(٤)]

رياســـةُ أخيارٍ ومُلّاكُ أفاضلٍ ... كِرامٍ لهم فى كلِّ صالحةٍ رَضْخ[(٥)]

إذا ما بَدَا منَّا جَفاءٌ تَعطَّفُوا ... علينا وإنْ حَلَّت بنا شِــدَّةٌ رَخُوا[(٦)]

نَزورُهمُ حُــــذًّا نحافا فَنَنْثَني ... وأجمالُنا دُلْحٌ وأبدانُنا دُلْخ[(٧)]

يُرَبُّوننـــا بالعِلْمِ والحِلْمِ والنُّهَى ... فما خَرجُنا بَزٌّ ولا حَدُّنا بَرْخ[(٨)]

وما الزُّهد فى أملاك لَخْمٍ ولا التُّقَى ... ببِدْعٍ وللدُّنيا لَزُوقٌ بمن يَرْخُو[(٩)]

وإلا ففى ربِّ الخَوَرْنَق عُنْيــة ... فما يَوْمُه سِرٌّ ولا صِيتُه رَضْخ[(١٠)]

---

(١) الرمخ : الشجر المجتمع .

(٢) الدخ (بفتح الدال وضمها) : الدخان .

(٣) الطرخ : اسم حفش عجمى ، واحدته طرخة . وهى حوض واسع يجعل عند مخرج القناة ليجتمع فيه الماء ، وينصب منه إلى المزرعة .

(٤) ينخو : يفتخر ويتعظم .

(٥) أصل الرضخ : العطاء اليسير . والمراد هنا : العطاء مطلقا ، كما يفهم من السياق .

(٦) رخوا : لانوا .

(٧) حذا : جمع أحذ ، وهو الضامر . والدلح : جمع الدلوح ، وهو الذى يمشى بحمله منقبض الخطو لثقله ، وأصله : دلح (بضم اللام) ، وسكن للوزن . ودلخ : جمع دلوخ ، أى سمين ، وأصله بضم اللام كذلك .

(٨) البز والابتزاز : أخذ الشىء بجفاء وقهر . والبرخ : القهر .

(٩) أملاك لخم : يريد ملوك اللخميين . والمراد (هنا) بنو العزفى أصحاب سبتة ، لأنهم لخميون فى أنسابهم . ويرخو : يلين .

(١٠) الخورنق : قصر بحيرة الكوفة ، بناه النعمان بن امرىء القيس بن عمرو بن عدى اللخمى ، وهو الذى لبس المسوح ، وساح فى الأرض . والرضخ : خبر تسمعه ولا تستيقنه .

تَطلَّعَ يومًا والسَّدِيرُ أمامَه وقدنال منه العُجْب ما شاء والحَفْخُ[1]

وعَنَّ له من شِيعَة الحقِّ قائم بحجَّة صِدْقٍ لا عَبامٌ ولا وَشْخ[2]

فأصبحَ يجتاب المُسوح زَهادة وقد كانَ يؤذِي بطنَ أخْمَصه النَّخ[3]

وفي واحد الدنيا أبي حاتم لنا دواءٌ[4] ولـكن ما لأدوائنا نَتْخ[5]

تَخلَّى عن الدُّنيا تَخلِّيَ عارفٍ يَرَى أنَّها في ثوب نَخْوته لَتْخ[6]

وأعرَضَ عنْها مُستهينًا بقَدْرها فلم يَثْنِه منْها اجتذابٌ ولا مَصْخ[7]

فَـكان له من قلبها الحبُّ والهوى وكان لها من كَفِّه الطَّرحُ والطَّخ[8]

وما مُعْرِضٌ عنهـا وَهِي في طِلابه كمن في يديه من معاناتهـا نَبْخ[9]

ولا مُدرِكٌ ما شاء من شَهواتها كمَنْ حَظُّه منها التَّجَمُّع[10] والنَّجخ[11]

ولـكنَّنا نَعْمَى مِرارًا عن الهُدَى ونَصْلَجُ حتى ما لآذاننا صُمْخ[12]

---

(١) السدير : نهر بناحية الحيرة . والحفخ : الفخر .

(٢) العبام : العي الثقيل . والوشخ : الرديء الضعيف .

(٣) المسوح : جمع مسح ، وهو ثوب من الشعر غليظ ، يلبسه الزهاد والمتقشفون . ويجتاب المسوح : يتخذها ملبسا ، والنخ : ضرب من البسط .

(٤) كذا في م . وفي ط : « بلاغ » .

(٥) نتخ الشيء : انتزعه .

(٦) لتخ الثوب (كمنع) : لطخه أو شقه .

(٧) كذا في نفح الطيب ، والمصخ انتزاع الشيء وجذبه عن جوف شيء آخر . وفي م : « فضخ » وهو كسر شيء أجوف . وفي ط : مضخ ، وفيه تحريف .

(٨) كذا في ط . وفي م « طرفه » بدل : « كفه » . والطخ : رمي الشيء وإبعاده .

(٩) النبخ : قروح في اليد بسبب العمل تمتلئ ماء ، فاذا تفقأت أو يبست مجلت اليد ، فصلبت .

(١٠) كذا في ط ، والتجمع : الاكتفاء بالقليل من التمر اليابس واللبن . وفي م : « التهجم » ، وهو النوم الخفيف .

(١١) النجخ : التخمة والسأم ؛ يريد أنه زاهد فيها .

(١٢) نصلج : نصم . والصمخ : جمع صماخ ، وأصله صمخ (بضم الميم) .

[٤٠٨]

وَمَا لِامرِئٍ عَمَّا قضَى اللهُ مَزْحَل ... ولا لقضاء اللهِ نقضٌ ولا نَسْخ (١)

أبا طالبٍ لم تَبقَ شِيمةُ سُؤْدُد ... يُساد بهــا إلا وأنت لها سِنْخ

لسوَّغتَ أبناء الزمانــ أياديًا ... لدِرَّتها فى كل سامعة شَخُّ (٢)

وأَجْرَيتَهَــا فيهم عوائدَ سؤْدُدٍ ... فما لهمُ كسب سواها ولا نَخّ (٣)

غَذَتْهم غواديها فهِى فى عُروقِهم ... دماءٌ وفى أعماقِ أعظمهم مُخّ

وعَمّتْهمُ حَزْنًا وسَهْلا فأصبحوا ... ومَرعاهمُ وَزْخ ومَرْعِيُّهم وَلْخُ (٤)

بنى العَزَفيين أبلُغوا ما أرَدْتُمُ ... فما دون ما تبغون وَحْلٌ ولا زَلْخ (٥)

ولا تَقْعُدُوا عمّن أرادَ سِجالَكُمْ ... فما غَرْبُكم جُفٌّ (٦) ولا غَرْفُكمْ (٧) وَضخ

وَخَلُّوا وَرَاءَ كلَّ طالبِ غايةٍ ... وَتيهوا على مَن رَامَ شأوَكُمُ وانْخوا (٩)

ولا تَذَرُوا الجوزاءَ تَعْلُو عليكمُ ... فَفِي رَأْسِهَا مِنْ وَطْءِ أَسْلَافِكم شَدْخ

لأفواه أعدائى وأعْيُن حُسَّــدى ... إذا جُلِيَت خانيتى الغَصّ والفَضْخ

دَعُوهَا تَهادَى فى مُلاءَة حُسنِها ... فَفِي نفْسِها مِنْ مَدْح أمْلاكِها مَدْخ (١٠)

---

(١) كذا فى الأصلين . وفى نفح الطيب : « فسخ » .

(٢) الشخ : صوت الشخب إذا خرج من الضرع .

(٣) النخ : السير العنيف ، وسوق الإبل وزجرها واحتثاثها ؛ يريد أن الذين عودهم عادات كرمه لا يحتاجون إلى الرحلة لانتجاع غيره .

(٤) الوزخ : شجر يشبه المرخ فى نباته غير أنه أغبر له ورق دقيق . والولخ من العشب : الطويل .

(٥) الزلخ : المزلقة تزل منها الأقدام لنداوتها ، لأنها صفاة ملساء .

(٦) الغرب : الدلو العظيمة . أما الجف فمن معانيه الدلو العظيمة ، ولعل المراد به (هنا) : الشن البالى يقطع من نصفه ، فيجعل كالدلو .

(٧) كذا فى نفح الطيب . والغرف : أخذ الماء من بئر أو نحوها . وفى الأصلين «عرفكم» .

(٨) الوضخ : الماء القليل .

(٩) انخوا : من النخوة ، وهى الافتخار والتعظم . (١٠) المدخ : العظمة .

يمانيةٌ زارتْ يمانيتَ فانثنَتْ وقد جدَّ فيها الزَّهو واستحكمَ الزَّمْخ[1]

من قصيدة أخرى له فى الشوق إلى تلمسان

ومن مطلع قصيدة لابن خميس رحمه الله فى مدح بلده تلمسان — حاطها الله تعالى — قوله :

تلمسانُ جادتْها[2] الغَوادِي الروائحُ وأرْسَتْ بواديها[3] الرياحُ اللَّواقحُ

وسَحَّ على ساحات باب جيادِها مُلِثٌّ يُصافِي تُرْبَهـا ويُصافح

يَطير فؤادى كلَّما لاحَ بارقٌ ويَزْدادُ شوقٍ كلَّما مَرَّ سانح

ولم يَعْلَق بحفظى من هذه القصيدة سوى ما ذكرت . وكنت تركتها بتلمسان ، ولم أرها الآنَ بفاسَ ، حماها الله .

قصيدة للثغرى فى وصف تلمسان

و « باب جياد » التى أشار إليهـا هى إحدى[4] أبواب تلمسان المحروسة ، وفيها يقول الفقيه العلامة الناظم الناثر ، أبو عبد الله محمد بن يوسف الثَّغرىُّ ، من قصيدة رفعها للسلطان أبى حَمُّو ، رحم الله الجميع :

أيُّها الحافظونَ عَهْدَ الودادِ جَدِّدوا أُنْسَنا ببـابِ الجيادِ

وصِلُوها أصـــائلا بليالٍ كَلآلٍ نُظِمْنَ فى الأجياد

فى رياضٍ مُنَضَّداتِ المجانى بينَ تلكَ الرُّبَا وتلكَ الوِهاد

[٤٠٩]

وبُروجٍ مُشَـــيَّدَاتِ المبانى باديات السَّنى كشُهْبٍ بَوادى

رَقَّ فيهـا النسيمُ مثل نَسيبي[5] وصفا النهرُ مثلَ صَــفْوِ ودادى

وزها الزَّهْرُ والغُصــون تثنَّتْ وتغنَّتْ عليهِ وُرْقٌ شَوادى

(١) الزمخ : الـكِبْر . زمخ بأنفه زمخا (كمنع) : شمخ .

(٢) فى ط : « جادتك » .

(٣) فى م : « عقباها » .

(٤) كذا فى الأصلين . والمعروف أن الباب مذكر ، ولكن المغاربة يؤنثونه فى لسانهم العامى .

(٥) فى ط : « نسيمى » .

وانْبَرَى كلُّ جَدول كحُسامٍ عارىَ الغمد سُنْدُسىِّ النِّجادِ
وظِلالُ الغُصون تَكْتُبُ فيه أحْرُفًا سُطِّرَتْ بغـــيرِ مِدَاد
تُذْكِرُ الوَشْمَ فى مَعاصِم خَوْدٍ قُضُبٌ فوقَه ذَواتُ امتـــداد
وكُئُوسُ المُنَى تُدارُ علينـــا بجَنَى عِفّة ونُقْل اعتقـــاد
واصفرارُ الأَصـــيل فيها مُدامٌ وصَفِير الطُّيور نَغْمة شادِى
كَمْ غَدَوْنا بها لأنس ورُحْنا جادَها رائحٌ مِنَ المُزْن غادى
ولَـكَمْ رَوْحَةٍ على الدَّوح كادتْ أنْ تَريحَ الصَّبا لنا وهْو غادى
رَقَّت الشمسُ فى عَشاياهُ حَتَّى أحدثتْ[(١)] منهُ رِقّةً فى الجَماد
جدَّدتْ بالغروب شَجْوَ غَريب هاجَهُ الشوق بعدَ طول البعاد
يا حَيَا المُزْن حَيِّها من بلادٍ[(٢)] غَرَسَ الحبُّ غَرْسَها فى فؤادى
وتعاهَدْ معـــاهدَ الأنس مِنْها وعُهودَ الصِّبا بصَوب العِهاد
حيثُ مَغْنَى الهوى ومَلْهَى الغَوانى ومَرادُ[(٣)] المُنَى ونيلُ المُراد
ومَقَرّ العُـــلا ومَرْقى الأمانى ومَجَرّ القَنـــا ومَجْرَى الجِياد
كُلُّ حُسْن على تِلِمْسان وَقْفٌ وحصـــوصًا على رُبَا العُبَّاد[(٤)]
ضَحِكَ النَّور فى رُباها وأرْبَى كَهْفُ ضَحَّاكِها على كلِّ نادى[(٥)]
وسما تاجُهـــا على كلِّ تاجٍ وسَطا سَيْفُها[(٦)] على كلِّ وادى

---

(١) فى م : « حدثت » .
(٢) فى م : « عراص » .
(٣) فى ط : « ومنال » .
(٤) فى م « رباه العباد » .
(٥) فى ط : « باد » .
(٦) فى ط : « فيضها » .

يدَّعِى غيرُها الجـــالَ فيقضِى ... حسنُهَا أنَّ تِلْكَ دَعْوَى زِيادِ[1]

وبِشِـعْرِى فَهِمتُ مَعْنَى عُلاها ... من حِلاها فَهِمْتُ فى كلِّ وادى

حَضْرةٌ زانهـا الخليفةُ مُوسى[2] ... زينةَ الحَلْىِ عاطِلَ الأجْياد

وحَبَاها بكلِّ بَذْلٍ وعَـــدْلٍ ... وحَماها من كلِّ باغٍ وعادِى

مَلِكٌ جاوز المَدَى فى المَعالِى ... فالنهايات عنـــده كالمَبادى

مَعْقِل للهُدَى مَنيعُ النَّـــواحى ... مَظْهَرٌ للعُـــــلا رَفيع العِماد

قاتِلُ المَحْلِ والأعادى جميعا ... بغِرار الظُّبَا وغُرٍّ[3] الأيادى

[٤٦٠] كلما ضَنَّتِ السحائب أغْنَتْ ... راحتاهُ عن السَّحاب الغَوادى

كَمْ هِباتٍ له وكَمْ صَــدَقاتٍ ... عائداتٍ على العُفاة بَوادى

فأيادِى خَليفــةِ اللهِ مُوسَى ... أبحُرٌ عـــــذْبةٌ على الوُرَّاد

رُكِّبَ الجُود فى بَسيط يَدَيْهِ ... فتَلاَقَى به تلافَ العِبــــاد

جَلَّ بارِيهِ مَلْجَـــــأً للبَرايا ... كالحَيَا ضامِنًا حياةَ البِلاد

جَلَّ مَن خَصَّه بتلك المَزَايا ... باهراتٍ من طارفٍ وتِلاد

شِيَمٌ حُلْوَةُ الجَنَى وسَجِـــايا ... يَشْهَدُ[4] الحِدَ أنَّها كالشِّهاد

يا إمامَ الهُدَى وشَمْسَ المعالِى ... وغَمَامَ النَّدى وبدْرَ النَّوادِى

لك بينَ المُلوك سِرٌّ خَفِيٌّ ... ليسَ معناهُ للعقول ببادى

(١) يريد أنها دعوى كاذبة ، كدعوى زياد بن أبيه النسب إلى أبى سفيان .

(٢) موسى : هو أبو حمو موسى بن يوسف الزيانى ، من بنى عبد الواد ، كانت بينه وبين بنى مرين مناقسات وحروب ، أدت إلى استيلائه على تلمسان وخروجه عنها عدة مرات (انظر الاستقصا للسلاوى ج ٢ ص ١٠٣ وما بعدها) .

(٣) فى م : « وغِنى » .

(٤) فى م : « شهد » .

فكأنَّ البلادَ كَفُّكَ منها — كان فيها من يَنْتَمِي للعِباد[1]

قبضتْ كفُّكَ البَنانَ عليه — فأتَى بالإذعان حِلْفَ انقياد[2]

وبكُمْ تَصْلُح البـــــلادُ جميعًا — إنّ آراءكم صَـــــلاحُ البلاد

لم تزلْ دائمًـــــا تحن إليكمْ — كحَنين السَّــقيم للعُوَّاد

لو أُعينتْ بمنطقٍ شكرتْـكمْ — مثلَ شُـكر العُفاة للأجواد

قد أطاعتكُمُ البــلادُ جميعًا — طاعةً أرغمت أنوفَ الأعادى

فأريحوا الجيـــادَ أتعبتُموها — وأقِرُّوا السُّيوفَ فى الأغمـاد

وَاهْنَئُوا خالدين فى عزِّ مَلْكٍ — قائمِ السَّـعْد دائم الإسْـعاد

وإليكُمْ من مُذْهَبات القَوافى — حِكَمًا سُهِّلَتْ[3] لِإبانَ القَاد

كلُّ بيت من النِّظام مَشيدٍ — عطَّرَ الأفْقَ بالثَّناء المُشاد[4]

ذو ابتسام كزَهْر رَوْض مَجُود — وانتظامٍ كسِلْكِ دُرٍّ مجاد

قصيدة أخرى للثغرى فى تلمسان

ومن قول الثَّغْرىّ المذكور فى تِلِمْسَانَ وسلطانها أيضا :

تاهتْ تِلِمسانُ بحسن شَبابها — وبدا طِرازُ الحُسْنِ فى جلبابها

فالبِشْر يبدو من حَبَاب ثغورها — متبسِّمًا أو مِن ثغور حِبابها

قد قابلَتْ زُهْرَ النُّجوم بزَهْرِها — وبروجَها ببروجهـــا وقبابها

حَسُنتْ بحسن مَليكها المولَى أبِى — حَمُّو الذِى يحْمِى حِمَى أربابها

مَلِكٌ شمائلُه كزَهْر رِياضِها — ونَداه فاضَ بها كفَيْض عُبابها [٤٦١]

(١) كذا فى ط . وفى م : « لعباد » ، ولعلها : « للعاد » .
(٢) كذا فى م . وفى ط : « فأتى بالإذعان » . ولعلها : « فأتى مذعنا حليف انقياد » .
(٣) فى م : « كلها سهلة » : مكان قوله : « حكما سهلت » .
(٤) كذا فى ط . وفى م : « الشادى » .

أعلَى[1] الملوكِ الصِّيد من أعلامها وأجلُّها من صَفوةٍ[2] ولُبابها
غارتْ بغُرَّة وجهه شمسُ الضُّحى وتنقَّبتْ[3] خَجَلا بثوب ضَبابها
والبدرُ حين بدتْ أشِقَّتها له حُسْنا تضاءل نُورُه وخَبا بها
للهِ حضرتُه الّتى قد شَرَّفَتْ خُدَّامَها فسمَوْا بخِدْمة بابها
فالّثْم فى يمنـاه يُبْلِغها المُنَى والمدح فى عَلْيَاهُ من أسبابها

وتذكرتُ بقوله رحمه الله تعالى :

أيها الحافظونَ عَهْد الودادِ جَدِّدُوا أُنسَنا بباب الجيادِ

قصيدة منديل ابن آجروم فى ذكر فاس

قصيدةَ أبى المكارم مَنْديل بن آجُرُّومَ ، فى ذكر فاس المحروسة وباب الفتوح منها ، ومواضعَ من مَتنزهاتها ؛ ولا شك أن كل واحدة من هاتين القصيدتين تنظُر إلى الأخرى ، وناظِماها متعاصران ، فالله أعلم أيُّهما أخذ من الآخر ؛ على أن الرويّ مختلف ، وقد يقالُ إن[4] ذلك من باب توارد الخواطر .

ونص قصيدة ابن آجُرُّوم المذكور :

أيُّها العارفونَ قدرَ الصَّبوح جَدِّدوا أُنْسَنا ببـابِ الفُتوحِ[5]
جَدِّدوا ثمَّ أُنْسَنا ثم جِدُّوا نَسْرَحِ الطَّرْفَ فى مكانٍ فسيحِ
حيثُ شابتْ مفارقُ اللّوز نَوْرا وتَساقَطْنَ كالْجَبن[6] الصَّريحِ
وبدا منـه كلُّ ما احمَرَّ يحكى شَفَقا مَزَّقَتْـهُ أيدى الرِّيح

(١) فى ط : « أعطى » .
(٢) فى م : « صفوها » .
(٣) فى م : « وتغيبت » .
(٤) فى الأصلين : « لشأن » ، ولعلها محرفة عما أثبتناه .
(٥) باب الفتوح : أحد أبواب فاس .
(٦) فى ط : « كالجبين » .

وكأنَّ الذى تساقطَ منه نُقطٌ أُحْنَ مِنْ دَمٍ مسفوحِ
وإذا ما وَصلتمُ للمُصلّى فَلْتَحُلّوا بموضع التسبيح
وبطَيفورها فطوفوا اكيما تُبصِروا من ذُراه كل سُطوح
ولْتقيموا هُناك لَمحة طَرْفٍ لتردُّوا بها ذَماء الرُّوح
ثم حُطُّوا رِحالكم فوق نَهْرٍ كَلّ فى وصفه لسانُ المديح
فوق حافاته حدائقُ خُضرٌ ليسَ عنها لعاشق من نُزوح
وكأنّ الطُّيورَ فيها قيانٌ هتفتْ بين أعجَمٍ وفَصيح [٤٦٢]
وهْى تدْعوكُمُ إلى قبّة الجَوِ زِ هلُموا إلى مكانٍ مَليح
فيه ما تشتهونَ من كلّ نَوْرٍ مُغْلَق فى الكِمام أو مفتوح
وغُصونٍ تَهيج رقْصا متى ما سمعتْ صوت كُلِّ طيْرٍ صَدوح
فأجيبوا دُعاءها أيُّها الشَّرْ بُ وخَلّوا مَقال كلِّ نَصيح
واجْنَحوا للمُجون فهو جدير وحليق من مثلكم بالجُنوح
واخلَعوا ثَمَّ للتصابى عِذارا إنَّ خَلْع العِذار غيرُ قبيح
وإذا شِئْتمُ مكانًا سِواهُ هُو أحلَى من ذلكمْ فى الوُضوح
فاجْمعوا أمرَكم لنحْوأَتِىٍّ(١) جاء كالصِّلّ من قِفارٍ فِيح
عطَّرتْ جانبيه كفُّ الغَوادى بشَذا عَرَف زَهرِها المنوح
قل لِمهْيارَ إن شَمِمْت شَذاها قولَ مستخبِرٍ أخى تجريح
أين هذا الشَّذَا الذّكىُّ من القيْـ ـصوم والرَّنْد والغضا والشِّيح
حَبّذا ذلكَ المِهادُ مِهادًا بينَ دانٍ مِنَ الرُّبا ونَزوح
ثُمّ من ذلك المِهاد أفيضوا نحو هَضْبٍ من الهُموم مُريح

(١) الأتى : النهر .

فيـــه للحُسْن دَوْحة وزوايا[1] وانشراحٌ لذى فُؤادٍ قَرِيحِ
وجِجارٌ تُدْعَى حِجارَ طُبول غير أن التطبيلَ غيرُ صَحيح
تنشُرُ الشمسُ ثمَّ كُلَّ غُدوٍّ زَعفرانًا مُبَلّلا بنُضـــوح
وسُبُو[2] من هُناك يَسْبِى عقولا ويُجَلِّى لِحَاظَ طَرْفٍ طَموح
وعُيونٌ بها تَقَرُّ عُيونٌ وكلامٌ يأسو كُلُومَ الجَريح
فُرِشَتْ فوقَها طَنافِس زَهْر ليسَ كالعِهْن نَسجُها والمُسوح
كلَّما مَرَّ فوقَهن طَلِيحٌ عادَ من حُسْنهنّ غيرَ طَليح
فانهَضوا أيُّها المحبُّون مثلى لترى ذاتَ حُسْنها الملوح[3]
هكذا يُرْبَح الزمانُ وإلا كُلُّ عيش سِواه غيرُ رَبيح

رجع إلى نظم ابن خميس رحمه الله

ولابن خميس يصف تلمسان ويمدح ابن الحكيم

ومن بديع نظمه قصيدة مدح بها الوزير ابنَ الحكيم .

قال ابن الخطيب : وهى من مشاهير أمداحه فيه ، وكتب بها إليه من المَرِيّة ، وألَمّ فيها بذكر بلده تِلِمْسَان ، وما حلّ بها من البلاء والحصار[4] فى ذلك التاريخ ، من قِبَل السلطان أبى يعقوب يوسفَ ابن السلطان المجاهد الكبير

(١) كذا فى الأصلين . وفى النبوغ المغربى لعبد الله كنون « روايا » جمع راوية . والراوية : مزادة الماء ، أو الدابة التى تحمله . ولعل المراد بها : الناعورة التى يرفع بها الماء .
(٢) « سبو » : نهر معروف فى المغرب (قرب فاس) فى شرقها .
(٣) فى ط : « الملوح » .
(٤) فى ط : « والمضار » .

أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق[1] ، نَفَعنا الله ببركاته ، فى أهل تِلِمسان المحصورين ، فلم يَقبل شَفاعتهم ، فقال الشيخ سيدى أبو زيد كلامًا معناه : إن سَعادة يقضى هذا ، ورجع الشيخ إلى فاس ، فاتفق أن هذا العبد[2] كان مع السلطان فى الحمام ، وكان له عليه حِقْد ، فانتهز فيه الفُرصة ، ووجأه بخَنجر ، فكان فى ذلك حتفُه ، فنفّس الله عن أهل تِلِمسان بعد حصارها نحو العشر سنين .

ولما وصل الخبر إلى سيدى أبى زيد بموت السلطان قال : وعبد الرحمن يَمُّوت ، يعنى نفسَه ؛ و « يَمُّوت » : بتشديد الميم ، على لغة البربر ؛ فتُوُفِّى رحمه الله ، ودُفِن بمسجد الصابرين[3] ، وقبره مشهور مقصود الإجابة ، نفعنا الله به ؛ وقد زرته مِرارا لا أحصيها ، ودعوت الله عنده بما أرجو قبوله .

وقد أشار أبو عبد الله بن خميس فى هذه القصيدة إلى ذلك الحِصار ؛ وكان منَ الاتّفاق الغريب ، سُرعة وقوع ما تمنّاه ابن خميس لتلمسان هذه من الخير ، بعــد طول المِحْنة ، واشتداد البلاء ، ولم يتأخر ذلك عن تاريخ القصيدة غير أربعة أشهر .

ونصّ القصيدة :

سَلِ الرِّيحَ إن لم تُسعِدِ السفْنَ أَنواء فعِنْد صَباها من تلمسانَ أَنباء

---

(١) كذا فى الأصلين . والظاهر أن فى العبارة سقطا ، ولعل الأصل : « وقد رحل الشيخ الولى أبو زيد عبد الرحمن الهزميرى ، نفعنا الله ببركاته من بلده أغمات مع جماعة ، للشفاعة عند السلطان أبى يعقوب فى أهل تلمسان المحصورين . . . الخ » (انظر ترجمة الهزميرى فى نيل الابتهاج بتذييل الديباج لأحمد بابا التنبكتى بهامش صفحة ١٦٤) .

(٢) يريد به الخصى « سعادة » المتقدم الذكر ، وكان من مماليك السلطان يوسف (انظر خبره فى الاستقصا للسلاوى ج ٢ ص ٤١) .

(٣) كذا فى م . وفى ط : «الصابر» . وفى نيل الابتهاج لأحمد بابا : «الصفارين» .

وفى خَفَقانِ البَرْقِ منها إشارةٌ إليكَ بما تَنمِى[1] إلَيْكَ[2] وإيماء
تَمرُّ الليالى ليلةً بعـــد ليلة وللأُذْنِ إصغاء وللعَين إكلاء[3]
و إنى لأصبُو للصَّبا كلّما سَرَتْ[4] وللنَّجم مهما كان للنجم إسراء[5]
وأُهْدِى إليها كلَّ يوم تَحِيَّةً وفى رَدِّ إهـــداء التحية إهداء[6]

[٤٦٤]

وأستجلِبُ النومَ الغِرارَ ومَضْجَعى قَتادٌ كما شاءتْ نواها وسُلَّاء
لعلّ خيالا من لدَيْهـا يَمرُّ بى ففى مَرِّهِ بى من جَوى الشوق إبراء
وكيف خُلوصُ الطَّيْفِ منها ودونَها عيونٌ لها فى كل طالعـــة راء[7]
و إنى لَمُشتاقٌ إليها ومُنْبِئٌ ببعْض اشتياقى لو تمكّنَ إنباء
وكَمْ قائلٍ تَفْنَى[8] غراما بحبِّها وقد أخلَقَتْ منها مِلاءٌ وأملاء[9]
لعشرة أعوامٍ عليها تجرَّمَتْ إذا ما مضى قيظٌ بها جاء إهراء[10]
يُطَنِّب فيها عائثون وخُرَّبٌ وبرحَلُ عنهـا قاطِنون وَتُنَّاء[11]
كأنَّ رِماحَ الناهِبِينَ لمُلْكِها قِداحٌ وأموالَ المنازل أبْداء[12]

---

(١) فى م : « تنهى » .
(٢) كذا فى م . وفى ط : ونفح الطيب : « إليها » .
(٣) أكلأ بصره فى الشىء : ردده فيه مصوبا ومصعدا .
(٤) كذا فى م ونفح الطيب . وفى ط : « صبت » .
(٥) فى ط : « إصباء » . وما أثبتناه عن م ونفح الطيب .
(٦) كذا فى ط . وفى م : « وفى ردها بعد التحية إهداء » .
(٧) كذا وردت هذه الكلمة : «راء» فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « داء » . ورواية هذا الشطر فى م : « حياة لها من كل طالعة داء » .
(٨) كذا فى ط . وفى م والنفح : « بقى » .
(٩) أخلقت : تغيرت . والملاء : جمع ملىء ؛ والأملاء : جمع ملأ ، وهم أشراف الناس وعليتهم .
(١٠) هرأه البرد وأهرأه : اشتد عليه حتى كاد يقتله .
(١١) فى نفح الطيب : « وأحياء » .
(١٢) الأبداء : جمع بدء ، وهو النصيب من الجزور .

فلا تَبْغِينْ فيها مُناخًا لراكب ... فقـدْ قَلَصتْ منها ظِلال وأفياء

ومنْ عَجَبٍ أنْ طالَ سُقْمِى ونَزْعُها ... وقُسِّم أضناء علينا وأطنـاء[1]

وكَمْ أرْجفوا غيظا بها ثم أرْجَئُوا ... فيكْذِبُ إرجافٌ ويَصدُقُ إرجاء

يُرَدِّدُها عُيَّابُها الدهرَ مِثْلَما[2] ... يُرَدِّدُ حرفَ الفاء فى النطق فَأفاء

فيامَنزِ لَانال الرَّدَى منه ما اشتهى ... تُرَى هل لعُمر الأنْس بعدكَ إنساء

وهل لِلظَى الحربِ الَّتى فيكَ تَلْتظِى ... إذا ما انقَضَتْ أيامُ بؤسكَ إطفاء

وهلْ لى زمانٌ أرْتَجِى فيه عَودةً ... إليكَ ووجه البشر أزهرُ وُضّاء

فَيَاهَىَّ مالِى[3] إن هلكتُ ولم أقلْ ... لصحبى بها الغُرِّ الكرامِ ألَا هاءوا

ولم أطْرُقِ الدرْبَ[4] الذى كنتُ طارقا ... لِعادٍ[5] وبَدْر الأفق أسْلَعُ مِشْناء[6]

أُطِيفُ به حتّى تَهِرَّ كِلابُهُ ... وقَدْ نامَ عُسَّاسٌ وهوَّم سُبَّاء

ولا صاحبٌ إلا حُسَامٌ وهَذَمٌ ... وطِرْفٌ لخدِّ الليل مُذْ كانَ وَطَّاء

وأسْحَمُ قارِىٌّ كشَعْرِىَ حُلْكَةً ... تلألأ فيه من سَنَى الصبح أضْواء

فما لشرابى فى سواكَ[7] مَزازَةٌ ... ولا لِطَعامى دونَ مائكَ إمراء

---

(١) الأضناء : جمع ضنى ، وهو المرض . والأطناء : جمع طنء ، وهو الداء .

(٢) كذا فى م ونفح الطيب المطبوع . وفى ط : « يرددها غيابها الدهر بعد ما » .

(٣) يقال : يا هىء مالى ، ويا فىء مالى ، ويا شىء مالى ، تهمز ولا تهمز . وهى : اسم فعل أمر للتعجب ، أو للأسف والحزن والتلهف على ما فات ، بمعنى تنبه واستيقظ ، ودخل عليه حرف النداء كما دخل على فعل الأمر ، وبنى على حركة للتخلص من التقاء الساكنين ، وخص بالفتحة طلبا للخفة . وقولهم : « مالى » بمعنى : أى شىء لى ؟

(٤) فى الأصلين : « الدين » ، ولعله محرف عما أثبتناه .

(٥) كذا فى ط : وفى م : « لعادى » . ولعله : « كعادى » ، جمع عادة .

(٦) الأسلع : الذى به البرص . والمشناء : الذى يبغضه الناس .

(٧) كذا فى م . وفى ط : « هواك » .

ويا دارىَ الأولى بدرْبِ مُغيلةٍ وقد جَدَّ عيْث فى بِلاها وإرداء

أما آنَ أنْ يُحْمَى حِماكِ كعهده ويجْتالَ أحماسٌ عليـه وأحماء[1]

أمَا آنَ أنْ يَعْشُو لنارك طارقٌ جَنيبٌ لَهُ رَفْعٌ إليكِ وَدِئْداء[2]

يُرجِّى نَوالا أو يُؤَمِّل دَعْوَةً فما زال قارٍ فى ذَرَاكِ وقُرَّاء

[٤٦٥]

أحِنُّ لها ما أطَّتِ النِّيبُ حولها وما عاقَها عَنْ مورد الماء أظماء

فما فاتَها مِنى نِزاعٍ عَلَى النَّوى ولا فاتنى منها على القُرْب إجشاء[3]

كذلكَ جَدِّى فى صِحابى وأُسْرتى ومَنْ لِى بِهِ مِنْ أهْل وُدِّىَ إرْقاء[4]

ولولا جِوارُ ابنِ الحكيمِ مُحمدٍ لَمَا فَاتَ نَفْسى مِنْ بنى الدهر إقماء[5]

حَمَانى فَلَمْ تَنْبُتْ تَحَلّى نوائبٌ بسوءٍ ولم تَرْزَأْ فُؤادِىَ أرْزَاء

وأكْفأَ بَيْتِى[6] فى كَفالَةِ جاهِهِ فصارُوا عَبِيدا لِى وهُمْ لِىَ أكْفَاء[7]

يَرُومُونَ[8] قَصْدِى طاعةً ومَحبّـةً فما عِفْتُهُ عافُوا ومَا شِئْتُهُ شاءوا

دَعانِى إلى المجدِ الذى كنت آمِلاً فلمْ يَكُ لِى عَنْ دَعوة المجد إبطاء

وبَوَّأنى من هَضْبة العِزِّ تَلْعَةً يُناجِى السُّها مِنْها صَعُودٌ وطَأْطاء[9]

(١) الأحماس : جمع حمس (ككتف) ، وهو الشجاع . والأحماء : جمع حم (حمى) ، وهم الأقارب والأصهار .

(٢) الرفع : المبالغة فى السير ؛ والدئداء : أشد العدو .

(٣) الإجشاء : مصدر أجشأ . يقال : جشأت نفسه من حزن أو فزع : ثارت وجاشت .

(٤) كذا فى ط . والإرقاء : الجنوح والدنو . وفى م ونفح الطيب المطبوع : «إن قاءوا» .

(٥) الإقماء : التصغير والإذلال .

(٦) أكفأ البيت : جعل له سترة من أعلاه إلى أسفله . يريد أن نعم ابن الحكيم شملت أهل بيته .

(٧) الضمير فى : « صاروا » يعود على بنى الدهر .

(٨) فى م : « يرومون » . (٩) الطأطاء : المنهبط من الأرض . والصعود : ضده .

يُشَيِّعُني مِنْها إذا سِرْتُ حافظٌ ويكلؤني مِنها إذا نمتُ كَلاءه
وَلا مِثْل نَوْمِي فى كَمالَة غَيْرِه وللذِّئب إلمامٌ وللصِّل إلماء
بِغَيْضة لَيْثٍ أو بِعِرْقِ خارِبٍ تُبَزُّ كُسًا فيه وتُقْطَع أكساء
إذا كانَ لي مِنْ نائبِ المُلْكِ كافلٌ فَفِي حَيْثُما هَوَّمْتُ كِنٌّ وَإِدْفاء
وإخوانُ صِدْقٍ مِنْ صَنائع جاهِهِ يُبَادِرُني منهم قيامٌ وإيلاء
سِراعٌ لما يُرْجَى مِنَ الخيرِ عندهُمْ ومن كل ما يُخْشَى من الشَّر أبْرَاء
إليكَ أبا عبدِ الإلهِ صَنَعْتُها لزُومِيَّةً فيها لِوَجْدِيَ إفشاء
مُبَرَّأةً مما يَعيبُ لُزُومَها إذا عاب إكفاء سِواها وإيطاء
أذعْتُ بها السرَّ الذى كانَ قبلها عَلَيْه لأحْناء الجوانح إضناء[1]
وإن لم يكن كلُّ الذى كنتُ آملا وأعْوزَ إكلاء فما عازَ إكْآء[2]
ومَنْ يتكلَّف مُفْحَمًا شُكْرَ مِنَّةٍ فما لي إلى ذاكَ التكلُّف إلجاء
إذا مُنْشِدٌ لمْ يَكُنْ عنكَ ومنشِئٌ فَلا كانَ إنشادٌ ولا كانَ إنْشاء

* * *

التعريف بابن الحكيم

وابن الحكيم المذكور : هو ذو الوزارتين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن ابن إبراهيم بن يحيى بن محمد بن سعد[3] بن محمد بن فَتُوح بن محمد بن أيوب بن محمد اللَّخْمى ، من أهل رُنْدة ، الكاتب الأديب البليغ ، الشهير الذكر بالأندلس ، [٤٦٦] ويُعْرَف بابن الحكيم .

(١) يريد بالإضناء : كتم السر : ولعله محرف عن : « الإضباء » . يقال : أضبأ على الشيء إضباء : سكت عليه وكتمه .
(٢) يقال : أكلأت الأرض : إذا كثر كلؤها ، وأكأت : إذا كثرت كمأتها . يريد : إذا لم أجد الكلأ أجزأتني الكمأة .
(٣) فى م : « سعيد » .

سلفه

أصل سلفه من إشبيلية ، من أعيانها ، ثم انتقلوا إلى رُنْدَة ؛ وأول من انتقل منهم إليها جده محمد بن فَتُوح ، فى دولة بنى عبّاد ، ويحيى جد والده هو المعروف بالحكيم لطبّه ، وكانوا قديما يُعرفون ببنى فَتُوح .

قدومه إلى غرناطة

قدم ذو الوزارتين أبو عبد الله على حضرة غَرناطة أيام السلطان أبى عبد الله محمد بن محمد بن نصر ، إثر قُفوله من الحج ، فألحقه بكُتّابه ، وأقام[1] يكتب له فى ديوان الإنشاء ، إلى أن تُوُفِّى هذا السلطان فى ثامن شعبان سنة إحدى وسبع مئة ، وتقلَّد المُلْكَ بعده ولىُّ عهده أميرُ المسلمين ، أبو عبد الله محمدٌ المخلوع ، فقلده الوزارة والكتابة ، وكان مشتركا معه فى الوزارة الوزيرَ الجليل التقىّ ، أبا سُلطان عبد العزيز بن سلطان الدَّانىّ ، فلما تُوُفِّى الوزير أبو سلطان الدانىّ ، أفرده سلطانه بالوزارة ، ولقّبه بذى الوزارتين ، وصار صاحب أمره ونهيه ، إلى أن توفى بحضرة غرناطة قتيلا ، غُدوة يوم الفطر ، مُسْتَهَلَّ شوال سنة ثمان وسبع مئة ، وذلك لتاريخ خَلْع سلطانه ، وخلافة أخيه أمير المسلمين[2] أبى الجيوش مكانه ؛ ومولده ببلدة رُنْدة فى شهر ربيع الأول سنة ستين وست مئة .

شمائله

وكان رحمه الله علَما فى الفضيلة والسَّراوة ومكارم الأخلاق ، كريم النفس ، واسع الإيثار ، متين الحُرْمة ، عالىَ الهمة ، كاتبا بليغا ، أديبا شاعرا ، حَسَن الخط ، يكتب خطوطا على أنواع ، كليا جليل الانطباع[3] ، خطيبا فصيح القلم ، زاكىَ الشيم ، مُؤْثرا لأهل العلم والأدب ، بَرًّا بأهل الفضل والحَسَب ، نَفَقَت فى مدته للفضائل أسواق ، وأشرقت بإمداده للأفاضل آفاق .

رحلته مع ابن رشيد وشيوخهما

ورَحَل إلى المشرق ، وكانت إجازته البحرَمن المَرِيَّة ، فقضى فريضة الحجّ ،

---

(١) فى م : « وكان » . (٢) فى ط : « المؤمنين » .

(٣) فى م : « على الأنواع كلها جبل الانطباع » .

وأخذ عمن لقى هنالك من الشيوخ ، فمشيخته متوافرة(٢) . وكان رفيقه فى هذه الوجهة الخطيبُ أبو عبد الله بن رُشَيد ، فتعاوَنا على هـذا الغرض ، وقضَيا منه كل نَفْل ومفْتَرَض ، واشتركا فيمن أخذا عنه من الأعلام ، فى كل مقام . [٤٦٧]

وكانت له عناية بالرواية ، وولُوع بالأدب ، وصَبابة باقتناء الكتب ، جمع من أمَّهاتها العتيقة ، وأصولها الرائقة الأنيقة ، ما لم يجمعه فى تلك الأعصر أحد سواه ، ولا ظفرت به يداه .

تلاميذه

أخذ عنه الخطيب الصالح أبو إسحاق بن أبى العاصى التَّنُوخىّ ، والخطيب أبو عبـد الله بن رُشيد تَدَبَّجَ(١) معه ، وابنه الوزير الكاتب الأديب الفاضل أبو بكر محمد بن محمد بن الحكيم ، وغيرهم .

قصيدة ابن الجياب فى مدحه

ومدحه الكاتب العلّامة أبو الحسن بن الجَيَّاب ، ومن بديع ما مدحه به قصيدة رائية رائقة ، يُهنئه فيها بعيد الفطْر ، وهى قوله :

يا قادمًا عَمَّت الدُّنيا بشائرُهُ ... أهلاً بمَقـدَمكَ الميمون طائرُهُ

ومرحَبًا بك من عيدٍ تَحُفُّ به ... من السعادة أجنادٌ تظافره

قدمت فالخلق فى نُعْمَى وفى جَذَلٍ ... أبْدَى بك البشرَ باديه وحاضره

والأرض قد لبِسَت أثوابَ سُنْدُسِها ... والروضُ قد بَسَمت منه أزاهره

حاكَتْ يَدُ الغيث فى ساحاته حُلَلا ... لمّا سقاها درا كا منه با كره

فلاحَ فيهـا مِنَ الأنوارِ باهرها ... وفاح فيهـا من النُّوَّار عاطره

وقام فيها خَطيب الطَّيْر مرتجلا ... والزَّهْر قد رُصِّعَت منه منابره

مَوْشِيُّ ثَوْبٍ طواه الدَّهْرُ آونةً ... فها هو اليوم للأبصار ناشره

(١) كذا فى ط ونفح الطيب طبعة الأزهرية وفى م : « وافرة » .

(٢) معنى التدبيج : أن يروى كل واحد من القرينين عن صاحبه . وسيأتى شرح هذه الكلمة قريبا فى كلام المؤلف .

فالغُصْنُ من نَشْوة يَثْنِى مَعاطِفه والطيرُ مِنْ طَرَبٍ تشدو مَزَاهِرُه
وللكِمام انشقاق عن أزاهرها كما بَدَتْ لكَ مِن خِلٍّ ضمائرُه
لله يومُك ما أزكى فضائلَه قامتْ لدِينِ الهُدَى فيه شَعائرُه !
فكم سريرة فضل فيك قد خُبِئتْ وكم جمالٍ بدا للناس ظاهره
فافخَرْ بحقٍّ على الأيام قاطبةً فما لفضلك مِنْ نِدٍّ يُناظِره[1]
فأنتَ فى عصرنا كابن الحكيم إذا قِيسَتْ بفخر أُولى العَليا مَفاخره
يَلتاح منه بأُفْقِ المُلْكِ نُورُ هُدًى تضاءلُ الشمسُ مهما لاح زاهره[2]
مَجْدٌ صميمٌ على عَرْشِ السِّماكِ سما طالت مَبانيه واستعلت مظاهره
وزارةُ الدين والعلمِ الذى رُفِعت أعلامُه والنَّدى الفَيَّاض زاخره
وليسَ هذا ببدعٍ مِن مَكارمه ساوَتْ أوائلَه فيه أواخره
يَلْقَى الأمورَ بصدرٍ منه مُنشرحٍ بحرٌ وآراؤه العظمى جواهره
رَاعَى أمور الرَّعايا مُعْمِلاً نَظَرا كمثل عَلْياهُ مَعْدومًا نظائره
والمُلْكُ سَيَّر فى تدبيره حِكَمًا[3] تنالُ ما عجزتْ عنهُ عساكره
سياسة الحلم لا بطشٌ يكدِّرها فهو المَهيبُ وما تُخْشى بوادره
لا يَصدُرُ المُلْكُ إلا عن إشارته فالرُّشْـــد لا تتعدَّاه مَصايره
تجرى الأمور على أقصى إرادته كأنما دهره فيها يشاوره
وكم مَقام له فى كلِّ مَكْرُمةٍ أنْسَتْ مواردَهُ فيها مَصادِره
فَفَضْلُها طَبَّق الآفاقَ أجمعها كأنه مَثَل قد ســـارَ سائره
فليس يجحده إلا أخو حسَدٍ يَرَى الصباحَ فَيَعْشَى منه ناظرُه

[٤٦٨]

(١) كذا فى م . وفى ط والنفح والإحاطة : « يظاهره » .
(٢) فى ط : « لما لاح ظاهره » :
(٣) كذا فى النفح والإحاطة . وفى الأصلين : « كلما » .

٧ مُلكَ أكبر من مُلك يُدَبِّرُهُ لا مَلْكَ أسعدُ من مَلْكٍ يؤازرُه
يا عِزَّ أمرٍ به اشتدَّتْ مَضاربُه يا حُسْن مُلْكٍ به ازدانت محاضره
تُثْنِى البلادُ وأهلوها بما عرفوا ويشهد الدهرُ آتيه وغابره
بُشْرَى لآمِله الموصــول مَأمَلُه تَعْسًا لحاسده المقطوع دابره
فالعلم قد أشرقت نورًا مطالعهُ والجودُ قد أسْبَلَتْ سَحًّا مواطره
والناس فى يُسْرٍ والمَلْكُ فى ظَفَرٍ عالٍ على كلٍّ عالى القدر قاهرُه
والأرضُ قد مُلئتْ أمْنًا جوانبها بيُمن من خَلَصت فيها سرائره
والَى أياديه مِنْ مَثْنَى ومَوْحَدَةٍ تُساجلُ البحر إن فاضت زواخره
فكلَّ يوم تَلَقَّانا عوارفه كساهُ أموالَه الطُّولَى دفاتره
فمن يؤدِّى لما أولاهُ من نِعَمٍ شكرًا ولو أنَّ سَحْبانًا يُظاهِرُه[1]
يأيُّها العيدُ بادرْ لَثْمَ راحتِــه فلثمُها خيرُ مأمول تُبادره
وافخرْ بأنْ قدْ لقيتَ ابنَ الحكيم على عَصْر[2] يباريكَ أو دَهر تفاخره
وَلّى الصيامُ وقد عظَّمتَ حُرْمتَه فأجرُه لكَ وافيــه ووافره
وأقبل العيدُ فاستَقْبِل به جَذَلا وأهنأ[3] به قادمًا عَمَّتْ بشائره

أبيات فى رثائه

ومن أحسن ما رُثِى به رحمه الله تعالى ، ثلاثة أبيات لبعض الأعلام من أهالى ذلك الزمان ، وهى :

[٤٦٩]

قتـلوكَ ظلمًا واعْتَـدَوْا فى فِعلهم حَـدَّ الوُجوبْ

(١) كذا فى الإحاطة ، وفى الأصلين : « يناظره » .
(٢) كذا فى النفح والإحاطة . وفى الأصلين : « عهد » .
(٣) كذا فى م ولإحاطة . وفى ط : وامنن ، وهو تحريف .

ورَمَوْكَ أشْـــــلاءَ وذا أمرٌ قضتْهُ لك الغيوب
إن لم يكن لك سيِّدى قبرٌ فقبرك فى القلوب

قال ابن خاتمة : ومن شعره ما أنشدنى ابنه الوزير أبو بكر ، مَقْدَمَه على المريّة ، غازيا مع الجيش المنصور ، قال أنشدنى أبى رحمه الله تعالى : شىء من شعره

ولما رأيتُ الشيب حلَّ بمفرقى نذيرا بتَرْحال الشباب المفارقِ
رجعتُ إلى نفسى فقلتُ لها انظرى إلى ما أرَى ، هذا ابتداء الحقائق

وأنشدنى شيخنا الخطيب أبو إسحاق بن أبى العاصى إذْنا ، قال أنشدنى الوزير أبو عبد الله بن الحكيم إن لم يكن سَماعا فإجازة :

فقدت حياتى بالفراق ومن غدا بحالِ نَوًى عمن يُحِبُّ فقدْ فقدْ
ومن أجل بُعْدى عن ديار أَلِفْتُها جحيم فؤادى قد تَلَظَّى وَقَدْ وَقَدْ

وقد سبقه إلى هذا المعنى القائلُ :

أُوارى أُوارى بالدموع تجلُّدًا وكم رُمْتُ إطفاء اللهيب وَقَدْ وَقَدْ
فلا تعذُلوا مَنْ غاب عنه حبيبُه فمن فقدَ المحبوبَ مِثْلِى فَقَدْ فَقَدْ

هكذا رواه ابن خاتمة ، ورواه غيره هكذا :

أُوارى أُوارى والدموع تُبينُه ومَنْ لِى بإطفاء الغرام وَقَدْ وَقَدْ

وهو الصواب .

قال ابن خاتمة : وأنشدنى رئيس الكتّاب الصَّدْرُ البليغ الفاضل ، أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان النَّجَّارى ، قال : أنشدنى رئيس الكتّاب الجليل ، أبو محمد عبد المهيمن بن محمد الحضرمى ، قال : أنشدنى رئيس الكتّاب ذو الوزارتين ، أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم ، رحمه الله تعالى :

سَحِّ الـكتابَ وعَنِّـهِ واختِم على مُـكْتَنَهِ[1]
واحذَر عليـه من مُخا اسـةِ الرقيب بجفنـه
واجعل لسـانَكَ سجْنه كى لا تُرَى فى سِـجنه [٤٧٠]

قال ابن خاتمة : وفى سند هذه القطعة نوع غريب من التسلسل . انتهى .

ومن بديع نظم ذى الوزارتين ابن الحـكيم قولُه رحمه الله :

يا ليتَ شِعْرى هل تطول حياتى حتى أرى هـذا الزمان الآتى؟
يا رَبِّ إن قدَّرْتَ لى ببـلوغه فاجعـلهُ عصرا بالسرور مُواتى
وإن انقضَتْ أيامُ عمرىَ قَبْـلَه فاجعـل على ما ترتضيه مَمَـاتى
لا شىءَ للدنيـا وللأخرى معـا أرجو إذا ضـاقت علىَّ جهاتى
إلا يَقِينِىَ أنّ جودَكَ فوقَ ما يُرجَى وأنكَ غافِر الزّلاّت

ومن نثره ومن نثره آخرَ فصـل خاطب به الشيخ أبا على عمر الجراوى ، رحمه الله ، قوله :

وهأنا أُجْرِى معه على حُسْنِ مُعتقَده ، وأَكِلُه فى هذا الغرض إلى ما رآه بمقتضَى تودده[2] ، وأجيزُ له ولولديه ، أقرّ اللهُ بهما عينه ، وجمع بينهما و بينه ، روايةَ جميع ما حملته ونقلْتُه ، وحُسْن اطلاعه يُفَصِّل من ذلك ما أجملتُه ، فقدأطلقت لهم الإذن فى جميعه ، وأبحت لهم الحَمل عنى ولهم الاختيارُ فى تنويعه ، والله عز وجلّ يُخلّص أعمالَنا لذاته ، ويجعلها فى ابتغاء مَرْضاته .

قال هذا وكتبه محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى بن محمد اللَّخْمى بن

(١) سحى الـكتاب : شده بسحاية ، وهى قطعة من الورق تلف حول الرسالة ويختم عليها ، وعنى الـكتاب : كتب عنوانه .
(٢) كذا فى ط والإحاطة ونفح الطيب ، وفى م : « تردده » .

الحكيم ، عفا الله عنه ، حامدا لله عز وجلّ ، ومصلّيا على رسوله المصطفى ، ومسلما عليه وعلى آله ، فى منتصف جُمادَى الآخرة ، عام ثلاث وسبع مئة .

بديهته

وحَكَى غيرُ واحد أن ذا الوزارتين ابن الحكيم المذكور لما اجتمع مع الفقيه الجليل الكاتب ابن أبى مَدْين أنشده ابن أبى مدين ، رحمه الله تعالى :

عَشِقتكمْ بالسمع قبل لقاكمُ ... وسمعُ الفتى يَهْوَى لَعَمْرِى كطَرْفِهِ
وحَبّبنى ذكر الجليس إليكمُ ... فلما التقينا كنتمُ فوق وصفه

[٤٧١]

فأنشده ذو الوزارتين :

ما زلت أسمع عن عَلْيائك كل سَنًى ... أبهى من الشمس أو أحْلى من القمر
حتى رأى بصرى فوق الذى سَمِعَتْ ... أذْنى فَوَفَّق بين السَّمْع والبَصر

وتذكّرت هنا قول الحاجّ الكاتب أبى إسحاق الحسْنَاوىّ رحمه الله تعالى :

سِحْرُ البَيَان بمانى صار يَعْقِده ... والنَّفْثُ فى عَقْدِه من مَنْطِقى الحسنِ
لا أُنْشِد المرء يَلْقَانى ويُبْصِرُنى : ... أنا المُعَيْدِىُّ فاسمع بى ولا تَرَنى

وكان الوزير ابن الحكيم المذكور كما أسلفناه رفيق ابن رُشَيْد الفِهرىّ فى رحلته الحجازية ، وقد اشتملت رحلة ابن رُشَيد على ما رأى ورَوَى .

التعريف بابن رشيد

وهو محمد بن عُمَر بن محمد بن عمر بن محمد بن إدريس بن عبدالله بن سعيد[1] ابن مسعود بن حسن[2] بن محمد الفهرىّ ، من أهل سَبْتة ، يُكْنى أبا عبد الله ، و يعرف بابن رُشَيد ، — وكأنه تصغير رُشْد — الخطيب المحدِّث الشهير .

رحلته وما أفاد منها

رَحَل إلى المشرق لأداء فريضة الحج ، ولقاء أهل العلم ، سنة ثلاث وثمانين

(١) كذا فى بغية الوعاة للسيوطى ، وجذوة الاقتباس لابن القاضى . وفى الأصلين : « سعد » .
(٢) كذا فى الأصلين والبدر الطالع للشوكانى . وفى جذوة الاقتباس : « حسين » .

وستّ مئة ، وكانت إجازته البحر من المَريّة ، فتلاقى بها هو وذو الوزارتين أبو عبد الله بن الحكيم المذكور ، وكان قصدهما واحدا ، وسَعيهما متعاضدا ؛ فترافقا فى السفر ، كما ترافقا فى الوَطَر . فدخل إفريقية ومصر والشام والحجاز ، وأخذ عمن لقى من الأئمة الأعلام ، وأكثر من[1] هذا الشان ، وأجاد فيه الضبط[2] والاتقان ، وتوسّع فى الرواية ، وذهب فى ذلك إلى أبعد غاية . وكان له تحقّق بعلوم الحديث ورجاله ، وبضبط أسانيده ، ومعرفة انقطاعه واتّصاله ، إمامًا فى هذا الشأن ، مُشارا إليه فى هذا الفنّ ، معتَمَدا عليه ، مع كمال الثقة[3] ، وشُهرة العدالة .

شمائله [٤٧٢] قال القاضى أبو البركات ابن الحاجّ فى حقه : ابن رُشَيْد ثقة عدل ، من أهل هـذا الشأن المتحققين به ، وكان أيضا من أهل المعرفة بعلم القراءات ، وصناعة العربية ، وعلم البيان ، والآداب ، والعروض والقوافى ، مشاركا فى غير ذلك من الفنون ، من خُدَّام الكتاب والسنّة ، حسن العهْد ، كريم العِشرة ، برًّا بأصدقائه ، فاضلا فى جميع أنحائه ، أديبا خطيبا بليغا ، ذاكرا ، متأدبا[4] ، يَقْرِض الشعر على تكلف ، ويُجوّد النثر ويُبْصِرُ مواقعَ حسنه ، وأعظمُ عنايته بعلم الحديث : متنه وسنده ومعرفةِ رجاله ، ولذلك كان جُلّ أشغاله ، وفيه عُظْمُ احتفاله ، حتى حَصَل منه على غاية قَصْده ومنتهى آماله

شيوخه قرأ بسَبْتة بلده على الأستاذ أبى الحسن بن أبى الربيع القرآنَ[5] العزيز بالقراءات السبع ، بمضمّن كتاب التيسير ، وتفقه عليه فى العربيّة ، وقيّد عنه[6]

(١) كذا فى ط وجذوة الاقتباس . وفى م : « فى » .
(٢) كذا فى ط . وفى م : « الحفظ » .
(٣) كذا فى جذوة الاقتباس . وفى الأصلين : « الهيئة » .
(٤) هذه العبارة : « أديبا ...... متأدبا » زائدة فى م .
(٥) فى م : « القرآن العظيم العزيز » .
(٦) كذا فى جذوة الاقتباس . وفى م : « منه » . وفى ط : عليه .

تقييدا حسنا على كتاب سيبويه ، وأخذ عنه غير ذلك . وقرأ أيضا الكتاب العزيز على الأستاذ أبي الحسن على بن محمد الكُتَاميّ ابن الخَضّار ، بالمقارئ السبعة، وأخذ بالمَريّة ، في اجتيازه عليها ، عن الخطيب أبي عبد الله محمد بن محمد بن الصائغ ، والوزير الأديب أبي جعفر أحمد بن محمد ابن سلبطور ، قيّد عنه [من] [1] شعره . ورحل فأخذ ببِجَاية عن الحافظ[2] أبي محمد عبد العزيز بن عمر القيسى ابن كحيلا نزيلها . وبتونس عن قاضي الجماعة بها ، أبي القاسم بن أبي بكر بن زيتون . وأخذ بإسكندرية عن العَدْل المبرِّز ، سراج الدين أبي بكر بن أحمد بن إسماعيل ابن فارس التميمى ، والعدل الصالح أبي عبد الله محمد بن عبد الخالق بن طَرْخانَ القُرشي . وبالقاهرة عن الحافظ أبي محمد عبد العظيم بن عبد القوى المُنْذِريّ ، والأديب الصوفيّ شهاب الدين أبي عبد الله محمد بن عبد المنعم بن محمد بن يوسف ابن أحمد الأنصاريّ ، ابن الخَيْميّ ، نزيل إيوان الحسين رضى الله عنه من القاهرة . وبدمشق عن شيخ الشيوخ عزّ الدين أبي العزّ عبد الله بن عبد المنعم ابن على الحرّاني[3] ، وبقية المسندين فخر الدين أبي الحسن على بن أحمد بن عبد الواحد المقدسيّ ، والمسند أبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الملك المقدسيّ . [٤٧٣]

وبالحرم الشريف عن المحدّث الأديب مقيم الحرم الشريف أبي إسحاق عبد الصّمد بن عبد الوهاب بن عساكر الدمشقيّ ، وبقية المحدِّثين مُقيم الحرمين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن خليل بن إبراهيمَ المكيّ . وبالمدينة المشرفة المنورة عن الشيخ الإمام النحويّ عَفيف الدين أبي محمد عبد السلام بن محمد

---

(١) زيادة عن جذوة الاقتباس .

(٢) كذا في الأصلين ؛ وفي جذوة الاقتباس : « الخطيب » .

(٣) كذا في الأصلين وجذوة الاقتباس . وفي نفح الطيب والإحاطة : « أبي العز عبد العزيز ابن عبد المنعم الحراني » .

ابن مزروع البصرىّ وغيرهم . وفى أشياخه كثرة ، وقد أودعهم رحلته الحافلة التى سمّاها : « مَلْء العَيْبة ، فيا جُمع بطول الغَيْبة ، فى الوجهتين الكريمتين إلى مكة وطَيْبة » . وهى أربعة أسفار ، وقفْتُ عليها بتلمسان ، وقد جمع فيها من الفوائد الحديثيّة ، والفرائد الأدبية ، كلّ غريبة وعجيبة .

تآليفه

ومن تآليفه « ترجمان التراجم » ، فى إبداء وجه مناسبات تراجم صحيح البخارى لما تحتها ، مما ترْجَمتْ عليه . ومنها « السَّنَن الأبيَن ، فى السَّنَد المعْنْعَن » ، و « المقدمة المعرِّفة ، لعلو المسافة والصفة » ، و « المحاكمة بين البخارى ومسلم » ، و « إحكام التأسيس فى أحكام التجنيس » ، و « الإضاءات والإنارات » فى البديع ، المسماة : « بإيراد المرتع المَربع ، لرائد التسجيع والترصيع » ، و « وصل القوادم بالخوافى » ، شرح فيه كتاب القوافى لشيخه أبى الحسن حازم القَرطاجَنّى . وجزء مختصر فى العَروض ، وتقييد على كتاب سيبويه .

مذهبه

[٤٧٤] وذكر بعضهم أن الإمام ابن رُشيد كان ظاهريَّ المذهب ، والمعروف أنه كان مالكيا ، والله أعلم .

شرحه للبخارى

وكان يعتمد فى شرح كلام البخارى على « المُحبَّر الفصيح ، فى شرح البخارى الصحيح » لأبى عمرو[١] الصَّفاقُسِىّ ، المعروف بابن التّين ، لأجل حضور البَرْبر فى مجلسه ، ومعتَمَدُهم المدوّنة ، وأبو عمرو فى هذا الكتاب ينقل المدوّنة وكلام شرّاحها عليها .

اجتهاده فى فهم الحديث

وتكلم يوما بعد فراغه من إسماع الشمائل ، وكانت بالمغرب فتنة ، على قوله عليه الصلاة والسلام : « بحَسْب أصحابى القتل » ، فقال : معنى الحديث أنه منجيهم[٢] من عذاب الله تعالى ، كما قالوا : بحسبك زيد ؛ ثم قال : على أنه

(١) كذا فى م هنا وفيا سيأتى . وفى ط : « عمر » . (٢) فى م : « ملجؤهم » .

رُوى أن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر فتنة ، فعظّم أمرها ؛ فقالوا : يارسول الله ، لئن أدركنا هذا الزمان لَتَهْلِكَنَّ[1] ؛ فقال : كلا ، إن بحَسْبكم القَتْل .

ويدل على صحة هذا التأويل ما خرجه أبو داود ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أمتى [هذه][2] أمة مرحومة ، ليس عليها عذاب فى الآخرة ، عذابها فى الدنيا الفتنُ والزلازلُ والقتل » . وترجم عليه أبو داود : « باب مايُرجى فى القتل » ، ثم أدخل الحديث تحت الترجمة .

يرى أن الحديث مرويّ بالمعنى

وقال تلميذه أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى : إنه تكلم يوماً على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كذب علىّ متعمدًا فليتبوَّأْ مَقْعَدَهُ من النار » . فقال : رواه عن النبى صلى الله عليه وسلم نحو مئة نفس من الصحابة ، فيهم العشرة المشهود لهم بالجنة ، ولا يُعْرَف حديث مثله ، وإن كانت ألفاظه تختلف ، لكن هو متواتر المعنى .

وفى رسمه من حرف الميم من إحاطة ابن الخطيب ما نَصُّه :

قدرته على البيان والارتجال

حدثنى بعض شيوخنا قال : قَعَدَ يوما على المنبر ، فظن أن المؤذّن الثالث [٤٧٥] قد فرغ ، فقام يخطب والمؤذن قد رفع صوته بأذانه ، فاستَفْظَع[3] ذلك بعضُ الحاضرين ، وهمّ آخرُ بإشعاره وتنبيهه ، وكله آخر ، فلم يَثْنه ذلك عما شرع فيه ، وقال بديهة : أيُّها الناس ، رحمكم الله ، إن الواجب لايُبْطِله المندوب ، وإن الأذان الذى بعد الأوّل غير مشروع الوجوب ، فتأهَّبوا [لطلب العلم][4]

---

(١) كذا فى الأصلين . والذى فى سنن أبى داود ، فى كتاب الفتن : « لئن أدركتنا هذه لتهلكنا » .

(٢) زيادة عن سنن أبى داود ، آخر كتاب الفتن .

(٣) فى م ومختصر الإحاطة المخطوط والمحفوظ بدار الكتب المصرية برقم (٥٠١٨ تاريخ) : « فاستعظم » .

(٤) زيادة عن مختصر الإحاطة ، وجذوة الاقتباس .

وتنهوا[1] ، وتذكروا قوله تعالى : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) ، فقد روينا عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قال لأخيه والإمام يخطب أنصت فقد لغَا ، ومن لغَا فلا جُمُعَة له »[2] . جعلنا اللهُ وإياكم ممن علِم فعمِل ، وعمِل فقُبِل ، وأخلَص فتخلَّص .

تعليق للمؤلف على موقف ابن رشيد

فكان ذلك مما اسْتُدِلَّ به على قوّة جَنانه ، وانقياد لسانه لبيانه . انتهى .

وتذكرت بهذه القضية من قام مِن اثنتين ولم يتذكر حتى استقلّ ، ومن نسى المضمضة والاستنشاق حتى شرع فى غسل الوجه ، وراجعْ شرح ابن ناجى على المدوّنة ، فإنه ذكر أن بعض شيوخه لم يَرْجِع من الخطبة كما[3] فعل ابن رُشَيد ، وبعض الأشياخ رَجَع لمَّا سمع المُؤَذِّن ، وفِعْلُ الأوّل أصوب . والله أعلم .

شهادة ابن رشيد لبعض العلماء

وكان رحمه الله تعالى (أعنى ابن رُشَيْد) يقول : ليس بالمغرب عالم إلا ابن البنّا بمراكش ، وابن الشّاطّ بسَبتة ، والقاضى أبا عبد الله محمد بن محمد اللَّخْمى القُرْطبى . ومن المشارقة خلق كثير، كابن دقيق العيد ، والشريف أبى الحسين العراقى ، وأخيه أبى إسحاق ، وجماعة .

تقريظ لبعض تآليفه

وفى تأليف ابن رُشيد فى التجنيس يقول صاحبُه الفقيه الأديب البارع الفاضل أبو بكر محمد بن محمد القالونسى[4] من نظمه حين طالعه بغرناطة :

---

(١) فى م : « وانتهوا » .

(٢) انفط حديث أبى هريرة فى الموطأ وفى السنن إلا سنن ابن ماجه : « إذا قلت لصاحبك أنصت والإمام يخطب يوم الجمعة ، فقد لغوت » . وفى حديث آخر عن على : « من دنا من الإمام فلغا ولم يستمع ولم ينصت كان عليه كفل من الوزر . ومن قال : صه فقد لغا ، ومن لغا فلا جمعة له » . وظاهر من هذا أن ابن رشيد قد لفق روايته من حديثى أبى هريرة وعلى .

(٣) فى ط : « حتى » .

(٤) كذا فى ط وفى م : « أبو بكر محمد القالوسى» .

[٤٧٦] أبْدَعَ فى التجنيس إنشاءا فليَحْوِ فضل السَّبقِ إنْ شاءا
إذْ كلٌّ من ألّف مِنْ قَبلِه ما جاء فيه بالذى جاءا

شىء من أشعاره

ومن شعر ابن رُشيد رحمه الله تعالى (ولنا فيه أسانيد) قوله :

صيامُ عاشـورا أتى نَدْبُهُ فى سُنَّة محكمة قاضيهْ
قال الرسول المصطفى إنه تكفير ذنب السَّنَة الماضيهْ
ومَنْ يوسّع يَوْمَه لم يَزَلْ فى عامه فى عيشة راضيهْ

ومن ذلك قوله :

تغرّب ولا تَحْفِل بفُرقة معشر(١) تفز بالمنى فى كل ماشئت مِنْ حاجِ
فلولا اغتراب المسك ما حلّ مَفرِقاً ولولا اغتراب الدُّر لم يَحْظَ بالتاج

وقوله رحمه الله تعالى فى البحر وقد انبسط عليه ضوء القمر فى ليلة البدر :

أُنظر إلى البدر قد مُدَّتْ أشعّتُه على خُضَارَة(٢) حتى ابيضّ أزرقُهُ
والريح قد صنعت دِرْعا مَسامرُها حَبابُ ماء يروق العينَ رَوْنَقُهُ

وذكر رحمه الله عن أبى الخير الفضل بن على بن نصر بن عبد الله بن رَواحة الأنصارى الخزرجى أنه أملى عليه بمدينة بُلْبَيْس بمصر حرسها الله تعالى :

وأرجو إن عَجَزْتُ عن الأمانى أمانًا مِن ذِمامك يا إلٰهى
فـلى ظنٌّ أحقّقُـــه يقينًا برحمتـــك التى كلُّ المُنَى هِى
وأسأل منـك عونًا لى على ما أمرتَ به ، وتركى للمناهى

(١) فى جذوة الاقتباس : « موطن » .
(٢) خضارة : من أسماء البحر .

إشارته إلى بعض الوضاعين فى الحديث

وقال رحمه الله : من مَحَمد إلى أحاديث خِراش[١] ودِينار[٢] وأبى هُدْبة[٣] وشِبهِهم ، الذين يسميهم أهل الرواية والنقل طيور أنَس ، فمثل هؤلاء لا يُعرَّج عليهم ، ولا يُفرح بعلوهم[٤] ، وروايتهم شِبْهُ الريح ، وإنما يُكتب حديثهم للتعريف به . وقد جمع الحافظ أبو الطاهر الأصبهانى جماعة منهم فى بيتين ، فأحسَن ، أحسن الله إليه . أنشدنى المكتسِب الخير ، المقيِّد ، أبو عبد الله محمد ابن أبى العباس أحمد بن حَيّان الشاطبىّ ، صاحبُنا بتونس ، قال أنشدنا الشيخ [٤٧٧] الخطيب أبو محمد بن بركات رحمه الله ، قال : قرأت على الحافظ أبى عَمرَ بن عات ، قال : سمعت فيما قُرِئ على السِّلَفى رحمه الله تعالى من نظمه :

حديثُ ابنِ نَسْطُور[٥] وقيسٍ ويَغْنَمٍ[٦] ... وبعدَ أشجّ الغرب[٧] ثم خِراشِ
ونسخةُ دينار ونســـخة تِرْبِهِ ... أبى هُدْبة القيسى شِـبه فَراش

قال لى أبو عبد الله : قال لنا أبو محمد ، قال لنا أبو عُمر : كان الحافظ السِّلَفى رحمه الله إذا فرغ من إنشاده لهما ينفخ فى يديه . فمِثْل هؤلاء لا يُلتفت إليه ، ولو بلغ أقصى الممكن فى القُرب . انتهى .

(١) خراش بن عبد الله الذى يروى عن أنس رضى الله عنه : كذاب لا يجوز كتابة حديثه . وحفيده خراش بن محمد بن خراش : متروك أيضا (انظر تاج العروس) .
(٢) دينار بن عبد الله مولى أنس بن مالك : منكر الحديث ضعيف ذاهب شبه المجهول . وهو حبشى . (راجع تاريخ الخطيب ص ٣٨٢ ج ٨) .
(٣) أبو هدبة : هو إبراهيم بن هدبة أبو هدبة الفارسى ، كان بالبصرة ، ثم خرج إلى أصبهان والرى ، ووافى بغداد ، وحدث بها عن أنس بن مالك بالأباطيل .
(٤) كذا فى ط . وفى م : « بعلومهم » .
(٥) ابن نسطور : هو جعفر بن نسطور الرومى
(٦) كذا فى المشتبه فى أسماء الرجال وتاج العروس . وهو يغنم بن سالم بن قنبر ، قال ابن حبان : يضع الحديث على أنس . وجده قنبر مولى على رضى الله عنه . وفى الأصلين : « يعم » . وفى نفح الطيب « يغنم » .
(٧) الأشج المغربى : كذاب طرقى ، كان بعد الثلاث مئة ، وادعى السماع عن على بن أبى طالب ؛ واسمه عثمان بن خطاب أبو عمرو ، وبعضهم سماه أبا الحسن علىّ بن عثمان البلوىّ . (انظر لسان الميزان لابن حجر) .

إجازته لبنت عبد المهيمن ووفاته

ووُجِد بخط القاضى البَرْنَاسَىّ[1] ما نصه :

الحمد لله . وقفت على إجازة أبى عبد الله بن رُشيد لستّ العرب بنت عبد المهيمن الحضرمى ، مؤرخة بغرة محرم عام إحدى وعشرين ، الذى توفى فيه ، وقال أحسن الله افتتاحه واختتامه : ومن لم يكن يعرفنى فإنى :

أنا المذنب الخطّاء والعفو واسع ولو لم يكن ذنب لما عُرِف العفوُ

انتهى .

حاله بعد عوده من المشرق

ولما قَفَل الشيخ ابن رُشيد من المشرق عاد إلى بلده سَبْتة ، فلم يساعده فيها المقدور ، ولم يُعرَف له بها مقدار ، فكتب إليه رفيقه الوزير ابن الحكيم يستدعيه إلى حضرة غَرناطة ، ويَعِدُه بنيل كل أمنيَّه ، رعيا لما سلف له معه من الصداقة المَرْعيَّه ، فأعمل الرحلة إليه ، حتى قدم الحضرة الغرناطية عليه ، فأنماه من عناية السلطان تحت جاه واسع ، فأهله[2] من مواليه وقرّب إليه من أمانيه كل شاسع ، وأكرم مَثْواه ، وحمد لديه مَغَبّة سُراه ، وتقدم حينئذ للصلاة والخطبة بالجامع الأعظم بغرناطة ، وخُوّل كلّ كرامة ومَبَرّة . ثم لما توفى الأستاذ أبو جعفر بن الزُّبير عن قضاء المناكح خَلَفه عليها ، فاتصلت له الأَثَرة بالأَثَرة ، ولم يزل مقيما بحضرة غرناطة ، منتصبا للإقراء ، ومركزا لدائرة القُرّاء ، إلى [٤٧٨] أن قتِل[3] الوزير أبو عبد الله بن الحكيم ، فرحل من غَرناطة ، ولحق بحضرة فاس ، فحَلّ بها تحت عنايه ، وفى كنَف رعايه ، وجعل له الأمرُ السلطانىّ الاختيار حيث اختار ، أو الاستقرار[4] ، فاختار التحول إلى مَرّاكُش ، إذ كان قبلُ قد سكنها ، واستحسنها ، فورد عليها ورود الإمامه ، ونزل بها نزول البرّ والكرامه ، وقدّم للصلاة والخطبة بجامعها العتيق ، وأقام بها سنين يبث بها

(١) فى الأصلين : «البرناسى» ، وهو تحريف . (٢) كذا فى ط . وفى م : «فأحله» .
(٣) فى م : «اغتيل» . (٤) كذا فى م . وفى ط : «حيث اختار الاستقرار» .

العلم ، ليس له شغل غير التدريس والتحقيق . ثم إن المَقام السلطانىّ استدعاه منها بعد مدة إلى حضرة فاس ، فانتقل إليها انتقال الإيثار والإيناس ، فلحق بحاضرة السلطان ، وأتحف من الوجاهة والنباهة[١] برداء سابغ الأردان ، وصار فى عداد خواصِّه وآل مجلسه من الخلَصاء[٢] ، إلى أن تُوُفِّى رحمه الله بفاس ، فى الثالث والعشرين من شهر المحرم ، سنة إحدى وعشرين وسبع مئة ، وقيل ليلة الاثنين الرابع والعشرين من شهر المحرم . وأما قول من قال إنه توفى ثامن المحرم فغلط . ودُفِن خارج باب الفتوح ، بالروضة المباركة ، المعروفة بمَطْرح الجنة[٣] ، حيث تُدْفَن العلماء والصلحاء ، الواردون على فاسَ من الغُرباء .

ومولده بسَبْتة فى شهر رمضان سنة سبع وقيل تسع وخمسين وست مئة .

وروى عنه الجمّ الغفير ، كأبى البركات بن الحاجّ ، والأستاذ الخطيب أبى عبد الله بن أبى العاصى التّنُوخى ، وآخرين رحم الله جميعهم ، ونفعنا بهم .

وقد قدمنا أن ابن الحكيم تدبَّج معه ، ومعنى التدبيج : أن يَرْوِى كل واحد من القرينين[٤] عن صاحبه .

كتاب الإشادة للعزفى

[٤٧٩] وكان ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الحكيم المقدم الذكر مَحَطَّ رحال الأفاضل ، وكم للناس فيه من أمداح وتآليف ، وله ألّف الشيخ الفقيه المحدث الحافظ ، أبو القاسم عبد الرحمن بن أبى طالب عبد الله العَزَفىّ ، كتاب « الإشادة ، بذكر المشتهرين من المتأخرين بالإفادة »[٥] . وكان أبو القاسم هذا سمع من

---

(١) فى ط : « من الوجاهة والندامة والنباهة » . (٢) فى ط : « الحضار » .

(٣) قال الكتانى فى سلوة الأنفاس ، نقلا عن نشر المثانى : إنها تسمى : (مطرح الحلة) ، باللام ، جمع جايل . ثم قال : ويقال فيه اليوم : الجنة بالنون ، وهو تفاؤل حسن .

(٤) فى الأصلين : « الفريقين » ، ولعلها محرفة عما أثبتناه ؛ قال فى شرح القاموس : « التدبيج : رواية الأقران ، كل واحد عن صاحبه » .

(٥) اسم هذا الكتاب فى م : « الإشادة بذكر المنهورين من المتأخرين بالإجادة » .

أبي جعفر بن الزُّبير ، وتُوفِّي رحمه الله يوم الأربعاء الثالث عشر من رجب الفرْد ، من عام سبعة عشر وسبع مئة ، قرب الزوال ، بالدرب الطويل من فاس المحروسة ، وتُوفِّي أخوه الشاعر الجليل أبو العباس أحمد بغَرناطة في ذي الحجة من عام ثمانية وسبع مئة[1] .

لأبي العباس العزفي في مدح ابن الحكيم

ومن إنشاداته في كتاب «الإشادة» ، من شعر أخيه أبي العباس المذكور ، رحمه الله تعالى :

مُلِّكْتَ[2] رقّي بالجمال فأجمِلِ ... وحَكَمْتَ في قلبي بجَوْرك فاعدلِ

أنت الأمير على الملاح ومن يَجُرْ ... في حكمه إلا جُفونكَ يُعْزَلِ

إن قيل أنت البدرُ فالفضل الذي ... لك بالكمال ونقصُه لم يُجْهَلِ

لولا الحظوظُ لكنت أنت مكانَه ... ولكان دونك في الحضيض الأسْفَلِ

عيناك نازَلَتَا القلوبَ فكلها ... إما جريح أو مُصاب المَقْتَلِ

هَزَّت ظُبَاها بعد كسر جفونها ... فأصيب قلبي في الرعيل[3] الأول

ما زلت أَعْذَل في هواك ولم يزل ... سمعي عن العُذَّال فيك بمعزل

أصبحتُ في شغُل بحبك شاغلٍ ... عن أن أُصيخ إلى كلام العُذَّل

لم أُهْمِل الكتمانَ لكن أدمعي ... هَمَلت ولو لم تَعْصِني لم تَهْمُلِ

جمعَ الصحيحين الوفاء مع الهوى ... قلبي وأَمْلَى الدمعُ كشفَ المشكل

وهي طويلة ، مدح بها الوزيرَ ابن الحكيم المذكور ، وأجاد .

(١) كذا في ط وجذوة الاقتباس . وفي الإحاطة : « سنة سبع وسبع مئة » . وفي م : « ثمانية عشر وسبع مئة » .

(٢) كذا في م والإحاطة . وفي ط وجذوة الاقتباس : « حللت » .

(٣) كذا في الإحاطة وجذوة الاقتباس . و في م : « وأصيب قلبي للرعيل » . وفي ط : « وأصيب قلبي بالرعيل » .

ولهفىمدحهأيضا

وله من مطلع قصيدة فيه أيضا :

هـذا الصباح ففادنى بصَبوح وانهض براحك فهى راحة رُوحى
لا تـكترثْ لخطوب دهرك واسقنى كأسا تَحَسُّنُ منــــه كل قبيح
واسْرَحْ سَوامَ اللفظ بين حَدائق ماســـانم فى مثلها[1] بمريح
فُتِنَتْ بزهرة زَهْرها فتمايلت تختال فى الحِبَرات بعـــد مُسوح
شَقّت شقائقُها جيـــوبَ كمائم أسفا على زق يَخـــرُ جريح[2] [٤٨٠]
وعيون نرجسها تَلُوحُ[3] شواخصا لوميض برق فى الـكئوس مُليح
والورد تُخجله أنامـــلُ سَوسَنٍ تُومِى إليه بالســــلام وتُوحى
وأتى الربيع رُبوعهـــا[4] بسواجع عُجْمٍ تشُقّ فؤاد كل فصيح
سَجعت تُبَشّرها بعَوْد[5] شـــبابها فأصِخْ إلى شقّ بهـــا وسَطيح
مالى وللأطـــلال أسألُ صامتا منهـــا وأُعْول فى مَهامَهَ فِيح
فى الراح[6] والرَّيحان شُغْلٌ شاغل لى عن عِيافة بارح وسَنيح
وأهيم فى وَرْد الخـــدود وآسها لا فى عَرارِ بالفَـــلاة وشِيح
وأصون سمعى عن مقالة عاذل لتذلّلى والحبّ[7] غـــير مُشيح
كم عرّضوا لى بالملام وصرّحوا فعصَيتُ فى التعريض والتصريح

ومنها أيضا :

عجبًا لهم يَلْقَوْننى بملامهـــم فى حب من يَلْقَون بالتشبيح

(١) فى م : «مأسام فى تمثيلها بمريح» . ولعله محرف عما أثبتناه . ولم يرد من هـذا الشطر فى ط غير : «فى مثلنا بمديح» .
(٢) كذا فى م . وفى ط : «أسف على رق بحد جريح» .
(٣) كذا فى ط . وفى م : «تميل» .
(٤) فى ط : «ربيعها» . (٥) كذا فى ط . وفى م : «بعهد» .
(٦) كذا فى م . وفى ط : «فى الروح» . (٧) فى م : «فى الحب» .

إن صَوَّح الروضُ النَّضِير نخدّه أزهاره أَمِنتْ من التصويح
وتحار أعين مبصريه إذا بدا فى ثقل أرداف وخفة رُوح
قلبى بعـذلهمُ يزيد توقُّدا لا غَرْوَ فى نار تُشَبّ بريح
وهى طويلة[1] .

كلام للقاضى أبى حفص فى كتاب الإشادة

ومما أورده فى « الإشادة » لبعض الأعلام ، وأظنه قاضى الموحدين أبا حفص ابن عُمَر رحمه الله تعالى ، فى وصف الدنيا ، كلام بديع نصّه :

هذه الدنيا — حفظك الله — كما قد علمته ، فأعرض بحلمك عن جهلها ، وارغب بنفسك عن أهلها ، واذكر قبائح أنبائها ، واصْرِم وَصْلَ أبنائها ؛ لا تَرْتَع فى رَوْضِهِمْ ، ولا تـكْرَع فى حوضهم ، وقُلِ اللهُ ثم ذرهم فى خوضهم ، وإذا مررت باللاغين[2] بذكر محاسنها ، اللاهين بحسن ظاهرها عن قبح باطنها ، فالْهَ عن لهوهم ، ومُرَّ كريمًا بلَغْوهم ، مَرَّ المهتدى فى سيره ، وأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، فالسيادة والسعادة فى نبذها ، لا فى أخذها ، وفى [٤٨١] تركها ، لا فى دَرْكها ، وإليك عن وصلها إليك ، وعليك بهجرها عليك ، واتل قوله تعالى : « وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ » ، وقوله تعالى : « وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ » ، واحرص أن تكون منهم ؛ فزخْرُف الدنيا فى نظر العين زَيْن ، وفى نظر العقل شَيْن ؛ فغمِّض عينيك تبصر ، ولا تَمُدَّهما وأقْصِرْ ؛ جعلنا اللهُ ممن نظر بقلبه ، وأبصر بلُبّه ، فأولو الألباب والفِكْر ، المخصوصون بالذكْر ، والعلم أرفع المزايا ، وأوسع العطايا ، هو غاية المَنال والمُدْرك ، من ناله أىَّ شىء فاته ، ومن فاته أىَّ شىء أدرك ؟ ولا علم إلا علمُ الـكتاب والسُّنه ، هما أفضل العطايا والمِنَّه ، فمن

(١) إلى هنا ينتهى المجلد الثانى من النسخة التيمورية (رقم ٨٩٤ تاريخ) .
(٢) فى ط : « بالمولعين » .

علمهما ، ونظر فيهما ، وعمل بهما ، نال غاية السعادة ، وأدرك منتهى السيادة ؛ قال الله تعالى لنبيه الكريم : « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ » . هذه المزايا العاليه ، والعطايا الواسعة الباقيه ، لا ما نهت عنه الآية الثانيه[1] ، جعلنا الله ممن أبصر رشده ، وذكر مراده ، ووجّه إليه قصده ، ورأى فى أول أمره آخره ، وابتغى فيما آتاه الله الدار الآخره ، بمنّه وفضله . آمين .

[2]يا راكضاً فى طِلاب دُنيا ليس لمن تَصْرَع انتعاشُ
تَنَحَّ يا عُرضَــةً لرامٍ أَسْهُمُهُ بالرَّدَى تُراش
تَحُشُّ[3] نارًا هَوَى لظاها عن له حولَهـــا انحياش
أعْذَرُ منك الفَراشُ ألَّا عَلِمتَ ما يَجْهَل الفَراش
تطلُبها لا تَنَــامُ عَيْنٌ عنها ولا يستقرّ جاش
مَنْ لك بالرِّيِّ من شراب يَشْــتدُّ من شُربه العِطاش[4]
دَعْها فطُلَّابُهـــا رَعاع طاشت بألبابهم فطاشوا
واظمأْ لتَرْوَى وكُنْ كقومٍ ماتُوا بها عِفَّــةً فعاشوا
لم يَرِدُوها فهـــمْ رِواءٌ ووارِدوها هُمُ العِطاش
كأنَّ آمالَنــــــا ظِباءٌ ونحن من حَيْرةٍ خِرَاش[5]
لا نَأمَنَنَّ بهـــا انبساطا به لأعمــارنا انكماش[6]

(١) يريد قوله تعالى : « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ... الخ » .
(٢) من هنا إلى قوله : « جواد مالك والمنصور مخدوم » ص٣٦٢ ساقط من نسخة ط .
(٣) تحش : توقد . وفى م : « تخش » وظاهر أنه محرف عما أثبتناه .
(٤) يريد بالعطاش : العطش ، مصدر عطش .
(٥) فى الأصل : « خفاش » ، وظاهر أنه محرف عما أثبتناه . وهو يشير إلى البيت المشهور :
تكاثرت الظباء على خراش فما يدرى خراش ما يصيد
(٦) فى م : « لا يأمننا » ، وهو محرف عما أثبتناه .

كأنّ آجالنا صُـــقُورٌ ونحن من تحتها خَشاش

انتهى .

التعريف بالقاضى أبى حفص عمر السلمى

وأبو حفص بن عمرَ هذا ، هو القاضى الجليل أبو حفص عمرُ بن القاضى الجليل أبى محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمر السُّلَمِىّ . وذكر الحافظ ابن الأبّار أن أصله من جزيرة شُقْر[1] . قال : وولد بأغمات ، وسكن مدينة فاس .

شيوخه

رَوَى عن جده لأمه ، أبى محمد عبد الله بن على اللّخْمى ، أجاز له فى صغره ؛ وعن أبى مروان بن مَسَرَّة ، وأبى عبد الله بن الرمامة ، وأخذ عن أبى بكر بن طاهر كتاب سيبويه نفهما ؛ وكان من أهل المعرفة واليقين ، أديبا شاعرا ، مجيدا ، غلب عليه الأدب ، حتى عُرِف به وشهر ، مع جودة الخط ، وبراعة الأدوات .

ولايته القضاء

وولى قضاء تِلِمْسان ، ثم نقل إلى قضاء فاس بعد أبيه بزمن ، وولى قضاء إشبيلية وغيرها ، ونال دنيا عريضة .

مولده ووفاته

وحُـكِىَ عن أبى الربيع بن سالم أنه تُوُفّى بإشبيليةَ فَجْأة ، فى الخامس من ربيع الأول سنة ثلاث وستّ مئة . ومولده فى حدود الثلاثين وخمس مئة . وقد غَلِطَ ابن فرقد ، فذكر أنه ولد سنة خمس وثلاثين ، وروايته عن جده أبى محمد عبد الله بن علىّ المتوفى سنة ثلاث وثلاثين ، مع صحتها ، تَقْضِى ببطلان ذلك . قال ابن فرقد : وتوفى عام اثنين وست مئة بإشبيلية وهو يتولّى قضاءها ، بعد صرف محمد بن حوْط الله ؛ وكان أبو حفص قد صُرِف بأبى محمد ، بعد ذلك بعام أو أزيد .

من شعره فى مدح أبى يعقوب يوسف

ومن مشهور نظمه رحمه الله تعالى بمدح أمير المؤمنين أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن على [الموحدى][2] رحمهم الله تعالى :

---

(١) فى جذوة الاقتباس : « أشقورة » . (٢) زيادة عن جذوة الاقتباس .

اللهُ حسْبُكَ والسبعُ الحواميمُ تغزو بهـــا سبعةً وهى الأقاليمُ
سبْعُ المَثانى التى للهِ قمتَ بها عليك من نصرها نصّ وتقـديم[1]
وأنت بالسور السبع الطِّوال على كل الوَرَى حاكم بالله[2] محكوم
والدّهر سُبْعَته وســبعة جعلت جواد[3] مالك والمنصور مخدوم[4]
وسبعةُ الشُّهْب لم تَحْفِل بها ثقةً بوعــد ربِّكَ هَيهاتَ التناجيمُ
تسمو بنفس على السّبْع الشّداد سمتْ فينا وتمَّ لها زُلْفَى وتكريم
أنوار عدلك فى الآفاق داعيــة هل فى البسيطة ظَلَّام ومظلوم
أعلى بك الله أعلاما هدَيتَ بها فأنت فيهنّ إكمال وتتميم
عليك أهلُ الهدى والحقُّ متفق وحبل من فارق الإجماع مصروم

ومنها أيضا .

فؤاده بضياء العــــلم منشرح ووجهه بجمال النــــور موسوم
وكفُّهُ بَطْنُها بالخــــير منهمِر وظهرُها لعهود الله مَلثوم
العلم قيمته[5] والحـــــلم شيمته طابت أرومته والنفس والخِيم [٤٨٢]
لطالبى العـــلم ما شاءوا بخدمته غِنًى وعز وإرشـــــاد وتعليم
سُحب العلوم عليهم من سماحته[6] تَهْمِى فَفِى بحرها هُمْ شرعٌ هِيمُ
العَيْنُ من نَظَرٍ والأذن من خَبَرٍ لا تشبَعان وباغى العــلم منهوم
يُغْضِى أناةً وحلما عالما وله فى موضع الحق إقدامٌ وتصميم

(١) رواية هذا الشطر فى جذوة الاقتباس : « عليك من سرها معنى وتقديم » .
(٢) فى جذوة الاقتباس : « حاكم لله ... » .
(٣) كذا بالأصل . وفى جذوة الاقتباس « ... جمعت * وجود » .
(٤) إلى هنا ينتهى الجزء الساقط من نسخة ط . (٥) كذا بالأصلين .
(٦) كذا فى ط . وفى م : « سماوته » .

تشتد فيمن عصى أو خان وطأته	وفى الثّقاف لذات الزيغ تقويم
إرادةٌ فوق إدراكِ العقول لهـا(١)	فحسبها منـــه إيماء وتسليم
حتى إذا ما بدا منها النجاح بدت	كالشمس ما دونها فى الجو تغييم(٢)
انظر خواتمها تفهم مبـــادئها	بالشرح ما ليس بالمفهوم مفهوم
والحظْ سماء(٣) عُلاها عِبرةً وكفى	من يسترقْ سمعَها بالشهب مرجوم
إنّ(٤) الخليفةَ سِرُّ الله ظاهرةٌ	آياتُه وهو عنـــــد الله معلوم
فسلّموا واخلعوا الآراء واتبعوا	حكم الإمام فما فى الدين تحكيم
الشرق والغرب من عُرب ومن عَجَم	فى كفه عُودهم بالقبض(٥) معجوم
والبحر والبر من سهل ومن جَبَل	جميعُها بزمام الرأيِ مخطوم

ومنها أيضا .

وكل جَـدٍّ مُفادٍ من عَلائك مِنْ	نَسيمه نَفَسُ العلياء مشموم(٦)
المسلمين أمــــيرُ المؤمنين حِمًى	يُحِلُّه من صروف الدهر تحريم
الدهرُ فى أنفــــه من حكمه بُرَةٌ	بهـا الزمانُ على الأبرار مخزوم
العلمُ والدِّين والدنيـا وساكنها	فى سلك رأيك يا وُسْطاه منظوم
جزاء سعيك عنــــد الله مُدَّخَر	هـذا كتابك فى الأبرار مرقوم
عطفا على حُسْن أمداحى وإن عجزَتْ	إنّ الجمالَ على العِلّات مرحوم

---

(١) فى ط : « آراؤه فوت آراء العقول بها » .

(٢) فى ط : « تنشيم » وفى م : « تقسيم » ولعلهما محرفتان عما أثبتناه .

(٣) فى ط : « سماعا » .   (٤) كذا فى ط : وفى م : « إذ » .

(٥) فى ط : « بالعيس » .

(٦) كذا فى ط . ورواية هذا البيت فى م :

وكل مجد مفاد من علا ملك   من حبة نفس العلياء مسموم

ماعلّقوا لو رأوا هـذا قفا وألا هُبى ولو جاءهم حُجْر وكُلثوم[1]
إذًا لقـــال لراويه عُليقمةٌ : «هلْ ماعلمتَ ومااسْتُودعتَ مكتوم» ؟
يا سامعين أماديح الإمام ألا فاجثوا على الركب الإعظامَ أو قوموا
خذ كأسَ لفظى دِهاقا من مدائحه فيها الحقائق لا لَغْوٌ وتأثيم
ندعو له بَدَلًا من مدحــه اقصو ر المدح عنــه وفيه العُذْر معلوم
عَزّ[2] الإمامُ فلا تضرب به مثلا من ذا يُقاسُ به والمِثْلُ معـدوم [٤٨٣]
أعطى الورى فضل ما أعطاه خالقُه عليه من ربّه بُشرَى وتسليم
صِل بالصّلاة عليه صدق مِدْحته ذاك الرحيق بهـذا المسك مختوم

هو وأبو العباس الجراوى

وحُكى أنه لما قال :

«يا سامعين أماديح الإمام ألا فاجثوا . . . » البيت

قام جميع من فى المجلس وكان فيهم الشاعر المفلق أبو العباس الجَرَاوِىّ ، فاحتاج إلى مشايعتهم لذلك ، وثقل عليه لضخامته ، فحمل وهو يحاول القيام يسب القاضى أبا حفص عُمر ، و يشير إلى أنه انتصف منه .

وحُكى أيضا أنه لما أنشد القاضى أبو حفص هذه القصيدة ، قال فيه الجَرَاوىّ المذكور ، وكان شديد الحسد له والإذاية لِسنّه ، وكان له تقدم فى تلك الدولة :

نَبغَتْ عَمرة بنتُ ابن عُمَرْ هـــذه فلتعجبوا أُمَّ العِـبَرْ
قل لها عــــنّى إذا لاقيتَها قولةً تترك فى الصـــخر أثَرْ

---

(١) رواية هذا البيت فى ط :
« ما علقوا لو رأى هذا قفا ... ... ولو جاءهم حجر وكلثوم »
وفى م :
« ما علقوا لو رأوا ... هبى ... ... »
وقد أصلحناه على النحو الذى أثبتناه ، ولعله أقرب إلى ما يريد الشاعر .
(٢) كذا فى م . وفى ط : « عن » وهو تحريف .

هبكِ كالخنساء فى أشعارها	أو كليلى هــل تُجارين الذكر

فقال أبو حفص حينئذ :

نهانىَ حلمى فــــلا أظْلِمُ	وعَزَّ مكانى فـــــلا أُظْلَمُ
ولا بدّ من حاسد قلبه	بنور مآثرنا مظــــلِمُ
رحمتُ حسودى على أنه	يقاسى العـــذاب وما يَرْحم
بقانا الحسود ولسنا كما	يقول ولــكن كما يَعْـــلَمُ

الجراوى يهجو بنى غفجوم

وكان أبو العباس الجَرَاوى المذكور هجّاء حاضرَ البادرة ، سريع الجواب . ومن أغرب ما صدر عنه فى ذلك أنّه هجا قبيلة بنى غَفْجوم[1] ، استطرادا بهجو أهل فاسَ وقاضيهم ابن الملجوم ، الكبير البيت ، الشهير الأصالة ، فقال :

يابْن السبيل إذا نزلت بتادَلا[2]	لا تنزلنّ على بنى غَفْجُوم
أرض أغارَ بها العـــدوّ فلن ترى	إلا مجاوبةَ الصَّـــدَى للبوم
قومٌ طوَوْا ذكرَ السماحة بينهمْ	لـكنَّهمْ نَشروا لواء اللُّـــوم
لا يملكون إذا استُبيح حريمهم[3]	إلا الصـــــياحَ بدعوة المظلوم
لا حظّ فى أمــــوالهم ونوالهم	للسائل العــــافى ولا المحروم
يا ليتنى من غيرهم ولَوَ أننى	من أرض فاسٍ من بنى الملجوم

[٤٨٤]

من شعر القاضى أبى حفص يمدح أمير الموحدين

ومن نظم القاضى أبى حفص المذكور ، من مطلع قصيدة يمدح أبا يعقوب بن عبد المؤمن ، ويهنئه ببَيْعته الثانية :

ألا هكذا تُبْنَى العُــلا والمآثر	وتسمو إلى الأمر الـكبير الأكابرُ

(١) فى ط : « بنى مقحوم » هنا وفيا سيأتى . ولعله محرف عما أثبتناه .
(٢) كذا فى ط . يريد : تادلة (بفتح الدال واللام) وهى من جبال البربر بالمغرب قرب تلمسان وفاس . (انظر معجم البلدان لياقوت) . وفى م : « ... إذا مررت منازلا » .
(٣) فى ط : « ... إذا استباح خديعهم » .

نؤمّ لبيعات الرِّضا مطلعَ الهدَى وحيث الهدايا تعتلى والأوامر(١)

ولَه فى الغزل

ومن غزليّاته قوله :

هم نظروا لواحظَها فهاموا وتشربُ عقلَ شاربها المدامُ
يخاف الناس مُقْلتَها سِواها أيَذْعَر قلبَ حامله الحُسام
سما طرفى إليها وهْوَ باكٍ وتحت الشمس يَنْسكب الغمام
وأذكر قدَّها فأنوح شوقا على الأغصان تَنْتدبُ الحمام
وأعقبَ بَيْنُها فى الصدر غمًّا إذا اغتربتْ ذُكاء أتى الظلام

وقوله أيضا رحمه الله :

مها القفر لا دُميةُ المَرْمَرِ وفى العُرْب لا فى بنى الأصفرِ
بنفسى يعافيرُ تلك الخِيامِ ومَسرَحُها فى النقا الأعفرِ
ملاعب يصبو إليها الحكيم ويُسْلَب فيها فؤادُ الجَرِى
وفيها الظباء بنات الأُسود غَيارَى متى بَغِمت تَزْأر
يَخيسُ الهِزَبْرُ كِناسُ الغزال به الشِّبل باشٍ مع الجُؤْذَر
تخالسُها نَظَرا تحتهُ غرامٌ به الحىُّ لم يَشْعُر
وباللحظ يُقْدَح زَنْدُ الهوى فطرفٌ غَرٍ وفؤادٌ بَرِى

وكفّرها بقوله :

بقلبك يا غافلا فانظر وعَيْنَيْك غمِّضهما تُبْصِر
إذا أُرسل الطرفُ هام الفؤاد وبعض المرائى عَمَى المبصرِ
وآفة قلب الفتى عينُه فإن تَرْعَ قلبَك لا تنظر

ومن قوله :

[٤٨٠]

أغارَ على الصَّبِّ من أنّبَهْ هو الحبُّ مَنْ يُطْفِه ألهَبَهْ

(١) كذا ورد هذا الشطر فى الأصلين .

نأى القلبُ عنى وشوقى معى فلله أمرىَ ما أعجبَه !
يَحِنّ فؤادى إلى قاتلى كذاك الهوى عند من جرّبه
تَرِقّ شمائلُ من ذاقه وتَلْطُفُ شَمأَلُ مَنْ هذّبه
يَجود لمُسْخِطه بالرضا ويطلب راحةَ من أتعبه
إذا شفّ قلبى غرامُ الهوى دعا بالنعيم لمن عذّبه

لابن شكيل فى مدح القاضى أبى حفص

وكان القاضى أبو حفص هذا كريما مُمَدَّحا ، وممن أجاد فيه الشيخُ الأديب الفقيه أبو العباس أحمد بن أبى الحَكَم يعيش بن على بن شكيل الصَّدَفِىّ ، من أهل شَرِيش ، المتوفى سنة خمس وست مئة ، ومولده سنة ثمان وسبعين وخمس مئة ، وأمداحه فيه كثيرة ، قدّم قبلها كلاما نصُّه :

فيه استفرغتُ مَجْهُودى ، وإليه جلبت عُدَّتى وعديدى ، لأنه كان آدبَ أهل زمانه غير مُدَافَع ، وأولاهم بالفضل غيرَ منازَع ، لتحلّيه بالتواضع فى الجلاله ، والبشاشة فى الجزاله ؛ ووردتُ عليه غلاما ، أحسب زَنْدى سُخاما[1] وحَدّى كَهاما ، فتلقّى نَزْرى بالاستكثار ، ونسب بحرى إلى الاسْتِبحار[2] ، وأولى — نَضّر اللهُ وجهه — من البرّ لجانبى ، والاستطراف لمذاهبى ، والثناء علىّ فى أنديته الآهلة ، ومجالسه الحافلة ، ماشهدتُ له بالتبريز ، وخلص معه فكرى من تخوف النَّقَدَة الحسدة خلوص الإبريز ، فقدحت فيه زَنْد فكرى فورَى ، وفجّرت فيه يَنبوع شعرى فجَرَى ، وأطلت فيه إطالة المُفْتَنّ المغرب ، وجعلتُ أمداحَه نُقْلَة المشرق والمغرب ، ومع[3] ذلك لم أنهض إلى عزه أعزه الله حيا وهابطا إلى خُطّة القضاء ، فأنى مع[3] سن الشبيبة إلى رتبة مشيخة العلماء ، فراسة منه وتوسّما ، واستر واحا

[٤٨٦]

(١) كذا فى م . والسخام : الريش اللين تحت ريش الطير . وفى ط : « سجاما » .
(٢) كذا فى ط . وفى م . « ونسب عدى إلى الاسحار » . وهو تحريف .
(٣—٣) فى الأصلين تحريف ظاهر فى هذه العبارة ، ولم نوفق إلى تصويبه .

للنجابة وتوهما ، إلا أن البلد التى استعمل[1] فيها كانت خشنة المَبارك ، فكنت أتقلّى فيها على جمر الغَضَى ، وأخاطبه بما لو أُلقِى على الحجر لانفجر ، وكانت الأناة غالبة على طباعه ، وجائلةً على نظره وسماعه ، وكان مع ذلك مكدودا بالشفاعات ، ومضيّقا عليه فى الجهاد والطاعات ، فخلعت عن عاتق نجاد تلك الخُطّة ، ودار فَلَكُ أمْرِى على غير تلك النُّقْطة ، وهو — عفا الله عنه — يقابل تعوُّقِى[2] بالانبساط ، وفترتى بتجديد الإنشاط ، انبساطا للأمكنة والأزمنة ، فقطع عليه غرضَه تأخُّرُه عن الخُطّة ، فما قطعت عنه امتداحا ، ولا نسيت أيامه حنينًا وارتياحا . ثم أُعيد إلى الولاية ، فعدت إليه ، وقد أتى الهرم والسُّقْم عليه ، فعاقت منيّته عن بلوغ الآمال ، وسَلَبَتْنِيه عِلْقا نفيسا لَمّا تُخَلِّفْه الأيّامُ واللّيال[3] :

يامن لصبح الشيب كيف تنفَّسا	فى لِمَّتى فأجابه ليــــل الأَسَى
لا تَحْسَبَنّ سواد شَعْرِىَ نِعمة	لــكن كسته همومُ قلبى حِنْــدسا
إلا يكن شاب العِذار ولا انحنى	ظهرى فقد شاب الفؤاد وقوَّسا
إنى لأُغْضِى مُقْلَتى عن لائمى[4]	وأرى ابتسامِىَ من ضميرى عَبَّسا
ويلين قلبى للخليــــل مَوَدَّة	فإذا أحس هضيمة يوما قَسَــا
وأُجيل لحظى فى المُنَى شغفًا بها	وأُجِلُّ شوقى عن لَعَلّ وعن عسى
مالى أرى الهالاتِ عُدْنَ هَوادِجا	ولهذه الأضلاع صارت مَكْنِسا
طُوِيَتْ على بيض الدُّمَى فتكانستْ	فيهـا ظباءٌ يَرْتَعِينَ الأَنْفُسا
فهى الدَّرارِىّ فى الهواجر خُنَّسا	وهى الجوارى فى المَوادج كُنَّسا
يَطْرُقْنَ أمواهَ الفــلاة تعرُّبًا	ويَرِدْن نِيرانَ الضلوع تَمَجُّسا

(١) فى العبارة غموض وتحريف كثير . (٢) التعوق : التثبط عن الأمور .

(٣) زادت ط بعد هذا : « فقال » ولعله يريد : « فقلت » .

(٤) كذا فى م . وفى ط : « العدى » .

[٤٨٧]

فيهن جائلةَ الوِشاحِ تَنَفّستْ ... فرَهَا النسيمَ أريجُها فتنفّسا
زارت كما زار الخيـــالُ تَسَتُّرا ... وعَطت كما يعطو الغزال تَوَجُّسا
حَذِرتْ من الرُّقَباء[1] حَوْلَ طِرافها ... فأتت تجر على التُّراب السُّندسا
مَلَّت بطاريقَ الرجال وشاقَهَا ... صُعْلوكُ حَيٍّ ليس يُبْقِى مُنفِسا
زَعَمتْ فتاةُ الحيِّ أنِّيَ مُملِقٌ ... أرأيتِ إملاقى لجـدىَ مُرْكِسا
باتتْ تُهَيِّجها وَساوسُ حَلْيِهـــا ... حتّى إذا الصبحُ المنيرُ تنفّسا
بَكَرَتْ تلومُكَ فى النَّدَى كِنْدِيَّةٌ ... صَدَفيّة تُنْمى السَّكُونَ وأَشْرسا
يابنتَ عَمِّيَ هلْ سمعْتِ بماجـدٍ ... يَبْكِين أوتِي الذمَّ أطعمَ أو كَسا
لا تحسبِي أكْلَ المُرارِ عَميدَنا ... عَرَثًا ولكن عِزة وتَغَطْرُسا
أَذَهلْتِ عن عُقْبَى النَّدَى إنَّ النَّدَى ... لَبِردٌ وَحْشِيُّ المُـــنَى مُتأنِّسا
عَقْر المطيةِ للعـذارَى ربُّهـا ... فأبيحَ ثغرًا من عُنَيْزَةَ أَوْمَسا[2]
لم ينس[3] مَيتا بالكُلاب وربما ... قد ضاق ذَرْعا أنْ يَفوهَ فيُلْبِسا
ونسيتِ حُجْرًا يومَ هَيَّج بالعصا ... أسَـدًا ومن هاج الأسود تفرّسا
هبطت كواهلُ مالـكه من كاهل ... أبدا أصابت منـه يوما أنحسا
فلئن أُبيرتْ مالكٌ أو كاهلٌ ... فلقد أبارتْ منـه قرْما أحمسا
قد كان مُلْكٌ فى كنودك والنَّدَى ... فى ظبيـــــة فتفرّدَا وتقيَّسَا
كملوك جَيْشٍ[4] كلما وطئوا الثرى ... وأظن[5] أنْ لهـا الثَّرى والأشمسا
وإطْوَدها السُّلَمِيّ قاضيها الرِّضـا ... كرمٌ وجود يُنْطِقان الأخرسا

(١) فى الأصلين: « الوجناء »، ولعله محرف عما أثبتناه.
(٢) يقال أومس لمن يريده: إذا لان وسهل. وفى ط: « ألمسا». وفى م « أونسا» والروايتان محرفتان عما أثبتناه. (٣) فى ط: « لم يمس ».
(٤) كذا فى ط. وفى م: « قيس ».
(٥) كذا فى م وفى ط بياض موضع: « وأظن ». وفى هذا البيت والذى قبله غموض.

شَهِدَتْ له أصحابُه وعِـداته ... حتى الغمامُ إذا هَمَى وتبجَّسا
قَسَمًا لَأَنْدَى بالندى واعتـاده[(١)] ... فينا فسار مع الركاب وعَرَّسَا
وكسا الورى العدلَ المبين[(٢)] وقبلَه ... سُلِبُوا بجَوْرِ وُلاتِهم تلك الـكُسَا
وأعَدَّ أقدارَ الأمور بحَزْمه[(٣)] ... ورمى به غرضَ الخطوب فقَرْطسا
واتته[(٤)] للبيت الرَّفيع عـادُه ... عَمَدٌ له مجـدا وعزًّا أقعسا
قالوا بنُو نُعْل : نَفِسْتَ مَكارِمًا ... تُعْزَى لحاتِمها، فقلتُ : وما عَسَى ؟
جيئوا بواحـدةٍ لحاتِم طَيِّءٍ ... من هـذه وعَلَيَّ أَلَّا أَنْفَسا
أو سائلونى فى الأنام سوى أبى ... حَفْص فهل تجدون عنـه مَعْدِسا[(٥)]
أو فاحملوا بعض الذى هو حامل ... ليُرَدَّ كم منـه يَلَمْلَمُ قد رسا
الناس أشباهٌ ولـكنْ بينهم ... فى الفضل ما بين الذُّؤابة والنَّسا
أحسِبتمُ كل امرئٍ غَمْرَ النَّدى ... ما كلُّ بيتٍ بالشآم المقدسا
يا خجلةَ القمرِ المنير وقد رأى ... عُمَرًا بأنواع الجـلالة مُلْبَسا
لو يسـتطيعُ لجاء مقتبسا لهـا ... من أُفْقه وإذا لصادف مَقْبِسا
خاب امرؤ يرجو نداهُ غضاضةً ... إلا الـكفورُ فإنه قد ابلسا
طيبتُ أفواهَ الرُّواة بمَدْحِه ... فـكأنَّ عَطَّارًا يُضَمِّخ مُعْرِسَا
وعَلَوتُ قدرَ الناطقين بشـكره ... ولئن تمادَى فى نداهُ لأخْرَسَا
يا واحد العُرْب[(٦)] الذى لو صُوِّرت ... طِرْفًا عتيقًا كان منه القَوْنسا
إنِّى دَعوتُك للأمانى الغُرِّ فى ... ظُلَمِ الزَّمان السَّوْء أحْـكِى يُونُسا

---

(١) فى م : « قسم الأيدى » واعله محرف عما أثبتناه . وليس فى ط من هـذا الشطر غير كلمة « قسما » .
(٢) كذا فى ط . وفى م : « المتين » .
(٣) هذا الشطر فى الأصلين : « وأعد أقران الأمور بحدمة » . ولعله محرف عما أثبتناه .
(٤) فى م « وأنه » ... البيت . ولعله محرف عما أثبتناه . وصدر البيت ساقط فى ط .
(٥) يريد : مذهبا . وفى ط : «هدسا» . وهو تحريف .
(٦) فى م : «الغرب» .

إن يلتقم نُونُ[1] الحوادث مَطلَبى فامدُد له يَقطِينَ جُودك مَلبَسَا
أنت الرَّواء[2] إذا تعذّر مَوْرِدٌ والماء إن كَدُر الرجاء فأيأسا[3]
والعجز أن يُرجَى سِواكَ وإنما أخشَى نَبَاتَ الرَّوضة المتخلِّسا[4]
ولأنتَ أنفسُ عُقْدةٍ مذخورةٍ لِمَ لا أصون عن ابتذالى الأنفُسا

انتهى .

ثناء العلماء على القاضى أبى حفص

قال صاحبُ الإشادة العزَفىُّ المذكور :

القاضى أبو حفص من مَفاخر المغرب ، لم يذكره أحد ممن لَقِيَه[5] وتعرّض لذكره ، إلا أطنب فى الثناء عليه ، ووصفه بالعلم والفضل ، والعدل فى القضاء ، مع براعة النظم والنثر ؛ ويكفى من ذلك ثناء المحدِّث أبى عبد الله محمد ابن عبد الرحمن التُّجيبىّ ، نزيل تِلِمْسَانَ عليه ، وقد ذكره فى شيوخه فقال : ونقلته من خط الشيخ الفقيه الأجلّ ، الكاتب المُجيد ، الحسيب الأديب ، الأرفع الأكمل ، القاضى المُسَدَّد ، الموفَّق الأعدَل ، أبى حفص . ثم قال : لقيته بتلمسان حرسها الله ، قَدِمَها علينا قاضيا ، فشَمل أهل البلد كلهم أجمعين بفضله[6] وأدبه وعدله ، وإجلاله وإكباره وحسن خُلُقه ، لا سيّما مع طائفة الطلَب ، وأهل الأدب والحسب ، فجزاهُ الله عن نفسه وعنهم أفضل الجزاء ، فلا يَعْرِف الفضلَ إلا فاضل ، ولا يُكرِم الناس إلا كريم ، وكلٌّ يميل إلى جنسه ، وما هو من طبعه ، كما قال بعض الأدباء ، وأجاد فى مقالته ، وأحسنَ

---

(١) فى م : « حوت » .
(٢) فى ط بياض فى موضع هذه الكلمة . والرواء : الماء الكثير .
(٣) فى ط بياض فى موضع هذا الشطر .
(٤) فى القاموس : أخلس النبات إذا اختلط رطبه بيابسه . نقول : لعله أراد تشبيه أولاده بنبات جف بعضه وبعضه لا يزال غضا .
(٥) فى م : « لقيته » . (٦) فى م : « فضله » .

القول : « ما عبَّرَ الإنسانُ عن فضله ، عمثل ميله إلى أهله » .

وذلك منظوم فى قول الشاعر :

وما عبَّر الإنسانُ عن فضل نفسه بمثل اعتقاد الفضل فى كل فاضل [٤٨٩]

و إن أخسَّ النَّقص أن يَنفىَ الفتى قَذَى النقص عنه بانتقاص الأفاضل

وامتثل رضى الله عنه قول الآخر: «اصْحَبوا الناس صحبة إن عشتم [معها] (١) حَنّوا عليكم ، و إن مِتُّم بكوا عليكم » . واستعمل ما قاله الشاعر (٢) فى كلمته ، ونظَمه فى قافيتــه :

و إنمـا المرء حديثٌ بعــدَهُ فــكن حديثا حسنا لمن وَعَى

ففَعَل والله ذلك أيام كونه بتلمسان ، واستعمله بطبعه وطبيعته ، وخَلْقه وخليقته ، إلى أن نقله الخليفة إلى قضاء فاس ، فلا تسأل عما أصاب الناس والإخوان من فقده ، وفقد أدبه وعلمه ، فذِكْرُه الطيِّب ، والثناء الجميل، باقيان عليه إلى الآنَ بتلمسان ، وهو مستقرٌّ فى غيرها من الأوطان .

وكان أبو حفص رحمه الله حسن الخَلْق والخُلق ، مليح الخطّ ، فصيح الخطابة والـكتابة ، وكنتُ إذا رأيتُه تمثَّلتُ عند رؤيته والنظر إليه ، بما أنشدَنا شيخنا الحافظ أبو طاهر السِّلَفىُّ الأصْبهانىّ ، رضى الله عنه ، فى مدح هادى بن إسماعيل:

لهادى بن إسماعيلَ خَلّاتٌ أرْبَعٌ بهنَّ غــدا مستوجبا للإمامة

خِطاب ابن عَبَّاد ، وخطّ ابن مقلة وخَلْق ابن يعقوب، وخُلْق ابن مامَة (٣)

---

(١) زيادة تحتاج إليها الجملة الوصفية ، ولعلها سقطت من قلم الناسخ .

(٢) البيت من مقصورة أبى بكر بن دريد . (٣) ابن عباد هو الصاحب إسماعيل ابن عباد وزير آل بويه ، كان من رءوس البلاغة فى عصره . وابن مقلة من أشهر وزراء الدولة العباسية ، ويخطه يضرب المثل فى الحسن . وابن يعقوب : سيدنا يوسف عليه السلام ، وهو مثل فى جمال الصورة ، وكعب بن مامة : أحد أجواد العرب.

وأنشدته رضى الله عنه البيتين ، فاستحْسَنهما وشكر لى ذلك ، وكان لى من برّه وتأنيسه و بشره حظّ جزيل ، وقسْم كبير ، ورغب إلىّ أن أ كتب له بخطى بعض ما عندى من أخبـار الصالحين ، وأئمة المتقين ، وأولياء الله المطيعين ، فـكتبت له من الأحاديث الوعظية العلمية ، والأشعار الحِـكْمية ، ما أمكننى ، فسُرّ بذلك ، وشكر عليه ؛ ولما أتى مدينة فاس ، صار يُرى ذلك أودّاءه وأحبابه ، و يشكر عليه ، ويُثْنى خيرا ، بارك الله تعالى فيه . ثم قدّر الله تعالى بوصولى بعد انفصاله عن مدينة فاس ، وتوليته لقضاء أغمات ، إلى حضرة مَرّاكُش ، حرسها الله تعالى ، وكان بالحضرة المذكورة ، فسمع بذلك ، وكنت نزلت بفُندق من [٤٩٠] فنادقها ، يقال له فُندق السّكر ، فوصل إليه ، واجتمع بى ، فدعوت له وشكرت ، ثم أولانى من برّه وتأنيسه ما عهدتُ قبلُ منه ، وزاد عليه ، ورغب فى الوصول إليه إلى أغمات ، فوصلت إليه بعد ذلك ، فرحّب وسَهّل وأنْزَل ، وأثنى على عند الأصحاب والإخوان خيرا ، وقال ما يصدر عن مثله ، فالعنصر الطيّب لا يَخرج منه إلا طيب ، وكنت معه فى داره فى خِصب وسَعة ، وطَلاقة وجه ، وحسن خُلُق ، وطِيب حديث ، وكريم مُشاهدة ومناشدة ، لنفسه ولغيره .

انتهى ما قصدت جَلْبه من كلام صاحب الإشادة ، المنقول عن التُّجيبيّ نزيل تلمسان ، رحم الله الجميع .

من نظم القاضى أبى حفص

ولنجعل آخر نظم القاضى أبى حفص رحمه الله قولَه :

العلم يكسو الحُلَل الفاخرهْ والعلم يُحيى الأعظُمَ الناخرهْ
كم ذَنْبٍ أصبحَ رأسًا به ومذنبٍ أبْحُرُهُ زاخرَهْ(١)

(١) كذا فى جذوة الاقتباس . وفى ط ، م : « ومذنب أبحره آخره » . وهو تحريف .

ماشَرَفُ النِّسبة إلا التُّقَى أين تهيم الأنفسُ الفاخرهْ
مَن يطلب العزّ بغير التُّقَى ترجعُ عنــه نفسه دَاخِره[(١)]
أَعْرِضْ عن الدنيا تكن سيِّدا بل مَلِكا فيها وفى الآخِره

بيت العزفيين أصحاب سبتة

وبيت العَزَفِيِّين[(٢)]، الذين منهم صاحب الإشادة بسَبتة — أعادَها الله[(٣)] — مشهور ، وكانت لهم الرياسة بهـا مدة ، ثم أعقب الدهرُ جِدَّتها بالبِلَى ، ثم كل شيء فانْ ، ولا يبقى إلا الواحد الذى ليس معه فى ملكه ثان .

أبو القاسم العزفى

وأبو القاسم منهم هو الذى تأمَّرَ ورأسَ سَبتة . وهو أبو القاسم محمد بن القاضى المحدث أبى العباس أحمد بن محمد بن الحسين ، بن الفقيه الإمام علىّ (المعاصر لابن أبى زيد) ، بن محمد بن سُليمان بن محمد ، الشهير بابن أبى عَزَفَة اللَّخمى . ينتهى نسبهم إلى قابُوسَ بن النُّعمان بن المنذِر . وكان قيامه بسَبتة ليلة سبع وعشرين من رمضان ، من عام سبعة وأربعين وست مئة ، فى دولة المرتَضَى الخليفة بمَرّاكُش ، وقَتَل واليَ سَبتة أبا عثمان بن خالد تلك الليلة ، وملك طنجة ، ودخل أَصيلا[(٤)] ، وهدم سورها ، وتُوُفِّىَ بسَبته يوم الخميس الثالثَ عشر من ذى الحجة من عام سبعة وسبعين وست مئة وله سبعون سـنة . وكانت دولته ثلاثين سـنة وشهرين وستة عشر يوما ، من شَهْدَة[(٥)] بين كتفيه ، مرض بها واحدا وعشرين يوما ، وكان مولده بسبتة فى منتصف شوال عام سبعة وست مئة .

(١) كذا فى م . وفى ط وجذوة الاقتباس : « داحرة » .
(٢) ضبطنا لفظ « العزفى » فى الجزء الأول بسكون الزاى ، والصواب فتحها ، فليصحح
(٣) يدعو المؤلف لمدينة سبتة أن تعود إلى يد المسلمين ، لأنها كانت قد سقطت فى يد الأسبان عند تأليفه هذا الكتاب .
(٤) مدينة بالمغرب قربَ طنجة ، ويقال فيها أيضا : أزيلا . وليس بعد الهمزة ألف (انظر تاج العروس فى مادة أصل) .
(٥) الشهدة بلسان المغاربة : دمل كبير ، ولعله ما يسمى الآن فى مصر بجمرة السكر .

بعض تآليف أبى القاسم العزفى

وهو الذى أكمل « الدر المنظَّم ، فى مولد النبى المعظَّم » ، من تأليف أبيه أبى العباس رحمه الله .

ورأيت على نسخة كُتبت فى حياته أولَ الكتاب المذكور ما نصُّه :

قال سالك سَنَن السُّنة ، القائم من أعمال البرّ بما يضيق عنه وُسْع المِنَّة ، المعتصم بحبل الله القوىّ المتين ، المعتمد على لطفه الشامل وفضله العميم المبين ، الشيخ الفقيه الأجلّ ، العلم الأكمل ، أبو القاسم بن الشيخ الفقيه الإمام ، العارف العالم ، علم العلماء العاملين المُتّقنين[1] ، ونُخبة الفُضلاء الصالحين المتّقين ، أبى العباس أحمد بن الشيخ الفقيه القاضى العالم المحدِّث ، أبى عبد الله اللَّخمى ، ثم العَزَفىّ ، من أهل سَبْتة حرسها الله ، وأجزل قَسْمه من عفوه ورضاه ، وأنجح عملَه وقولَه وقصدَه . وجعل فى ذاته وسبيل مرضاته صُدورَه وَوِرْدَه . انتهى .

وفى موضع آخر من هذه النسخة ما نصّه :

السِّفْر الأول من كتاب « الدرّ المنظم ، فى مولد النبى المعظَّم ، صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ، وشرَّفَ وكرَّم » .

لمّا شرع فى تأليفه ، ومات ولم يكمله الشيخُ الفقيه الصالح ، علم العلماء ، ونُخبة الصالحين الفضلاء ، أبو العباس أحمد ، بن الشيخ الإمام الفقيه ، الصالح القاضى ، العالم المحدث ، المقدَّس المرحوم ، أبى عبد الله اللَّخمىّ ، ثم العَزَفىّ السَّبتى ، رحمه الله ، ورضى عنه ، ونضّر وجهه ، وأجزل ثوابه ، أكمله بعدَه ، وأوضح فيه قصده ، ابنه الشيخ الفقيه الأفضل ، العلم الأوحد ، السّنىّ السَّبْتىّ ، المبارك الأكمل ، أبو القاسم ، أدام الله عافيته ووَفَّقَه ، وشرح صدره ، وختم بالكتاب والسنة ديوان عمله الصالح وعمره ، يذكر فيه بعض ما خصّ الله تعالى به نبيّه صلى الله عليه وسـ [٤٩٢]

(١) فى ط : « المسندين » .

وفَضْلَه على كل من تأخر من خلقه أو تقدّم ، وما امتنّ به عليه وعلى أمته ، فى أن جعله أفضل الأنبياء ، وجعلهم أفضل الأمم ، من بين وَلَد آدم ، ليتخذوا مولده الكريم موسما ، يتركون[1] به ما كانوا يقيمونه من أعياد النصارى وعوائدهم ، التى يجب لمغانيها أن تُعَطَّل ، ولمبانيها أن تُهَدَّم . انتهى .

وكان الرئيس أبو القاسم المذكور كتب خطه بالإجازة فى هـذا الكتاب للخطيب أبى على ، بن الخطيب أبى فارس بن غالب الجُمَحِىّ ، مع جماعة من أهل سَبتة وأعيانها ، حين قرءوه عليه بالجامع الأعظم من سَبتة ، فى شهر ربيع الثانى ، من عام سبعة وخمسين وست مئة ، قائلا :

أجزت له بحقّ روايتى لما فيه عن أبى ، ومشاركتى له فى تأليفه ، على حكم الإجازة وشرطها ، وصحة الرواية ، عاشرَ الربيع المذكور . انتهى ، وبعضه بالمعنى .

نسبة العزفيين إلى لخم

ونسْبتهم إلى لَخْم لا مَدفع فيها عند الثِّقات ، وبذلك وصفهم الأكابر ، غير أن ابن الخطيب فى الإحاطة ، نقل عن « الكتاب المؤتمن ، فى أنباء أبناء الزمن » ما نصّه : وتزعم بعض أهل سَبتة أن أصلهم من مجكسة من البربر ، فيقولون : ما للخم ومجكسة ؟ وهذا موكول إلى قائله ، إذ لا نعلم حقيقة الأمر فيه .

نعم ، الإنصاف فى المسألة أن كل من عُرِف بالأصالة فى المغرب الأقصى ، ولم يُعلم لآبائه قدوم من المَشرق ، حيث جرائيم العَرب ، ولا قدوم من الأندلس ، حيث أبناء العَرب ، وانتسب مع ذلك إلى قبيلة[2] ، فلا بد له من الاستظهار على ذلك ، وإلا كان ما أتى به مَظِنّة لأحد أمرين : إما لكون سَلفه من الموالى ، فانتسبوا إلى ساداتهم ، إذ يجوز لمن كان مَوْلَى عَرَبىّ أن ينتسب إلى قبيلة سيّده ؛ وإما للكذب . وهذا أعدل ما يقال . انتهى . [٤٩٣]

(١) فى ط : « يتبركون » . (٢) فى الأصلين : « قبيلة العرب » ، ونظن أن كلمة العرب هنا زيادة من الناسخ ، أو أن الأصل « قبيلة من العرب » .

ونقله فى الإحاطة فى ترجمة الفقيه المشارك فى الطلب والأدب ، أبى إسحاق إبراهيم بن أحمد بن أبى عَزَفَة اللَّخمى[١] . وإلى الله ترجع الأمور .

بعض فضائله وشعره

وكان الرئيس الفقيه أبو القاسم العَزَفىّ المذكور فقيها أصوليا ، نحويا ، لغويا ، محدّثا ، عارفا بالرواية ، شاعرا ، مجيدا .

ومن نظمه فى آل بيت المصطفى صلى الله عليه وسلم :

ذُرِّيّةَ المصطفى إنّى أحبكمُ ... وحبكمْ واجب فى الدين مُفْتَرَضُ

فليس يُبغضكم ، لا كانَ باغضُكم ، ... إلا امرؤ مارق فى قلبه مرض

وحسبكم شرفًا فى الدهر أنكمُ ... خيرُ البريّة هذا ليس يُعترض

ولَسْتُ[٢] أطلب من حبى لكم ثمنا ... إلا الشفاعة فهى السؤل والغرض

أبناه : أبو حاتم، وأبو طالب فى سبتة

ولما توفّى رحمه الله تعالى قام بعده بالأمر ابنه أبو حاتم أحمد ، ثم خُلع وتولى أخوه أبو طالب عبد الله ، فى سنة ثمان وسبعين وست مئة ، وخُلع ليلة الأربعاء السابع والعشرين من شوال سنة خمس وسبع مئة ؛ فكانت دولته سبعًا وعشرين سنة ، وتوفّى بفاس مخلوعا عام ثلاثة عشر وسبع مئة ، وله خمس وسبعون سنة . والذى خلعه الأمير فرّج بن إسماعيل بن يوسف بن الأحمر[٣] ، دخل عليه سبتة عَنوة فى الليلة المذكورة ، وقبض عليه .

يحيى بن أبى طالب

ثم تولاها الأمير يحيى بن الأمير أبى طالب ابن أبى القاسم ، ويكنى أبا عمرو ، وبويع بسبتة عام عشرة وسبع مئة ، وخُلع فى سنة إحدى عشرة وسبع مئة ، وكانت دولته الأولى هذه سنة وستة أشهر . وبويع ثانيا بسبتة فى سنة أربع

(١) بحثنا عن هذه الترجمة فى جزأى الإحاطة المطبوعين بمصر سنه ١٣١٩ فلم نجد بهما ترجمة لأبى إسحاق إبراهيم العزفى .

(٢) فى الأصلين : « وليس » .

(٣) فى ط : « أحمد » وهو تحريف (انظر الاستقصا للسلاوى ص ٥٤ ج ٢) .

عشرة وسبع مئة ، وتُوُفِّى بها فى ظهر يوم السبت السادس لشعبان سنة تسع عشرة وسبع مئة ، وكانت ولادته بهافى رمضان سنةسبع وسبعين وست مئة . وكان فقيها فاضلا ، جميل الوجه ، شجاعا ، بطلا ، عارفا بالأصول ، والفقه ، والمنطق، والعربية ، واللغة ، والحديث ؛ وقيل أنه أول من ركب بالرمح والسيف من بنى العَزَفىّ، [٤٩٤] وجنّد الجنود .

محمد بن يحيى العزفى

ثم ولى بعده ابنه أبو القاسم محمد بن يحيى ، وبويع بعد أبيه فى شعبان ، من عام تسعةَ عشر وسبع مئة . وخُلع فى صفر سنة عشرين وسبع مئة ، فكانت دولته ستة أشهر . وتُوُفِّى بفاس وهو كاتب الحضرة المَرينية ، ليلة السبت حادىَ عشرَ صفر ، عام ثمانية وستين وسبع مئة ، وله ثمان وستون سنة . وولد بسبتة فى شوال ، عام تسعة وتسعين وست مئة . وكان فقيها شاعرا مكثرا ، مليح الفكاهات ، وشّاحا ، وقد بَزّ أهل زمانه فى الموشّحات ؛ وقد حُكِى عنه أنه أراق الدواة فى محفل جليل ، فقال بديهة :

ألا يا كرام الناس غُضّوا جفونكم فإنّى من الفعل القبيح مُريبُ
هَرَقْتُ دَوَاةً وهى كالكاس بينكم وللأرض من كأس الكرام نصيبُ

وكان مُولَعا فى نظمه بالتورية .

وعزم السلطان أبو عنان لما أخذ قُسْنْطِينَةَ على استعماله بها ، فبكى لبعد الشُّقة عن ولده وبلده ، فتركه . وهوآخرالمذكورين من هذا البيت . رحم الله الجميع .

صاحب الإشادة من بنى العزفى

وصاحب الإشادة المتقدم الذكر، هو عم أبى القاسم محمد بن يحيى هذا ، لأن صاحب الإشادة كما أسلفنا ، هو عبدالرحمن بن أبى طالب عبدالله بن محمد بن أحمد ابن محمد بن أحمد ، وهذا محمد بن يحيى بن أبى طالب عبد الله بن محمد بن أحمد .

تعريف الإشادة بابن خبازة الشاعر

وقد عَرّف فى إشادته بابن خَبّازة ، ورأيت أن أذكر بعض ذلك ، فنقول :

هو أبو عمرو ميمون بن على بن عبد الخالق الخطَّابى ، نسبة إلى قبيل من صَنهاجة ، الذى بقطر فاس ، ويعرف بابن خَبَّازة ، نسبة إلى خاله الشاعر المشهور بابن خبّازة . عرّف به أبو عبد الملك المرّاكُشى فقال : كان بارع الخط ، وكان من أكبر أعاجيب الدهر فى سرعة البديهة ، ناظما أو ناثرا ، مع الإجادة التى لا تجارى ، والتفنن فى أساليب الكلام (١) مُعْرَبه وهزله (١) ، على اختلاف اللغات . تَطَوَّر (٢) كثيرا وتصوف ، ونَسَك ووعظ ، وكان فى آخر عمره جانحا إلى امتداح ملوك عصره ، فكان يأتى فى ذلك بما لم يُسمع بمثله ، ولا يُطمع فى لحاقه ، بسرعة ارتجال ، وحسن افتنان ، وسُرعة امتثال ، وله فى ذلك (٣) أخبار عربية عربقة . [٤٩٠] وولى بأُخَرة حِسْبة (٤) الطَّعام بمراكُش .

وذكره أبو عبد الله بن الأبّار (٥) فى التُّحْفة ، فيمن لم يجد له غير الهجاء ، وظلمه ، كما أثبت أبو بكر بن رفاعة الشَّريشى ، وقد شهد فيه فى كتاب التكملة له ، بما يخالف ذلك ، وكناه أبا سعيد ، وذكر أنه لقيه بإشبيلية ، وسمع منه بعض كلامه فى غير ذلك بمالَقه ، وتُوُفِّى برباط الفتح ، فى أول سنة سبع وثلاثين وست مئة .

بعض أشعار ابن خبازة

وأنشد له من قصيدة :

وَجَــد النُّبوّة حُلّةً مَطْويّة لا يستطيع الخَلْقُ نَسْج مِثالها
فأَمَرَّ حَشْوًا فى ارتفاع يَبْتغى بمحاله نسْجا على منوالها

وذكر أنه قالها بمراكُش . انتهى .

(١ — ١) كذا فى ط . وفى م : « معربة وهزلية » ، وفى جذوة الاقتباس والنبوغ المغربى : « هزله وحده » . (٢) فى الأصلين « تطورا » .
(٣) فى ط : « أمثاله فى ذلك » . وفى م : « أمثال فى ذلك » ولعله محرف عما أثبتناه ، يريد أنه سريع تصور المعانى
(٤) كذا فى جذوة الاقتباس والنبوغ . وفى م : « مشيخة » ، وفى ط بياض فى هذا الموضع . (٥) كذا فى م ، وفى ط « أبى » ثم بياض بعدها يسع كلمتين .

قال صاحب الإشادة : قال هذه القصيدة[1] فى المأمون بن المنصور ، حين تبرأ من إمامهم المهدىّ ، وأبدى مساويَه[1] ، وأسقط اسمه من الخُطبة ، وهو المعنىّ بقوله : « وَجَدَ النُّبوَّة حُلة مطوية » .

وقد كَتَبَ عن أبى عَمْرو هذا كثيرا من شعره أبو عمرو بن سالم بن صالح النهروانى المالَقى ، الأديب المقيِّد الضابط ، وتاريخ إجازته إياه سنة أربع وست مئة . ومات ابن سالم قبله بست عشرة سنة .

قصيدته فى رثاء ابن الجد

ومن شعره ، أى أبى عَمْرٍو المذكور ، يرثى أبا محمد عبد الله بن أحمد بن محمد ابن عبد الملك ، بن الحافظ أبى بكر بن الجدّ ، ويُعزّى أباه عنه ، وهو يومئذ وزير إشْبِيلِيَة وعظيمها ، وكانت حينئذ حاضرة الأندلس :

أرجّةُ الصَّعْق يوم النفخ فى الصُّور ... أم دَكَّةُ الطَّوْد يوم الصَّعْق فى الطُّور

أم هُدّتِ الأرض إظهارًا لما زَجرت ... به الخليقة من إيقاع محذور

أم الكواكبُ فى آفاقها انتثرتْ ... وباتت الشمس فى طيّ وتكوير

ما للنهار تعرّى من ثياب سَنىً ... وأشْبَهَ الليلَ فى أثواب دَيجور [٤٩٦]

قد كان للصُّبْح طَرف زانه بَلَق ... فقسم الخلق بين الدَّجْن والنور

فما المُلِمُّ الذى غَشَّى بدُهمته ... أديمَه عَنبرًا من بعد كافور

أصِخْ لتسمعَ من أنبائها نبأً ... يَطوِى من الأُنس فيها كل منشور

وانظر فإن بنى عَدْنان ما حُشِرُوا ... إلا لِرُزْء عظيم القدر مشهور

وأَنَّى مع العيد لا عادَتْ مَضاضته ... فَشاب سَلْسالَه الأصفى بتكدير

واعتام دارًا لها فى السبق جمهرة ... من المفاخر أزرتْ بالجماهير

(١ — ١) تكرر ذكر هذه العبارة فى ط هنا وقبل البيتين مباشرة ، فأثبتنا العبارة مرة واحدة كما فى م .

رمى قُريشًا فأصمى سهمُ حادثةٍ ... أبنـــاء فِهْرٍ بتفريق المقادير
فخانها الحدّ فى ابن الجَدِّ حين قضى ... وأثّر الخطب فيهـــا أىَّ تأثير
لله والمجد ما أبقاه من أثَرٍ ... أُخرى الليالى بطيب الذكر مأثور
نُوَّارَةٌ عندما راقتْ بدوحتها ... أهوت إلى الترب من بين النَّواوير
جار الدولُ عليها بعدما مَلَأَتْ ... مَعاطِس الدّهر من طيب وتعطير
وسيـ ـُ بأس لـكسر الخطب أغمدَه ... صَرفُ الحوادث فيها بعد تـكسير
قضى فوافقَ شهرَ الصوم مرتحلا ... ووافق الشهرَ فى فصـل وتطهير
واختاره خاطب الخطب الملمّ به ... للصّهر كُفْئًا فأمضى العَقد للحور
فسار للحَين مسرورًا وخلّفنـا ... للحُزْن فاعجبْ لمحزون بمسرور
نادته أجشة الأحزانُ يوم حدا ... أظعانَ قلبىَ رفقًا بالقوارير
فالوجْد والدمع من حُزْن قد اقتسما ... قلبى وَجَفْنى بمنظوم ومنثـور
فالقلب بالغيظ فى تصعيد مستعر ... والجفن بالغيض فى تصويب ممطور
وسائق الخطب بشدو الحاملين به ... يسوقهم سـوق حادى العِير للعِير
والملائك فى آفاقهـا زَجَل ... قد شـيّعته بتهليل وتـكبير
أثنى المصاب على شيخ الجزيرة فى ... عَقْد وحَلّ وتقديم وتأخـير

وهى طويلة جدا ، ومنها :

مُقدّمات الليالى طالما فصحتْ ... نتائجُ الغدر منهـا كلّ مغرور
جمعُ السّلامة معدوم الوجود بها ... وكم بها للرّدَى من جمع تـكسير
وعامل الموت قد أحصى مهندسُه ... منازل العمر عدًّا دونـ تـكسير[1]
والأرض طِرْس وهذا الخَلْق أحرفه ... والحرف ما بين ممحوّ ومبتور

(١) لم نجد هذا البيت فى جذوة الاقتباس ، مع أنه روى القصيدة كاملة .

[٤٩٧]

والدهرُ يُعرِب بالأفعال يُظهرها طَورا ويُعْجِم منها كل مسطور
وإنما الخلق أسماءٌ تعاوَرَها إعرابُه بين مرفوع ومجرور
وكلهم فى مَدَى الأعمار تحسِبهم كحالها بين ممدود ومقصور
والموت مثلُ عَروضيٍّ يقطِّع من أبياتهم كلٌّ موزون ومكسور
يا من يؤمل أن يبقى وقد[1] نُقِضتْ أيدى المقادير من إبرام تقدير
هذى الحقيقةُ لا ما حَدَّثتْكَ به آمالُ نفسك عن دنياك من زور
لا تَخْدَعَنْكَ الليالى إن فتنتَها كادتْ فكادتْ ترينا كل محذور
كم بادرتْ[2] بعُبوس الخطب من مَلِكٍ قد[3] بات بالبشر وَضَّاح الأسارير
سائلْ بكسرى مليكِ الفُرس هل تركتْ له المنايا جَناحا غير مكسور
وانزل بصنعاء فى قصر ابن ذى يَزَنٍ تُلْمِمْ بقصر على الأغيار مقصور
واعبُر على حيرة النُّعمان معتبرا تمرُرْ بأطلال نُعْمَى ذات تغيير
وأين من كان سَجْنِ الجن فى يده والإنسُ والجن فى قهر وتسخير
وأينَ مخترقُ الدنيا بعزمته يَطْوِى البلاد بها طىَّ الطوامير
بادُوا فليس بها بادٍ يُحَسُّ به منهمْ وأفناهمْ ريب الدهارير
هو القضاء أبا بكر أُصِبْتَ به فاصبرْ وسلِّم له تسليم مأجور
والله يحرُس دنياكمْ ويدفع عن سامِى معاليك أنواع المحاذير

ولهفى قبة ليحيى بن الناصر الموحدى

وحُكِى أن المعتصم يحيى بن الناصر بن المنصور الموحِّدىّ ، ضرب بظاهر مرَّاكُش قُبَّة حمراء ، فبادر إليها العرب والنصارى من عسكر عمه المأمون ؛ فقطَّعوا أطنابها ، فسقطت ، فقال فى ذلك أبو عَمْرو هذا من قصيدة :

(١) كذا فى م وجذوة الاقتباس . وفى ط : « وكم » .
(٢) فى ط : « باكرت » . (٣) فى ط : « كم » .

أُنظر إلى القبّــة الحمراء ساقطةً لما رأت مُضَرَ الحمراء عن كَثَبِ
من كان أولَى بها إن كنتَ ذا بصر العُجْم أو مَعْدِنِ العَلْيا من العرب
وإنما سجدتْ لما سَمَتْ وغدتْ فوق الضَّلال وكانت أعجب العَجَبِ

ومن رائق نظم أبى عَمْرٍو قوله :

وله فى الحنين إلى أحبابه

هبّ النسيم ضُحًى ففاح المَنْـدَلُ وتأرّجتْ منـــه الصَّبا والشمألُ
أسْرَى عليلا[1] فاستحثَّ إلى الصَّبا صَبًّا بأنفاس الصَّـــبا يتعلَّل
يَهْوَى العُذَيب[2] وساكنيه ومن له لو كان يدنو منـــه ذاك المنزل
ما شـامَ برقا بالغَضا إلَّا انبرى شوقا على جمر الغَضى يتململ
والبرق فى نَقْعِ السحائب سيفُه سيف الكَمِيِّ إذا يَكُرُّ ويحمل
فكأن ذاك البرقَ واشٍ قد مشى بنميمة والرعـــدَ لاحٍ يَعْذُل
وأنا الفداء لجيرةٍ نزلوا الحِمَى وحِمَى القلوبِ هو الحِمَى والمنزل

[٤٩٨]

وتحمّلوا يوم الفِــــراق وإنما بقلوبنـا يوم الفراق تحمّلوا
قَبَسُوا ومن قلب المعذَّب مَوْقِدٌ وَرَدُوا ومن جفن المعنَّى مَنْهَل
ما ضرَّهم إذ أعرضوا لو عرَّضوا للوصل أو ذكروا العهود فأقبلوا
حَملوا الجمال على الجمال كأنما أفلاكها منهـا الأهلة تَكْمُل
أبدتْ لنا حَلْيَ الطُّلَى وتبسمتْ زَهْرًا فراق مُقَــلَّد ومُقبَّل
ومن العجائب أن أهيمَ بجنَّةٍ حَلَّتْ بقلبى وهو نارٌ تُشْعَل
ويُهان مُرْسَـلُ ناظرى فى حبها ومن التناصف أن يَعِزَّ المرسَل

وله فى مدح النبى

ومن شعره رحمه الله تعالى هــذه القصيدة الفريدة ، التى مدح بها المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وأشار إلى جملة من مناقبه الربانية ، ومآثره العرفانية ، وآياته

(١) فى جذوة الاقتباس : « أبرا عليلا » . (٢) مكان نزه .

الباهرة ، ومعجزاته الظاهرة ، صلى الله عليه وسلّم ، وشرّف وكرّم ، ومجّد وعظّم ، وبارك وأنعم ، وتحنّن وترحّم ، وهى قوله :

حقيقٌ علينا أن نجيب المعاليا (١)نُفنّى فى مدح(١) الحبيب المعانيا
ونجمعَ أشتاتَ الأعاريض حِسْبةً ونحشُدَ فى ذات الإله القوافيا
ونقتادَ للأشعار كل كتيبة لنصر الهُدَى والدِّين تُرْدِى الأعاديا
فألسُن أرباب البيان صوارم مَضاربُها تُنسى السيوفَ المواضيا
لِنُطْلِعَ من أمداح أحمد أنجمًا تلوحُ فتجلو من سناهُ الدياجيا
كواكب إيمان تُنير فيهتدى بأضوائها من باتَ للحقّ(٢) ساريا
سَهَوْتُ بمدح الخلق دهرى فهذه سُجودى لجبرى كلَّ ما قلت ساهيا
فلا مــدْحَ إلا لِلّذى بمديحه تُطيع إذا ما كنتَ بالمدح عاصيا
رسول براه الله من صفْو نوره وألبسه بُرْدًا من النُّور ضافيا
وما زال ذاك النور من عهد آدم يُنيرُ به اللهُ العصور الخواليا
ثَوَى فى ظهور الطيِّبين يصونه وديعةَ سرّ صــار بالبعث فاشيا
وخَصّ بطون الطيِّبات بحمله ليحملنَ فَرْعا بالسيادة زاكيا
به وَزَنَ الله الخلائقَ كلَّهم فألفاه فيهم راجحَ الوزن وافيا [٤٩٩]
وأنقــــذَنا من ناره بظهوره ولولاه كان الكلُّ بالشِّرْك صاليا
وآدمُ لمّا خاف يُجْزَى بذنبه توسّـــــل بالمختار لله داعيا
فتاب عليــه الله لمــا دعا به وأدناه منه بعد ما كان نائيا
وقد يُهْجَر المحبوب فى حالة الرِّضا ويَأبى الهوى ألّا يُصدِّق واشــيا

(١ — ١) كذا فى جذوة الاقتباس . وفى ط : « لفنى فى حق » وفى م : « لنقضى من حق » . (٢) كذا فى الأصلين . وفى جذوة الاقتباس : « بالجد » .

«وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... ولكنّ عين السُّخْط تبدى المساويا»[١]

وأدرك نوحا فى السفينة رَعْيُهُ ... تخلّصه إذ كان فى الموج داعيا[٢]

وما زال سامٌ وهو ثاوٍ بظهره ... على أخويه بالفضائل ساميا

فخُصِّصَ حتى بالمكان كرامةً ... وأُسكِن فى أعلَى البلاد مَراقيا

وأُنزِل حامٌ بالجَنوب مجانبا[٣] ... ويافثُ فى أقصى الشِّمال مُوازيا

وأُنْزِل سامٌ للفضيلة[٤] وَحْدَه ... بأوسط معمور البلاد الأعاليا

وبادَرَ جبريلُ الخليلَ لأجله ... ليحميَه إذ أبصر الجَمْرَ حاميا

وَيَخْبُرَ فى وقت البلاء يقينَه ... فصادف وِرْدَ الخُلّة العَذْبَ صافيا

فقال له : هَلْ تَشْأَنَّى كِفايةً ... فجاوبه حسْبى بِرَبّىَ كافيا

فكانت عليه النارُ بَرْدًا كما أتى ... به وسلاما وهى نارٌ كما هيا

وجازاه فى الإسراء عنها نبيُّنا ... وأُمَّهَا فوق السموات ساريا

فلما انتهى جبريلُ عند مَقامه ... بحيث تلقى الأمرَ ألَّا تماديا[٥]

أشار على المختار أنْ سِرْ فإنه ... مَقامِىَ لا أعدُوه ما دمتُ باقيا

فناداه يا جبريلُ : هل لك حاجةٌ ... إلى الله فاسألها[٦] لتُعطَى الأمانيا

فقال له : سله لأبْسط رغبة ... على النار منِّى للعُصاة جناحيا

فدَلَّى فى أفق الهامِهِ رَفرف ... وزُجَّ بُراقُ العِزِّ فى النور راقيا

ومن أجله خَصّ الذبيحَ فداؤه ... وفى ظَهره المختارُ أصبح ثاويا

فَداه بذِبحٍ عظّم الله شأنه ... لأن كان دهرا فى الفراديس راعيا

---

(١) هذا البيت من مقطوعة لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ، رواها المبرد فى الجزء الأول من الكامل . (٢) فى جذوة الاقتباس : « جاريا » .

(٣) فى ط : « مجافيا » . (٤) كذا فى الجذوة ، وفى الأصلين : « ذو الفضيلة » .

(٥) فى جذوة الاقتباس : « بحيث يرى نورا وحجبا عواليا » .

(٦) كذا فى جذوة الاقتباس : وفى الأصلين : « تسألها » .

وثنّى بعبد الله حاملِ فضله ... فكان بذاك الفرع للأصل راقيا(١)
لذلك ما قال الرسول منبّها : ... أنا ابن ذَبيحيها يَعُدُّ المعاليا
وعفّ أبوه إذ دعتْــه لنفسها ... فتاةٌ رأتْ نور النبوة غاديا(٢)
مضى ولذاك النور بين جبينه ... شُعاعُ سنًى يُغْشِي العيونَ الرّوانيا
فأعرض عنها ثم سار لشأنه ... وكان له الرحمنُ بالحفظ واقيا [٥٠٠]
وعاد وقــد أدّى أمانة ربه ... لأمّته وعْــدا من الله ماضيا
ومرّ على حيّ الفتاة فنوديت ... هلمّي تصادفْ لذعةُ الحبّ راقيا
فقالت لهم قد كان ذلك مرة ... لأمرٍ عَصَيْنا فى هواهُ النواهيا
أردت بأن أُعْطَى سَناه وقد قضى ... لغيرى(٣) به من كان بالحق قاضيا
وكم طالبٍ ما لا يُنال وقاعدٍ ... سعادته تُبْدِى له السؤلَ دانيا
وكم شاهدتْ من آيةٍ أمّهُ به ... يصير بها جيدُ الديانة حاليا
رأت فى معاليه مرائىَ جمّة ... فصدقتِ الآثارُ منه المرائيا
وقيل لها بشراكِ فزتِ بخير مَن ... يُرَى فوق أكناف البسيطة ماشيا
وحفّت به الأملاك فى حين وضعه ... بليلة إفضالٍ تزين اللياليا
وبشّر رضوانُ الجنانَ بخلقه ... ففتّح(٤) جنــاتِ النعيم الثمانيا
ونادى منادى العز طوفوا بأحمدٍ ... جهاتِ الدُّنا طرًّا وعُمّوا النواحيا
بدا واضعا كفّيه بالأرض رافعا ... بعينيه نحو الأُفْق بالطَّرف ساميا
وأعْوِل إبليسُ اللعينُ وقال قد ... يئست وقدْمًا كنت للكفر راجيا
وصار إلى صنعاء شيبةُ جدّه ... فحلّ محلا للوفادة قاضيا

(١) كذا فى الجذوة . وفى ط : « وافيا » . وفى م : « بافيا » .
(٢) كذا فى الجذوة ، وفى الأصلين : «عاديا» .
(٣) فى جذوة الاقتباس : « لعمرى » . (٤) فى ط : « يفتح » .

وحَيَّا بغُمدانَ ابنَ ذى يَزَنٍ بها — وهنَّأه بالملك إذ عاد واليا
فقرَّبهُ دونَ الوفود وخَصَّهُ — ليسمع قولا فى الرسالة شافيا
وقال له إنا وجـدْنا بكُتْبِنا — نبيا يُرَى من نحو أرضك آتيا
يموت أبوه ثم تَهْلِكُ أمُّـه — ويكفُلُه بعضُ العُمومة حانيا
وقال له والبيتِ ذى الحُجْب زارهُ — وُفود الوَرَى جابُوا إليه الفيافيا
لأنت على ما يَقْتضِى الوَعدُ جدُّه — فَشَيِّدْ به المجد ما كنت بانيا
وقال له احفظ ما أقول فإنه — سيملك أرضى إذ رأى الملك واهيا
وقول هِرقْلٍ إذ أظلَّ زمانُه — فقال أرى مُلْكَ الختان مُدانيا
وطالعَ فيه مُصْحفَ الأفق ناظرا — كما زعموه يستشير الدَّراريا
فلم تَنْقَضِ الأيام حتى أتى له[1] — كتابُ رسول الله للحقّ داعيا
فباحث عنه أهل مكةَ سائلا — وكان بأوصاف النبيّين داريا
ولبَّى الهُدَى لما دعاه جمالُه — وهام قليلا ثم أُلْقِيَ ساليا
وورْد الرِّضا لا يُهْتدَى لسبيله — فَيُرْوَى به مَن كان فى الله صاديا
وإيوان كسرى ارتَجَّ ليلةَ وضعه — وبات عليه قصرُهُ متداعيا
وزاد برؤيا الموبَذان ارتياعُه — فأذهله أن يستبين المساعيا
وفسَّرها شِقٌّ وشَقَّ غُبارَهُ — سَطِيحٌ بسجع قَصَّ[2] ما كان رائيا
فنصًّا على إرسال أحمد مُثْبِتًا — لدين الهدى بالرَّغم للكفر ماحيا
وأُخْمِدت النيرانُ نيرانُ فارسٍ — وكانت تَلَظَّى ألفَ عامٍ تواليا
وحُمِّل ذاك الحِلْمَ حِجْرَ حليمةٍ — لتُرضعَه دَرَّ الفضائل صافيا

[٥٠١]

(١) كذا فى جذوة الاقتباس، وفى الأصلين: «حتى أهبه».
(٢) كذا فى جذوة الاقتباس. وفى م «قبه». والكلمة ساقطة فى ط.

أَبَى حملَهُ النسوانُ لليُتْمِ وانبرتْ ... له فرأتْ من حِينها الرزق ناميا

فَحازت به السبقَ الأتانُ كرامةً ... وأخْصبَ مرعاها فساق المراعيا

وشارفُها إذ لا تَبِضُّ بقطرةٍ ... فصارت به ثَجًّا تُرَوِّى الصواديا

وفى حيها وافاه جبريل قاصدا ... وأقبل ميكائيل بالأمر تاليا

فشقًّا به صدرَ النبى لشرحه ... فكان لما يُلْقِى له الله واعيا

وردَّاه فى الحين التئاما فما تَرَى ... سوى أثرٍ ما زال للشرح باقيا

وجاءا بمنديل وطَسْت ليغسلا ... بماء الرضا قلبًا عن الله راضيا

وعاد أخوه جازعا مخبرًا بما ... جرَى من مَخُوفٍ كان للأمر جاريا[1]

فسارتْ به من حينه نحو أمّه ... تخاف عليه إنْ أقام العواديا

وما زال محروسًا أمينًا مؤَمَّنا ... سَبوقا صَدوقًا سامِىَ القدر عاليا

حبيبًا[2] وفيًّا خاشعًا متواضعًا ... كريمًا حليما يستفِزّ الرواسيا

وفى سَيره للشام شام بقربه ... بُرُوق الهُدَى من لم يكن قَطُّ رائيا

أكبَّ عليه فى طريق مَسيره ... إليها بَحيرا للهُدى متراميا

ولما رأى تلك العلامَةَ لم يزل ... لما وافق الكُتْب القديمة باكيا

وكانت به من غُلَّة الشوق علّة ... فساق له اللهُ الطبيبَ المُداويا

وقصّته فى ذى المَجاز وعمُّه ... به ظامئٌ قد صيَّر الصبر فانيا

فأهْوَى ولاماء إلى الأرض راكضا ... ففجَّر يَنْبوعًا من الماء جاريا

وكم بان من يُسْرِ المَيْسَرة به ... يَرُدُّ أخا سُكْرِ الغَوايةِ صاحيا

فكان إذا اشتدّ الهجير أظلّه ... غَمام عليه لا يزال مماشيا

---

(١) كذا فى ط وجذوة الاقتباس . وفى م : « راجيا » .

(٢) كذا فى ط وجذوة الاقتباس . وفى م : « حييا » .

[٥٠٢] وأخبره نَسْطُور بُصْرَى ببعثِه فأظهر من غيب الرسالة خافيا
وبُغّضت الأصنام للمصطفى فلم يزلْ هاجرًا فعلَ الضلالة قاليا
وكان يرى ضَوءًا يلوح لعينه ويسمعُ تسليما عليه مُحاذيا[١]
ويأتى حراء للتعبد[٢] قاصدًا محبًّا لأسباب الوصال مراعيا
ويخرج من بين البيوت لعلَّه يحدّث عنه النفسَ فى السر خاليا[٣]
وكان رآه[٤] اللهُ أكرمَ خَلْقِه فأرسله بالحقّ للخلق هاديا
وأسرَى به ليلا إلى حضرة العُلا فما زال فيها للحبيب مناجيا
وسار على ظهر البُراق كرامة له راكبًا إذ سار جبريل ماشيا
ولما أتاه الوحىُ وارتاع قلبه لشدّة ما قد كان منه مُلاقيا
فسارتْ به عمدًا خديجة زوجُه لتسأل حَبْرًا بالزّمانة فانيا
وكان امرأً قد مارس الكُتْبَ قارئًا وبات لضيفان المعارف قاريا
فبشّره أن سوف يَطلعُ صُبْحُه فيكشفُ من ليل الغَواية داجيا
وقال له يا ليتنى كنتُ حاضرا بها جَذَعا أُوليك نفسى وماليا
ووقْتَك إن يدرك زمانىَ يومُه ومَن لى به أنصرْك نصرًا مُواليا
وآيتُه فى الغار إذ نزلا به وكان له الصّدِّيق بالصدق ثانيا
وقد أرسل الله الحَمام لبابه وقارنَه بالعنكبوت مضاهيا
فباض على الفَوْر الحمامُ وَشَيَّدتْ من النسج أيدى العنكبوت مبانيا
فدافع عن صدّيقه ورسوله بأضعف أسباب الوجود مقاويا
وكم آيةٍ خَصّتْ سُراقةَ إذ مشى على أثَرِ المختار للغار قافيا

(١) فى ط : « محازيا » . (٢) فى م : « للتحنث » .
(٣) هذا البيت مأخوذ من قول مجنون ليلى :
وأخرج من بين البيوت لعلنى أحدث عنه النفس فى السر خاليا
(٤) كذا فى م وجذوة الاقتباس . وفى ط : « براه » .

فشاهد آثارًا من الخَسْف كاد أن يكون لقارون السَّفاه مُؤاخيا
ولما دعا بالهاشمىّ أجاره فأبصره فى الحين من ذاك ناجيا
وأصحبه منه ظهيرًا مُكرَّما بخط أبى بكر يُخيف الدواهيا
وأخبره أن سوف يفتح أمرُه مدائنَ كسرى والبلادَ الأقاصيا
وَيُجْعَلُ فى كفيه من بعد فتحها سِواراه ممَّا يُحْرِز الدِّينُ ساميا
فأنجزها الفاروق فى حين فتحها له عِدَةً بالصدق فيها مُباهيا
وآيته فى خَيمتى[1] أم معبد وفى الشاة إذ لم تَبْقَ تصحَب راعيا
وَفى الذئب إذْ أَوْمَى وأخبَر مفصحا عن المُصطفَى والذئب ما زال عاويا
وفى الضبِّ لمَّا أن دعاه أجابهُ وقال له لَبَّيك لَبَّيك داعيا[2]
وآيته إذ فارق الجِذْعَ فضلُه فحنَّ إليه الجذعُ فى الحال شاكيا [٥٠٣]
وإن انشقاق البدر أعظم آيةٍ تردُّ على من كان للدين زاريا
وفى الجَمَل الآتى بحضرة صحبه ليشكوَ تكليفَ المشقة راغيا
وقِصَّتُه فى المَحْل لمَّا دعا لهم فأبصرتَ سُحْبًا كالجبال هواميا
وسال به وادى قناةٍ[3] لأجله ثلاثين يوما لم يزل متواليا
وفى قصة الزَّوراء[4] للخلق آيةٌ وذِكرى لعبدٍ كان للذِّكر ناسيا
دعا بإناء ليس يَنْقَع ماؤُه لقلته بالرِّىِّ من كان صاديا
ففاض نَميرُ الماء بين بَنانه وكان وَضوءا للكتيبة كافيا
وَرَكوته يوم الحُدَيْبِيَةِ الَّتى أفاضَ بها اللهُ البَنانَ سَواقيا[5]

(١) فى م : «جبهتى» . (٢) هذا البيت والذى قبله ساقطان فى ط .
(٣) وادى قناة : من أودية المدينة . وفى حديث أنس بن مالك (أن النبى صلى الله عليه وسلم لما استسقى سال وادى قناة شهرا ، ولم يأت أحد من ناحيته إلا حدث بالجود) .
(٤) الزوراء : موضع بالمدينة قرب المسجد ، استسقى النبى عنده .
(٥) فى جذوة الاقتباس : «سواقيا» .

وإشباعُه الجمَّ الغفيرَ بقَبضة ... من التمر حتى شاهدوا التمر باقيا
وإخبارُه بالشيء من قَبل كونه ... فيأتى على النصّ الذى قال حاكيا
فأخبر ذا النورين أنْ ستُصيبُه ... على الأمر بلْوَى تُعْقِب الأجْر وافيا
وأخبر عمّارًا بأن حياته ... سيقطعها بالقتل من كان باغيا
وقال لذى السِّبطين أشقَى الورى الذى ... سَيَخْضِبها من هامة الرأس عاصيا
يُصادِف[1] نَوْرالشَّيْب أبيض ناصعا ... فيسقيه صَوْبَ الحَتْف أحمرَ قانيا
ونصَّ على السِّبْط الشهيد بكَرْبَلا ... فقام له الدينُ الحنيفىّ ناعيا
وفى الحسَن الزاكى أبانَ بأنه ... سَيُصْلِح بين الناس للأجر ناويا
وقال لقوم إنَّ آخرَكُمْ بها ... مماتا سيَصْلى جاحِمَ الجمر حاميا
وقال إذا ما مات كسرَى فما ترى ... سميّا له أُخرى الليالى مُساميا
وأخبر عن موت النجاشىّ حِينَه ... وبينهما بحر من الموج طاميا
وقال على قُرب الحِمام لبنتِه ... تموتين بعدى فافرحى بلقائيا
وآياته جلّتْ عن العد كثرة ... فما تبلغُ الأقوال منها تناهيا
وأعظمها الوحى الذى خصّه به ... فبلّغ عنه آمرًا فيه ناهيا
تحدّى به أهلَ البيان بأسرهم ... فكلُّهمُ ألفاه بالعجز وانيا
وجاء به وحْيًا صريحًا يَزيده ... مرور الليالى جِدَّة وتعاليا
تضمَّن أحكام الوجود بأسرها ... وحكمَ القضاء[2] مثبِتًا فيه نافيا
[٥٠٤] وأخبر عما كان أو هو كائن ... يُرَى ماضيا أو ما يُرَى بعدُ آتيا
ووافق أخبار النبيِّين كلِّهم ... وتَمّم بالغايات منها المَبادِيا

(١) كذا فى جذوة الاقتباس . وفى الأصلين : « نصادف » .
(٢) فى جذوة الاقتباس : « وعم القضايا » .

وما كتبتْ يُمنـاه قَطُّ صحيفةً ولا رىء يومًا للصحائف تاليا
عليه سـلامُ الله لا زال رائحا عليـه مَدَى الأيام منّا وغاديا

* * *

ختم الجزء الثانى

ولتكن هذه القصيدة الفريدة النبوية ، آخر ما أوردناه فى روضة الورد ، فقد طال الـكلام واتسع وكثر السَّرْد ، على أنَّ ما تركناه أكثر مما جلبناه ، [وقد انثالت علينا أشغال شاغلة من خطوب الدهر ، والله يبلغنا من رضوانه ما طلبناه] .

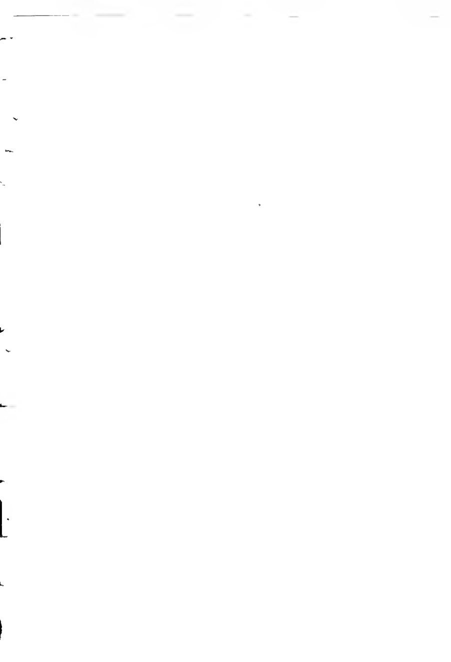
ونسأل الله تعالى حسن الختام ، وأن يدفع عن قلوبنا القَتام ، بجاه سيدنا ومولانا محمد المصطفى خير الأنام ، صلى الله عليه وسلم ، الذى جعلْنا مديحه مِسك الختام .

انتهى الجزء الثانى من كتاب أزهار الرياض ، فى أخبار عياض
ويتلوه الجزء الثالث وأوله :

روضة الأقحوان

فى ذكر حاله فى المنشأ والعنفوان

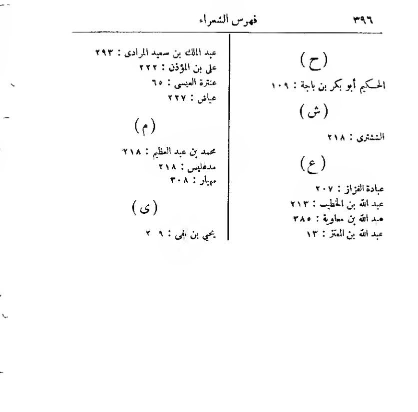
أبواب الفهرس



فهرس الشعراء

(ا)

(ب)



فهرس الاعلام

(ا)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

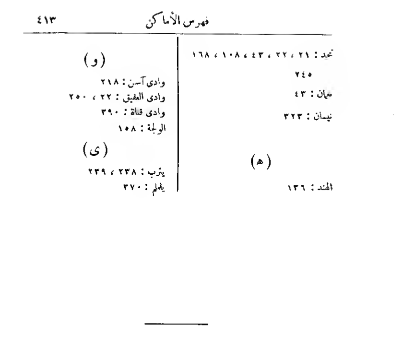
فهرس القبائل

فهرس الأماكن

(ك)

(م)

(ن)



(هـ)

(و)

(ى)

فهرس الكتب

(ا)

(ب)

(ت)

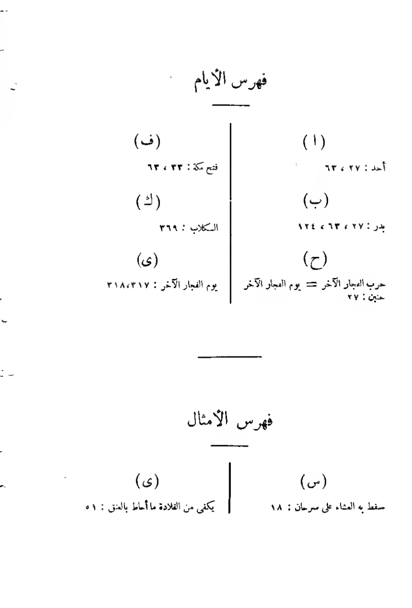
(ج)

(د)

(ذ)

(س)

(ش)



فهرس الأيام

فهرس الأمثال

فهرس القوافى

(ء)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

فهرس الموشحات والأزجال

فهرس أنصاف الأبيات

(ا)

(ع)

فهرس الموضوعات

تصويب أخطاء مطبعية

س	ص	خطأ	صواب
٣	٧٠	فى الجوّ	فى الجوِّ
٦	١٠٧	واسحبَ	واسحبْ
٢٢	١٠٨	ورمة	ورامة
٩	١٢٥	واللهَ	واللهِ
١٥	١٣٨	قصيٍّ	قصيٌّ
١٧	١٦٠	تَرَجِّى	تُرَجِّى
٨	١٦٦	القَصْبَهْ	القَصَبَهْ
١٩	١٦٧	ذا مَا طَوَى	إذا مَا طَوَى
١٣	١٦٨	أ كِنِّي	أ كْنِي
٧	١٨١	والشِّيب	والشَّيب
٨	١٩١	ما الزُّهُرْ	ما الزَّهْرُ
٣	١٩٢	الثفر	الثغر
٥	١٩٢	مُذَهَّبَا	مُذْهَبَا
٧	٢٠٥	نَوِمْ	نَوْمٌ
١٤	٢١٣	يمرّ	يمرّ
١٤	٣٣١	الجِدَ	الجُدُ
٤	٣٤٩	محمد ابن	محمد بن
١٠	٣٦٥	غَفْجوم	غفَجوم